

الحمد لله في الإسلام

حتى العصر العثماني



الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

شَاكِرُ مَصْطَفَى

الجزء الأول



المدن في الإسلام حتى العصر العثماني

شكر مصطفى

المُدَّة في الإسلام

حتى العصر العثماني

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٩٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

(الحجر - ٦٧)

بَيْن يَدَيِ الْكِتَابِ

كنت أعرف، منذ رسمت الحرف الأول لهذا الكتاب على الورق، أن الكتابة في موضوع «المدينة الإسلامية» ليس بالأمر السهل. إنها احتضان للحضارة العربية الإسلامية، في زاوية من أنبل زواياها وأبرزها: زاوية التمدين والحياة الحضارية. ومع ذلك فقد اندفع القلم، وتوالت الصفحات في مغامرة قد لا تكون مأمونة النتيجة. ولكنني أحاولها على أي حال وفي خاطري أن أرسم، لأول مرة، صورة تخطيطية أولية «للمدينة» وحياتها بمختلف وجوهها في الإسلام. قد يكون في هذه الصورة الكثير من الثغرات، والكثير مما يستدرك، ولكن فيها دون شك الإيمان القوي المتين بأن هذه الأمة التي بشرت بأنها: «خير أمة أخرجت للناس»، هي أيضا في طليعة القلة من الأمم المدنية المبدعة على الأرض.

كان هذا هو دافعي الوحيد وهاجسي الوحيد.

والله المستعان على ما تصفون.

الكويت - حزيران ١٩٨٧.

شاكر مصطفى

مقدمة

دراسة المدينة بوصفها وحدة حضارية فن من البحث متعدد المسالك والصور، مشتبك العلاقة مع حقول علمية عديدة، وقد بدأ رجاله الكبار يظهرون منذ القرن الماضي في الغرب ولكنهم كثروا كثرة كبيرة في هذا القرن. وكانوا وما يزالون يبحثون عن أساس هذه الظاهرة : ظاهرة المدينة والتمدين Urbanisation التي يمكن أن تعتبر بحق أرقى إنجاز توصل إليه الإنسان في استقراره على الأرض. فالمدينة وليدة الحضارة أو أنها في الواقع هي الحضارة، ومن هؤلاء ماكس WEBER وMumford L. وكينيث بولدنج K.E. Bolding وSjoberg G. وويبر A. Webber وآلفورد R.R. Alford ودونالد R.T. Donald وأدامز R. Mac Adams، وأخيراً توينبي Toynbee، وبدأت المؤتمرات منذ الخمسينات تعقد لهذا البحث الذي أخذ يتحول إلى تخصص واسع يجمع علم الاجتماع والجغرافيا إلى التاريخ إلى ظاهرة التمدين Urbanisation، إلى الطبغرافيا. وتدخل فيه الدراسات الوصفية المتعلقة بالظروف الاجتماعية والبيئية كما تدخل الدراسات التركيبية الجامعة بين المنظور السياسي والمنظور الاقتصادي والإيكولوجي والديني والعسكري والثقافي.

وعلى أي حال فقد انصب اهتمام معظم الباحثين على المدينة الأوروبية بخاصة، وعلى أوضاعها وشروط ظهورها، قبل الثورة الصناعية وبعدها، أو على المدن القديمة أو الصينية لعلهم يكتشفون من خلالها أساساً يقيمون عليه علم الاجتماع التمديني الذي يحاولونه.

ومن جهة أخرى فإن معظم هؤلاء العلماء إنما بحثوا المدينة على أنها مفهوم استاتيكي جامد لا ديناميكي متحرك . كانوا في ذلك يحاولون استخراج شروط وملامح ظهور المدينة وتطورها بشكل عام ليصلوا منها إلى بعض القوانين في هذا المجال .

ومع أن الحضارة الإنسانية بعامة هي حضارة مدن قبل كل شيء ، ومع أن المدن وحدات اجتماعية متماسكة قد لا تتطور بسرعة ، إلا أنها دون شك تتغير وتتطور مع الأيام محتفظة على الدوام بلمحات واضحة من ماضيها ومن ملامحها العمرانية وذلك تبعاً لتطورات الجماعة الإنسانية التي تأهلها وللأيدولوجيا التي تؤمن بها هذه الجماعة .

وهكذا فعلى الرغم مما يحاوله بعض الباحثين من التعميم ، ومن استخراج السمات المشتركة بين المدن ، فإن لكل جماعة تصورها التمديني ولكل منطقة وأمة مدنها الخاصة المتميزة عن غيرها ، بطابعها ، وخصائصها ، وبنمط الحياة فيها ، وبالفكر الذي يؤهلها . بل ثمة سمات خاصة لمدن كل منطقة وتقسيمات فرعية للمدن ضمن المنطقة الواحدة تبعدها عن التشابه الكامل مع أي مدينة أخرى ولا يعني ذلك الرفع من شأن بعض المدن والغض من مدن أخرى ، ولكن يعني أن كل حضارة تودع في مدنها صورة حضارتها ، وخلاصة هذه الحضارة بما في ذلك العقائد والأيدولوجيا التي تؤمن بها الجماعة الإنسانية صاحبة المدينة . وتكشف بذلك عن مدى قدرتها على تحوير الظروف البيئية والجغرافية بما يتفق مع حاجاتها وأفكارها وأذواقها ونظمها الخاصة . إن المدينة هي الإنسان متوضعا ضمن إطار جغرافي اجتماعي محدد يعبر به عن نظرتة إلى العالم ، وعن تطلعاته وهمومه .

والمدينة الإسلامية لا تشدّ عن ذلك كله . ويمكن أن تعتبر في نشوئها وتطورها جماع الحضارة الإسلامية ، أو أنها - على الأقل - جماع المظاهر المادية

لهذه الحضارة في نواحيها كافة . فهي صورة المجتمع الإسلامي من جهة
ومجال تطبيق نظمه السياسة وموضع تحصيناته وتصوره للسلم والحرب ومركز
اقتصاده وإدارته ومكان مؤسساته الثقافية ومرافقه ، ومجال اضطراب الناس
في المعاش فيه جيلاً بعد جيل ، في همومهم الخاصة والعامة . وهي بدورها قد
تطورت كل التطور على مر القرون الإسلامية من جهة كما اختلف بعضها
عن بعض حسب المناطق التي توغل فيها الإسلام . فلها في الاندلس طابع
مختلف عنه في مصر أو الشام ، ولها في الهند ما يميزها عن مدن غربي افريقيا ،
وقد بنيت في اندونيسيا بشكل يختلف عن المدن التركية العثمانية ، ولا بد في
دراستها من الوقوف عند هذه التمايزات .

على أن قسماً من العلماء والمستشرقين حين نقل ميدان البحث إلى
المدينة الإسلامية ، وأقبل يتساءل عنها ، لم ينظر إليها النظرة الخاصة بمدينة
ذات طابع مختلف وايدولوجية مميزة ونمط من الحياة والفكر مباين لغيره بل
نظر إليها من الزاوية الأوروبية الخالصة بوصفها مدناً يجب أن تتطابق مع
تصوره الخاص للمدن الغربية . وأخذ - حتى حين لا يصرح بذلك ولا
يقصده - يعقد المقارنة بينها وبين المدينة الإغريقية والرومانية والغربية .
وهؤلاء العلماء حشد كبير من الاوائل فيهم : ليفي بروفنسال - Levy
Frovençal ، ونولدكه Noeldeke ، وكاترمير Quatremère ، وبروكلمان
Brockelman ، وديمومين Desmombine (من السابقين) ومنهم كذلك من
اللاحقين : ماسينيون Massignon وغرونباوم Grunebaum ، ولابيدوس .
Lapidus ، وبرنارد لويس Lewis ، وبينت Benett ، وسوفاجيه Sauvaget ،
وكرابر Graber ، وأشتور Ashtor ، وكلود كاهن C. Gahin وهنري بيرين H.
Pirenne ، ولومبارد Lombard ، ووليام وجورج مارسيه W.etG.
Marçais وجانيت أبو لغد J. Abu - Lughed . ومعظم هؤلاء يفترض
الافتراضات التي يجب أن توجد في المدينة لكي تحمل هذا الاسم ، ويحاول

تركيب هذا القلب النظري على الواقع التمديني الإسلامي . وهكذا يتوزع هؤلاء وأمثاهم في المواقف والأفكار حتى بوجود «المدينة الإسلامية» فهو يراها رغم دراسته لمؤسساتها الشعبية تجمعاً سكانياً سائحاً بعضه على بعض ، كما لدى كلود كاهن*^(١) في أبحاثه العديدة ، حتى ليقترح تسميتها «مدن دار الإسلام» لا المدن الإسلامية ، أو لا يرى فيها أكثر من تقليد - أو تشويه أحياناً للمدينة البيزنطية - كما لدى سوفاجيه^(٢) في دراساته عن حلب أو دمشق واللاذقية ، أو للمدينة الإغريقية الرومانية أو لا يرى فيها مؤسسة إدارية أو تمتعاً بالاستقلالية أو شعوراً بالمواطنة ، وكما في كتاب لويس غارديه^(٣) «المدينة الإسلامية» أو يراها فوضى في التخطيط خالية من أي وحدة تركيبية ضعيفة التماسك والمؤسسات ، كما في كتاب بلان هول سافيه Blanhol Savies^(٤) ، وقد يركزون على وجود المؤسسات النقابية والبنوك والحركات الشعبية ، كما في بحثي ماسينيون^(٥) عن الأصناف والمدن الإسلامية وأثر الإسلام في ظهور البنوك اليهودية في الموسوعة الإسلامية (الطبعة القديمة) ، أو قد يهتمون بالطابع القبلي الذي ظهر في المدن الإسلامية الأولى كما فعل الباحث بينيت Benett^(٦) ، وبعض الباحثين مثل : هنري بيرين^(٧) الذي لم ير في المدينة الإسلامية مؤسسة اقتصادية فحسب ، بل رأى فيها سبباً من أسباب انحطاط التجارة وتوقفها في البحر الأبيض المتوسط في القرون التي أعقبت الفتح الإسلامي وعزا إلى هذا الفتح انهيار المدن القديمة في الشرق .

وقد أعطى بعض الباحثين الغربيين المدينة الإسلامية حقها ، بأن جعل أساسها الأيديولوجي في (الإسلام) ورأى ما فيها مرتبطاً بفضائل الإسلام مثل : جورج مارسيه^(٨) في بحثه : الإسلام والتمدين ، وبحثه

(١) انظر في جميع هؤلاء من (١) الى (١١) وأعمالهم في نهاية هذه المقدمة .

الآخر : مفهوم المدن في الإسلام، ويبحث أخيه ويليام مارسيه : الإسلام والحياة المدنية^(٩). ويمائل هذين الباحثين العالم الآخر : موريس لومبارد^(١٠) في كتابه «العصر الذهبي للإسلام» الذي رأى التمددين الإسلامي أكثر أبعاداً وتأثيراً من التمددين الروماني، ويضاهي التمددين الإغريقي والغربي وأن العالم الإسلامي صار، ما بين القرن الثامن للميلاد والقرن الحادي عشر، مسرحاً لتوسع تمدني ضخم تمثل في ظهور عدد من المدن صارت بمرور الزمن من أمهات المدن العربية. ولا بد أن نذكر بالمناسبة أبحاث لايبيدوس^(١١) التي رفضت آراء بيرين Pirenne القائلة بأن الفتح الإسلامي أدى إلى تخريب المدن القديمة الكلاسيكية في الشرق، وأثبتت أنها كانت متردية منهاراً قبل هذا الفتح بكثير. وقد فقدت ملامحها التمدينية منذ زمن. وهكذا بحوث كتاب حوراني وشترن.

ولم يكن بإمكان الباحثين في المدن وعملية التمددين التغاضي عن فترة من التمددين الإسلامي الواسع امتدت على الأقل ثمانمائة سنة. إلا أنهم اختلفوا في زاوية النظر إلى هذا التمدن، وفي النتائج التي استنتجوها من فرضياتهم حوله فبعضهم نظر إليها من زاوية المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وآخرون من زاوية التمددين الحضري Urbanisation، وجماعة ثالثة من زاوية النظر الإيكولوجية، ورابعة من الناحية الاقتصادية، أو الأثرية أو العمرانية، أو الجغرافية، أو حتى السكانية أو النقل وبعض الدراسات تناولت مدينة واحدة في مختلف نواحيها، وبعضها درس أكثر من مدينة لعقد المقارنة بينها، والبعض درس المدن الإسلامية عامة في نظرة شاملة، على أن الكثرة الكاثرة من هذه الدراسات كانت نتيجة موقف أيديولوجي مسبق، لا نتيجة بحث حيادي مجرد.

وعلى الرغم من أن معظم الأبحاث الاستشراقية حول المدينة الإسلامية، قد أضحت قديمة أو مكشوفة الغرض والاتجاه، إلا أن الخطر

يكن في اعتبارها آراء نهائية أو في تبني وجهات نظرها. وأهم ما يؤخذ عليها : أن السمة التي تجمعها جميعاً هي أنها تنظر إلى المدينة الإسلامية من خلال مفاهيم المدينة الغربية سواء كانت إغريقية - رومانية أو كانت غربية. المقارنة تقوم في أساس نظرة الباحثين الغربيين، وهكذا نقلوا العمران الإسلامي إلى قطاع آخر من الفكر ومن التقويم لا يمكن أن يقاس عليه. وهذه النقلة غير المبررة هي نفسها موطن الخطأ عندهم، وهي التي توقعهم أو توقع معظمهم في التخبط والوهم. فليست مدينة «الرومان» أو الإغريق أو المدينة الغربية بالمثل الأعلى الذي يجب أن يكون القياس عليه أو النموذج الذي يمكن أن يجمع الصفات العالمية الكاملة. فلكل مجموعة من المدن، في رقعة معينة، ملاحظها.

وللمدينة الإسلامية بالذات خصائصها المتصلة بالجذور الأيديولوجية التي تحيط بها وتكونها كما أن للمدينة الهندية والصينية مواصفاتها الخاصة بحضارتها ذاتها، ووظيفتها المختلفة النابعة من مجمل التكوين الحضاري للبيئة التي نشأت فيها، ولا يمكن أن تكون الحد الرحب لكل مدينة. وإذا لم نستطع أن نتهم جميع المستشرقين بالغرض في هذا، وتعمد الإساءة، فإننا على الأقل نرفض قواعد عملهم المبنية على أسس لا تفهم منطق الإسلام ولا مبادئه وحاجاته. فللمدينة الإسلامية نشأتها الخاصة وتطوراتها المميزة في المناطق التي نشأت فيها. وقد ترافق تطور خططها وتوسعها وتحصينها مع تطور الحياة الإسلامية من خلال العصور التي كانت فيها ومن خلال وظائفها المختلفة عن مدن الإغريق والمدن الرومانية. إنها نوع خاص من المدن تلتقي في نقاط عديدة من التشابه فيما بينها دون أن يذوب بعضها في بعض، وتفرق فيما بينها دون أن تخرج عن الإطار العام للمدينة الإسلامية.

على أن عدوى هذه البحوث المدينية الأجنبية لم تصل العرب إلا متأخرة. وقد ظهرت فيها بحوث جيدة احتضنتها الدوريات، لكن

الدراسات لم تصل في النضج ، أو في السعة أو في العدد، درجة الصدور في كتب جامعة . ويبرز منها عدد من البحوث، كما يبرز عدد من الفصول ضمن مؤلفات الحضارة العربية الإسلامية . لكن بعض الأبحاث العربية حول المدينة شغلت بالآثار أو بالناحية الجغرافية وتوجهت بخاصة إلى المظهر المجرد أو إلى الملامح المادية وتحليلها .

ويبدو أن دراسات المستشرقين الكثيفة نسبياً للمدينة الإسلامية، مع ضآلة الإنتاج العربي في هذا المجال قد جعل الأعمال الحديثة، من عربية وعربية، تطفو على السطح وتخفي عن الكثيرين ذلك التراث الضخم الهائل من جهود العلماء العرب الأولين في هذا السبيل - ولعله ليس في تاريخ البشرية، قبل العصر الحديث، من كتب في موضوع المدن ودراساتها مثلما كتب العرب .

صحيح أنهم كتبوا - في معظم ما كتبوا - على قدر مفاهيم عصورهم، وفي حدود العلم، في تلك العصور، وهي مفاهيم وحدود وصفية في الغالب لا تحليلية تركيبية، وجزئية لا شاملة، ولكن وراءهم من كل ذلك تراث ضخم قد يفاجيء حتى بعض الباحثين . لقد درسوا المدن في كتب التاريخ في الدرجة الأولى، وفي المؤلفات الجغرافية، من كتب وموسوعات، وخطط، ورحلات، كما سجلوا أحوالها في كتب الفقه - وما أكثرها - وفي كتب الحسبة، وفي كتب السياسة، وفي كتب الأدب والسلوك الاجتماعي، وفضل منهم بعد كل ذلك فضل تناولوا به العمران وفلسفة العمران . في دقة بالغه وإحاطة بلغت الغاية، ووصلت درجة ابتداع علم خاص بذلك .

الأهم من هذا كله أنهم كانوا يصدرون في هذه الفلسفة، وفي كل ما كتبوا عن مبادئ ثابتة محددة، هي مبادئ الإسلام الحقيقي، والشريعة الإسلامية . يصدرون عنها دوماً في المبادئ، ويعودون إليها دوماً في الحلول

والتطبيق . هذا الربط العميق ما بين الفكر العمراني وتطبيقاته العملية هو الذي منح المدن الإسلامية ذلك التشابه في المظهر وتلك الوحدة العميقة في المكونات . كما منح المسلمين أنفسهم قبل ذلك وفوق ذلك سلوكاً اجتماعياً وحياتياً منسجماً فيما بينه وبين الآداب الإسلامية ومقتضياتها ، كما هو منسجم فيما بينه وبين الشكل المادي للمدينة . فالمدينة وسكانها وحدة متناغمة موحدة هي صورة لهم ، وهم صورة لها .

إن الغفلة عن هذا الأساس للمدينة الإسلامية ، سواء في نشأتها ، أم في تطورها ، أم في سكانها ، ومبادئهم الإسلامية ، وعدم الربط بين ذلك كله في تكوين واحد ، هو الذي أضع على الدارسين المحدثين روح المدينة الإسلامية ، وأعمق خصائصها الحضارية .

ولعل الفقه الإسلامي هو الذي لعب الدور الأكبر في انسجام المدينة الإسلامية مع سكانها . بناء وحياة ونظماً في نوع من الجدلية المتبادلة ، فهو باعتباره يستقي أصوله وأحكامه من هدي القرآن الكريم والسنة المشرفة ، وأراء الأئمة ، كان يعود فيتأثر بتطورات الحياة للمجموعة الإسلامية ويجد الحلول للمشكلات المتجددة في هذه الحياة ويغني بين هذا وذاك التجربة الإسلامية المدنية والعمرانية دون انقطاع .

والمدينة الإسلامية كانت على الدوام كياناً حياً متجاوب التطور مع حاجات المجتمع الإسلامي ، بقدر ما هي مرتبطة كل الارتباط بجذور الإسلام ومبادئه . وها هنا كلمة السر فيها التي يحاول هذا الكتاب أن يقول بعض الكلمات حولها أو يخطط بعض الخطوط .

ولا يجوز أن ينظر إلى المدينة الإسلامية في جميع العصور نظرة واحدة ، ولا أن نخلط عصرنا بعصر للخروج بنتائج نضعها سلفاً ونفترضها مسبقاً . فهناك تطور حتى في المدينة الواحدة حسب العصور المتعاقبة . وهناك تغيرات

تفرضها البيئة الجغرافية، فهي توجد في مدينة وتندم أو لا تظهر في أخرى أو يفرضها الوضع السكاني أو السياسي أو الظواهر الاقتصادية أو التطورات الثقافية. والتحديدات التي توضع للمدن سواء بتقسيمها إلى مدن ذات صفة واحدة أو وظيفة واحدة كأن تكون ميناءً تجارياً، أو قلعة عسكرية، أو قصرًا سياسياً، أو مركزاً دينياً، تخطىء في هذه النظرة الأحادية، تماماً كما تخطىء التحديدات التي توضع لصفات المدينة من أنها مثلاً كما يقول بعض الباحثين الغربيين: «يجب أن تكون مكونة من: حصن، وسور، ومحكمة، ونقابة، وحكم ذاتي». أو أنها: «سُلطة، وجمنازيوم، ومسرح، وسوق، وماء، وحدود، ومجلس تمثيلي». أو أنها كما يقول بعض المؤلفين الترائيين عن العرب: «كل بلد جامع تقام في الحدود، ويحله أمير، ويقوم بنفقته، ويجمع رستاقه». أو أنها: «كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلدت منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقاليم». لقد تخطىء بعض صفات دون أخرى في مدينة من المدن، وهذا لا يعني التخصص الواحد، وقد تفقد المدن صفة أو أكثر من صفة مما يذكرون وتبقى مدينة ومدينة كبرى.

وليس بالامكان اتخاذ أي نظرية محددة من نظريات نشوء المدن أساساً لبحث المدينة العربية الإسلامية، ففي كل نظرية جانب من الواقع يظهر في مدينة أو في عدة مدن، وقد يحتفي في أخرى، أو قد يعظم في فترة من الفترات، ويتضاءل في فترات تالية. فالذين حاولوا تفسير المدينة الإسلامية بأن أصلها ديني أو عسكري أو سياسي أو تجاري أو محطة نقل، أو حاولوا فهمها بنظرية الإيكولوجي التي تركز على الأمور الداخلية، أو بأنها تراكم سكاني لا أكثر، قد جهلواها. وربما كنا في حاجة إلى نظرية خاصة إسلامية الروح تبرز مكانة المدينة الإسلامية في التطور الحضاري الإنساني، وتدرسها بذاتها كوحدة عضوية حضارية خاصة مميزة، لها صفاتها ووحدتها في التركيب الناجمة عن الإسلام.

إن الإسلام قد جاء بعد الفترة الرومانية البيزنطية، والفترة الساسانية، ليعيد بناء حوض البحر الأبيض المتوسط عمرانياً وحضارياً مع امتداده إلى الهند. وقد يكون إنمّا بني بعضه بالعناصر البنائية القديمة، ولكنه بناه جميعاً في المناطق التي سيطر عليها، على النمط العمراني - الحضاري الإسلامي.

ونستطيع أن نعد ما يقرب من أربعمئة وخمسين مدينة أضافها الإسلام إلى العالم نتيجة التزايد السكاني والتطور الصحي والاقتصادي، ونتيجة الدفقة العمرانية التمدنية التي حملها في روحه. وقد أشار غويتاين - وهو الصهيوني العريق - إلى أن ما أحدثه الإسلام من مظاهر التمدين، يعتبر ثورة في تاريخ التمدين العالمي^(١). كما أشارت لايدوس^(٢) المستشرقة الأخرى، إلى أن الدول الإسلامية الحاكمة «دفعت حركة التمدن دفعات قوية إلى الأمام بما اتبعته من سياسات تنمية النشاط الزراعي والتجاري، كما ساعدت الظروف الإدارية والسياسية على نمو المدن، وحركة التمدين الإسلامية.

(١) Goitein : The Rise of the Middle Eastern Bourgeoisie, in Islamic History and Institutions. P.P. 218

(٢) Lapidus : Middle Eastern Cities (Sym. on Anc. Isla and Con. M.E Urbanism) Univ. of California Press, Los Angeles. 1969, P.5.

هوامش المقدمة

1. Cahen, C.: Ya-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classiques? reflexiones, in *The Islamic city* (éd. Hourani and Stern, Oxford, 1970) p. 53-63.
— Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie Musulmane du Moyen Age in *Arabica* (V/1958) pp. 225-250 et No VI, 1959, pp 26-56 et 223-265.
— Baghdad au temps de ses derniers Califes in *Arabica* (IX, 1962) pp 289-302.
2. Sauvaget, Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, in *Revue des Etudes Islamiques* (VIII, 1943) pp. 421-480.
— Antioche, essai de géographie urbaine, in *Bul. d' études orientales* (IV, 1934) pp. 27-79
— Antioche, un type de cité d'Islam in *Congress Inter. de Géographie* (III, 1937) pp. 255-262.
3. Gardet, Louis: La cité musulmane (Paris, 1954) p. 259-260
4. De Banhol, Xavier: *The world of Islam* (New York 1959)
5. Massignon, Louis: le corps de Métiers et la Cité-Islamique, in *Revue Internationale de sociologie* (vol. 28/1920) pp 473-490
L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des Bagues Juives. in *Bulletin d'Études Orientales* (I, 1931) p 3-12
— "Sinf", in *Encyc. de l'Islam* (Ancien Edition).
6. Benet L. Ideology of the muslim Urbanization.
7. Pirenne, Henri: *Medieval Cities* (Irlinton, 1925)
— Les villes sont l'œuvre des marchands in *Revue Historique* (VII).
8. Morçais, G.: L'urbanisme Musulman in "Mélanges d'Histoire et d'Archéologie de l'Occident" musulman (I, 1957) pp. 212-231
— La conception des villes dans l'Islam in *Revue d'Alger* H 1945) pp. 517-533.

9. Marçais, W. : L'Islamisme et la vie urbaine in compte rendu des Séances (Ac. des Ins. et Belles-lettres) 1928 p.p. 86-100.
10. Lombard, L. L'Age d'or de l'Islam (Paris 1960)
11. Lapidus, Ira: Muslim cities and Islamic Society (in Middle Eastern Cities
 Hourani and Stern: The Islamic city (A colloquium, Oxford 1970)
 Von Grunebaum: The Muslim town and the Hellenistic town, in Scientia 1955.
 — The structure of the Moslem town in Islam, essays in the Nature and growth of a cultural tradition (London 1961)
 Ashtor, E.: L'administration urbaine en Syrie Médiévale, in degli studi Or. (1956)

الجزء الأول

الخصائص والتكوين

في هذا الجزء الأول نقدم صورة ساكنة كالتصوير « الفوتوغرافي » للمدن الإسلامية تماماً كما تصورنا وشهدنا ووصفها المسلمون الأقدمون . وقد حرصنا على أن يكون ذلك بأفواههم وأقلامهم وأبرز فيه بصورة خاصة المدن التي أنشأها المسلمون كافة والتصورات الفكرية للمدنية كما وضعوها .

الفصل الأول

جذور الفكر العمراني في الإسلام

إذا كان الإسلام يدفع بجذوره الأولى إلى إبراهيم (عليه السلام) قبل ٢٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ سنة، تسبق الإسلام وذلك في قوله تعالى: ﴿مَلَأْنَا آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُولَدَ شَبَابًا وَهَبْنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ فِي السُّمُومِ﴾ فإنه في الوقت نفسه يكشف أن جذور الفكر العمراني الإسلامي ترجع بدورها إلى ذلك العهد البعيد: ﴿... وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...﴾ (البقرة ١٢٧) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ (البقرة ١٢٦) وهكذا فالبيت، والبلد، والأمن، وجدت معاً مع الإسلام، منذ ولادته الأولى، وأثبت بها حضريته. وكل من: البيت، والبلد، والأمن، لا تتوافر إلا في فكر عمراني ذي منظور حضاري عريق. والواقع أن الإسلام في روحه الأعمق وفي جوهره دين مدني، مرتبط بالحضر، وبالمدن والعمران وبالحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المتطورة، وبالتنظيم المستقر للناس، وبالاجتماع الأوسع المتعاون. ذرات الرمل التي يدعوها بالأعراب كان يرفضها أساساً وطريقة حياة. يقول تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا، لَمَا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (١٤ الحجرات) و﴿الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾ (٩٧ التوبة) وفي هاتين الآيتين الكريميتين ربط وثيق بين الحالة

الاجتماعية والحالة العقائدية الأخلاقية، يشهد أن حالة الأعراب لا تتفق مع الإسلام بل أن المسلمين الأوائل اعتبروا عودة المرء من الحضر إلى البدو بعض الكبائر. فكان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب ولشيء من هذا لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية. ويوضح ابن الأثير ذلك قائلا: «إنما كرهت شهادة البدوي لما فيه من الجفاء في الدين والجهالة بأحكام الشرع ولأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها».

وليس من الصدق أن الإسلام إنما وجد، والجماعة الإسلامية الأولى إنما تكونت في بلد أضحى يدعى في القرآن الكريم ومنذ تكونت فيه هذه الجماعة وإلى يوم الناس هذا، بالمدينة. لقد سهاها التنزيل العزيز بهذا الاسم أربع مرات يقول الخبير الحكيم: ﴿... وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ...﴾ (١٠١ التوبة) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ...﴾ (١٢٠ التوبة) ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لِنُفْرِينِكَ بِهِمْ...﴾ (٦٠ الأحزاب) ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ...﴾ (٨ المنافقون) وفي حين لم يسمها بيثرب إلا مرة واحدة وعلى لسان أعداء الرسول: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا...﴾ (١٣ الأحزاب) وهكذا فالحياة المدنية هي النسيج الخلفي الذي قامت عليه الشريعة واتصلت به الأحكام والعلاقات والنظم والمفاهيم في الإسلام.

والإنسان في المدينة، أي في علاقاته الاجتماعية المنظورة والمعقدة والحضارية، هو المنظور الذي انطلقت منه واتجهت إليه المنظومة الفكرية الإسلامية جميعا. ولهذا كانت أول أعمال صاحب الرسالة في المدينة يثرب أربعة أمور: إنشاء المسجد الجامع للناس ليكون مكان عبادة ولقاء وتبادل لأخبار الجماعة، وبناء بيت للرسول الكريم ﷺ يصبح مقرا للنظام الجديد

الإسلامي، ومنح القطنع للمهاجرين يعمرونها وإصدار الكتاب أو الصحيفة التي صارت تدعى في مصطلحاتنا بدستور المدينة. وهذه الأمور نفسها هي التي أعطت يثرب صفة «المدينة» وجعلتها أول مدينة في الإسلام.

١ - في اللغة

لم يستعمل العرب كلمة واحدة للظواهر الحضارية التي هي التمدين. فقد استعملوا كلمات: مصر، وقصبة، وحاضرة، ومدينة، وبلد أو بلدة، وحوزاً وكورة، وقرية، وعمل ومدرة. كما استعملوا لما يحيط بالمدن كلمات: الريف، والضيعة، والربض، والضاحية، والغوطة. وكثرة الأسماء دليل على استبحار مفهومها لدى الناس، وعلى الشعور بها، وعمق الحاجة إلى التعبير عنها بمختلف أنواع التعبير.

ولو تتبعنا المعاني الجذرية للكلمات الأخرى المرادفة للمدينة لوجدنا أن المصر تعني الحد أو الحاجز. ومصر الدار حدودها. ويقال مصر المكان تمصيراً، أي جعله مصراً، ووضع له الحدود، ويذكرون أن عمر بن الخطاب كتب إلى قاداته المحاربين في العراق «لا تجعلوا البحر بيني وبينكم بل مصروها أي اجعلوها مصراً بين البحر وبينني (أي حداً). وورد أيضاً «أن المصر يعني كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء، والصدقات من غير مؤامرة للخليفة». (ابن منظور عن الليث) ومع أن المقدسي صاحب أقرب المسالك وهو جغرافي قد توسع في فهم المصر وجعله العاصمة، فهو فهم متأخر من القرن الرابع بعد أن صارت المدن التي أنشأها العرب أو الفتوحات أمصاراً كبيرة لكن اللفظ اقتصر بخاصة على الأمصار السبعة، وبشكل أنحص على المصريين: البصرة والكوفة. كاسم علم لهما، على أنها المصران الوحيدان في الدولة الإسلامية.

وأما لفظ القصبة فاستعمله الناس والمؤلفون للإشارة إلى مركز المدينة في الغالب وموقع الحركة واللقاء والتبادل فيها. وفي لسان العرب أن قصبة البلد: مدينته، وقيل معظمه، وقصبة السواد: مدينتها. والقصبة جوفي الحصن يبنى فيه بناء هو أوسطه، والقصبة القرية، وقصبة القرية: وسطها.

ونجد في مجال لفظ القرية - حسب قول ابن سيده وابن منظور - أن القرية والقرى هما عصر الجامع، وأن نبياً من الأنبياء أمر بقرية النمل فأحرقت هي مسكنها وبيتها. وأن القرية من المساكن والضياع وقد تطلق على المدن. وفسروا حديث الرسول ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى أنها المدينة». كما فسروا قول بعضهم: «ما رأيت قروياً أفصح من الحجاج، إنهم إنما نسبوه إلى القرية التي هي المصر» (ابن سيده)، وفي حديث علي (كرم الله وجهه) إنه أتى يضرب فلم يأكله، وقال: إنه قروي يعني إنما يأكله أهل القرى والبوادي والضياع دون أهل المدن. ويقال: أهل القارية للحاضرة، وأهل البادية لأهل البدو.

وأما الربض فهو ما حول المدينة^(١) أي أنه تابع من توابعها خارج كتلتها السكنية أو أسوارها وهو من سمات فيضان السكان عن المدن الكبرى. وأما الحاضر في اللغة فهو المقيم في المدن والقرى بخلاف البادي. وكل من نزل على ماء ولم يتحول عنه شتاء ولا صيفاً فهو حاضر سواء نزلوا في القرى والأرياف والدور المدنية أو بنوا الأخبية على المياه فقروا بها ورعوا ما حولها من كلاً. وكما تحول معنى الربض قليلاً عن معناه الأصلي تحول الحاضر. وأما الغوطة فاسم خاص بأرباض دمشق وابن شيخ الربوة يجعل دمشق ثلاث مدن: واحدة هي دمشق وأخرى تحتها تجري فيها مياهها وثالثة

هي قرى الغوطة الواسعة . وأما الضاحية فهي من ضحا الشيء اذا برز .
والضاحي من كل شيء البارز وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة . . ومنه
قريش الضواحي اي النازلون بظواهر مكة بعكس قريش الأباطح لأنه
حاضر . فالضاحية فما كان على بُعدٍ من المدينة وتنحى من المساكن ، وهذا هو
الفارق الأساسي بين الريف والضاحية ، . في المفهوم الجغرافي الاسلامي .

هذه التعاريف المتنوعة للكلمات المتصلة بال عمران ، هي ملامح من
الفكر المدني ، كما ينعكس في اللغة أي في أعماق الوجدان التعبير عن
حاجات الحياة .

٢ - في القرآن الكريم :

وننتقل إلى القرآن الكريم لنجد أن كلمة المدينة وجمعها مدائن قد
وردت فيه في سبعة عشر موضعاً ، تتحدث فيها الآيات الكريمة خمس مرات
عن أهل المدينة كما في قوله تعالى : ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ ، (١٧
الحجر) . وتتحدث ثلاث مرات عن حشدهم وكثرتهم كما في قوله تعالى :
﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشدين﴾ (٥٣ الشعراء) .

وتتحدث آية من الآيات الأخرى عن حكم المدينة من قبل ملك :
وذلك في الآية : ﴿ وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها
عن نفسه﴾ (٣٠ يوسف) وتأتي الإشارة إلى السوق في الآية الأخرى :
﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ (١٩ الكهف) . والإشارة إلى
السعة المكانية في قوله جل شأنه : ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى . .﴾
(٢٠ يس) .

والإشارة إلى البناء في الآية الكريمة ﴿ وأما الجدار فكان
لغلامين يتيمين في المدينة﴾ (٨٢ الكهف) ، بل جاء ذكر المفسدين في المدينة ،

في الآية الكريمة الأخرى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض﴾ (٤٨ النمل). وكلها إشارات واضحة إلى خصائص المدن من سلطة سياسية، وسكان كثيرين، وأسواق، وبناء، وأمن.

وإذا لم يأت ذكر الحواضر، أو المصر، أو القصبية، أو الكورة، أو المدرة في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وأسألم عن القرية التي كانت حاضرة البحر...﴾ (١٦٣ الأعراف) فقد ورد ذكر «البلد» تسع مرات، و«البلاد» بالجمع خمس مرات و«بلدة» أربع مرات وهي في كل الأحوال تعني المدينة والمدن. فأربع من الآيات تشير إلى مكة: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ (١٢٦ البقرة) و«التين والزيتون وطور سين» وهذا البلد الأمين﴾ (١-٣ التين). ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد﴾. (١-٢ البلد). وتشير آية أخرى إلى تباعد البلدان: ﴿... وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس﴾ (٧ النحل) ولكن الإشارة تتكرر في الآيات حول الماء وإحياء الأرض كما في قوله تعالى: ﴿لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ (٤٩ الفرقان). ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ (١١ الزخرف) و«أحيينا به بلدة ميتاً﴾ (١١ ق) ﴿فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ (٩ فاطر)، و«البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ (٥٨ الأعراف) مما يوحي بأن كلمة بلد تعني ما نسميه بالقرية (أي ما هو أصغر من المدينة)، مع ما حولها من الأرض والزرع.

وأما كلمة قرية فهي أكثر ما يرد في آيات القرآن الكريم من الكلمات إذ تذكر في ستة وخمسين موضعاً. وفيها جميعاً معنى المدينة، وفي إحدى الآيات معنى المرفأ، أو الميناء، كما رأينا.

حتى مكة والطائف ترد الإشارة إليهما على هذا الأساس، كما في قوله تعالى : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (٣١ الزخرف)، ويقصد مكة والطائف، وقد جعلها متعادلتين وهو يدعو مكة بأم القرى : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ (٩٢ الأنعام) وفي باقي الآيات نجد أحيانا إشارات إلى بغي المدن والطبقات الاجتماعية فيها كما في قوله : ﴿... وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة...﴾ (٢٣ الزخرف)، ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ (١٦ الاسراء). ويشير إلى السلطة السياسية : ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون﴾ (٣٤ النمل). ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ (١٠٠ هود) ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (١١٧ هود) ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾ (١٨ سبأ). وتأتي الإشارة في إحدى الآيات الكريمة إلى تحصين القرية بقلعة أو بسور، وذلك في قوله تعالى : ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر...﴾ (١٤ الحشر) كما تأتي الإشارة إلى مساكن القرية في آية أخرى تقول : ﴿وكم أهلكننا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً...﴾ (٥٨ القصص). ونضيف إلى ما سبق أن كلمات : المدينة في التحليل اللغوي آتية من جذر سامي موجود في الآرامية والعبرية كما كان معروفاً قبل ذلك في : الأكادية، والآشورية، وكما هو موجود في العربية سواء بسواء، هو : لفظ دين.

والجوهري في الصحاح يصل إلى هذا الجذر الأعمق ويقول : إن كلمة المدينة ترجع إلى دين، وأن دين يقصد بها المملك. والزبيدي في تاج العروس يضيف أن كلمة ودنته تعني ملكته، فهو مدين أي مملوك ويضيف

بأن جماعة من الناس يرون بأن مدينة ترجع في الأصل إلى كلمة دين لكونها تملك ومنهم من يجعلها مفعلة من ذلك دين أي مُلك . وبالرغم من أن كلمة دين في الأرامية والعبرية كما في الأكادية والآشورية، تعني القانون والعدالة . والديان هو القاضي، فإن هذا اللفظ نفسه مستعمل في العربية بوصفه من أسماء الجلالة ويعني المالك الذي يحكم . وليس الذي يدين ويقضي فقط . وهذا المعنى يثبت الصفة الأولى للمدينة في أنها مكان السلطة التي تقوم على الملك أو الأمانة، وعلى القانون والقضاء بين الناس . ورد في الحديث النبوي لدى البخاري وابن حنبل عن جابر بن عبدالله، عن الرسول ﷺ قال : سمعت الرسول ﷺ يقول : «يوم يحشر العباد - أو قال الناس - حفاة عراة عزلاً . . . ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب : أنا الملك . أنا الديان . لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا أحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقصه منها» .

وبعض اللغويين، كالفسوي، يذكر أن معنى مَدَن في المكان، أي : أقام به، وأن معنى مَدَن المدائن أي مصرها . ومن هنا يظهر المعنى الآخر للمدينة بوصفها مكان استقرار للجماعة وإنشاء عمارة وبيوت . لا قبيلة تهاجر دون استقرار . ونجد لدى ابن منظور في «لسان العرب» والفيروز آبادي في «القاموس المحيط» معنى ثالثاً يذكر أن المدينة هي الحصن يبنى في أصطمة من الأرض، فكل أرض يُبنى في أصطمتها (أي في مرتفع منها) حصن فهي مدينة . وهنا ينكشف المعنى الثالث للكلمة . ففي كيان المدينة، معنى الحماية لأهلها، ومعنى الكثرة والدفاع بالحصن، وفي أصطمة من الأرض .

أما ربض، وريف، وضيعة، وضاحية، وغوطة، فلا ترد اطلاقاً في القرآن الكريم، وهذا، مع ما سبق، إن دل على شيء فإنما يدل على عمق الفكر المدني في الإسلام وفي كتابه المبين .

٣ - في الحديث الشريف

ونأتي إلى الحديث النبوي فنجد الظاهرة ذاتها، ففيه الملامح الواضحة لمفهوم المدينة والقرية والحصن، وكثرة استخدامها في الحديث. فمن خلال عشرين حديثاً حول المدينة روتها مجموعة الكتب الستة وكتب ثلاثة أخرى من كتب السنن الأساسية (أي من خلال كتب أبي داود والدارمي والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن حنبل والبخاري ومسلم والموطأ لمالك) نجد أن صاحب الرسالة قال: «سمعتهم بمدينة جانب منها في البر وجانب في البحر» (رواه مسلم في الفتن) في إشارة واضحة إلى المدينة الميناء، أو كما قال. وفي حديث آخر جاء: «وأتينا باب المدينة فاستفتحنا» (رواه البخاري في التعبير) وفيه إيضاح لظاهرة السور وأبواب المدينة. وورد في حديث ثالث: «أنه انتهى إلى حصن أو مدينة» (رواه ابن حنبل)، مما يشير إلى تعادل المفهومين أو إلى وجود الحصن في المدينة أو المدينة حول الحصن، وفي حديثين آخرين يرد اسماً يثرب ودمشق: «بارك لأهل المدينة في مدينتهم» (رواه ابن ماجه في الاطعمة وابن حنبل ومسلم) و«مدينة يقال لها دمشق» (رواه أبو داود في الملاحم وابن حنبل) وفي رواية الأحاديث ذكر لحكم المدن «واكتب إلى مدائن ملكك» (رواه البخاري في بدء الوحي) وذكر آخر لمدن المسلمين وحصونهم وإلى مدن غيرهم وحصونهم: «... وينحاز المسلمون منها إلى مدائنهم وحصونهم...» (رواه ابن حنبل).

وترد كلمة قرية، في الكتب التي ذكرنا، وفيما روي فيها من الأحاديث الشريفة في ثلاثة وستين موضعاً يلفت النظر فيها تحديد قرى بعينها مثل: الأبله، جوادا، وهي قرية من قرى البحرين، ومن قرى عبدالقيس، وقرية عبدالرزاق، وقرية عقبة، وقرية الصفا، وفدك، وقرية دون حصن، وقرى الانصار، وقرى هجر، وقرى عربة... ويبدو أنها جميعاً تدل على بلدان صغيرة يقوم حولها الزرع، في مثل ما نستعمل الكلمة اليوم لكن بعض

المروى من الأحاديث الأخرى توسع في هذا المفهوم ليصبح أشبه بالمدن الصغيرة. ومن ذلك ما روي في الحديث النبوي التالي : «آخر قرية من قرى المسلمين خرابا المدينة» (رواه الترمذي في المناقب) والحديث الآخر : «دخل إبراهيم بها قرية فيها ملك من الملوك (رواه البخاري في البيوع وابن حنبل) كما نجد ذكرا للقرية الجامعة، ولعلها أشبه بالمدينة ولكنها دون سور : «إذا كنت في قرية جامعة . . .» (رواه البخاري) «ما كان فيها طريق الميناء أو القرية الجامعة . . .» على أن باقي الأحاديث الشريفة واضحة الفصل بين المدينة والقرية فقد رووا قول صاحب الرسالة : «أفي مدينة تسكن الآن أم في قرية؟ قال : لا بل في قرية . . .» (رواه ابن حنبل) وروى هو نفسه حديثا آخر : «كنت رجلاً فارسياً من أهل القرية وكان أبي دهقان قرية». ورووا في أحاديث الرسول ﷺ أيضاً أقواله : «ما كان (أو ما لم يكن) في طريق مائي ولا في قرية عامرة» (رواه النسائي) «تلقانا حمر أهله خارجا من القرية» (رواه النسائي وابن حنبل) و «ان الناس قد دنوا من الريف والقرى» (رواه مسلم وابن حنبل وأبو داود) . . . لأن العجم إنما تنسب إلى قراها» (رواه ابن حنبل) «ما كان في قرية عبدالرزاق بئر» (رواه ابن حنبل).

وتستعمل في الحديث النبوي الشريف كلمة مدر لمقابلتها بأهل الوبر، والمدر هو الطين للبناء، وترد الكلمة في الكتب التي سبق ذكرها بهذا المعنى «لا يبقى على ظهر الأرض بيت وبر ولا مدر». «لا يترك الله بيت مدر ولا وبر» (رواهما ابن حنبل). وفي حديث ثالث : « . . . من أن يكون لي أهل الوبر والمدر» (رواه النسائي وابن حنبل) ويستخرج في الحديث النبوي من كلمة «المدر» صفة تميز أهل المناطق المبنية فيقول : «فراقني مدري من أهل اليمن» (رواه الدارمي).

٤ - في الفقه :

ليس الفقه شيئا آخر سوى استنباط الأحكام من الشرع ولكن هذا الاستنباط يتسع ويضيق حسب حاجات الحياة الاسلامية . ولما كانت هذه الحاجات مرتبطة بالحياة المستقرة في أرض وزرع وبناء، وكان الإسلام دينا مدنيا في روحه، فإن من الطبيعي أن يتسع باب الأصول والأحكام في الفقه ليشمل أجلاً ما في حياة المدينة وأدقها على السواء ضمن اطار الشريعة . وقد يكون من الصعب تتبع كتب الفقه التي وصفها علماء المذاهب وكتب الفتاوى والتوازل، ودراسة ما حدث من أحكام تتصل بالمدينة الاسلامية ذلك أن ما يزيد على نصف التراث الاسلامي وأكثر من نصف العلماء في الاسلام كانوا من الفقهاء ودارسي الفقه فهم بحر لا ساحل له .

على أننا سنحاول استعراض بعض المسائل والمشكلات المدنية التي تصدى الفقهاء الاسلاميون حلها مرجئين التوسع فيها إلى مواضعها من الكتاب، فالفقهاء قد رافقوا تماما كالمنجمين والمهندسين والبنائين، نشأة المدينة الاسلامية (أو تحويرها ان لم تكن جديدة) منذ وضع خطوطها الأولى حتى أقصى نشاطاتها . وكانت لهم دوما كلمتهم باعتبارهم يمثلون الفكر الشرعي وكانوا يصدرون في آرائهم عن مبادئ اسلامية ثابتة، فلا ضرر ولا ضرار، والاصل جلب المنفعة ودفع المضره، وهكذا بحثوا مثلاً : أحكام الشوارع وممراتها وسقائفها، وهيئة العام منها والخاص، وحقوق الانفاق فيها ونظافتها، وتوزيع الأسواق، كما بحثوا أحكام السور وضرورة إحكام بنائه، ومواصلة الصيانة له وترميمه، وفي أمن المدينة، واحتلت قضية توفير مياه الشرب مكانها الهام من اهتمامهم . فكان الفقهاء وراء عدد من مشروعات جرها وإصلاحها، وحين انتشرت ظاهرة الأوقاف كان لهم دورهم أيضا في بيان شرعيتها وربطها بالأصول الاسلامية، ووضع شروطها وأحكامها . ونرى في ثنايا كتب الفقه أحكاما تتعلق بالأبنية وارتفاعها واطلالها، أو تتعلق

بالابنية العامة وإحسان بنائها. فالبناء يدخل في معظم أبواب الفقه وقد قسم الفقهاء الأبنية إلى أربعة أقسام لكل منها مواصفاتها وأحكامها :

- ١ - البناء الواجب كالمسجد والرباط والسد والقنطرة .
- ٢ - البناء المندوب كالمثذنة، والسوق وسبيل الماء، وبيوت الخلاء، والكنائيب .
- ٣ - البناء المباح كالمسكن بحيث يحفظ الحياة الخاصة للسكان، والخانوت للمحرقة والبيع .
- ٤ - البناء المحظور كالقبور المسنمة، أو المبالغ فيها والكنائس والبناء بأرض الغير .

وقد بحثوا تخطيط وإنشاء الوحدات المعمارية الدينية وفي صلاحية البناء ومادة البناء وإقامته دون غش في مواده وتنقيده حسب شروط المتعاقدين وذكر هذه الشروط في العقود. وبيان حقوق الجدار وحقوق صاحب السفلى وصاحب العلوى، والجدار المشترك وأحكام البناء في أرض الغير والأرض الموات، وأرض الوقف، وفي منع البناء في أماكن محددة وإباحته في أماكن أخرى. وثمة فصول واسعة في كتب الفقه لأحكام بيع البناء وتأجيله وحق الشفعة وحق الارتفاق، وبخاصة لأحكام الارث والقسمة فكان «للفرضي» وهو الموظف المسؤول عن هذه الأمور مكانه الخاص من المسجد والجامع، أو في غيره، قريبا من مكان القاضي لبيان أحكام الشرع في هذه الأمور وفض النزاعات فيها.

وقد درس الفقه أيضا أحكام المقابر وأماكنها، وقضايا توفير الغذاء في المدينة وتدخل الدولة في تقييد النشاط الاقتصادي وفي الأسعار والأجور وفي الديون والعقود المحرمة كالربا والميسر وبيع الغرر وفي أحكام الغش والبيع والشراء، والغبن فيها أو التطفيف في الميزان، وفي النظافة العامة، ونظروا في

أحكام الجحامات وأحكام أهل الذمة في المدينة وفي الآداب العامة وأحكام الرفق بالأطفال، والرفق بالحيوان، والأمانة في المعاملة، وفي فض النزاعات في الأحوال الشخصية.

والشريعة، وهي قانون الإسلام بما فيه المدينة الإسلامية، لها حكمها الفاصل بين الناس. وكان القاضي أحد أركان السلطة الأساسية في المدينة وقد لا تعتبر مدينة دون وجوده. وتاريخ القضاء والقضاة وأدابهم جزء أساسي من تاريخ أي مدينة إسلامية. والكتب المؤلفة عنهم في المدن المختلفة تكاد تضاهي ما كتب عن الأمراء والخلفاء. وكان لهم الكلمة الفصل في أحوال المدينة وسكانها. ونقرأ عن نزاعات قامت بين المتشددين منهم وبين الحكام. وقرأنا عن عزلهم أو عن تكريمهم أو عن إبائهم المنصب لما فيه من إخراج لتقواهم الدينية، وذلك أن سلطاتهم غير محددة إلا بحدود الشرع.

٥ - في الحسبة

من مبادئ الإسلام العامة في مجال التشريع والمعاملة العامة والأخلاق، مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو تعبير عن التكافل في الجماعة والمسؤولية العامة المتبادلة. وإذا كان ما روي في كتب الأدب والقضاء من نماذج الجرأة على الحكام (انظر عيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وإحياء علوم الدين للغزالي) فإنها يمكن أن تعد في باب الاحتساب فإن الحسبة كانت عملياً إحدى وظائف الدولة أو الولايات في الإسلام. بجانب القضاء والمظالم فقد عني أوائل المؤلفين في هذا الموضوع كما ورد في الأحكام السلطانية، وغيره، في إيضاح الفروق بين الحسبة والقضاء والمظالم وإذا عرفت الحسبة بأنها «أمر بالمعروف إن ظهر تركه، ونهي عن المنكر إن ظهر فعله، وإصلاح بين الناس» إلا أنها في واقعها: رقابة إدارية تقوم بها الدولة في المدينة عن طريق موظفين خاصين يراقبون نشاط

الأفراد في مجال الأخلاق والدين والاقتصاد وفقا لمبادئ الشرع الإسلامي وللأعراف المستمدة منه فهو إذن عمل تابع لعمل القضاة ومشموله . وقد ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ما كان ذكره ابن بسام عن تعريف الحسبة بأنها علم باحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم التي لا يتم التمدن بدونها من حيث اجراؤها على القانون المعدل بحيث يتم التراضي بين المتعاملين بنهي عن المنكر وأمر بالمعروف بحيث لا يؤدي إلى مشاجرات وتفاجر بين العباد» .

والحسبة بهذا المفهوم ركن أساسي في تنظيم المدينة الإسلامية ، والحد الفاصل بينها وبين القضاء حد عرفي لا شرعي وقد تكون أوسع سلطة في بلد منها في بلد آخر إلا أنها ايجابية فورية فلا ينتظر الخصمان الذهاب إلى القاضي لفض الخصومة ولكن المحتسب هو الذي يباشر بنفسه الرقابة ويحدد العقوبة . وأصل هذا النظام ، رغم الشبهة التي يحاول فيها بعضهم جعله نظاما بيزنطيا ، هو أصل إسلامي . ورد في صحيح مسلم «أن الرسول ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال أصابته السماء يا رسول الله . قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس . من غشنا فليس منا» .

ويذكرون أن الرسول ﷺ ولى سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة ، وأن الخلفاء الراشدين كانوا يتولون أمر السوق أو يكلونه إلى من يرون لمراقبته . وقد ولى عمر بن الخطاب أم الشفاء الأنصارية على السوق ، وقيل إنه ربما ولاها أمورا تتعلق بالنساء . وإذا اتفق ذلك كله مع وجود هذا النظام في المدن البيزنطية فليس معنى ذلك الأخذ عنها ، إن ضرورات التنظيم في المدينة الإسلامية هي التي فرضته .

ولقد ظلت مؤسسة الحسبة تنمو وتتطور في المدن الإسلامية، وتكون أحيانا من أعمال القاضي، أو تكون أحيانا أخرى تطوعية، حتى فرضت نفسها على المؤلفين من جهة وتفردت كعمل خاص من جهة أخرى. ويظهر بوضوح من الكتابات الأولى عنها أنها كانت «ولاية» أي تقوم على التعيين وأنها «سلطانية» أي من السلطات الرسمية. وأول من كتب فيها هو الماوردي (توفي سنة ٤٥٠) في كتابه الأحكام السلطانية ومعاصره أبو يعلى الحنبلي (توفي سنة ٤٥٦) في كتاب يحمل العنوان نفسه والفصلان المكتوبان حول الحسبة في هذين الكتابين هما أول ما كتب في موضوعها، ثم جاء الغزالي فكتب في إحياء علوم الدين فصلا آخر، وبالرغم من أن ابن تيمية (توفي سنة ٧٢٨) كتب كتابا في الحسبة بحث فيه قواعدها، ومن أن النويري (سنة ٧٣١) في كتابه نهاية الأرب (ج ٦) نقل حرفيا ما ذكره الماوردي، ومن أن ابن خلدون (سنة ٨٠٨) كتب فصلا في الحسبة باعتبارها ولاية من الولايات وخطة من خطط الإمامة والخلافة فإن هناك كتابا خاصا في الحسبة العملية ظهر في القرن السادس، وقد أضحى أساسا للمؤلفات الأخرى من بعده وهو كتاب: «نهاية الرتبة في طلب الحسبة»، لعبد الرحمن الشيرزي (المتوفى سنة ٥٨٩) وقد أخذه من بعده ابن بسام (هو من رجال القرن الثامن من الهجرة - القرن ١٤ م) وهو غير المؤلف الأندلسي المعروف صاحب الذخيرة، عنوانا بعد أن أضاف إليه أبوابا عدة جعلته أربعة عشر ومائة باب بعد أن كان كتاب الشيرزي في أربعين وكان قد عدا على الكتاب قبل ذلك مؤلف آخر هو ابن الأخوة (المتوفى سنة ٧٢٩ / ١٣٢٨) بتأليفه كتاب (معالم القربة في أحكام الحسبة) في سبعين بابا معظم ما فيها مأخوذ عن الشيرزي، بل عدا بعد ذلك أبو عبدالله محمد بن الحاج في كتاب المدخل. وقد انفرد عنه في كتاب آخر مؤلفان:

١ - «آداب الحسبة» لمحمد بن أحمد القطي المالقي، وهو مؤلف

أندلسي عاش حتى أوائل القرن الثاني عشر الميلادي وهذا يجعله أقدم من الشيرزي . وقد نشر كتابه مستشرقان فرنسيان في باريس سنة ١٩٣١ .

٢ - ٣ - ٤ - ثلاث رسائل في الحسبة لمؤلفين أندلسيين نشرها واحد من هؤلاء المستشرقين وهي لكل من محمد بن أحمد بن عبد الأشبيلي وابن عبد الرؤوف وعمر بن عقمان الجرسيفي .

٥ - كتاب «الحسبة» لجمال الدين يوسف بن عبد الهادي (المتوفى سنة ٩٠٩) من علماء دمشق . وقد طبع الكتاب في بيروت سنة ١٩٣٧ وبالرغم من قلة الكتب المؤلفة في الحسبة فإن مكانتها ودورها في نظام المدينة الإسلامية من أكبر المكنات والأدوار، كما أن ظاهرة التمدين في هذه المدينة لا تكاد تظهر بوضوح وقوة بمثل ما تظهر هذه الكتب وقد نستطيع الاستغناء عن المؤلفات التي كتبت في قواعد الحسبة ومبادئها بشكل فقهي ووضعت نظريتها ونظامها كالماوردي والغزالي وابن تيمية، لكن الكتب التي تأخذنا إلى داخل الحياة العامة في المدينة هي التي تهتمنا وتكشف مدى نمو الفكر التمديني - العمراني فيها .

٦ - في كتب التاريخ البلدانية :

منذ وقت مبكر جداً وقبل أن تظهر التواريخ العامة ظهرت بجانب تواريخ الأحداث الكبرى في الإسلام، (ونعني كتب الفتوحات والحروب الداخلية وما إليها) تواريخ المدن . وكان أوائلها ما اتصل بالمصريين العربيين الكبارين : البصرة والكوفة ثم ظهرت بعض التواريخ الأخرى . فلما كتب الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) كتابه تاريخ بغداد في ١٥ مجلداً صار هذا التاريخ نموذجاً يحتذى في كتابة التواريخ المدنية الأخرى في الإسلام . وأهم ما في هذا الكتاب أن صاحبه قدم له بدراسة عن بغداد

في بنائها وتخطيطها، ومساجدها، وشوارعها، وحماماتها، وتطور الأحياء حولها. فأقبلت الكثرة من المؤلفات تقلد الخطيب. ويقدم كل مؤلف لتاريخ مدينته بمقدمة يصور بها المدينة قبل أن يذكر رجالها العلماء. صحيح أن هذه التواريخ كانت كتب تراجم وقد عينت بها كل المؤلفات البلدانية كل العناية وتضخمت بها كل التضخم وهي لا تعني ما تعنيه اليوم من دراسة المدن، ولكن تلك المقدمات هي الأقسام الهامة التي تعيننا لأنها حفظت لنا خطط المدن ومرافقها ومساجدها وقصورها وشوارعها والأزقة فهي شواهد على الاهتمام التمديني وعلى التنبه لأهميته والتأليف فيه. ولا تكاد توجد مدينة كبرى في العالم الإسلامي إلا ولها مؤرخها من هذا النوع في وصف الخطط والأحياء.

ويستطيع المولعون بالإحصاء أن يسجلوا ظهور ما يزيد على مائة وثلاثين مؤلفاً للمدن كتبت فيما بين القرنين الثالث والسابع في مدن المشرق وحده، أي ما بين العراق وأقصى الصغد. عدا التواريخ المحلية للمناطق كالعراق وفارس خراسان وعدا التواريخ المكتوبة بالفارسية وهي كثيرة. ومن هذه المؤلفات:

— خمسة عشر مؤلفاً عن بغداد، ولأنها كانت في ذلك الزمن سرية الدنيا، والمدينة العظمى كان طبيعياً أن تتضخم هذه المؤلفات لتصبح قرابة ٢٨٤ مجلداً منها خمسة عشر مجلداً كتبها الخطيب البغدادي (توفي سنة ٤٦٣ / ١٠٧١) وخمسة عشر مجلداً أو عشرين كتبها عبدالكريم السمعاني (توفي سنة ٥٦٢ / ١١٦٧) وحوالي الستة كتبها ابن الدبشي (توفي سنة ٦٣٩) وثلاثين كتبها ابن النجار (سنة ٦٤٣) ومثلها كتبها ابن الساعي (سنة ٦٧٣) وخمسة وخمسين كتبها ابن الفوطي (سنة ٧٢٣) وثلاثة كتبها ابن رافع (سنة ٧٧٤) ومائة مجلد كتبها ابن المارستانية بعنوان «ديوان الإسلام

الأعظم» (ويقولون إنه لم يتمها) وسبعة وعشرين مجلداً كتبها الكازروني (سنة ٦٨٩) بالإضافة إلى ما كتبه ابن القطيعي (سنة ٦٣٤ / ١٢٣٧) وابن الحبابي (بعد سنة ٣٧٦)، ويتميز ابن طيفور (القرن الثالث) بما كتبه عن تاريخ بغداد الذي لم يبق منه إلا جزء واحد، كما يتميز أبو سهل يزدجر الكسروي من القرن الرابع بما وصف في كتابه من خطط بغداد وعدد سكانها وحماماتها، وما تحتاج إليه من الأقوات والمال فيها كل يوم، وهي دون شك دراسة متقدمة. ولولا أنها ضاعت لكشفت عن وعي واسع بالوضع الاجتماعي والاقتصادي. ولقد قدمت لنا أثمن المعلومات عن أول المدن في تلك العصور. ولم نتوقف عند الكتب المفردة كابن القاطولي وابن غنديار وأحمد الرقي وغيرهم.

– وصدرت عن البصرة، وهي المصير الثقافي التجاري، خمسة كتب يتميز منها كتابان لرجلين يدعى أحدهما عبدالقاهر كريسزي النسب وقد ذكر أسواق البصرة ومحلاتها وشوارعها، بالإضافة إلى كتب ابن شبة (توفي سنة ٢٣٦) وأبي يحيى الساجي (سنة ٣٠٧ / ٩٢٠) وابن دهجان (بعد سنة ١٢٦٢ / ٦٦٠) وكانت البصرة في تلك الأونة ثغر الإسلام الأول وصلة الوصل بين الشرق الأقصى وبين حوض المتوسط وأوروبا.

– وصدرت عن الكوفة، وهي المصير الثقافي السياسي، خمسة كتب لابن فضال (أواسط القرن الثالث) وابن مجالد (أواخر القرن ٣) وابن النجار التميمي (٤٠٢ / ١٠١١) والعلوي الحسيني (سنة ٤٤٥ / ١٠٥٣) وابن النجار البغدادي (توفي سنة ٦٤٣ / ١٢٤٥).

– وكتب تاريخ واسط، خمسة منهم بحشل (ت. سنة ٢٨٨) والجلابي (ت. سنة ٥٤٣) وابن بختيار الواسطي (سنة ٥٥٢) وابن الدبيشي (سنة ٦٣٧ / ١٢٣٩).

– وكتب تاريخ أربيل ابن المستوفي في خمسة مجلدات واسعة (وتوفي سنة ٦٣٧ / ١٢٣٩).

– وتاريخ تكريت اثنان هما: ابن سويد التكريتي (سنة ٥٨٤ / ١١٨٨) وابن المفرج التغلبي (سنة ٦١٦ / ١٢١٩).

– أما الموصل فقد حظيت بعشرة مؤلفين بسبب مركزها الهام جغرافياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً منها: تاريخ أبي زكريا الأزدي (سنة ٣٣٤) والخالديين (سنة ٣٥٠ و ٣٧٠)، وابن الحبابي (سنة ٣٥٥) والشمشاطي (سنة ٥٧٧ / ١١٨١) وابن الأثير (٦٣٠ / ١٢٣٣) وابن باطيش (سنة ٦٥٥ / ١٢٥٧).

– ويسجل المؤرخون تاريخاً واحداً على الأقل لكل من أنبار، وسامراء، والرقعة، وميافارقين، وماردين، وخلاط، وديسر، وأذربيجان، ودر بند.

وإذا انتقلنا إلى إيران وجدنا مثل ذلك بكل من الري، وكشفر، وأخسيكت، وأبيورد، ومراغة، ونسف، ومازندران. ويلفت النظر تاريخ لجرجان تناول الملاكين والإقطاع والفلاحين أو من يسموهم بالثناء كتبه أبو يعلى بن الحسين، أما مدن إيران الأخرى فلها أكثر من تاريخ واحد، مثل: قم فلها تاريخان أحدهما كتبه أبو منصور شهردار (المتوفى سنة ٥٥٨) والثاني كتبه حسن بن محمد القمي (توفي مطلع القرن الخامس) ومثل ذلك NSF فقد كتب تاريخها اثنان هما: الورتيني (المتوفى سنة ٣١٠ / ٩٢٢) والمستغفري (المتوفى سنة ٤٣٢) وكتب تاريخ جرجان اثنان هما: أبو حمزة بن يونس (المتوفى سنة ٤٢٧) وعلى بن محمد الجرجاني (المتوفى سنة ٤٦٨) وظهر تاريخان آخران لمدينة استراياد كتب أحدهما أبو حمزة نفسه والثاني الإدريسي أبو سعد (المتوفى سنة ٤٠٥ / ١٠١٥).

وتزداد أعداد التواريخ مع ازدياد شأن المدينة، فقد كتب تاريخ قزوين ثلاثة مؤرخين هم أبو عبدالله ابن ماجة الحافظ (المتوفى سنة ٢٧٣) وأبو يعلى الخليلي الحافظ (المتوفى سنة ٤٤٦ / ١٠٥٤) وأبو القاسم الرافعي (المتوفى سنة ٦٢٢ / ١٢٢٥).

وحظيت كل من همذان وشيراز وبيهق وسمرقند بمثل ذلك، فكتب تاريخ همذان كل من أبي الفضل التميمي الحافظ (المتوفى سنة ٣٨٤ / ٩٩٤) وعمران الهمداني (من رجال القرن الخامس) وأبي شجاع شيرويه بن شهردار (الموفى سنة ٥٠٩ / ١١١٥).

وكتب تاريخ شيراز كل من أبي عبدالله القصار (المتوفى أواخر القرن الخامس) وأبي القاسم هبة الله الشيرازي (المتوفى سنة ٤٨٥ / ١٠٩٢) وأبي المنصور شهردار (المتوفى سنة ٥٥٨)، أما بيهق فكتب تاريخها ثلاثة مؤرخين كان كتاب أحدهم وهو أبو الفضل البيهقي (توفى سنة ٤٧٠) مسهباً لدرجة بلغ معها ثلاثين مجلداً. وكتب هذا التاريخ أيضاً المؤرخ ابن فندق (المتوفى سنة ٥٦٥ / ١١٧٠) ولها تاريخ ألفه أحد المجهولين في مطالع القرن الرابع. ولم تعدم سمرقند من يؤلف لها أيضاً ثلاثة تواريخ كتبها أبو العباسي المستغفري (المتوفى سنة ٤٠٢ / ١٠١١) وأبو سعد الإدريسي (المتوفى سنة ٤٠٥) وأبو حفص النسفي (المتوفى سنة ٥٢٧).

وتأتي بعد ذلك كوكبة المدن الإيرانية الكبرى وتواريخها :

نيسابور : وقد كتب تاريخها أربعة مؤرخين هم الكعبي (المتوفى سنة ٣١٩) وابن الجارود (المتوفى سنة ٣٢٠) وعبد الغافر الفارسي (المتوفى سنة ٥٢٩ / ١١٣٤) وتميز الحاكم النيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٥) بتاريخه الكبير

لنيسابور البالغ ١٢ مجلدا والذي قال عنه السبكي : لم تر عيني تاريخا أجمل منه هو عندي سيد الكتب الموضوعه للبلاد .

مرو : التي كتب تاريخها سبعة مؤرخين أحدهم عبدالكريم السمعي الذي خصها بتاريخ من عشرين مجلدا . اما الباقيون فاقصدوا في الكتابة وهم ابن سيار (المتوفى سنة ٢٦٨ / ٨٨١) وابن حمدون الهورقاني (المتوفى سنة ٣٠٦ / ٩١٨) وأبو معدان (المتوفى سنة ٣٧٥ / ٩٨٦) وأبو صالح المؤذن (المتوفى سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧) والشاذلي الخرقني (المتوفى سنة ٥٥٣ / ١١٥٨) وأخيرا جاء ابن فرجون سنة (المتوفى سنة ٧٦٩ / ١٣٧١) .

بلخ : وقد كتب تاريخها أولا أبو علي البلخي (المتوفى سنة ٢٩٤) وأبو عبدالله الجوبباري (توفي حوالي سنة ٣٠٠) وابن الأزهر الحافظ (المتوفى سنة ٣١٩) وأبو القاسم الكعبي (المتوفى سنة ٣١٩) وابن طاهر (المتوفى سنة ٣٢٣ / ٩٢٤) وأبو زيد (من رجال القرن الرابع) وأبو اسحق المستملي (المتوفى سنة ٣٧٦ / ٩٨٧) والمديني السمرقندي (المتوفى سنة ٥٥٠ أو ٥٥٦ / ١١٥٥) وله كتاب آخر عن شعراء بلخ .

هراة : وقد حظيت بمثل ما حظيت به مرو من الحفاوة بتاريخها، فقد كتبه ابو عبدالرحمن السلمى المعروف بشكر (توفى سنة ١٣٠٣) وأبو إسحق الحداد (المتوفى سنة ٣٣٤ / ٩٤٦) والبرزاز (المتوفى أواسط القرن الرابع) وأبو عبدالله الكتبي (من القرن الخامس) والباشاني المؤدب (المتوفى سنة ٥٠١ / ١٦٠٧) وشيرويه أبو شجاع، وأبو الروح البردي (المتوفى سنة ٥٤٤ / ١٦٤٩) والفامي أبو النصر (المتوفى سنة ٥٤٦ / ١١٥٠) .

خوارزم : وقد كتب تاريخها كل من أبي أحمد ابن القاضي (المتوفى سنة ٣٤٦) وابن سمقة الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٦٩) . والحسن النيسابوري (المتوفى سنة ٤٤٢ / ١٠٥٠) والبيروني أبو الريحان (المتوفى سنة ٤٤٠)

والكاساني (ولعله من القرن الرابع) وصدر الأجلاء (في النصف الثاني من القرن السادس) ومؤرخان مجهولان أيضا حتى أوفى على الجميع الحافظ ابن أرسلان الخوارزمي (المتوفى سنة ١١٧٢/٥٦٨) فكتب تاريخها في ثمانية مجلدات وبسط الكلام في وصف خوارزم وأهلها.

بخارى : ولها بدورها سبعة تواريخ أولها تاريخ النرشخي أبي بكر الذي أتمه سنة ٩٤٣/٣٢٢، وفيه معلومات هامة عن بخارى والمناطق المأهولة حولها، وعن المباني والمحاصيل وأساليب الحياة المتخلفة عن العهود السابقة للإسلام. وتبعه أبو نصر الجيهاني (بعد سنة ٣٣٦) ومحمد الحافظ، المعروف بغنجانار (توفي سنة ٤١٠ أو سنة ٤٤٢/١٠١٩) والمجاني (المتوفى سنة ٤٣٥) وابن جناح من رجال القرن الخامس، وابن زفر (المتوفى سنة ٥٧٤) وأخيرا جاء مؤرخ مجهول فذكر أخبار بخارى حتى فتح المغول لها وخرابها سنة ١٢١٩/٦١٦.

أما المدينة التي حظيت بأكثر التواريخ عددا بعد بغداد، فهي أصفهان التي كتب تاريخها اثنا عشر مؤرخا. ويعود ذلك إلى التقاء المكانة الجغرافية مع الاقتصادية والثقافية فيها في تلك العصور. فقد بدأ التواريخ أبو عبد الله الأصفهاني المؤدب (توفي قبل سنة ٣٦٠هـ) ثم تلاه أبو الشيخ الأنصاري (المتوفى سنة ٣٦٩) وأبو الحسن بن يسار (المتوفى سنة ٣٧٥) وابن مردويه (المتوفى سنة ٤١٠/١٠١٩) وابن مندة (المتوفى سنة ٤١٢) وأبو القاسم بن مندة (المتوفى سنة ٤٧٠) والمافروخي (من القرن الرابع) وعلي بن حمزة (من القرن الرابع عشر) وأبو بكر المعدل (من القرن الخامس) وأبو منصور شهردار بن شيرويه (المتوفى سنة ١١٦٢/٥٥٨) وأما أجمع تواريخ أصفهان فهو كتاب أبي نعيم الحافظ، كتبه في مجلدين كبيرين.

وما قدمنا إذ قدمنا إلا نموذجاً للجهد البلداني الذي بذل في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي حتى العهد الصليبي . وتقدم لنا بلاد الشام وحدها صورة أخرى فيها ٦٥ مؤلفاً في الفترة نفسها من أبرزها : تاريخ دمشق لابن عساكر، (سنة ٥٧٠) وكان في ثمانين مجلدة، وقد استهله صاحبه بمجلدة شرح فيها كل ما يتعلق بخطط دمشق وشوارعها وحماماتها ومساجدها وأزقتها ودورها، مما مكن الباحثين من رسم صورة كاملة لطبغرافية المدينة في عهده، عهد نور الدين بن زنكي . . .

والمؤلف الآخر البارز في بلدانية الشام هو بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (سنة ٦٦٠) وقد كتبه صاحبه في أربعين مجلداً بقي منها إلى اليوم عشرة بخطه وفي المجلد الأول منها صورة لحلب شبيهة بالصورة التي تجدها لدى الخطيب البغدادي عن بغداد، ولدى ابن عساكر عن دمشق . ويمكن أن يبرز هنا أيضاً الكتابان السابقان في مجال تاريخ المدن لكتاب الأزرقى (المتوفى سنة ٢٤٤/٨٥٨) وكتاب الفاكهي (المتوفى حوالي ٢٧٢/٨٨٥) . ففيهما وصف الكعبة، ووصف الأبنية المحيطة بها . ثم يعقب الأزرقى على ذلك بتعداد الدروب والأحياء بمكة، مع ذكر عدد كبير من الأسماء، فهو أشبه بالدليل الجغرافي . كما يبرز كتاب ابن عبدالحكم (المتوفى سنة ٢٥٧/٨٧١) الذي خصص الباب الثالث من أبواب كتابه عن فتوح مصر لوصف خطط الفسطاط والجيزة والاسكندرية، وكان أول كتاب للخطط يظهر في مصر التي ظل مؤلفوها على الكتابة فيها، وعلى السنة نفسها في سلسلة متصلة حتى المقرئزي .

ولم نحصر المؤلفات البلدانية التي ظهرت في مصر والمغرب والأندلس - وتبلغ في التقدير قرابة المائة عدداً - لكن أحصينا في محاولة أخرى ما ظهر في المشرق ونعني في الشام ومصر منذ القرن السادس وحتى أواخر القرن العاشر الهجري .

ومنها ٤١ مؤلفا حول مدن الشام و ٢١ حول المدن في مصر و ٤٢ حول مدن الحجاز و ١٥ لمدن اليمن و ١١ للعراق و إيران و ٢ للأناضول . ونسبتها إلى مجموع كتب التاريخ في هذه الفترة نفسها تبلغ ٣,٧٪ من المجموع وهي نسبة عالية إذا عرفنا أنها تأتي في الدرجة الثانية بعد كتب التاريخ العام التي تبلغ نسبتها ٧,١١٪ في حين لا تزيد نسب المؤلفات التاريخية الباقية على ٢٪ إلى ٥,٣٪ ويتعلق بعضها بالتاريخ الاقليمي وبالذيول المختلفة وبعض الحوادث الخاصة وكتب الرجال وذيولها وكتب الطبقات والمتصوفة والصحابة والسيرة النبوية وسير الحكام والأنساب وغيرها من ابواب التاريخ . ويبرز من مؤلفي هذه الكتب المقرئ الذي وصل إلى القمة في تاريخه لخطط القاهرة ووصفها وتحديد مواقعها، كما يبرز ابن الحنبلي مؤلف الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل . ويلفت النظر كثرة الكتب التي ظهرت حول الحرمين الشريفين خاصة تلك السلسلة المتصلة من المؤلفات حول حلب .

ولم يعد المغرب ولا الاندلس مثل هذه التواريخ المبكرة ففي كتاب الممالك والممالك - في القطع الباقية منه لدى المؤلفين - ذلك الاهتمام الطبغرافي، ولدى أحمد بن محمد الرازي التاريخي (توفي سنة ٣٣٤/٩٥٥) الذي تذكر المصادر أنه وضع كتابا في طرق الاندلس ومرافئها ومدنها الكبرى، كما وضع مصنفا خاصا بعنوان وصف قرطبة، أورد فيه تفصيلات شوارعها وقصور الاعيان فيها، وقد استمر الولوج بتأليف مثل هذه الكتب في الاندلس والمغرب حتى عهد متأخر .

هذه اللوحة العابرة حول البلدانيات تكشف عن جانب من مسيرة الفكر التمديني خلال العصور الاسلامية وجانب من عمقه ومن عراقته وقدمه في الاسلام وتأثيره في مفهوم الناس لمعنى الحضارة . ان هذا الاصرار المستمر على كتابة تاريخ المدن من قبل ابنائها يدل على مجرى الفكر العمراني الاسلامي . لقد كان العرب المسلمون مرتبطين بالعيش في المدن . وكانوا

يفتخرون بالانتساب إليها ودراسة تاريخها، ولهذا كتبوا من الكتب فيها ما لو استعرضنا الصفحات التي كانت كتب التراجم تصف فيها الرجال لما وجدنا أحدا، وبخاصة بعد القرن الثاني الهجري، إلا ويلحق بنسبه اسم بلده. فهذا قاهري أو بغدادي أو قدسي، وهذا موصلني نيسابوري أو جرجاني، وذلك قيرواني أو جياتي أو غرناطي. وفي ما يشبه كتاب الانساب للسمعاني من هذا النوع من الانساب المدتية دليل واضح.

٧ - في المؤلفات الجغرافية :

إذا عني المسلمون بتأليف الكتب الجغرافية عناية واضحة فقد كانت المدن لديهم بمثابة الركائز التي تستند إليها تلك المؤلفات حتى أن الكثيرين يعتبرون ماكتبه العرب من الكتب الجغرافية كتباً في جغرافية المدن بقدر ماهي الجغرافيا الاقليمية. وما كان ذلك الاهتمام البالغ بالمدن عن عبث وإنما كانوا يهتمون بالمظاهر الحضارية، ومراكز السلطة السياسية، ومجاور الجباية، ونقاط الدفاع والحرب، ومنابر الدين، والتجمع السكاني، ومحطات القوافل، وكل ذلك يتجمع في المدن. ومع أن معظم الكتب الجغرافية الأولى انما كتبت بغرض تحديد الضرائب وواردات الدولة او بغرض التعرف الى طرق الحج السالكة إلى مكة والمدينة، فسرعان ما صار هذان الغرضان بعض الاغراض الاخرى. وصارت الكتب الجغرافية تكتب لذاتها، وبخاصة بعد ان تخلصت من أثر المدرسة اليونانية من جهة، ومن أثر الجغرافيين اللغويين (أمثال ابن الكلبي والاصمعي والسرخسي والجزمي وغيرهم) من جهة اخرى.

وكتابة الجغرافيا لذاتها اقتضت الارتباط بالكلام على المدن، وهكذا كان الجغرافيون عامة يطوفون حول هذا الموضوع دون ان يستطيعوا الفكك منه ومن أبرزهم في الأوائل والآخرين : هشام بن محمد بن السائب

المخزومي (توفي سنة ٢٠٦/٨٢١) وهو مؤرخ نسابة مشهور من السابقين .
وقد كتب بين الكثير كتابين في البلدان : كتاب البلدان الكبير، وكتاب
البلدان الصغير، وقد ضاع الكتابان .

ابن خرداذبه (حول سنة ٣٠٠) وهو في كتابه المسالك والممالك يعطي
جانبا للجغرافيا الرياضية وشكل الأرض حسب بطليموس، وجانبا آخر
لاتجاه القبلة في كل بلد، ثم يكرس قمسا لسواد العراق في تقسيمه الإداري
وانواع الضرائب فيه وملوكه القدماء، ويعمل في باقي الكتاب على وصف
الطرق معددا المدن التي تمر فيها ابتداء من بغداد التي يعتبرها المركز . ويصف
طريق البحر إلى الصين والطريق إلى الأندلس . . . وهي سلاسل بعد
سلاسل من المدن .

اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٨٤/٨٩٧) ويقول في كتابه «البلدان» «إني
عنيت في عنفوان شبابي . . . بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد
لأنني سافرت حديث السن . . . فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان
سألته عن وطنه ومصره . . . وسألته عن بلده ذلك في . . . مدنه ماهي؟
وزرعه ماهو؟ وساكنيه من هم عرب أو عجم . . . (وسألته) عن شرب أهله
حتى أسأل عن لباسهم ودياناتهم ومقالاتهم والغالين عليه ومسافة ذلك البلد
وما يقربه من البلدان . . . ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه حتى
سألت خلقا كثيرا . . . من أهل المشرق والمغرب وكتبت أخبارهم . وذكرت
من فتح بلدا بلدا وجندا ومصر مصر من الخلفاء والأمراء ومبلغ خواجه وما
يرتفع من أمواله . . . (وبقيت) أوّلف هذا الكتاب دهرأ طويلا . . . وجعلنا
هذا الكتاب مختصرا لأخبار البلدان . وقد ذكرت أسماء الأمصار والأجناد
والكور وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ومن يسكنه ويتأسس
فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر

والمصر ومن فتحه . . . ومبلغ خراجهم وسهله وجبله وبره وبحره، وهواءه في شدة حره وبرده ومياهه وشربه . . .» .

وقد وفي اليعقوبي بما وعد وكان اتجاهه إلى الجانب الاحصائي الطبغرافي ووصف بخاصة بغداد وسامراء «لأنها مدينتنا الملك ودار الخلافة» وقدم معلومات ثمينة جدا عن خططها وكان اهتمامه بعدهما يتجه إلى اعطاء لوحة عامة عن مدن البلاد الاسلامية وطرقها لا بالشكل الجاف عند ابن خرداذبه ولكن بشكل حي مقبول .

وإذا كان ابن رسته (المتوفى بين ٣١٠ - ٣٣٧/٩٢٢ - ٩٤٨) قد اهتم خاصة بمكة والمدينة وكان لوصفه صنعاء أهمية خاصة فإن الاصطخري، اسحق الفارسي في كتابه المسالك والممالك قد أبدى اهتماما خاصا بجميع المدن فهو يذكر المدينة وموقعها وأثارها وما فيها، والطرق التي تربطها بما حولها . وينتهي بتحديد موقع هذه المدن على خرائطه .

وأكمل عمله معاصره الأصغر الوراق محمد بن يوسف القيرواني الاندلسي (المتوفى سنة ٣٦٣/٩٧٣) وقد كتب كتابه (المسالك والممالك) وصف المغرب بخاصة .

الرازي الكبير أحمد بن محمد التاريخي (توفي سنة ٣٤٤ / ٩٥٥) وهو أول من أدخل الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس، وتشير جميع المصادر إلى أنه وضع كتاباً كبيراً في وصف طرق الأندلس ومرافئها ومدنها الكبرى والأجناد الستة التي نزلتها بعد الفتح . كما وضع كتاباً في وصف قرطبة ذكرناه من قبل .

ابن حوقل (توفي حوالي ٣٩٠) وكتابه «صورة الأرض» (ويسمى أيضاً بالمسالك والممالك) يكمل ما نقص عند الاصطخري، ويذكر مثلاً عن منهجه

في الكتاب بالنسبة إلى المغرب فيقول: «ثم ذكرت المغرب . . . وبدأت بشكل ما حاذى منه أرض مصر إلى المهديّة والقيروان وما في براريها من المدن وإن قلت. وأعقبتهما بباقي صورته من القيروان والمهديّة إلى أرض طنجة وأزيلي، ورسمت على بحر مدنه الساحلية وشكلت طرقه جميع أنحاءها. . . وذكّرت مصر . . . وحال مدنها ومواقعها على المياه الجارية في أرضها وما كان يرسمها في بعدها عن الماء . . .» وابن حوقل يعطينا أدق الصور عن الأندلس في العصر الأموي وعن الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة فيه وعن محاصيله وعن تجارة الرقيق.

ويصف قرطبة بأنها بغداد الثانية، ويصف بالتفصيل جمال مدينة الزهراء (التي خربت بعده) ورونتق حي الرصافة.

المقدسي البشاري، أبو عبدالله محمد بن أحمد البناء (توفي حوالي ٣٩٠) ويعتبر أكثر الجغرافيين العرب أصالة^(١)، فقد وقف طويلاً عند المدن يعرفها تارة ويصفها بكل دقائقها تارة أخرى ويذكر القوائم الطويلة بأسمائها تارة ثالثة. وندين له بمحاولة التفريق الدقيق بين مصر، والقصبّة، والمدينة، والقرية، فلديه نقراً تعاريفها.

وبالرغم من أن المقدسي لم يتبع في كتابه التحديد الذي ذكره هو للمدن فإنه على الأقل قد أوضح في مجموعة تعاريفه التي قدمها الخصائص الأساسية للمدينة حسب المفهوم الإسلامي العام.

ابن الحسين المنجم: ويمكن أن نذكر بهذه المناسبة جغرافياً من القرن الخامس الهجري / ١١ م. اسمه إسحاق بن الحسين المنجم ألف كتاباً صغير الحجم بعنوان: «آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل زمان» نشرته

(١) كراتشكوفسكي - الأدب الجغرافي العربي (الترجمة العربية) ص ٢٠٨.

المستشرق أنجيلا كوداتسي A.Codazzi ولعل المؤلف أندلسي، ولعل كتابه مختصر لمصنف أكبر منه بكثير^(١). وتستند فكرته الأساسية على وصف المدن الكبرى، فهو يتكلم عن الحرمين الشريفين أولاً وبيت المقدس ثم عن بغداد ثم عن بلاد المشرق وإيران ثم مصر والمغرب والأندلس، ويفرد وصفاً خاصاً لمدينتي روما والقسطنطينية ثم مدينة الزايج في الهند وينتهي ببلاد الخزر والشاش والترك. إلا أنها أوصاف مختصرة بصورة عامة والكتاب صغير في ٤٥ صفحة عدا عشر صفحات بالإيطالية للتقديم وليس في معظمها جديد، إلا أنها تكشف الاهتمام بالعمران المدني.

المهلي: وهو الجغرافي الأول للفاطميين وكتابه الضائع (المسالك والممالك) بقيت لنا منه نقول لدى ياقوت، ولدى أبي الفداء، وكلها تشير إلى اهتمامه بالمدن والطرق بينها. ويحفظ لنا ياقوت بخاصة وصفه لأطلال سامراء ولمواقع عديدة في الجزيرة العربية ومدن الدلتا المصرية كما حفظ أبو الفداء ما ذكره عن الشام.

ابن القاص: أبو العباس أحمد بن القاص الطبري الأملي المتوفى سنة ٣٣٥ / ٩٤٦، وبالرغم من أن عنوان كتابه (دلائل القبلة) يدل على أنه ذو هدف ديني ومن أنه مختصر - كما يقول حاجي خليفة - وأكثره تاريخ وحكايات عن أحوال الأرض، ومن أن أسلوبه لا يخلو من الخلط، إلا أنه في الفصل الحادي عشر من الكتاب يتحدث عن البلدان المختلفة ويورد وصفاً لمكة، والمدينة، والبصرة، مع وصف قلعتي الخضر والخورنق (من العهد الجاهلي) ثم بيت المقدس والقسطنطينية وروما مع وصف أسوارها. كما يصف صنعاء والإسكندرية، وبعض مدن الأندلس، ثم أصفهان ومارستان، وسمرقند.

(١) كرانسكوفسكي - الأدب الجغرافي العربي ص ٢٢٩.

البكري أبو عبدالله «أكبر جغرافي الأندلس قاطبة»^(١) كما قال دوزي . وقد نحا في كتابه الجامع «المسالك والممالك» الذي ألفه حوالي سنة ٤٦٠ / ١٠٦٨ منحى الجغرافيين التقليديين العرب، فوصف الطرق والمراحل وبلدان العالم الإسلامي المختلفة، واهتم خاصة بالآثار فيها غير أنه أبرز نمطاً في الجغرافيا رده من بعده في كتابه (معجم ما استعجم) هو ذكر المدن والبلدان على حروف الألفباء، ووصف مواصفها المختلفة .

الإدريسي : أبو عبدالله محمد بن محمد (توفي سنة ٥٥٦ / ١١٦٠) ولعله من أشهر الجغرافيين بسبب كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وخارطة العالم المرفقة به مع سبعين خارطة أخرى تفصيلية . عاش زمناً في صقلية تحت الحكم النورماني، وقِيض له أن يجمع مادته الجغرافية من مصادر شتى . وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالمدن في مختلف نواحي الأرض وبوصفها على الخرائط التي رسمها فكان كتابه «كان إيضاحاً للخراط التي تعتمد بصورة أساسية على مواقع المدن والحصون» .

مجهول^(٢) كتب كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» وهو من القرن السادس، ويقدم مادة جغرافية أثرية عن بلاد مصر، ويورد غالباً مادة البكري فيصف المدن التي رآها وفقاً لترتيب معين ويسجل كل ما سمعه عن البلاد البعيدة .

الزهري : محمد بن أبي بكر (المتوفى سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢) الذي ترك كتاب الجغرافية^(٣) وفيه الكثير عن المدن الإسلامية وأحوالها متمشياً في ذلك

(١) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي العربي ص ٢٧٤ .

(٢) لعله أبو الفضل جعفرية محمد المعروف بابن عشرة . وقد نشر الكتاب سعد زغلول عبد الحميد في الاسكندرية ١٩٥٨ .

(٣) طبع الكتاب في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦٨ (وهو يجعل الكلمة بالعين دون الغاء : جغرافية) .

مع «الخريطة المأمونية» للعالم.

ابن سعيد أبو الحسن علي الغرناطي الأندلسي، (المتوفى سنة ٦٧٣ بدمشق أو سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦ بتونس) كتب بين ما كتب مؤلفاً جغرافياً سماه: «كتاب جغرافيا في الأقاليم السبعة» أو (بسط الأرض في الطول والعرض)، بعد أن رأى بنفسه مراكش وفاس وبلاد سبتة وبجاية وتونس والإسكندرية والقاهرة والفسطاط ودمشق وحلب وبغداد ومكة. ثم كتب كتاب: «فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب» وقسمه قسمين: «المشرق في حلي المشرق، والمغرب في حلي المغرب» وفي مقدمة الفلكية يذكر أن كلا من القسمين: «رتب على البلاد»: متى ذكر بلد ذكرت كوره وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه وأبتدي بكرسي مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ علمي من أعلام بمكانها من الأقاليم وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة معدنية أو نباتية».

أبو الفداء: ملك حماه عماد الدين الأيوبي (توفي سنة ٧٣٢ / ١٣٣١) وكتابه (تقويم البلدان) هو كتاب عام في الجغرافيا نظم على الأساس الكلاسيكي ونصفه الثاني جداول بأسماء البلاد، والنقاط المأهولة منها، وتحديد لموقعها من خطوط الطول والعرض، مع وصف عام للمدن وذكر آثارها القديمة، وعادات سكانها وأخلاقهم والطرق المؤدية إليها.

ابن شيخ الربوة محمد بن أبي طالب الدمشقي سنة ٧٢٧ / ١٣٢٧ الذي كتب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» وفيه وفرة واضحة من المعلومات عن المدن في العالم الإسلامي كله في فارس وتركستان وجزيرة العرب والشام وشمال إفريقيا والأندلس. وتحتجز هذه المدن ما يعدل نصف الكتاب أي البابين السابع والثامن منه.

ولم نذكر فيمن ذكرنا المؤلفين الأقل شأنًا في التأليف الجغرافي كالعذري (توفي سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥) وابن الفرضي (توفي سنة ٤٠٣ / ١٠١٢) والحجازي (توفي سنة ٥٥٠ / ١١٥٥) وغيرهم من الأندلس، وكالبغدادي (توفي سنة ٦٢٩) وابن المجاور (سنة ٦٩٠) وابن شداد (سنة ٦٨٤) والقزويني (سنة ٦٨٢) وابن الجيعان، وغيرهم في المشرق، فقد درجوا جميعاً على منهج وصف المدن والكور سواء في المشرق أو في الأندلس.

ولن نذكر هنا أيضاً المؤلفين الذين كتبوا عن المدن باللغة الفارسية مثل: ابن البلخي في «فارس نامه» وأحمد طوسي بعنوان «عجائب المخلوقات» ومحمد بن نجيب بكران في كتاب «جهان نامه» ومحمد عوفي في «جامع الحكايات» فكلهم استمرار للمدرسة الجغرافية العربية في وصف المدن ومواقعها وأحوالها، ولكن بلغة فارس.

ولكن نذكر أن عهد الإبداع الجغرافي في وصف المدن، وهي كل الجغرافيا، آنذاك، كان قد انتهى تقريباً مع القرن السادس للهجرة / ١٢ م وبدأ بدلاً منه عهد المعاجم الجغرافية، والموسوعات، وكتب الجغرافيا الإدارية، وكتب الخطط، وكتب الرحلات، والأزياج. لقد تحول المؤلفون إلى هذه الاتجاهات في التعريف بمدن العالم الإسلامي وأحوالها بعد أن استنفذوا الحديث عنها.

٨ - في المعاجم الجغرافية :

وإذا كان الذي برز فيها أولاً هو البكري فإن الذي وصل بها إلى قمة الاهتمام هو: ياقوت الحموي : (المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩) وقد كتب أهم وأوسع وأكبر معجم جغرافي عربي هو «معجم البلدان». نظمته على الأحرف الهجائية، ولكنه لم يقتصر فيه على الجغرافيا بل أضاف إليه معلومات لغوية

وتاريخية وأدبية وتنوعرافية كثيرة، بالإضافة إلى التراجم والحكايات . وهو
يخصص في مقدمة المعجم باباً هو الباب الثاني للبروج الإثني عشر، والبلدان
والمدن الواقعة تحت تأثيرها، ويعرض في الباب الثالث لتعريف النواحي
كالإقليم والكورة، والمخلاف، والأستان، والرسناق، الطسوج والجند،
وأباد، والسكة، والمصر.

ولياقوت عدا هذا العمل الضخم كتابان آخران يدخلان ضمن
التعريف الدقيق للمدن: أحدهما: «المتفق وصفاً والمختلف صقماً» وهو
مقتضب مأخوذ عن المعجم الكبير، ولكنه يقوم على اتفاق الأسماء في الرسم
وتباعدها في المكان، وقد عالج فيه ألفاً واحداً وتسعين اسماً متصلة بأربعة
آلاف ومائتين وواحد وستين موقعاً جغرافياً، معظمها أسماء للمدن
والبلدان. أما الكتاب الثاني فهو: «مراصد الإطلاع على أسماء الأماكن
والبقاع» ولعله ليس من عمله فهو مختصر للمعجم الكبير يبدو أنه ضاع.

الحميري: محمد بن عبد المنعم: وهو أندلسي معجم وصاحب تاريخي
جغرافي آخر سماه: «الروض المعطار في خبر الأقطار»^(١) وإنما هو في خبر المدن
والبلدان. وهو بدوره يرتب أسماء المدن على الألفباء. وبالرغم من ضخامة
المعجم التي تصل إلى ٦٢٢ صفحة كبيرة إلا أنه التزم بأن يكون المكان
مشهوراً وأن يكون مما اتصل به فقه أو حكمة أو خبر طريف. كما مال بكتابه
إلى مدن المغرب والأندلس أكثر من المشرق، لأنه لم يطلع على الكتب التي
ظهرت حول مدن المشرق. ومن هذه الزاوية يمكن أن يعتبر «الروض
المعطار» مكملًا على نحو من الأنحاء لمعجم البلدان.

(١) طبعة إحسان عباس - بيروت (مكتبة لبنان).

٩ - في الموسوعات :

وقد ظهر في العهد المملوكي بشكل ضخم بعد أن كانت تظهر من قبل محدودة وبشكل تذكرة . ومع أن ظهورها كان بسبب إداري يتعلق بموظفي الدولة وكان نوعاً من الجمع للمادة العلمية خوف الضياع والتبعثر، بعد انهيار الخلافة العباسية، إلا أنها مع ذلك أفردت فصلاً خاصة بالأقاليم والمدن والمسافات بينها .

ومن هؤلاء الموسوعيين: الوطواط محمد بن إبراهيم الوراق (المتوفى سنة ٧١٨ / ١٣١٨) وقد اشتهر بمؤلفات أدبية عديدة منها كتابه وعنوانه «مباهج الفكر ومناهج العبر» وهو بين الجغرافيا الفلكية والموسوعة والأدب . لكنه خصص الباب السادس من الفن الثاني في الكتاب لذكر البلاد ونواحيها، وما ملك المسلمون منها، وجعل الباب السابع لطبائع البلاد وأخلاق من سكنها، والثامن في المباني الأثرية، والتاسع لما وصفت به المعامل والمنازل .

وليست موسوعة شهاب الدين التويري (توفي سنة ٧٣٢ / ١٣٣٢) بالشيء الكثير في البحث عن المدن، ولكن موسوعة معاصرة ابن فضل الله العمري الدمشقي (توفي سنة ٧٤٩ / ١٣٤٩) هي الهامة لأنها على ضخامتها (٩٨٨١) صفحة مخطوطة قد توجهت إلى الجغرافيا والتاريخ، وعنوانها «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» يكشف ذلك . فقد خصص القسم الثاني الذي يسميه بالنوع الثاني لذكر الممالك، وقسمه إلى خمسة عشر باباً تصف الدول والبلاد من الشرق إلى الغرب، أي من الهند والسند وممالك جنكيز إلى أقصى الحبشة وأقصى المغرب مع الأندلس . ولم يزر العمري كل هذه البلاد، ولكنه كان يسأل الرجال عن بلادهم، ثم يسأل آخر وآخر، ليقف على الحق ويسجله .

وثمة موسوعة ثالثة ترتبط بموسوعة العمري هي للقلقشندي (المتوفى سنة ٨٢١ / ١٤١٨) وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، ومع أنه وضع موسوعة: «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» لتربية موظفي الديوان وتثقيفهم إلا أنه في القسم الجغرافي منها يميل إلى التوسع في أمر مصر ومدنها، دون أن يهمل المناطق الأخرى وبلدانها الشهيرة. فثمة وصف للبلدان غربي مصر من تونس إلى تلمسان إلى بر العدو (مراكش) إلى الأندلس، يليه وصف لبلاد السودان، وبلاد الروم، والشعوب الأخرى.

١٠ - في كتب الجغرافيا الإدارية :

وقد ظهر معظمها في مصر، في العهد المملوكي لأن مصر كانت المركز السياسي الأول في العالم العربي الإسلامي، لكنها كانت كلها أيضاً اقليمية تتناول مصر بخاصة، ويظهر مرة أخرى في هذا المجال: ابن فضل الله العمري، في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف». وقد ذكر في القسم الخامس منه نطاق كل مملكة، وما هو مضاف إليها من المدن والقلاع والرساتيق، والسادس لمراكز البريد والحمام وهجن الثلج والمراكب المسفرة به في البحر والمناور والمحرقات. وقد اقتفى أثره بعد ذلك بقرن مؤلف آخر هو الظاهري.

١١ - في كتب السياسة :

وهي كتب توجه الحكام إلى سبل الحكم الشرعي الواجب اتباعه وتبحث علاقات الحكام في المدن بالمحكومين والرعايا. وعلى الرغم من أن بعضها متأثر بكتب السياسة السابقة للإسلام. وبحكم الحكماء الأوائل ومن أن معظمها ما يزال مخطوطاً لم يظهر بعد للناس، ومن أن معظمها إن لم يكن كلها نظرياً، ومن أنها جميعاً متشابهة في مطالبته الحكام وتوجيههم للسياسة

المثلى التي تتبع مع الرعية، برغم كل ذلك، فإن علاقاتها بإدارة المدن وسياستها قوية، فسياسات الحكام كانت تظهر أقوى ما تظهر حيث يتكاتف الناس وتتعدد علاقاتهم بعضهم ببعض أي في المدن والقرى. . وتلفت النظر كثرة هذه الكتب في السياسة، فقد أحصيت منها بين مطبوع ومخطوط وضائع ١١٢ كتاباً، عدا ٢٨ كتاباً آخر في نصيحة الوزراء. وإذا تجاوزنا عن الكتب المبكرة التي ظهرت في القرن الثاني والمتأثرة بوضوح بالأثر الإغريقي ككتاب يوحنا بن البطريق (المتوفى في مطلع القرن الثالث) وكتاب سهل بن هارون (المتوفى سنة ٢١٥) فإن الكتب التي صدرت بعدها كانت إسلامية المنطلق والروح، ومنها كتاب أبي عبدالله محمد القزاز القيرواني (المتوفى سنة ٤١٢) واسمه «أدب السلطان والتأدب له» وكان في عشرة مجلدات.

كتب السرخسي أبي الفرج أحمد بن أبي الطيب: «كتاب السياسة» و«كتاب أدب الملوك» عدا كتاب المسالك والممالك.

كتب أبي الحسن الماوردي (توفي سنة ٤٥٠ / ١٠٥٨): «نصيحة الملوك» «سياسة الملك»، و«تسهيل النظر وتعجيل الظفر» الذي يتكلم عن الأخلاق السامية والناحية النظرية، وعن سياسة الملك وقواعدها. عدا كتابي «الدنيا والدين» و«الأحكام السلطانية».

كتاب الغزالي أبي حامد محمد بن محمد (توفي سنة ٥٠٥ / ١١١١) «التبر المسبوك في سياسة الملوك» وقد كتبه بالفارسية، ثم ترجم إلى العربية.

كتاب ابن الجوزي الإمام عبدالرحمن (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠٠) «حسن السلوك إلى مواعظ الملوك». وقد نحلوه كتاباً آخر باسم «الملوك في كيفية السوك» وقد ينسبونه إلى سبطه (المتوفى سنة ٦٥٤) والواقع أنه ليس للثنين، لأنه ينقل عن عجائب المخلوقات للقزويني (ت. سنة ٦٨٢) وابن النجار (ت. سنة ٦٨٢) والسبكي (ت. سنة ٧٥٦).

كتاب ابن أبي الربيع (ت. سنة ٦٧٢) «سلوك المالك في تدبير الممالك»
وسوف نعرض له. وكتب ابن ندي الجزري (المتوفى سنة ٦٥١). «معالم
التدبير»، «مراشد الملك»، «ضوابط الملك»، «وظائف الرئاسة». «التذكرة
الملوكية».

كتاب العز بن عبد السلام (توفي سنة ٦٦٠) «قواعد الأحكام في
مصالح الأنام».

كتاب ابن جماعة بدرالدين، أبي عبدالله محمد الكناني الحموي (ت.
سنة ٧٣٣) «تحرير الأحكام في تدابير أهل الإسلام».

كتاب ابن نباتة شمس الدين بن محمد المصري: «تدبير الدول».
كتاب ابن الرفعة، مجد الدين أحمد بن علي المصري محتسب القاهرة
(ت. سنة ٧١٠): «بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور
وسائر الرعية» وله ذيل بالاسم نفسه كتبه محب الدين المقدسي في أواسط
القرن التاسع.

كتاب الإمام ابن تيمية: (السياسة الشرعية في أحكام الراعي
والرعية).

كتاب ابن قيم الجوزية أبي عبدالله الزرعي الدمشقي: (الطرق
الحكمية في السياسة الشرعية).

كتاب أبي حسن محمد السهروردي البغدادي (من القرن الثامن):
«تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام». وينسبه صاحب كشف الظنون إلى
القاضي ابن جماعة (من القرن التاسع).

كتاب محب الدين أبي حامد محمد المقدسي (المتوفى حوالي سنة ٨٦٨):
«بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية».

كتب شهاب الدين توغان المحمدي الاشرقي (المتوفى سنة ٨٨٠) وهي

كتاب «المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية» الذي ألفه للسلطان قايتباي ورتبه على تسعة أبواب بين فيها الخلاف بين الأئمة في أهم الأحكام الشرعية، وكتابه المختصر «البرهان في فضل السلطان» وكتاب «منهاج السلوك في سير الملوك».

كتاب الصالحي عبدالصمد يحيى بن أحمد (المتوفى سنة ٩٠٢): «هدية العبد القاصر إلى السلطان الملك الناصر» (محمد بن الأشرف قايتباي). وقد قسمه إلى فصول تشتمل على النظر في أحوال الرعية والجواب على القصص (العرائض) التي تقدم للسلطان، وواجبات الولاية والعمال. والنظر في أمر المساجد والقلاع والحصون والجسور، وصرف أموال بيت المال. وفيه قواعد للعمل بها.

إن كتب السياسة هذه تكشف جانباً هاماً من سياسة المدن وإدارتها وعمارتها. ومن هنا كان شأنها الهام في دراسة المدينة الإسلامية.

١٢ - في الخطط:

أي وصف الأحياء والنواحي وقد كتب بعضها في العراق وبعضها في الشام والأندلس ولكنها برزت بوضوح في مصر، وكانت لها سلسلة طويلة متصلة من المؤلفين، تناولت تفصيل المدن المصرية وبخاصة موقع القاهرة. بدأت هذه السلسلة بابن عبدالحكم (توفي سنة ٢٥٧ / ٨٧١) في كتابه «فتوح مصر» إذ أفرد الباب الثالث منه لخطط: الفسطاط، والجيزة، والإسكندرية.

ثم جاء محمد بن يوسف الكندي (المتوفى سنة ٣٥٠ / ٦٩١) فوضع كتاباً في الخطط ضاع أثره. وكتب ابنه كتاباً آخر في فضائل مصر. وجاء ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ / ٩٩٧) فكتب في خطط مصر. وجاء الوزير

المسبحي (المتوفى سنة ٤٢٠) فكتب في الموضوع نفسه . ولحق به القضاعي المؤرخ (المتوفى سنة ٤٥٤ / ١٠٦٢) فكتب «المختار في ذكر الخطط والآثار» نقل عنه ياقوت والمقريزي فيما بعد . ولحق بهؤلاء بعد ذلك : النحوي ، والجواني ، ثم أبو صالح الأرمي ، وابن عبدالظاهر ، وابن المتوج ، وابن دقماق ، والأوحدي ، إلى أن أتى المقريزي ليصل بكتابه الخطط إلى القمة في كتابه «الموعظة والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» : مستوعباً فيه الكتب السابقة ومضيفاً إليه ما استجد بعدها . وشهرة الكتاب تغني عن وصفه ، لكن نسجل أنه وصف القاهرة بخاصة وصفاً دقيقاً بأحيائها ، وأزقتها ، ومساجدها ، ودورها ، وآثارها ، وكنائسها ، وقصورها ، وأبوابها ، وعادات أهلها وتقاليدهم في الاحتفالات .

فلدينا منه صورة حية واضحة شديدة الغنى والتفاصيل عن مدينة إسلامية في أوج حيويتها الاقتصادية والاجتماعية .

١٣ - في الرحلات :

ولقد تكون من أبرز المصادر عن المدن والحالة العمرانية فيها . ولم يكن الرحالون العرب يعيرون انتباهاً لغير المدن والمظاهر العمرانية . وقد يضيفون إلى ذلك الآثار كما يضيفون الحالة الاجتماعية والاقتصادية . ومجموعة كتب الرحلات تشكل جانباً أساسياً من اهتمام المسلمين بالمدن كما تشكل في الوقت نفسه جانباً أساسياً من مصادرنا عنها . والرحالون كثيرون جداً لأن الرحلة كانت جزءاً من السعي للعلم وللإتصال بالعلماء ، كما تشكل الجزء الأساسي من الحج ومن السعي للتجارة في أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت عقد ومفاصل الرحلات جميعاً في المدن . وقد تميز بعض الذين رحلوا بكتابة رحلاتهم فوصفوا - وأحياناً بأسهاب - المدن التي مروا بها . كما تميز بعض هؤلاء الكتاب بدقة ملاحظاتهم أو طولها أو بالتدقيق في العادات الاجتماعية ،

أو في المحاصيل والخيرات، أو في الآثار وتخطيط المدن، مما أورثنا حصيلة هامة من عناصر البحث التمديني. وقد ظهرت كتب الرحلات بخاصة حين قلت الحماسة لتأليف الكتب الجغرافية. فكأنها الطريق الجديد للجغرافيا.

ومن الرحالة ناصري خسرو: (المتوفى سنة ٤٨١ / ١٠٨٧) صاحب (سفر نامه) المكتوب بالفارسية. ولكن صاحبه الموظف الكبير لدى السلاجقة والذي تحول إلى الإسماعيلية الفاطمية قضى سبع سنوات يتجول فيها بين العراق والشام ومصر (وقد قضى بها عدة أعوام) وبين جزيرة العرب. وقد وصف لنا جميع المدن التي مر بها وصفاً دقيقاً حياً لا يهدف منه إلى الجغرافيا بقدر ما يهدف في فكرته الأساسية، إلى كتب الحج والزيارات وإلى الدعوة للفاطميين.

وقد عاصره ابن بطلان (توفي سنة ٤٥٨ / ١٠٦٥)، الذي بقي لنا، من أخبار رحلة بين بغداد وأنطاكية، رسالة هامة تصف مدن الطريق.

ابو حامد محمد بن عبدالرحيم الغرناطي، (الذي توفي بدمشق سنة ٥٦٥ / ١١٧٠) وله أهميته الخاصة بالنسبة لرحلاته في أوروبا، لكنه في كتابه «تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» يخصص الباب الثاني لصفة (عجائب البلدان وغرائب البنيان) وتتم خلاله أوصاف العديد من المدن الإسلامية.

ابن جبير محمد بن أحمد الكناني (توفي في الاسكندرية سنة ٦١٤ / ١٢١٧) وهو الذي رفع الرحلة إلى مرتبة المؤلفات «المدينية» الهامة وكتابه (رحلة الكناني) الذي طبع وعرف باسم رحلة ابن جبير يذكر فيه وصف رحلته الأولى إلى المشرق في عصر صلاح الدين. وكانت نظراته النافذة وملاحظاته الدقيقة في وصف العمران والحياة الاجتماعية والثقافية في مصر والشام والعراق تجعله من المصادر المعتمدة لدى الكثير من المؤلفين في

الشرق والمغرب، يأخذون عنه، كالعبدري والبلوي وابن بطوطة وابن الخطيب والمقرئزي والفاشي وغيرهم.

علي الهروي (توفي سنة ٦١١/١٢١٥) وقد ترك لنا كتاب (الاشارات إلى معرفة الزيارات) وفيه يصف العديد من المواقع الأثرية والمدن من خلال كتاب هدفه أن يكون مرشداً للحجاج. وقد بدأ المرحلة من حلب، ولكنه زار مصر ووصل صقلية، كما زار الجزيرة العربية والعراق وبيزنطة. وقد اعتمده ياقوت في مواضع عديدة من أوصافه لمدينة الشام^(١).

موفق الدين عبداللطيف البغدادي (توفي سنة ٦٢٩/١٢٣١) وهو معروف على أنه طبيب ولغوي وقد قام برحلة إلى الشام ومصر في عصر كان فيه هذان القطران يعجان بالعلماء والكتاب بعد أن استرد صلاح الدين فلسطين ونتوقف بين مؤلفاته العديدة في الهيئة والطب والتشريح عند كتاب (الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والمعينة بأرض مصر) الذي يجوي الكثير الهام عن مصر وأثارها وعمرائها وأبنيتها وسفنها وطعامها.

العبدري أبو محمد البلنسي وقد كانت رحلة للحج ولكنه قام بها في البر وصرف همه لوصف المدن الكبرى في شمال إفريقيا وصفاً دقيقاً، صحيحاً مع التفاصيل الوافية عن الآثار وأخلاق السكان والعلماء.

ابن بطوطة ابو عبدالله محمد اللواتي الطنجي وهو مشهور الرحلة جداً. وكتابه (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) جعله آخر الرحالة الكبار وآخر الجغرافيين الكبار أيضاً. وتقدر جولاته بمائة وخمسة وسبعين ألف ميل^(٢). ونكاد نقول إنه لم يترك مدينة اسلامية أو غير إسلامية

(١) نشره المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٣ بتحقيق جانين سورديل تومين.

(٢) كراتشكوفسكي المصدر السابق ص ٤٢١.

معروفة إلا زارها حتى في افريقية الغربية أو أقصى جزر المالديف وأندونيسيا وتركستان .

ويمكن أن نضيف أخيراً إلى اهتمام العرب بالمدن أمرين :

١٤ - كتب الازياج :

وبالرغم من أنها جداول جافة مقسمة حسب الأقاليم إلا أنها تحوي أهم الظواهر الجغرافية، ومنها المدن وتحدد أطوالها وعروضها. وقد أهتم بذلك الخوارزمي ثم البيروني الذي كانت له اليد الطولي في هذا العلم فحقق مواقع العديد من المدن على وجه الصحة، وأضاف إلى ذلك ذكر صفاتها والممالك والنواحي التابعة لها. وكذلك فعل ابن سعيد ويمكن اعتبار كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء نوعاً من الازياج الموسعة التي أضاف صاحبها إليها ضبط الأسماء والتحديد الواقعي للأقاليم، وعدداً من الأوصاف الأساسية لكل مدينة.

١٥ - في الخرائط :

كان العرب يسمونها بالصورة أو الرسم وهي فن إسلامي أصيل بعد أن أثبتت الأبحاث الحديثة كذب الخرائط المنسوبة لبطليموس، وما بنى من الدراسات الاستشراقية حول استخدام العرب لخرائطه وكان معظم كتب الجغرافية العربية لا يخلو من الخرائط. بالرغم من أن بعضها كان هندسياً أحياناً أو تقريبياً إلا أن الاهتمام الأول الذي يبرز فيها هو الاهتمام بالمدن ومواقعها من الأرض بجانب ذكر الأقاليم.

وأول الخرائطين في الإسلام - على ما يبدو - هو سهراب (من القرن الرابع هـ/ العاشر م) الذي شرح في أول كتابه (عجائب الأقاليم السبعة أو

صورة الأرض) طريقة رسم خطوط الطول والعرض نقلا عن الخوارزمي الجغرافي العربي، وطريقة وضع أسماء المدن والبلاد عليها حسب الأقاليم وتبعه كتاب المسالك والممالك فكانوا يرسمون الأقاليم المختلفة ويوقعون عليها مواقع المدن والمناطق. وبعضهم كان يستخدم الرموز والحروف للدلالة على وظيفة المدينة أو حجمها السكاني. ومن هؤلاء الاصطخري الذي كان أول من رسم خريطة لعالم الاسلام بناء على رحلته ومشاهداته الشخصية كما رسم صورة لكل اقليم على حدة. فلدينا منه عشرون خريطة لأقاليم الاسلام. ونقل عنه ذلك معظم الجغرافيين العرب من بعد حتى الادريسي أما البلخي أبو زيد فقد رسم الخرائط بالألوان التي تيسرت له في كتابه (صور الأقاليم) ورسم الجيهازي خريطة العالم كما تصورهما وجاء ابن حوقل فاعاد رسم الأقاليم والمدن فيها. كما ذكر المسعودي (توفي سنة ٣٤٥) إنه رسم خرائط للعديد من الأقاليم. وقد وصلتنا خريطة للعالم وهي من أدق الخرائط العربية وأحسنها تصورا للأرض المسكونة. وذكر المقدسي أيضا أنه رسم خرائط للأقاليم والمدن لانجدها في كتابه ولكن بعض المستشرقين وجدها ونشرها^(١).

وقد جمع البيروني بعد ذلك بين خرائط اليونان الفلكية، والخرائط الاسلامية البلدانية، وكتابه نهاية الأماكن في تصحيح مسافات المساكن، ينبىء عن ذلك ولو أنه نشر دون خرائط^(٢)، وجاء الادريسي أخيراً فرسم خطوط الطول والعرض أولاً، مبتدئاً من الجزر الخالدات ومن خط الاستواء فتحصل له من ذلك مربعات رسم لكل منها خريطة خاصة، توضح المدن

(١) هو المستشرق كونراد موللر وكتابه هو :

Konrad Muller : Mappae Arabioche welt und Laender Karten des 9 - 13 Jahr - hunderte, 5 Baende 1-5 und beihaefte - Stulgar 1926 - 1930.

(٢) نشره محمد بن تاويت الطنجي ، انقره ١٩٦٢ .

والأنهار والجبال موضحاً ذلك في كتابه نزهة المشتاق الذي يكاد لا يكون أكثر من شرح لخريطته وماورد فيها من مدن ومواقع جغرافية . وهو يسمي خرائطه بلوحة الترسيم .

وقد رسم العرب المسلمون أحيانا صوراً للمدن نفسها وبخاصة لمكة مفصلين موقعها وخطوطها وما في ظاهرها . حاول ذلك القزويني وابن المجاور في كتابه تاريخ المستبصر^(١) . وفي أواخر العهد المملوكي حاول بعضهم اخراج صورة مجسمة للمدينة كالذي رواه ابن اياس من محاولة المعلم حسن ابن الصياد المهندس الذي صور للسلطان الغوري سنة ٩١٦هـ صورة بالحصن للاسكندرية وأبوابها وهيئتها والمنارة فيها^(٢) .

هذه الجولة الواسعة الجامعة بين اللغة والقرآن الكريم والحديث النبوي والفقه والحسبة والتاريخ والجغرافيا والمعاجم وكتب السياسة عند المسلمين وما تبعها من كتب الرحلات والأزياج والخرائط كلها، في كثرتها وتنوع مداخلها وأهدافها، كافية لتبيان مدى عمق الفكر التمديني لدى المسلمين ومدى اهتمامهم وعملهم في ميدانه . وقد يكون من الضروري لتفهم البحث في هذه الجذور العمرانية أن نضيف اليها دراسة :

- وثائق الأحكام القضائية أو بقاياها في المحاكم الشرعية وكتب الفقه .
- وثائق الأوقاف العديدة المتنوعة وهي كم هائل مبعثر .
- كتب الأدب وما تحوي من حدود السلوك الاجتماعي والآداب العامة .
- الآثار والدراسات الأثرية للباقي من المنشآت الاسلامية في مختلف المدن وهي أكثر من الكثير . كما أنها فخر المدينة الاسلامية .

(١) انظر القزويني أنوار البلاد وأخبار العباد ص ٤٣٤ ، ٦٠٤ لخارطى قزوين والقسطنطينية . وانظر ابن المجاور في كتابه تاريخ المستبصر في صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز تحقيق اوسكار لوفغرين ، ليدن ١٩٥١ - ١٩٥٤ .

(٢) ابن اياس : بدافع الزهورج ٤ ص ١٩٦ .

على ان جوانب عديدة من هذه الأمور سوف تأتي في الفصول الآتية كما أنها من السعة بحيث يصعب تتبعها في دراسة محدودة .

على أننا لم نتوسع إذ توسعنا بعض التوسع في الجوانب التي ذكرناها لمجرد إثبات تجذر الفكر العمراني وعمقه في الفكر الإسلامي فحسب وإنما توسعنا فيها لفرض آخر لا يقل عن ذلك شأنها وخطرها هو أنها تشكل المصادر أو جانبها هاما من المصادر التي يمكن أن تغطي دراسة المدن الإسلامية على الوجه الأوفى ومن وجهة النظر الإسلامية . إن سعتها وكثرتها وتنوعها دلائل على أننا في بحث المدينة إنما نبحث عن الروح الإسلامي المدني . وما قدمناه إنما هو بحث في المصادر بقدر ما هو بحث في الجذور .

الفصل الثاني

مفهوم المدينة الإسلامية وخصائصها

لما كانت طبيعة الفكر الإسلامي منذ البدء مدنية عمرانية لذلك كانت فكرة العمران موجودة واضحة المعالم منذ البدء أيضاً في المجتمع الإسلامي .
فما هي المدينة إذن في عرف العرب المسلمين؟

من الظلم للعلم أولاً وللتاريخ ثانياً أن نلجأ إلى ما حدده علماء الغرب من الخصائص للمدينة، ومن التعريف والحدود لثرى انطباق ذلك أو عدم انطباقه على المدينة الإسلامية، ففي ذلك نقل من قوم إلى قوم، ومن عصر إلى عصر، ومن منطقة في الأرض إلى أخرى . إنهم يصدرون بتحديداتهم عن مدنها الغربية وتطورها . ويجب أن نصدر عن منطلق آخر هو الوقائع السابقة والخصائص في موقعها الزماني وضمن ظروفها المكانية والحاجات الاجتماعية لعهداها .

إن المفهوم اللغوي للمدينة، والمفهوم القرآني، وفي الحديث النبوي، تسمح بأن نستنتج أنها مكان محدد تجتمع فيه جمهرة من الناس ليست معظم نشاطاتها زراعية، وتقوم فيها سلطة سياسية تفرض العدل في الناس . وذلك دون تحديد واضح للحجم السكاني أو القوة السلطانية . وبقي على الفقهاء والعاملين في مجالات الجغرافيا والتاريخ والمهتمين بالعمران أن يضعوا ذلك

التحديد . وكان الأمر سهلاً على الفقهاء من الوجهة الدينية، مع وجود صلاة الجمعة وقول الرسول الأعظم : « لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحي إلا في مصر جامع »، وأضاف بعض الرواة : « وفي مدينة عظيمة »^(١) فالشرط الأساسي في المدينة هنا أو مصر اجتماع الناس وكثرتهم . وقد أوضح الماوردي ذلك بقوله : « إنه لا يجوز إقامة الجمعة، إلا في وطن مجتمع المنازل »^(٢) ولا تجوز إقامتها في السفر ولا خارج مصر إلا أن يتصل بناؤه^(٣) . فالشرط الثاني إذن هو البنيان وعدم الظعن في الشتاء أو الصيف^(٤) .

ولكن كم عدد هذه المنازل؟ هنا اختلف الفقهاء في تحديد العدد على خمسة وعشرين مذهباً « والرأي الراجح أنها تصح باثنين، فأكثر لقول رسول الله ﷺ : « الاثنان فما فوقهما جماعة »^(٥) . ولأن بعض الفقهاء ضَعَف هذا الحديث، فإن أبا حنيفة قال : إنه يكفي وجود أربعة مصليين، وأن يكون الإمام أحدهم^(٦) . وقال الشافعي ومعه أكثر أهل العلم أن هذه الصلاة لا تنعقد إلا بوجود أربعين رجلاً من أهل الجمعة^(٧) . في حين قال الإمام مالك إنه لا اعتبار للعدد في انعقاد الجمعة، وإنما العبرة في أن يكون العدد كافياً تبنى له الأوطان عالياً (يعني البيوت المبنية) ورووا عن ابن حنبل رأيين الأول

(١) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٣١ .

(٢) الماوردي الأحكام السلطانية .

(٣) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٣٨ و ص ٣٣٩ (نشر مكتبي الجمهورية والرياض - القاهرة دون تاريخ) وانظر ص ٣٢٧ .

(٤) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٥) السبدي سابق - فقه السنة ج ١ ص ٣٠٥ (طبع دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٣) وانظر ص ٣٠٦ .

(٦) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٧) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٢٧ و ص ٣٢٢ و ص ٣٣٥ .

يوافق أبا حنيفة، والثاني يزيد على الشافعي عشرة^(١) فيجعلها خمسين رجلاً^(٢).

وعلى الرغم من تساهل أبي حنيفة في عدد المصلين إلا أنه يعود فيضيف إلى شروط إقامة الجمعة أنها أمر تختص به الأمصار دون غيرها، وأنه لا يجوز إقامتها في القرى. والمصر عنده هو المكان الذي تتوافر فيه سلطتان: سلطان يقيم الحدود، وقاضي يمضي الأحكام.

وليس يهمننا هنا صحة أو عدم صحة هذه الأمور من الناحية الفقهية، فإنها ليست موضع بحثنا، فقد ردها الكثيرون بحجة أن «هذه الشروط لم يدل عليها دليل يفيد استحبابها، فضلاً عن وجوبها، فضلاً عن كونها شروطاً»^(٣) لكننا نتقبلها من وجهة نظر أخرى، هي أن الفقهاء قالوا بها وأنه قد انعكست فيها ظروف الحياة الإسلامية التي عاشوها، والشروط التي رأوا إعلانها. فهي تذكر لا برهاناً على صحتها، ولكن على وجودها في الفقه وفي الناس، لأن الحياة نفسها فرضتها وتبين منها لدى الفقهاء أربعة شروط إذن لصلاة الجمعة أي للجماعة الإسلامية المتجمعة في مكان محدد كالقرية أو المدينة:

— الكثرة العددية التي يشار إليها لدى الشافعي في العدد أربعون. ولهذا العدد دلالة في الكثرة بتكرار ذكره في القرآن الكريم بهذا المعنى^(٤).

(١) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٢٨.

(٢) ابن قدامة - المغني ج ٢ ص ٣٢٨.

(٣) السيد سابق - فقه السنة ج ١ ص ٣٠٦.

(٤) في القرآن الكريم: ﴿واذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ (البقرة: ٥١) ﴿قال فلما حرمه عليهم أربعين سنة﴾ (المائدة: ٢٦) ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ (الاحقاف: ١٥).

– البنيان العالي واتصاله وعدم الظعن وهذا يعني الاستقرار ولا تجب الجمعة على أهل الخيام وبيوت الشعر فالاستيطان شرط من شروطها^(١) ولذلك فهي يمكن أن تقام في قرية فصاعداً. «ويعتبر في القرية أن تكون مبنية بما جرت به العادة بينائها به من حجر أو طين أو لبن أو قصب أو شجر ونحوه. . فإن كانت متفرقة المنازل لم تجب عليهم الجمعة. . وقال الشافعي: «لا تجوز في غير البنيان».

– وجود السلطان لإقامة الحدود. والجمعة حيث تقام الحدود حسب قول أبي يوسف^(٢).
– وجود القاضي لإقامة الأحكام.

هذه المفاهيم تسللت من الفقه إلى الجغرافية وتلقى الجغرافيون المسلمون هذه التحديدات للمدينة وأدجوها ضمن مفاهيمهم الجغرافية لها لأنهم في الأصل، في معظمهم، فقهاء أو درسوا الفقه، وتشبعوا بمعطياته الشرعية. وهكذا أفضى عصر الفقه في القرنين الثاني والثالث إلى العصر الجغرافي في القرن الرابع، في هذه الناحية، وإذا كان الفقهاء قد نظروا إلى المدينة من الزاوية الدينية، وعلى أساس صلاة الجمعة، فقد نظر الجغرافيون إلى المدينة بصورة أساسية من زاوية أخرى هي اتساعها المكاني والبشري. وفي ذلك يقول المقدسي البشاري في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» في باب قال فيه: «اختصرناه للفقهاء»: «إنا جعلنا الأمصار كالمملك، والقصبان كالحجاب، والمدن كالجند (الفرسان) والقرى كالرحالة»^(٣) وهذا يعني عملياً إنه صنف المدن والقرى حسب أهميتها ودورها

(١) المغني ج ٢ ص ٣٢٧ و ص ٣٣٢.

(٢) المغني ج ٢ ص ٣٣٤.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٤٧.

العمراني . ثم أورد المقدسي بعد ذلك أربعة تعاريف للمصر يقول :

– «فقال الفقهاء المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحمله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه، مثل عثرونابلس، وزوزن». وهذا تعريف إداري سياسي .

– «وعند أهل اللغة المصر كل ما حجز بين جهتين مثل البصرة، والرقّة، وأرجان» وهو تعريف لغوي عرفناه من قبل .

– «والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل مثل الري، والموصل، والرملة» وهو تعريف - رغم وصفه بالعامية - جغرافي يقيس المصر بالسعة في الأرض والسكان وهو الرأي الشائع .

– ويضيف المقدسي : «وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلدت منه الأعمال، وأضيفت إليه مدن الإقليم مثل : دمشق، والقيروان، وشيراز. وربما كان للمصر أو للقصبية نواح لها مدن مثل طخارستان لبلخ، والبطائح لواسط، والزاب لإفريقية (تونس)»^(١) . وهو تعريف سياسي إداري بدوره .

وإذا استبعدنا المفهوم اللغوي لأنه يتصل بفقهِ اللغة نحصل لنا من مختلف هذه التعاريف الباقية : عدة خصائص هي أن المصر هو كل مدينة :

– كان فيها أمير أو سلطان أعظم وتُقلد منها الأعمال، أي أنها المركز السياسي المستقل .

– كان فيها الدواوين (أي أنها المركز الإداري) .

– ويقوم بنفقاتها ويجمع ضرائبها الأمير (أي أنها المركز المالي) .

(١) المقدسي : المرجع نفسه ص ٤٧ .

– وتقام فيها الحدود (أي أنها المركز الشرعي والقضائي).

– وأن فيها مسجداً جامعاً أو أكثر (أي تكتمل فيها مظاهر الإمامة الدينية).

– وأنها بلد جليل تضاف إليها مدن الأقاليم (أي أنها متسعة في الأرض والسكان لدرجة أن المدن الأخرى في الأقاليم تنسب إليها).

– لا بد لها من رستاق واسع ومنطقة من الخيرات الزراعية وغيرها تحيط بها (أي أنها مضمونة المركز الاقتصادي).

– وأخيراً قد يكون لها حماية عسكرية من قلعة أو سور أو قهندز وأبواب، (أي التحصين الدفاعي).

وهكذا فإن الفسطاط - عند المقدسي - هو مصر في كل قول، لأنه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين (الفاطمي)، وفصل بين المغرب وديار العرب، واتسع برقعته، وكثر ناسه، «وتنصر إقليمه واشتهر اسمه وجل قدره فهو مصر مصر، وناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومنتجر الأنام. . ليس في الأمصار أجل منه»^(١) وأما بغداد فهي «مصر الإسلام»^(٢).

ويختلط بمفهوم مصر مفهوم القصبه عند الجغرافيين والناس، ولو أن القصبه هي عند الجغرافيين ما نسميه اليوم بالعاصمة، أي مقر الأمير والسلطان، صغيرة كانت أم كبيرة: «فالرملة قصبه فلسطين». وحلب «بلد نفيس خفيف. . في وسط البلد قلعة حصينة واسعة، وفيها ماء وخزائن السلطان والجامع. والقصبه (التي هي القلعة) ليست كبيرة إلا أن بها مستقر السلطان». ويلبس «قصبه الخوف»^(٣). وهكذا فإن من الطبيعي ألا تكون

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٩.

(٣) المصدر نفسه الصفحات: ١٥٥، ١٦٤، ١٩٣.

كل قصبة مصرأ - كما ذكر المقدسي نفسه - فبعض القصبان مدن عادية لكن استقرار السلطان فيها (أي ممثل السلطة) هو الذي يجعلها قصبة . وغالبا ما تكون المدينة الأساسية هي القصبة، وليس تختلف المدن عن الأمصار في خصائصها سواء كانت هذه المدن صغيرة أم كبيرة إلا في الحجم . فخصائص المصر في حد ذاتها ثابتة مطلوبة في المدينة عامة كأن يكون السلطان عاملاً صغيراً أو أن تكون الأسواق غير واسعة أو أن تكون السعة المكانية أو السكانية أو الاقتصادية محدودة .

غير أن شرط وجود السلطان في المصر غير مطرد، وقد ناقش المقدسي ذلك فقال : « لا عجب أن ترى نحن أيضاً في هذا العلم آراء ويكون لنا فيه قياس واختيار، فاختيارنا أن نجعل الصغد من جملة سمرقند ومدنها من أجنادها ونصبها مصرأ لهذا الجانب لأنه أقدم وأوسع وأكثر رساتيق . فإن قال قائل : لم لم تجعل المصر بخارى إذ هي دار المملكة وموضع الدواوين قيل له كون الملوك بها لا يوجب أن تكون هي المصر لأن بخارى بلد تبركت به ملوك آل سامان ورحلوا إليه من سمرقند . وأيضاً فإنه لا يجوز أن نجعل سمرقند ونيسابور على جلالتهما قواداً لبخارى لأن هذه العلة التي ذكرت توجب أن تكون نيسابور أيضاً قائداً لبخارى . فإن قال قائل : أليس لما نزل ولد العباس مدينة السلام (بغداد) صارت مصر الاقاليم؟ . فهلا قست عليها بخارى؟ قيل له : الجواب عن هذا سهل وذلك أن أمصار العراق محدثة أبداً نسخ في الإسلام بعضها بعضاً . ألا تعلم أنه كانت الكوفة ثم الأنبار ثم بغداد ثم صارت سامرا، ثم عادت إلى بغداد . وأمصار المشرق قديمة لا ينقض بعضها بعضاً . فإن قال قائل أليس نيسابور نقضت طوس، قيل له لم يكن طوس بمصر قط فينسخ . وإنما انضافت إليها للعلة التي سنذكرها . فإن قال قائل : إن لم تنسخ طوس فقد نسخت مرو، قيل له : قد تحررنا من هذا بقولنا ينسخ في الإسلام بعضها بعضاً . ونيسابور إنما نسخت مرو بمجيء

الإسلام، فإذا كان الأمر على هذا السبيل علمت أن بخارى لم تنسخ سمرقند لأننا لم نجد لها نظيراً في الأصول. فإن قال: أليس قد نزل المأمون والرشيد قبله مرو؟ قيل له لم يكونا ينزلاها على سبيل الإقامة. وهذا ظاهر جلي^(١).

وقد ثبت لدى الناس في القرن الرابع، قرن الجغرافيين العظام، مفهوم المصر بمعنى المدينة الكبرى، والمدينة بمعنى ما هو أصغر منها على هذه الأسس العامة في أفهام الناس. وليس يعني ذلك أن جميع الجغرافيين أقروا بها أو اتبعوها، فإن المقدسي نفسه قد خالفها في كتابه نفسه مرات عديدة ولكنه يعني أن العرف العام جري على اعتبار هذه الخصائص مميزة للمدينة العظيمة أي المصر أو لما يمكن اعتباره مدينة. وقد ذكر المقدسي الأمصار في أرض الإسلام فجمعها في سبعة عشر مصراً يقول: فالأمصار: سمرقند، ابرانشهر، شهرستان، أردبيل، همذان، الأهواز، شيراز، السيرجان، المنصورة، زبيد، مكة، بغداد، الموصل، دمشق، الفسطاط، القيروان، قرطبة ثم يضيف قائلاً: «وبقية القصبات سبع وسبعون: بنجكت، نموجكت، بلخ، غزنين، بست، زرنج، هراة، قاين، مرو، اليهودية، وهي أحد شطري مدينة أصبهان، الدامقان، آمل، بروان، أتل، مراغة، أرجاك، سيراف، داربجرد، شهرستان، أصفخر، أزدشير، زماسير، بم، جيرفت، سامراء، أمد، الرقة، حلب، حمص، طيبة، الرملة، صفر، الفرما، بلبس، العباسية، الاسكندرية، أسوان، بركة، بلرم، تاهرت، فاس، سجلماسة، طافانة»^(٢). ويتبع ذلك بقوله: «نرجع إلى ذكر المدن المحيطة بقصباتها فنقدم الحاجب وتتبعه جنده، فمن أشكل عليه شيء من

(١) المصدر نفسه ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٢) لنلاحظ هنا أن المقدسي لم يزد على ذكر ستين مدينة ما بين مصر وقصبة، فاما القصبات التي ذكرها فهي ثلاث وأربعون.

ذلك فليقسه على إقليمه»^(١) ثم يذكر بعد ذلك أسماء ألف وأربعمائة وسبع وستين مدينة تنتظم مملكة الإسلام كما يسميها من الهند إلى الأندلس^(٢).

ويذكر المقدسي من المدن المذكورة في الأندلس سبعاً وعشرين ويستدرك فيقول: «... ولو كنت دخلت الأندلس لكورتها لكثرة المدن والأعمال والنواحي بها وهي نظير هيطل بل أجل...» وقد بقي يسير من مدن الإسلام لم نذكرها لجهلنا إياها. والأندلس مثل هذا الجانب الإفريقي أو قريبة منه وذكر ابن خردادبه أنها أربعون مدينة يعني المذكورات...^(٣) ورقم المدن الأندلسية فيه الكثير من التواضع فإن الزهري في جغرافيته يذكر أن الأندلس صقع صغير فيه ثمانون من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المدن الصغار وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة. حتى قيل إن على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية. وليس في معمور الأرض صقع أعمر منه يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربع مدن قريبة بعضها من بعض إلا في الأندلس. ومن بركتها أن المسافر لا يمشي فرسخين دون ماء أصلاً ولا يمشي ثلاثة فراسخ إلا وجد فيها الخبز والزيت في الحوانيت على طول سفره^(٤).

على أن الجغرافيين وبخاصة المقدسي والاصطخري، وإلى حد ما اليعقوبي، توسعوا في حديثهم عن المدن المختلفة في المفهوم العمراني لها وفي إبراز خصائصها السكانية (من كثرة بشرية وعمران) وفي ملاحظتها الاقتصادية والجغرافية والسياسية والأثنية والثقافية وتحديثوا حتى عن ميولها الدينية والثقافية وكان أكثرهم منصباً بالترتيب على:

— بيان الكثرة السكانية والعمران والبنيان ونوع البناء.

(١) المصدر نفسه ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨ - ٥٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٧.

(٤) الزهري - كتاب الجغرافيا ص ٨٠ (٢٢٧).

- النظر في اتساع الرقعة ومكانها الجغرافي ومدى ملاءمته .
- كثرة المياه والانتاج الاقتصادي والحركة التجارية (الأسواق) .
- قوة التحصين وسويته من أسوار وقلاع وحصون .
- الوضع السياسي للمدينة وهم يقدمونه على خصائصها جميعاً عند تعريفها . وقد يذكر في هذا الصدد موضع السجن .
- وجود المسجد الجامع وهو من الخصائص الأساسية دينياً وسياسياً .
- وجود المنبر أو عدم وجوده .
- الوضع الثقافي في المدينة وبعض من أخرجتهم .
- محاسن المدينة ونقائصها وما يعاب عليها أو يمدح فيها وفي أهلها .

وعلى أساس الصفتين الأوليين كانوا يحددون مكانتها وأهميتها بين المدن وهما معتمدهم وأساسهم المرجعي في التقويم وعلى أساس الصفتين التاليتين يحددون دورها ووظيفتها ثم يضيفون إلى ذلك ميزتها السياسية الإدارية (ويدخل في ذلك المسجد الجامع) بما يذكرونه من الصفات الثلاث التالية . وأخيراً - بحسب الأهمية - يزيّدون شيئاً عن ثقافتها وعي أهلها وميزاتها الخاصة .

وكان تحديد المكانة بين المدن على درجات ثلاث وتأتي من بعدها القرى . فهم يقولون : مدينة عظيمة أو عظيمة أو كبيرة أو جليّة ، لبيان درجتها في الاتساع وكثرة السكان ، فسراف الفرضة العظيمة بفارس ، وهي مدينة عظيمة^(١) . «وتاهرت مدينة كبيرة» «والقيروان هي أجل مدينة بأرض المغرب» . «ودمشق أجل مدينة في الشام» . «والأردن مدينتها الكبرى طبرية» . «ونصيبين مدينة كبيرة» و«طرسوس مدينة كبيرة» ومصر «مدينتها العظمى تسمى الفسطاط» . والمدائن . . . كانت عظيمة . و«برذعة مدينة

(١) الاصطخري - مسالك الممالك ص ٣٤ .

كبيرة جداً» و«أزيلة مدينة كبيرة على شط البحر المحيط». «وتونس مدينة كبيرة»، ومثلها ناكورة، وغزنة، مدينة عظيمة وولاية واسعة. وسجستان مدينتها العظمى، تسمى زرنج^(١).

وينزلون بالمدينة درجة فيقولون مدينة أو مدينة واسعة أو «ليست كبيرة»، فالرها والأنبار وميافارقين وبرقة، كل منها مدينة «وسطة»، وكذلك اصطخر، والفيوم، وزويلة، وسجلاسة، وهيت، والأنبار، وميافارقين، وحلوان، فهي مدينة عامرة وقنشرين مدينة فحسب. ومثلها معرة النعمان والاسكندرية، وكفر توثا، والموصل، وسنجار، ورأس عين. والرقعة والرافقة مدينتان متلاصقتان، وجزيرة بني مزغنا (الجزائر) مدينة عامرة، وحلب مدينة عامرة بالأهل جداً^(٢).

ويضع الجغرافيون بين المدينة والقرية، المدن الصغيرة وقد يسمونها بلدة. وقد يضيفون إلى الكلمة بعض الميزات : فمهربان مدينة صغيرة عامرة «ومثلها الأشمونين بمصر. والخليل مدينة صغيرة شبيهة القدر بقرية». وسيزر، وحماه، مدينتان صغيرتان، «ومثلها الحداث ومرعش وباياس على شط البحر» «ومعان بلدة صغيرة»، وصور بلد، وجزيرة ابن عمر، والسن، وعانة، والقادسية، وصرصر، والمدائن، وتكريت بلد غربي دجلة «وكازرون»، والحوار كلها مدن صغيرة. وقنشرين مدينة تنسب الكورة إليها وهي من أصغر المدن بها «وأما عبادان والأبلة والمفتوح والمدار فهي مدن صغار» «وأما الميانج (في أرمينية) والخنوج وأجن و... تبريز... وموقان

(١) المصدر نفسه. انظر بالترتيب الصفحات ٣٨، ٣٩، ٥٩، ٥٨، ٧٣، ٦٤، ٤٨، ٨٦، ١٨٣، ٣٩، ٣٨، ...، ٢٣٩.

(٢) المصدر نفسه. انظر بالترتيب الصفحات ٧٦، ٧٧، ٣٧، ١٢٣، ٥٠، ٤٠، ٣٩، ٧٧، ١٧٦، ٨٧، ٦٧، ٦٦، ٥١، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٦١.

و... و... « فإنها مدن صغار في الكبر^(١) .

ويذكر الاصطخري عن مدينة كارزين أنها مدينة صغيرة نحو الثلث من اصطخر، ولها قلعة، وليست من الكبر وقوة الأسباب بحيث يجب ذكرها، إلا أنا ذكرناها لأنها قصبة كورة : قباذخرة^(٢) .

ومن النادر أن يضيف الجغرافيون إلى الوصف بالصغر والكبر مساحة المدينة أو عدد سكانها. ومن هذه الأوصاف النادرة قول الاصطخري : اصطخر مدينة وسطية، سعتها ميل . و«شيراز نحو من فرسخ في السعة» . وأن «الخوار مدينة صغيرة نحو ربع ميل» . وأما نيسابور فهي «فرسخ في فرسخ» ، ومثلها أردبيل . وهذان مدينة كبيرة فرسخ في فرسخ وبردعة أكبر من فرسخ في فرسخ وأما الري فليس في المشرق أكبر منها فهي فرسخ ونصف في مثله . وقطر السور في سمرقند فرسخان^(٣) ، ومنها قوله أيضاً في السكان : «وللري قرى تزيد على هذه المدن في بعضها عشرة آلاف رجل»^(٤) .

على أننا قد نستطيع أن نستنتج من هذه الملاحظات العابرة السعة التقريبية للمدن والكثافة السكانية . فالمدن الصغرى حول ربع الميل إلى نصف الميل المربع إلى الميل ، وأما الكبرى فهي فرسخ في فرسخ والمدينة التي تحرق ذلك الحد تلتفت وتصل إلى فرسخ ونصف في مثله . وأما من حيث السكان فالمدينة الصغيرة قد يصل سكانها إلى عشرة آلاف، ولهذا قد تكون المدن الوسطية بين هذا الرقم وبين الخمسين ألفاً، ثم تأتي المدن الكبرى حتى

(١) المصدر نفسه . الصفحات بالترتيب ٣٤ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ٧٥ ،

٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٢٥ ، ٢٠٨ ، ١٩٨ ، ٦١ ، ٨٢ ، ١٨٢ .

(٢) الاصطخري : ص ١٢٥ .

(٣) المصدر نفسه الصفحات بالترتيب : ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٣١٧ .

(٤) المصدر نفسه الصفحات ٢٠٩ .

المائة ألف، فأما الأمصار كبغداد، ودمشق، والفسطاط وقرطبة، متجاوز هذا الرقم حسب التقديرات التي نعرفها، وبغداد في أيام عزها حتى أواسط القرن الرابع قد يكون سكانها يبلغون نصف المليون.

على أننا يجب أن نتنبه أن كلمة مدينة في الأندلس تأخذ معنى خاصاً لاتخاذها في المشرق. صحيح أنها تبقى المركز الحضري لمجموعة من السكان في بقعة معينة، ولكن للأندلسيين مصطلحاتهم العمرانية الخاصة، فكما أن المشرق الإيراني العراقي بقي على تسمياته الإدارية الموروثة من الكورة إلى الرستاق إلى الطسوج، عدة قرون في الإسلام، وبقي الشام على تسمياته البيزنطية إلى أجناد أربعة صارت من بعد خمسة : جند فلسطين، وطبرية، والشام، وحمص، وقنسرين، فلم تضمحل هذه التسميات حتى القرن الرابع وما بعده، وكما كانت اليمن أيضاً تقسم إلى مخاليف لكل مخاليف اسمه السابق للإسلام، فكذلك وصل العرب إلى الأندلس فوجدوا تسميات إدارية رومانية أقروها ومنحوها الأسماء الاصطلاحية التي حملوها معهم، ولكنها لم تكن تنطبق على ما هو عليه في المشرق. وهكذا ظهر التباين في المصطلح فالمدينة في الأندلس لا تعني مفهومها المشرقي، ولكن تعني أيضاً أنها قسم إداري كالكورة، ولها زمام واسع قد تقوم فيه مدن وقرى وحقول. وكانوا يضمون إلى المدينة ما على حدودها من الأرباض وإلى العاصمة ما يحيط بها، ويمنحونه اسم المدينة. وهكذا كان لكل مدينة زمام يتبعها ويخضع لسلطان المجلس البلدي ويسمى Municipia^(١).

أما ما يدخل في حدود الكورة فيسمى الحوز. يقول الرازي، الجغرافي الأول في الأندلس : «ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية، وهي

(١) حسين مؤنس - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ص ٦٥ - ٦٦، وفجر الأندلس ص

شرق من تدمير وشرق من قرطبة». وأما المساحة التي تغطيها المدينة مع ما يتبع حكومتها من الأرباض والقرى فتسمى خطة البلد. ولذلك يتابع الرازي نصه السابق قائلاً : «ولخطة بلدها مسافة بعيدة، ومنافعها لأهلها عظيمة، جمعت البر والبحر والزرع والضرع، ولها السهل والجبل، وبها مدن عظيمة، وحصون قديمة، فمن مدنها بلنسية، وهي المعروفة بمدينة التراب، ولها حصن أرغيرة، ودانية، وهي على صفة البحر، ولها أقاليم كثيرة متسعة، ومرساها من أعجب المراسي... ولها من المدن والمعازل حصن شاطبة، وهو قديم أولي مظل على بطاح وأنهار، ومدينة مربيطر، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر، يحار فيه الناظر، وتعجز عنه الحكاية^(١). والإقليم في هذا النص السابق يعني القرية الكبيرة. يقول ياقوت إنه اصطلاح لأهل الأندلس خاصة فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليمياً وربما لا يعرض هذا الاصطلاح إلا خواصهم... فإذا قال الأندلسي أنا من إقليم كذا، فإنه يعني بلدة أو رستاقا بصفه^(٢) فالإقليم يعدل الرستاق في المشرق أي أنه قسم إداري أصغر من الكورة، ووحدة زراعية مالية تضم قرى كثيرة وتقدر عليها الضرائب جملة. وأما كلمة القصر وهي ترد في كلام الرازي السابق فهي تعني الحصن، وقد استعمل الأندلسيون الكلمة بالمعنى الأصلي لها باعتبارها مأخوذة عن اللاتينية Castra وهذا ما يعلل استعمال الإسبان «Alcazar» بمعنى القلعة.

وتبقى إلى هذا مصطلحات آخر: فإنهم قد يسمون عاصمة الكورة: قاعدة. وعاصمة المدينة: قرار العمال والقواد، أي مستقرهم بدلاً من كلمة القصة التي يندر أن يستعملوها. ويستخدمون كلمة الدار أحياناً بدلاً من كلمة الضيعة أو القرية الصغيرة والمزرعة. وثمة تفريق لديهم بين وصف

(١) من كلام الرازي منقولاً لدى المصدر السابق نفسه ص ٦٦ - ٦٧.

(٢) ياقوت ج ١ ص ٢٦.

مدن الكورة الحربية والكورة العادية: فبلنسية كورة عادية يحددون فيها المواقع، والحدود، والمدن، والحصون. أما قرطبة فهي كورة عسكرية وكذلك فريش في شياها، فكل منهما في المصطلح مدينة كورة. ومثلها في ذلك تطيلة، فهي مدينة كورة كذلك، اختطت أيام الحكم بن هشام وكان الذي اختطها عمرو. من بني يوسف، عامل سرقسطة. ومن كبار مدائنها: طرسونة، وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور، وكان أبو عثمان عبيدالله المعروف بصاحب الأرض اختارها محلاً، وآثرها على مدن الثغور منزلاً ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة، وإيثارهم لها لفضل نقطتها، واتساع خطتها. ولإقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة أخصها: أرثيط، وهي مدينة أولية و... و...»^(١).

على أن هذه المصطلحات بقيت أندلسية لم تخرج عن جزيرة الأندلس، وبقي للعالم الإسلامي مصطلحاته السائدة.

ونعود إلى وصف المدينة الصغيرة لنجد أنه يهبط درجة إذا صغرت ليصبح بلداً كبيراً أو بلدة أو بليدة أو إذا فقدت هذه المدينة بعض الخصائص وبخاصة كبر الحجم أو كثرة السكان أو الأسواق أو وجود السلطة السياسية فيها: فعلى الحد بين المدينة الصغيرة وبين القرية تقوم البلد أو البليدة. ولهذا يشترك أحياناً وصف الواحدة مع الأخرين على الجانبين، فالحدود الفاصلة غير واضحة تماماً ما بين المدينة الصغيرة والبلدة الكبيرة من جهة، وما بين البليدة والقرية من جهة أخرى. ويلفت النظر أن كلمة بلاد بالجمع تستعمل في العربية للدلالة على الإقليم كله. كما يلفت النظر أن يسمي القرآن الكريم مكة بالبلدة في قوله تعالى: ﴿لَا أَسْمُ بِهِذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حَلُّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدٌ﴾ (البلد: ١ - ٢) وقوله: ﴿وَالْتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ

(١) الحميري - الروض المعطار ص ١٢٣، وحسين مؤنس ص ٦٩ - ٧٠.

سينين وهذا البلد الأمين ﴿ (التين : ٣) وقوله : ﴿واذ قال إبراهيم لربه رب اجعل هذا بلداً آمناً . ﴿ (البقرة : ١٢٦) ونلفت النظر أيضاً أن يسمي اليعقوبي كتابه الذي يتحدث فيه عن المدن المختلفة بصورة أساسية ، بكتاب «البلدان» ، وأن يقول في مقدمته : «إنه كان معنياً في عنفوان شبابه بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد لاني سافرت حديث السن ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره . . وما يقرب منه من البلدان . . . فجعلنا هذا الكتاب مختصراً لأخبار البلدان . . وقد ذكرت أسماء الأمصار ، والأجناد ، والكور ، وما في كل بلد من المدن والطاسيج . . . ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر . . .»^(١) كما يلفت النظر أخيراً أن يستعمل ياقوت كلمة البلد أو البلدة في أكثر من موضع للدلالة على المدينة الكبيرة ، أو المدينة الوسطة أو الصغيرة مثل قوله : سرقسطة بلدة مشهورة في الأندلس^(٢) و «دنيسر بلدة عظيمة مشهورة»^(٣) ذلك أن العرب كثيراً ما يبادلون بين كلمتي مدينة وبلدة حتى تكاد الكلمتان تعنيان معنى واحداً ونندر أن يقصد من استعمال بلدة أو بلد معنى أقل من المدينة الصغيرة أو المعنى المتصل بالأهمية الزراعية للبلدة ، إلا عند استعمال صيغة التصغير : بليدة ، أو عند استعمال الوصف بعد كلمة البلدة بما يظهر تفاهتها أو قلة شأنها ، فعند ذلك يقصد ما هو أصغر من المدينة الصغيرة وما هو أكبر أو على الأقل ما يوازي القرية أو القرية الكبيرة . وهكذا فإن استعمال كلمة بلدة لدى ياقوت في وصفه للمدن التالية يوضح ذلك :

— كفرلاثا ، «بلدة ذات جامع ومنبر في سفح جبل عاملة من نواحي

حلب وهي ذات بساتين ومياه جارئة . . .»^(٤) «

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١٢ .

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٧٠ .

- جويث، «بلدة في شرقي دجلة . . . مقابل الأبله، بها أسواق وحشد كبير . . .»^(١).
- برقعيد، «بلدة كبيرة من أعمال الموصل، وبها آبار كثيرة عذبة، وهي واسعة وعليها سور ولها ثلاث أبواب»^(٢).
- خيف إسلام، «بلد بقرب عسفان على طريق المدينة، فيها منبر وناس كثير من خزاعة»^(٣).
- بسظام، «بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور، وهي قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة»^(٤).
- خلاط، «البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والشمار اليانعة، وهي قصبه أرينية»^(٥).
- دنيسر، «بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين، وقد صارت قرية، ثم رأيتها بعد ذلك بثلاثين سنة وقد صارت مصرا لا نظير له كبراً، وكثرة أهل، وعظم أسواق»^(٦).
- دورق، «بلد بخوزستان وهي قصبه كورة شرق يقال لها دورق الفرس فيها عحية والمعادن في أعمالها كثيرة . . . وبدورق آثار قديمة . . . وهي مدينة وكورة واسعة»^(٧).
- سرقسطة، «بلدة مشهورة بالأندلس تتصل بأعمال تطيلة ذات فواكه

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٨٧ وهو ينقل ذلك عن السرخسي ولكنه يعلق عليه قائلاً : «كانت

(٣) هذه صفتها في قرابة سنة ثلاثمائة هجرية، أما الآن فهي خراب صغيرة حقيرة».

المصدر نفسه ج ٢ ص ٤١٢.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٢١.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٨٠.

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٧٨.

(٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٨٣.

عذبة مبنية على نهر كبير»^(١).

فهذه البلدان كلها مدن صغيرة وكبيرة، استعملت لها كلمة بلد بدل المدينة. على أن استعمال كلمة بليدة في أقوال ياقوت التالية يعني أمراً محددًا هو النزول بشأن التجمع البشري في الموضع المحدد إلى مادون مرتبة المدينة يقول:

— النعمانية، «بليدة بين واسط وبغداد على ضفة دجلة، من أعمال الزاب الأعلى، وهي قصبة... كانت مدينة، وأما الآن فإني رأيتها مراراً وهي قرية كبيرة»^(٢).

— نجيرم، «بليدة مشهورة دون سيراف... على جبل هناك على ساحل البحر... رأيتها مراراً ليست بالكبيرة ولا بها آثار تدل على أنها كانت كبيرة...»^(٣).

— جبل، بليدة بين النعمانية وواسط.^(٤)

— سعيد أباد، «بليدة في جبال طبرستان وكان بها منبر»^(٥).

— المحول، «بليدة حسنة، طيبة، نزهة، كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه...»^(٦).

— بليد، «تصغير بلد... بناحية قرب المدينة بواد يدفع إلى ينبع. وهي لال على بن أبي طالب»^(٧).

(١) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢١٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٩٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٠٣.

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٢.

(٦) المصدر نفسه ج ٥ ص ٦٦.

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٩٣.

— بون، «بليدة بين هراة وبغشور وهي قصبه ناحية بأذغيش»^(١).

— واسط، «بالأندلس، بليد من أعمال قبرة»^(٢).

إن هذه الأمثلة تكشف الأمرين :

الأول : أن وصف بلدة يساوي تقريبا كلمة المدينة الصغيرة بل المدينة أحيانا بالكثرة السكانية وبالأسواق والسعة الاقتصادية، وأحيانا بالنشاط السياسي.

الثاني : أن وصف بليدة هو الذي يعني ما هو أصغر من المدينة كالقرية الكبيرة في افتقارها إلى النشاط الاقتصادي وفي غلبة الزراعة عليها، وقد يكون فيها شيء من النشاط السياسي، باعتبار أنها قد تكون أحيانا قصبه الموضع.

وإذا هبط التجمع السكاني إلى مادون حد البلد أو البليدة صار قرية، والجغرافيون العرب يصنفون القرى حسب حجمها السكانية بخاصة وكثرة الخيرات بعامة، ووجود بعض مظاهر الحياة السياسية فيها فيقولون قرية كبيرة، أو قرية جامعة، أو قرية شبيهة بالمدينة، أو قرية عامرة، أو قرية من أعيان القرى.

فالفرازية من قرى الشام «قرية كبيرة بها منبر، معدن الأعناب والكروم، وبها ماء غزير ومواضع نزيمة»^(٣) والفرع قرية من نواحي المدينة بها منبر ونخل ومياه كثيرة، وهي قرية غناء كبيرة^(٤)، ويقول ياقوت عن قرية جنوجرد إنها «من قرى مرو». وعهدي بها كبيرة ذات سوق واسع وعمارات

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٥١٢.

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٥٣.

(٣) المقدسي - احسن التقاسيم ص ١٦٢.

(٤) ياقوت - معجم ٤ ص ٢٥٢.

حسنة، وجامع فسيح، وكروم وبساتين»^(١). وأما قرية تل صباح، قرب بغداد، فهي قرية كبيرة جامعة، فيها سوق وجامع كبير. . . (دلالة على كثرة السكان)، «وعسفان قرب مكة قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع»^(٢)، وقرنوط في الدلتا المصرية، «قرية كبيرة جامعة على النيل، فيها أسواق، ومسجد جامع، وكنيسة، كبيرة»^(٣). وقرية مهريجرد «قرية غناء من كورة ثمدهي من أجل قراها وأعمرها، وأكثرها سواداً ومياها وأنهاراً»^(٤)، وهكذا أيضاً فإن بعقوبا «قرية كبيرة كالمدينة، وهي كثيرة الأنهار والبساتين، واسعة الفواكه، متكاثفة النخل، وبها رطبة وليمون». وقرية الفضلية (قرب الموصل)، قرية كبيرة كالمدينة. . . بها نهر جار وكروم وبساتين، وبها سوق وقياية، وبازار»^(٥). وشنثت، «من قرى السري المشهورة، كبيرة كالمدينة»^(٦). ويقول ياقوت عن بلدة فنين: «قرية عهدي بها عامرة أحسن من مدينة مرو»^(٧).

وذكر أن طرق «بلدة» من أعمال أصبهان، كبيرة شبه بلدة»^(٨). وقرية شيرز، (من قرى سر حسن بمضبيهة بالمدينة، بها سوق عامر، وخلق كثير، وجامع كبير إلا أن شربهم من ماء آبار عذبة).

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ١٧٢.

(٢) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠.

(٣) ياقوت - معجم البلدان ج ٤ ص ١٢١.

(٤) ياقوت معجم ج ٢ ص ٢٧.

(٥) ياقوت معجم ج ٥ ص ٢٣٤.

(٦) ياقوت معجم ج ١ ص ٤٥٣.

(٧) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٦٧.

(٨) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٦٨.

(٩) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٧٨.

(١٠) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣١.

وبجانب ذلك وصفت قرية جازر (في فلسطين) بأنها: «قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية، فيها حصن وجامع. كما وصفت قرية طنان (في مصر) بأنها من أعيان قرى مصر قريبة من القسوط ذات بساتين ميرتها عشرة آلاف دينار، في كل عام»^(١) وذكر المقدسي ان حبري (أي الخليل بفلسطين) قرية إبراهيم الخليل. فيها حصن منيع . . . وقد جعل الحبر مسجداً، واختلطت به العمارة، ولهم قناة ضعيفة . . . ومن كل جانب قرى، وكروم، وأعناب، وتفايح، لا يرى مثله ولا أحسن من فواكهه. وفي هذه القرية ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام مرتبون يقدمون العدس والزيت لكل من حضره من الفقراء (وهو وقف تميم الداري)^(٢).

أما إن قربت القرى من المدينة، فيستعمل المشرقيون لها كلمة «رستاق» على أن هذا لا يعني أن كل مدينة هي أكبر من كل قرية، يقول المقدسي: « . . . أما ربما نذكر مدنا هي أصغر من قرى كثيرة في أقاليم أخرى، ولكنها مشهورة في المدن، وعلمنا موضوع على التعارف، ألا ترى ان مخا، والجامعين، والمنيفة، مدن بلا نزاع وكفر سلام، وقصر الريح، ورأس التين، أكبر منهن، وهي قرى بلا خلاف. وأعلم ان الكورة لا تجل بكثرة مدنها، ولكن بجلالة رساتيقها ألا ترى إلى جلالة نيسابور وبخارى مع قلة مدنها، وإلى بشيسي زبيد، وهجر، من كثير مدنها»^(٣) ويضيف الاضطخري: بعض القرى ربما بلغت مرحلة في فرغانة لكثرة اهلها»^(٤) فللري من رساتيقها المشهورة قصران: الداخلة والخارج، وبهران، والسن، وبشاوية، وذنبا، ورستاق قوسين، وغير ذلك»، وكثرة قرب مدينة، يزد لها

(١) ياقوت: المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٢.

(٢) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ١٧٢.

(٣) مكرر: المقدسي ص ٢٢٨.

(٤) مكرر مكرر الاضطخري ص ٣٣٣.

رساتيق عريضة خصبة ورساتيقها كثيرة الثمار يفضل لكثرتها ما يحمل الى اصفهان جبالهم كثيرة الشجر والنبات الذي يحمل منها إلى الأفاق «ويذكرون عن مرو أن لها سوراً واسعاً ولها معه سور آخر يحيط بهذه المدينة ورساتيقها، ويشتمل على جميع رساتيقها، يعرف بالراي . و«بذخشان مدينة . . . ولها رستاق كبير عامر جداً، خصب وبها كروم وأنهار» و«كفرغانة كور منها عدة مدن بكل مدينة منها رستاق، فيه عدة قرى»^(١).

فالقري، في كل هذه الأمثلة السابقة يغلب عليها الطابع الزراعي، وقد توجد فيها بعض المعالم في المدينة: كالجامع، والسوق، والمنبر، والبناء، ولكنها في الدرجة الأولى موطن مياه وأنهار وزروع ونخيل وأعناب .

وقد يسمون ما يقرب جدا من البساتين إلى المدينة ريبضاً وهي تسمية معروفة في المشرق وفي الأندلس على السواء . يقول الاصطخري : وأما الترمذ فإنها مدينة . . . لها قلعة، ومدينة، وربض، ويحيط بالربض أيضاً سور و«بلخ عليها سور ولها ريبض ومسجد»^(٢) وسلوان محلة في ربض المدينة (القدس) تحتها عين عذبية تسقى جناناً عظيمة^(٣) «ونعما (في فلسطين) تندفق خيرات . طيبة الساحة . حسنة الفواكه . عليها حصن منيع، وربض عامر قد أدير عليه الحصن وهمذان مدينة كبيرة، ولها مدينة وربض ولدينتها أربعة أبواب من الحديد»^(٤).

(١) الاصطخري: مسالك الممالك، انظر بالترتيب الصفحات ٢٠٩، ١٣٥ - ١٣٦، ٣٦٠، ٢٧٦، ٣٣٤ .

(٢) المصدر نفسه بالترتيب ٢٩٨، ٢٧٩ .

(٣) المقدسي: أحسن التفاسيم ص ١٧١ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٥) الاصطخري: مسالك الممالك ص ١٩٨ .

ويميز الجغرافيون أحيانا بين القرى الكبيرة، في بعض الأقاليم، وبين المدن الصغيرة، في غيرها. يقول الاصطخري: «ورب كورة هي أكبر وأعرض، ومدنها ونواحيها، في التسمية أقل مما هو أصغر منها»^(١). وتأكيدا لذلك يذكر المقدسي عن قرى فلسطين قوله: «ولهذه الكورة قرى جليلة ذات منابر أعمر أجلّ من أكثر مدن الجزيرة وهي مذكورة غير أنه لما لم يكن قوة المدن في الآتين، ولأضعف القرى في الخمول وتردد أمرها بين الرتبتين وجب أن نستظهر بذكرها ونبين مواضعها، منها (لد) وهي على ميل من الرملة، بها جامع يجتمع به خلق كثير من أهل القصبة، وما حوله من القرى، وبها كنيسة عجيبة . . . و(كفر سابا) كبيرة بجامع، على جادة دمشق و(عافر) قرية كبيرة بها جامع كبير له رغبة في الخير . . . و(بيننا) بها جامع نفيس. معدن التين الدمشقي الفائق و(عمواس) ذكروا أنها كانت القصبة في القديم، وإنما تقدموا إلى السهل من أجل الآبار لأن هذه على حد الجبل. و(كفر سلام) من قرى قيسارية كبيرة أهلة بها جامع . . . ولهذه القصبة رباطات على البحر»^(٢).

وننتقل إلى المياه في المدينة الإسلامية، والإنتاج الزراعي، وحركة التجارة والأسواق والنشاط الاقتصادي بعامة. إنها العنصر الثاني في التقويم للمدن وهو يتوازى مع العنصرين الأولين اللذين هما السكان والسعة، وإنما يتحدد هذان العنصران نتيجة للإمكان الاقتصادي للمدينة. ويعظمان أو يصغران تبعاً له. وليس ثمة معيار خاص اتخذ في هذه الأمور سوى التقدير العام الذي قد لا يختلف كثيراً بين الناس.

ولا يكاد يمر ذكر مدينة لدى الاصطخري أو المقدسي أو ابن حوقل أو

(١) الاصطخري المصدر نفسه ص ١٠٠.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٧٧.

لدى اليعقوبي قبلهم إلا وجدنا بين أوصافها شيئاً يتصل بانتاجها الزراعي خاصة وأحياناً بنشاطها الاقتصادي كأنهم يعتبرون ذلك أساساً في قيام المدينة وفي استمرارها، فإن لم يكن فيها زراعة تذكر حاولوا بيان قيمتها التجارية ليعملوا بذلك وجودها.

ولما كانت حضارة الإسلام زراعية في الدرجة الأولى والأساسية حتى في انتاجها الصناعي أو نشاطها التجاري لذلك فالأمثلة أكثر من أن تحصى للدلالة على مركز المدن وأهميتها الزراعية وبالتالي أهمية أسواقها وحركتها التجارية، ولا يكاد جغرافي يؤلف إلا كانت تنهال على قلمه البساتين والخيرات، وتتصدر أوصافه الأسواق والتجارات، براهين على شأن المدن وأهميتها الاقتصادية. وقد نستطيع أن نرى لمحا من ذلك في الأمثلة التالية وهي ليست بشيء أمام الفيض الذي وصلنا في ثنايا التراث التمديني العمراني:

— فصنعاء هي عند المقدسي «قصة نجد اليمن، وهي بلد رحب كثير الفواكه رخيص الأسعار. أخبار حسنة وتجار مفيدة ولا تسئل على طيب الهواء فإنه عجب»^(١).

— والكوفة عنده: «قصة جليلة خفيفة حسنة البناء جليلة الأسواق، كثيرة الخيرات، جامعة، رفة. والجامع على ناحية الشرق على أساطين طوال من الحجارة الموصلة. والنهر على طرفها من قبل بغداد، ولهم آبار عذبة حولها نخيل، ولهم حياض وقنى...»^(٢).

— والرملة قصة فلسطين بهية حسنة البناء، خفيفة الماء. مربة. واسعة الفواكه. جامعة الأضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية... وقرى

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٨٦.

(٢) المصدر نفسه ص ١١٦ - ١١٧.

نفيسة، والتجارة بها مفيدة والمعاش حسنة بين رساتيق زكية، ومدن محيطة وذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة، وأطعمة نظيفة، ومنازل فسيحة ومساجد حسنة، وشوارع واسعة. . . وجامع القصبه في الأسواق أبهى وأرشق من جامع دمشق يسمى الأبيض ليس في الإسلام أرشق من محرابه ولا يعد منبر بيت المقدسي أحسن من محرابه. . .»^(١).

— «والفسطاط مصر مصر. . . خزانة المغرب. . . ليس في الأمصار أهل منه. حسن الأسواق والمعاش. ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامع، ولا أكثر مراكب من ساحله. . . ودورهم أربع طبقات وخمس، وسمعت أنه يسكن الدار الواحدة نحو مائتي نفس. . . وأبطيت يوما عن السعي إلى الجمعة، فلقيت الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع، ورأيت القياسير والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين. . . تجارته عجيبة ومعاشة مفيدة وأمواله كثيرة»^(٢).

— والقيروان مصر الاقليم، بهي عظيم. حسن الأخباز، جيد اللحوم، قد جمع اضداد الفواكه مع رخص عجيب. هي فرصة المغربين، ومتجر البحرين. . . لا ترى أكثر من مدنها. فهي مفخرة الغرب، ومركز السلطان، وأحد الأركان. . . الجامع بموضع يسمى السهاط الكبير، وسط الأسواق في سره البلد. . . إلا أن ماءهم ضعيف. . . مخزون في مواجين (برك) والضرائب موضوعة على أصحاب الدكاكين. تعيشهم في «صبرة» وأسواق مصر معطلة. . . تكون ثلاثة أميال في مثلها بلا سور. . .»^(٣).

— تأهت. . . قصبة «هي بلخ المغرب، قد أحرق بها الأنهار والتفت

(١) المصدر نفسه ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٤ .

بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبتت حولها الأعين، وهو بلد كبير، كثير الخير رطب. رفق. طيب. رشيق الأسواق، غزير المياه، محكم الرصف عجيب الوصف. . .»^(١).

ويضيف الأصبخري: إنها مدينة كبيرة، خصبة، واسعة البرية، والزروع والمياه^(٢).

— الموصل: مصر هذا الاقليم. بلد جليل حسن البناء طيب الهواء صحيح الماء. . . حسن الأسواق والفنادق. . . منه ميرة بغداد وإليه قوافل الرحاب. . . وله منازة وخصائص وثمار حسنة وحمامات سرية «ودور بهية» ولحوم جيدة غير أن البساتين بعيدة والبلد شبه طيلسان مثل البصرة ليس بالكبير. في ثلثه شبه حصن يسمى المربعة. . . وعلى كل ركن فندق وبين الجامع والشط رمية سهم. . . وأكثر الأسواق مغطاة. . .»^(٣).

— الري: «هي مدينة إذا جاوزت العراق إلى المشرق، فليس مدينة أعمار ولا أكبر ولا أيسر أهلاً منها إلى آخر الإسلام إلا نيسابور، فإنها في العريضة أوسع، فأما اشتباك الأبنية والعمارة واليسار فإن الري تفضلها. وطولها فرسخ ونصف في مثله. وبنائها طين، وقد يستخدم فيها الحصى والأجر. ولها أبواب مشهورة. . . ومن أسواقها المشهورة: روذة، وبليسان، ودهك (وغيرها). وأعمرها الروذة، فإن بها معظم التجارات والخانات، وهو شارع عريض مشتبك الأبنية. ولها مدينة عليها حصن، وفيها المسجد الجامع وأكثر المدينة خراب، والعمارة في الرض ومياهم من الآبار، ولهم

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨.

(٢) الاصبخري: مسالك الممالك ص ٣٩.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٣٨ - ١٣٩.

أيضا قنى كثيرة، ولهم في المدينة نهران للشرب . و (ولها مدن حولها .) وللري سوى هذه المدن قرى تزيد في الكبر على هذه المدن كثيراً منها شذور . أمين . . وغير ذلك من القرى التي بلغني أن فيها ما يزيد أهله على عشرة آلاف رجل ومن رساتيقها المشهورة قطران الداخل والخارج . . .

— ايران شهر هو مصر الجانب وقصبة نيسابور، بلد جليل لا أعرف له من عدیل^(١) . فيه سعة الرقعة وصحة الماء، فواكه واسعة لذيدة، ولحوم جيدة رخيصة، ومعاش حسنة مفيدة . أسواق فسيحة ودور فرجة، وضياح نفيسة، وبساتين نزهة . . . ثم هي خزانة المشرقين . متجر الخافقين، بضائعه تحمل إلى الآفاق، ولبزه نور وإشراق . تجبى إليه الثمرات . ويرحل إليه في العلم والتجارات . فرضة فارس والسند وكرمان، ومطرح خوارزم والري وجرجان . هو أربع وأربعون محلة منها ما يكون مثل نصف شيراز . . تكون فرسخاً في مثله، والمدينة وسطها بحصن وخذق وأربعة أبواب . . والجامع في الربض تحت المدينة . .^(٢)

— وأصبهان، عند ابن رسته، قصبة الكورة، «والتجار يكثر اختلافهم (إليها) ولهم متاجر في البلدان القرية منها . وهي تشتمل على عشرين رستاقياً يسمى أحدهما حي، وهو القصبة . وبه مدينتها وأسواقها ومجمع أهلها . . مسكن الملوك والرعية^(٣) .

— مرو، تعرف بمرو الشاهجان قصبة نفيسة . . بهية رحبة . أطعمة لذيدة بها نظيفة . منازل مليحة لهم أنيقة . أسواقهم حسنة ألا ترى صفوفها بالجامع الأعلى من كل جانب لطيفة؟ بها إيوان صاحب الدولة الشريفة . ولا

(١) الاضطخري: ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٢) المفديسي: المصدر نفسه ص ٣١٤ - ٣١٦ .

(٣) ابن رسته: الأعلام النفيسة ص ١٥٢ .

تسأل عن حمامات مرو وسل عن مياههم وكسبهم والمروات فإنها ضعيفة . .
بالجامع دواوين الخراج والشرط . والمدينة القديمة على تل ، في وسطها مسجد
كان الجامع في القديم . . وعند باب الربض عمارات وسيقة وبالربض
عمارات وسيقة وبالربض جامعان . . ولهم حياض نظيفة عليها أبواب وأنهار
تجري . . .»^(١)

— بلخ ، وهي في « . . . تقارب أحوال أهلها ورخص الأسعار بها
وكثرة الخضر واختراق الأنهار المحفوفة بالشجر في أعمال والمنازل وقرب الجبال
والأودية ومرافقها نظير دمشق . . ثم انظر إلى بهاء بلخ وحسن موقعها وسعة
طرقها وبهجة شوارعها ، والتفاف شجرها ، وصفاء مائها وإشراق قصورها
وسور مدينتها ، ومسجد جامعها وأحكام صنعته وجلالة موضعه ، ليس
بإقليم العجم مثلها حسنا ويسارا . يحمل من غلاتها كل سنة مال عظيم إلى
خزانة السلطان زائدا عما يحتاج إليه . . . وعليها سور ، ولها ربض . . .»^(٢)

ولا تقتصر مثل هذه الأوصاف على المدن الكبرى ، ولكنها تتناول أيضا
المدن الوسطة والصغيرة ، ومن ذلك :

حلوان : قصبة صغيرة سهلية جبلية ، يحيط بها بساتين وأعناب وتين ،
قريبة من الجبال ، ولها سوق طويل وحصن عتيق ونهر صغير وقهندز (قلعة)
فيه الجامع ولها ثمانية دروب . . .»^(٣)

الرقة : قصبة ديار مضر ، على الفرات ، بحصن عريض يسير على متنه
فارسان غير كبير . ولها بابان . غير أنها طيبة نزهة قديمة الخطة حسنة الأسواق

(١) المقدسي : المصدر السابق ص ٣١٠ - ٣١٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٠٢ - ٣٠٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٢٣ .

كثيرة القرى والبساتين والخيرات ومعدن الصابون الجيد والزيتون ولها جامع عجيب وحمامات طيبة، قد ظللت أسواقها وبربقت قصورها^(١).

قيسارية: «ليس على بحر الروم، بلد أجل ولا أكثر خيرات منها. تفور نعماً، وتتدفق خيرات. طيبة الساحة. حسنة الفواكه. عليها حصن منيع وربض عامر قد أدير عليه الحصن. شربهم من آبار وصهاريج، ولها جامع حسن»^(٢).

بلييس: قصبة الخوف. كبيرة كثيرة القرى والمزارع، عامرة. بنيانهم من طين.. كثيرة الطواحين ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك. وأحصيت في وقت من السنة، فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل حمل في كل أسبوع كلها حبوب ودقيق^(٣).

سجلماسة: قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يصب في قبليها، وهي طولانية نحو القبلة، عليها سور من طين. وسطها حصن يسمى العسكر، فيه الجامع ودار الإمارة. شديدة الحر والبرد جميعاً، صحيحة الهواء، كثيرة التمور والأعناب، والزبيب، والفواكه، والحبوب، والرمان، والخيرات. كثيرة الغرباء.. يقصدونها من كل بلد وهي مع ذلك ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة^(٤).

غزنين: «قصبة ليست بالكبيرة، إلا أنها رحبة منعمة رخيصة الأسعار. كثيرة اللحوم طيبة الفواكه مع كثرة، ولها مدن جليلة والمعاش بها حسنة، وهي أحد فرض خراسان وخزائن السند.. وهي جانبان: القلعة

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٤١.

(٢) المقدسي: السابق نفسه ص ١٧٤.

(٣) المقدسي: السابق نفسه ص ١٩٥.

(٤) المقدسي: المصدر نفسه ص ٢٣١.

وسط المدينة ينزلها السلطان . والجامع نحو القبلة مع بعض الأسواق في المدينة، وبقية الأسواق والبيوت في الریض، وللمدينة أربعة أبواب وبها يجتمع التجار، ولها قهندز حصین عجیب^(١).

جاجرم: رستاق صغير به مدينة لها جامع حسن، وهي كبيرة محصنة تدعى بهذا الاسم وله نحو سبعين قرية^(٢).

بست: قصبة جليلة موضوعة بين نهرين وجامعة للفاكهتين، نفيسة المدن كثيرة القرى. رطب غزير، وعنب كثير، وسدر وریجان صغيرة الرقعة، لها مدينة عامرة، والجامع فيها، وریض الأسواق فيه. .^(٣)

إن هذه الأمثلة التي أسلفت رغم أنها وصفية انطباعية إلا إنها كانت أدق ما استطاع الجغرافيون العرب تسجيله من أوصاف المدن ومن حركة العمران في العالم الإسلامي . ويمكن أن نرى فيها، بعد أن درسنا خاصة السعة المكانية والسكانية، الخاصة الثانية المكتملة وهي ما يتعلق بدور الخبرات الزراعية وحركة التجارة في عمران المدينة وفي توطيد أهميتها. والإهتمام في هذه الأمثلة يتركز على عدة أمور أساسية للمدينة الإسلامية. ففيها:

- ١ - الماء (من نهر أو بئر أو أحواض أو أقبية).
- ٢ - المناخ وكونه معتدلاً أو حاراً أو شديد البر.
- ٣ - الغذاء وتوفره وبخاصة اللحم والأخباز.
- ٤ - الإنتاج الزراعي وما يتوافر من الفواكه والشجر.
- ٥ - طرقات المدينة، وصفها وطولها وضيقها أو سعتها.

(١) المصدر نفسه ص ٣١٨.

(٢) ابن حوقل: ص ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٤.

٦ - التجارات فيها وبضائعها ومسراها .

٧ - الأسواق في سعتها وكثرتها وحركتها .

٨ - الأسعار ورخصها أو غلاؤها .

ولا يفصل عن ذلك الكلام عن الجامع وسكانه والحصن (في حالة وجوده أو السور وحالته) .

ونصل إلى الخاصة الثالثة للمدينة عند الجغرافيين الكبار وهي التحصين، وهؤلاء الجغرافيون اهتموا به وذكروه بوضوح كبير كأنهم اعتبروه من عناصر تكوين المدينة الآمنة . فالأمن عامل أساسي في المحافظة على البنيان والخيرات والتجارات وبالتالي في ضمان استمرار المدينة وبقائها . وتوافر وسائل الأمن من سور وقلعة (قهندز) أو حصن كان دوماً يلفت أنظار الجغرافيين وأصحاب البحث المدني . ولهذا فنحن نعرف بالتفصيل لا وجود هذه الوسائل الدفاعية فقط ، ولكن مكان وجودها بالنسبة إلى المدن ، ومدى فاعليتها ، كأن تكون مدينة أو قرية ، ونوع بنائها من طين أو حجارة . ومع أن معظم المدن كان لها طريقة أو أخرى في التحصين يذكرها الجغرافيون ، إلا أنهم سجلوا أيضاً المدن التي لا تحصين لها . وإذا كانت المدن التي تتطلب التحصين هي في العادة المدن المهتدة كالثغور والمرافئ والمدن الغنية التي تطمع الطامعين بالحكم أو بالنهب فإن المدن التي تخرج عن هذا النطاق قليلة محدودة ، ومعظمها مدن داخلية ، فكأن العالم الإسلامي كان مزروعاً اعتباراً من حدوده حتى أعماقه بالحصون والأسوار ، وتزداد كثافة الحصون على الأطراف . فالثغور الشامية والتركستانية والهندية حتى بلاد فارس المطلة على الخليج ، مملوءة بالحصون كما تمتلئ بها المرافئ على هذا الخليج ، وعلى المحيط الهندي ، وعلى البحر الأبيض المتوسط ، وتبرز خاصة في مناطق الاحتكاك بالمغرب وفي الأندلس وما أكثرها وبخاصة في الأندلس ، ولا نكاد نمر بمدينة ضمن هذا النطاق إلا كان فيها تحصين معين :

— فمِنطقة فاس (جنوب غرب إيران) كان لها أيام الإصطخري
 حصون عديدة «منها مدن محصنة بحصن، ومنها حصون، وداخل الحصن
 المدينة وحواليها أرباض، ومنها قهندزات (قلاع) في مدن، ومنها حصون في
 جبال منيعة مغردة عن البنيان قائمة بأنفسها، وأما المدن المحصنة فمنها
 اصطخر وبها حصن حواليه ربض مدينة كثة بها حصن وربض، البيضاء بها
 حصن وربض، السرمق، بها حصن وربض، وقهندز، إقليد بها قهندز
 وربض. . .» ويمضي الإصطخري فيعدد ١٨ حصناً بعضها قائم في القرى.
 ويضيف قائلاً: «وأما القلاع فإنه يقال فيها بلغني أن بفارس زيادة على خمسة
 آلاف قلعة منفردة في الجبال وقرب المدن، وفي المدن لا يتهدأ تقصيتها إلا من
 الدواوين. وكذلك ما ذكرناه من المدن المحصنة فإني لا أقدر على تقصيتها،
 وإنما أذكر ما أعرفه من ذلك إلا أن في هذه القلاع ما لم يذكر لأحد من الجبابرة
 أنه قدر على فتحها عنوة، منها قلعة ابن عمارة وتسمى قلعة الديكدان. . . لا
 يقدر أحد أن يرتقي إليها بنفسه إلا أن يرتقي به في شيء من البحر، وهي
 مرصد لآل عمارة في البحر، يعشرون منها المراكب. . . وقلعة. . . وقلعة. . .»
 وبعد أن يذكر ست قلاع أخرى عسوية يقول: «وأما القلاع المنيعة التي يقدر
 على الاحتيال لفتحها فهي أكثر من أن يبلغها حفظي. . .»^(١)

— وأما على الجبهة الرومية من جهتي الشام والجزيرة كمثال آخر فيقول
 الإصطخري: «أما الثغور فإنه لا قصبة لها، وكل مدينة قائمة بنفسها. . . أما
 العواصم فقصبتها أنطاكية وهي بعد دمشق أنزه بلاد الشام، عليها سور من
 صخرٍ يحيط بها، ويجبل مشرف عليها، فيه مزارع «وأرحبة ومزارع
 وأشجار. . . ويقال إن دور السور للمراكب يومان، وبها ضياع وقرى ونواح
 خصبة. . . ومليطة مدينة من أكبر الثغور التي دون جبل اللكام. . . وحصن

(١) الإصطخري: مسالك الممالك ص ١١٦ - ١١٨.

منصور، حصن صغير فيه منبر. . والحديث ومرعش هما مدينتان ثغران. وأما زبطرة، فإنها حصن كان من أقرب هذه الثغور إلى بلد الروم خربه الروم. والهارونية من غرب جبل اللكام، وهي حصن صغير بناه هارون الرشيد. واسكندرونه، حصن على ساحل بحر الروم. . والتنيات، حصن على شط البحر أيضاً، فيه مجمع لخشب الصنوبر. والكنيسة حصين فيه منبر، وهي ثغر عن شط البحر. والمثقب، حصن صغير بناه عمر بن عبدالعزيز، به منبر ومصحف له. والصيصة مدينتان بينهما منظرة حجارة حصينة جداً على شرف من الأرض. وطرطوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة تشتمل على خيل ورجال وعدة وهي في غاية العمارة والمخصب. .»^(١).

ويضيف أحد المعلقين على ابن حوقل بعض ثغور الجزيرة فإذا فيها: «... ميا فارقين، مدينة جليلة عظيمة الخطر عليها سور من حجارة، وفصيل وخذق عميق مصطكة العمارة ضيقة الأسواق، وبها مسجد جامع لا بأس به. . وماردين، حصن حصين منيع لا يرام ولا يقدر عليه مبني على قلة جبل شاهق في الهواء لا يدانيه قلة جبل البتة. وفيه من الذخائر والعدة والأسلحة مالا يمكن حصره. ومن تحته في ناحية الجنوب ربض عامر منغص بالسكان ضيق الأسواق. . وأما حصن كيف فهي قلعة حصينة ذات شعب مدفونة بين الجبال سوى جانبها المشرف على دجلة. . وجزيرة ابن عمرو مدينة صغيرة. . وعليها سور»^(٢).

ويتم المقدسي الصورة فيذكر قائلاً: «أمد بلد حصين، حسن، عجيب البناء. على عمل إنطاكية بفصيل شبه كرسي. له أبواب، وعليه شرف، بينه وبين الحصن فضاء، وهي أصغر من إنطاكية بحجارة سود

(١) المصدر نفسه ص ٦٢ - ٦٤ وانظر ص ٦٧.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٢٠٢.

صلبة، وكذلك أساسات الدور، وفيها عيون . . ثغر للمسلمين وحصن حصين . الجامع وسط البلد له خمسة أبواب . . وبعض الحصن على الجبل، ولا أعرف للمسلمين اليوم بلداً أحصن، ولا ثغراً أجلى منها . . وحران مدينة نزيهة، وعليها حصن من حجارة على عمل إيلياء في حسن البناء بها قناة . . والجامع متطرف . . والرها على عمل الطيب محصنة والجامع على طريق شعث وبها كنيسة عجيبة .

ونأتي بالمثل الثالث من إفريقية والمغرب، ومعظم البلاد فيهما بحرية، مسورة، حصينة، لأنها محصورة بين عداوة القراصنة في البحر وخطر الصحراء . فإن «برقة في مرج واسع، وهي مدينة عليها سور وأبواب حديد، وخذق، أمر ببناء السور المتوكل على الله . . وحوالي المدينة أرياض يسكنها الجند وغير الجند . .»^(١) وأطرابلس مدينة كبيرة على البحر، مسورة بحجارة وجبل، لها أربعة أبواب . . وأسفاقس وسوسة مدينتان بحريتان ومسورتان . والمهدية، على البحر، مسورة بالحجر والجبل . . وبنزرد، مسورة، بناؤهم حجر، والجامع وسط البلد . وطبرقة، بحرية، يطل عليها جبل، وقد خرب حصنها والناس في الربض . . بونة بحرية مسورة بها معدن حديد . . فاس، بلدان جليلان كبيران، كل واحد منهما حصن . . وحصنها طوب، وبها قلعة شميث، بناها ابن البدري، وأخرى على الوادي بناها ابن أحمد . . وسجلهاسة، قصبية جلييلة عليها سور من طين، وسطها حصن يسمى العسكر، فيه الجامع ودار الإمارة^(٢) و «توزر في أقصى إفريقية مدنية عليها سور مبني بالحجر والطوب، ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة، ولها أرياض واسعة، وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب . .»^(٣) وهي المدينة

(١) البعقوبي: البلدان ص ٣٤٣ .

(٢) المقدسي: المصدر السابق ٢٢٤ و ٢٢٦ و ٢٢٩ .

(٣) ياقوت: معجم البلدان ج ٢٠ ص ٥٨ .

العظمى من أربع مدائن في أرض واسعة . . . وحول هذه المدائن أربع سباح^(١) . وكانت مليلة مدينة ذات سور منيع وحال واسع وكان مأوها يحيط بأكثر سورها من بئر فيها عين عظيمة . . .^(٢) وهي «عامرة محصنة، لم يلها وال قط . ولها حصن دون حصن . وتنس عليها سور ولها أبواب عدة وبعضها على جبل قد أحاط به السور وبعضها في سهل^(٣)» داخلها قلعة صعبة المرتقى ينفرد بسكانها لخصانتها، وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة . «ومدينة قفصة مدينة حصينة لها سور عال من لبن عال جدا طول اللبنة عشرة أشبار . . .»

أما تونس، فيقول ابن خرداذبة عنها أن اسم تونس هو قرطاجة وهي على ساحل البحر يحيط بسورها واحد وعشرون ألف ذراع . وفي المغرب الكثير جدا من المدن الحصينة، وكذلك في الأندلس فإن بلنسية مثلا حسب قول الرازي : «قاعدة من قواعد العمال القديمة وإليها تنسب الكورة وهي مدينة التراب . . . قال أحمد بن عمر : وهي مدينة مسورة قد أتقن سورها المنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن أبي عامر، ولا يعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها، ولا أجمل ولها خمسة أبواب : الباب الشرقي وهو باب القنطرة . . . وبعده إلى الشرق باب الوراق، وفي القبلة باب ابن صخر، وفي الجوف باب الحنش، وفي الغرب باب بيطالة، وباب القيسارية . . .»

وثمة جزر محصنة هناك، فجزيرة شقر حسب قول الرازي نفسه : «أحاط الوادي من جميع جهاتها . ولم يبق لها إلا موضع لطيف يدخل منه إلى هذه الجزيرة قد صنع فيه حفير . وعليها مما يلي ذلك الموضع سور وباب

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٣٥٠ .

(٢) اليعقوبي : البلدان ص ٣٥١ .

(٣) ابن خرداذبة : مسالك الممالك ص ٨٧ .

يصعد إليه على درج . . « ولن نستطيع استنفاد هذه المادة في أي صقع ، فهي أكثر من أن يحاط بها .

ونصل إلى الخصائص الباقية للمدينة : لدى الجغرافيين ، ولعلنا لاحظنا أن الصفة السياسية هي أول ما يبدأ به الجغرافيون تعريف المدينة . فهي قصبة أو مدينة عادية أو مصر ويحددون مركز السلطان فيها ودار الإمارة وقد لا يحتاج للأمثلة التي تكشف بعض ذلك . فهي مبسوطة فيما تقدم من قبل . وقد تكون دار الإمارة في حصن ضمن المدينة أو في مدينة صغيرة ملكية خارجها ، ولكنهم في كل الأحوال يشيرون إلى ذلك ، ويشيرون إلى أن المدينة التي يقيم فيها الأمير . يذكر المقدسي عن مدينة إيران شهر أنها لو كانت منفردة عن نيسابور لاحتاجت إلى طبل وعلم وأمير محكم^(١) . وهذه فيما يظهر من شروط المدينة التي يستقر بها الأمير .

ويتصل بالوضع السياسي وجود المسجد الجامع في المدينة - والمسجد الجامع مؤسسة إسلامية لا تقوم بدونها المدينة الإسلامية ، ولذلك نجده موجوداً في جميع المدن كبيرها وصغيرها على الإطلاق ، كما نجده في القرى الكبيرة ، وقد أبرز الجغرافيون المسلمون وجوده في كل تجمع سكاني حضري . واعتبروه شرطاً من شروط المدن ورسومها . لا تسمى المدينة مدينة إلا بوجوده . يقول المقدسي : بعد أن ذكر عدة مدن بها حصن وخذق . . «وسائر المدن على ما ذكرنا ، وها هنا قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع . .»^(٢) .

وكان الجامع يقوم بمهمة مثلثة ، دينية ، سياسية ، ثقافية ، في المدن والقرى . ففيه تكون الصلاة ، وفيه اجتمع الناس بالأمير ، أو السلطان ، أو

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم .

(٢) المقدسي : المصدر نفسه ص ٢٨٢ .

صاحب الحكم، يوم الجمعة، كما أن عند اسطواناته يكون التدريس للكبار خاصة وللصغار، ولهذا اهتم الجغرافيون بإبراز وجوده في المدن الإسلامية كافة. وحددوا مكانه. وأحياناً سعته وزخرفته. ولا تقام الجمعة في القرى الصغيرة التي كان يجتمع أهلها بعضهم إلى بعض في قرية محددة لإقامتها.

وإذا كان معروفاً أن صلاة الجمعة لا تقام إلا في مكان واحد من مصر أو المدينة، حتى لقد كان الحجاج يقيم الصلاة بواسطة ويأخذ الناس على اتباعه في البصرة والكوفة عن طريق مجموعة من المبلغين يقيمهم على طول الطريق إلى المصريين، فإن العباسيين كانوا أول من تساهل في هذا الشرط، بعد أن اتسعت بغداد، فكان ثمة جامعان واحد في الجانب الشرقي من المدينة، وآخر في الجانب الغربي. على أن بغداد لم تبق وحدها في هذه الصفة فقد وجد جامعان في أكثر من مدينة. فتاهرت مثلاً ذكروا أنه كان بها جامعان^(١) وبالربض (في مرو) جامعان أحدهما عند باب المدينة والآخر في الصيارفة الغالب عليه أصحاب أبي حنيفة، وهو ما حوله من بناء أبي مسلم^(٢). وكان ثمة في مدينة «بم» من بلاد كرمان على ما ذكر الاصطخري ثلاثة مساجد، يجمعون فيها الجمعات، فمنها مسجد للخوارج في السوق، ومسجد جامع في البرازين، ومسجد جامع في القلعة^(٣).

وإذا لم يكن ثمة شكل في وجود المسجد الجامع في كل مدينة فإننا مضطرون للوقوف طويلاً عند كلمة المنبر التي ترد على أقلام الجغرافيين من القرن الرابع حتى السابع دون أن يكون لدينا تفسير واضح لهذا المصطلح.

(١) المقدسي: احسن التقاسيم ٢٢٦.

(٢) الاصطخري: مسائل الممالك ص ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ - ١٠٦.

قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أن المنبر هو كناية عن المسجد الجامع . وأنه في الأصل والواقع كذلك . ولكن الكلمة صارت منذ القرن الثالث مصطلحا يعني بالإضافة إلى المنبر العادي أنه :

من السمات الأساسية للمدن : يقول المقدسي : لا مدينة في مقياس علمنا إلا بمنبر^(١) .

— ولكن هذا لا يعني أنه مقصور عليها ، فثمة قرى فيها منابر مثل عسفان . فهي قرية جامعة ، وبها منبر^(٢) وقرية منع (في نواحي أعزاز حول حلب) وهي قرية كبيرة فيها منبر^(٣) والجحفة (بين مكة والمدينة) كانت قرية كبيرة فيها منبر^(٤) . وخيل ، (بين الري وقزوين) لها عدة قرى ومنبر^(٥) . والجار ، فرضة على ساحل بحر القلزم بها منبر^(٦) . وجلما ثرد ، قرية كبيرة بأصبهان فيها منبر وجامع كبير^(٧) .

وقد توجد المنابر في بعض الحصون «فحصن المثقب حصن صغير بناه عمر بن عبدالعزيز وفيه منبر^(٨) ومصحف له» (أي لعمر بن عبدالعزيز) «وحصن منصور وهو صغير به منبر^(٩) والكنيسة حصن وثغر فيه منبر^(١٠) .

— إن ثمة تفاوتاً في وجوده بين بلد وآخر . فبعضها حظيت به ،

(١) المقدسي : ص ١٩٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٣ .

(٤) المقدسي : ص ٧٧ .

(٥) ياقوت : البلدان ج ٢ ص ٤١٣ .

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٩٢ .

(٧) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٥٦ .

(٨) الاصلطخري : ص ٦٣ .

(٩) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(١٠) ياقوت : البلدان ج ٤ ص ٤٨٥ .

وبعضها لم تحظ، وهكذا نجد الاصطخري يقول عن ناحية يزد: إن مدينة «أرجان ليس بها منبر، وطرخيشان ليس بامنبر وصاهك الكبرى، لها منبر، وصاهك الصغرى ليس بها منبر. ومردسف ليس بها منبر. والأذكان. وليس بها منبر، والراذان ليس بها منبر، ونونه ليس بها منبر، والحيرة وبها منبر، والإسكان ليس به منبر، والفاروق ليس بها منبر، والسرداب بها منبر، وكمين وبها منبر، والرون ليس بها منبر. » ومعني هذا الشكل في تعداد ٢٥ مدينة بين صاحبة منبر، ومعدومة المنبر^(١). ويتكرر ذلك عنده باستمرار، ففي طسوج شيراز ثمة مدينتان لها منبران، و ١٣ مدينة ليس بها منابر^(٢) وناحية سيراف فيها ١٧ منبراً في ١٧ مدينة في حين بقيت ١٩ مدينة دون منابر^(٣)، وناحية أرجان فيها ست منابر، وحرمت ٨ مدن من المنابر.

— وتتفاوت عدد المنابر أحياناً في المدينة الواحدة فثمة ما فيه منبران مثل مدينة كرم^(٤). وما فيه ٣ منابر مثل: نسف وسيراف^(٥). وما فيه أربعة منابر (مثل ناحية يزد، وليس في هذه النواحي كلها ناحية، وبها أربعة منابر غير هذه الناحية^(٦)). وفي مرو الروز خمسة منابر.

— وقد توجد المنابر في الرساتيق أيضاً وفي الحصون، ففي رستاق (بست) سبعة منابر^(٧) وثمة «منابر على نهر جرار نحو ستة أيام»^(٨). وقد يجمعون عدد المنابر في إقليم واحد فيذكرون أن في فلسطين نحواً من عشرين

(١) الاصطخري: المصدر نفسه ص ١٠٠ - ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٣) الاصطخري: المصدر نفسه ص ١٠٦ - ١١٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١١٢ - ١١٣.

(٥) الاصطخري: المصدر نفسه ص ١٠٧.

(٦) الاصطخري: المصدر نفسه ص ١٠٧.

(٧) الاصطخري: المصدر نفسه ص ١٠٦ - ١١٠.

(٨) المصدر ص ١٠٦، ص ٣٢٥.

منبراً على صغر رقعتها . (١) ورساتيقي نيسابور «غير الخزائن ستة آلاف قرية - مثل عمواس وبها عشرون ومائة منبر» (٢) .

وقد كان من الممكن أن يفهم المنبر حسب الأمثلة الماضية على أنه قيام صلاة الجمعة أو المسجد الجامع لولا أمران :

— الأول أنهم يفصلون دوماً بين الجامع والمنبر، ويذكرونها منفصلين، ويذكرون أحياناً الجامع ويشيرون إلى أنه ليس في المدينة منبر.
— الثاني عدا عن الأمور التي توضحها النصوص التالية والتي تلقي ضوءاً على مصطلح المنبر:

فإنهم يصفون المنبر بالصغر والكبر، وبالحسن وبالجلال وبالقدم :

يقول ياقوت : «وبهاران من قرى أصفهان ذات جامع ومنبر كبير» (٣) .
ويقول في بلدة الوشم : إن منبرها من أكبر منابر اليمامة (٤)
ويقول المقدسي عن أرسوف : «وبها منبر حسن» (٥) ويقول ياقوت عن غرشستان إن بها عشرة منابر أجلها يبشير لأنها مستقر الشار أي الملك (٦) .
ويقول الأصبخري : «وبمرور منابر قديمة وحديثة» (٧) .

وقد تفسر هذه الصفات أيضاً على أنها منابر خطبة الجمعة تماماً كما يفسر النص التالي الذي كتبه المقدسي :

(١) الأصبخري : المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢) المقدسي : ص ٣١٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٥١٤ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص

(٥) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٧٤ .

(٦) ياقوت : ج ٤ ص ١٩٣ .

(٧) الأصبخري : مسالك الممالك ص ٢٦٣ .

« . . . وها هنا قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع ، لأن الأمير ببخارى والمقدم عند السلطان والمتمثل رأيه أصحاب أبي حنيفة . وعندنا لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع تقام فيه الحدود . وكم تعب أهل بيكند حتى وضعوا المنبر»^(١) . لكن الذي يلفت النظر في هذا النص جملتان هما : جملة إقامة الحدود ، وقضية تعب أهل بيكند لإقامة المنبر . والجملتان تدلان على أن إقامة المنبر ليست حرة مبدولة للناس ، ولكنها من أعمال السلطان وسلطاته وعلى أن من أعمال المنبر إقامة الحدود .

وربما بدا النص بصورة أكثر وضوحاً على ضوء النص التالي : «وبروجرد مدينة (كانت تعد من القرى إلى أن) اتخذ فيها المنبر : قمولة وزير أبي دلف لما عظم أمره واستبد بالجبال» وهذا يعني أن إقامة المنبر احتاجت إلى سلطة وزير ونفوذه . على أن ثمة نصوصاً أخرى تلقي المزيد من الضوء على وظيفة المنبر منها : قول الاصطخري : «ولكرميشية قرى كثيرة . ولكل منبر قرى ومزارع»^(٢) . ويقول المقدسي : «لا ننكر فضل مرو . . . غير أن لنيسابور اثني عشر رستاقا منها (بشت) . دخل ثلاثة منابر منها مثل دخل مرو . . .»^(٣) وهذا يعني بكل وضوح أن للمنبر «دخلا» ومردوداً مادياً .

وأخيراً لدينا النصوص التالية : يقول ابن حوقل عن برقية : «إنها أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان»^(٤) . وهذا قد يعني أنه وحدة إدارية ، لكن النص الآخر الذي يقدمه اليعقوبي قد يكشف شيئاً آخر يقول : « . . . نزل المهدي في الجانب الشرقي (من بغداد) فسميت الشرقية ، وبها المسجد الكبير ، وكان يجمع فيه يوم الجمعة ، وفيه منبر ، وهو المسجد الذي يجلس فيه

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٨٢ .

(٢) الاصطخري : مسالك الممالك ص ١٩٩ .

(٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص ٣١٤ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ٦٩ .

قاضي الشرقية، ثم أخرج المنبر منه . . .^(١) . ويذكر ابن حوقل أن محلة صرد منبر فيه حمام وفنادق وسوق صالحة . . .^(٢) ويقول: «إن المنبر من رستاق الروذراور بموضع يقال له برج الروذراور له قرى كثيرة»^(٣) .

ويقول ياقوت عن حصن تيرفت (بن جبل نفوسة والقيروان): . . . بأن فيه ثلاثمائة قرية وعدة مدن و«ليس فيها منبر، لأنهم لم يتفقوا على رجل يأتمون به»^(٤) ويقول المقدسي «ومسجد المنبر (في مرو) بعضه من بناء أبي مسلم على سوارى خشب، وبقيته من بناء عمرو بن الليث . . .»^(٥) .

وكل هذا الذي ذكرنا، مع ما سبق ذكره إنما يعني أن المنبر له معنى أو أنه هو وحدة قضائية إدارية تشبه القائمقامية اليوم، ولكن صاحبها قد يختار اختياراً باتفاق الناس، وقد يعين من قبل السلطة لكنه يقوم بإمامة الصلاة في الجمع، وبالقضاء بين الناس. كما يظهر أن للمنبر دخلاً محدداً يجعله حسناً أو سيئاً. وقد يكون الدخول من القرى والمزارع وأخيراً إقامة المنابر ليست حرة ولكنها مقيدة بحاجات السلطات ورأيه.

والقائم بالمنبر يشبه الوالي حين يعين للصلاة فقط (ومعها الضرائب) ويعاونه العامل للحرب ولكنه نسخة مصغرة عن هذا الوالي وله إقامة الحدود.

وأخيراً تبسط الجغرافيون العرب في وصف المدن، حتى وصفوا ثقافتها، كما ذكروا المساويء التي ترمي بها سواء بسواء. ولو أخذنا المقدسي

(١) اليعقوبي: البلدان ص ٢٤٥ .

(٢) ابن حوقل: ص ١٣١ .

(٣) ابن حوقل: ص ٣١٣ .

(٤) ياقوت: البلدان ج ٥ ص ٢٩٧ .

(٥) المقدسي: ص ٣١٦ .

مثلاً - وهو أكثر من تبسط - لوجدنا تجاور المديح والندم لديه في كثير من المدن . لا تمنعه خلة ظاهرة طيبة من ذكر خلة معيبة . ولا ينسى وبخاصة في المدن العظمى ، ذكر العلم والعلماء والمذاهب . فبينما هو يذكر المحاسن كأحسن ما يذكر، إذا هو ينعطف فيسلق المدينة بالألسنة الحداد، عما رآه فيها أو عرفه . وإذا كانت الواجهة الثقافية للمدينة عريضة قوية فإنها لا تغفر لديه الخطأ ولا تكف عنها نقده القاسي أحيانا كثيرة، حتى للأخلاق والأزقة والماء والصحة والنقود واللغة المحكية . . . إنها النظرة الشاملة إلى المدينة . ولو أنها ذات طابع انطباعي عام . وفيها ملاحظات دقيقة جداً، بعضها يتبع علم الاجتماع، وبعض من الانثروبولوجيا، وبعض من اللغات، وعلم الحيوان، والطب .

يقول المقدسي في ثقافة الفسطاط ومصر: « . . . ليس في الأمصار أجل منه، كثير الأجلة والمشايخ . . . ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعه، ولا احسن تجملاً من أهله . . . نغمتهم في القرآن حسنة، وحسن عبادتهم في الآفاق معروفة ماضيهم أبداً خطر والمحتسب كالأمر . . . يذكرون أنه يصلي قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف . . . »^(١).

ويقول في فلسطين وجنوب الشام: «إنها إقليم» قليل العلماء كثير الذمة والمخدمين لا خطر فيه للمذكرين، ولا تجد فيه مجوسيا ولا صائبا، مذاهبهم مستقيمة . أهل جماعة وسنة . وأهل طبرية، ونصف نابلس والقدس، وأكثر عُمان شيعة، ولا ماء فيه لمعتزلي، إنما هم في خفية . وبيت المقدس خلق من الكرامية، لهم خوانات ومجالس ولا ترى به مالكياء ولا داووديا (ظاهرياً وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٩٧ - ١٩٨ .

مذاهب أصحاب الحديث . . . وأقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفي وربما كان القضاة منهم والغالب فيه من القراءات حروف أبي عمرو إلا بدمشق فإنه لا يؤم في الجامع إلا من يقرأ لابن عامر، وهي شائعة فيهم مختارة عندهم، وقد فشت قراءة الكسائي في الأقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها. «^(١)

ويقول في البصرة « . . . » والبلد أعجب إلى من بغداد لرفقها «والمدينة كثيرة الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة والملوك بخاصية بغداد والبصرة. وللمذكرين به أدنى صيت . . . وبه مجوس كثيرة. وذمتهم نصارى ويهود. وقد حصل به عدة من المذاهب. الغلبة كما ببغداد للحنابلة والشيعة إلا الكناسة فإنها سنة. وبالبصرة مجالس وعوام السالمية، وهم قوم يدعون الكلام والزهد وأكثر المذكورين بها منهم . . . »^(٢)

وفي مرو: «مشايخ أجلة عقولهم شريفة. وكل ليلة بمسجد. عصاب عفيفة. مذكر فقيه يقفوا أبا حنيفة. ومدارس لكل دارس وظيفة . . . »^(٣) وفي نجاكت ببخارى: «أمرهم في الجماعات عجب، وللعوام فقيه وأدب» كثيرة المرابطين، قليلة الجاهلين . . . «^(٤) وأما خوارزم «فأهل فهم، وعلم، وفقه، وأدب، وأقل إمام في الفقه والأدب والقرآن، ما لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي . . . »^(٥) وفي إقليم ما وراء النهر، جانب خراسان يقول: « . . . هو أكثر الأقاليم علماً وفقهاً. وللمذكرين به صيت عجيب. ولهم أحوال جمّة . . . وأولاد علي (رضي الله عنه) على غاية الرفقة، ومذاهبهم مستقيمة، غير أن

(١) المصدر نفسه ص ١٧٩ - ١٩٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٧ - ١٢٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨١ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٨٤ .

الخوارج بسجستان ونواحي هراء كثيرة، وللمعتزلة بنيسابور ظهور بغير غلبة». وللشيعة والكرامية جلبة. والغلبة في الأقليم لأصحاب أبي حنيفة. إلا في كور الشاش وطوس وسواد بخارى (وغيرها) فإنهم شفعوية كلهم. والعمل في هذه المواضع على مذهبهم. ولهم حلبة بهراة وسجستان وسرخس. . . ولا يكون قاضياً إلا من الفريقين. . . وللكرامية حلبة بهراة. . . ولهم خواناتق بفرغانة. . . الخ»^(١).

وقد نهج ياقوت منهجا آخر في بيان ثقافة كل مدينة وموضع. فهو يذكر ما أطلع كل تجمع سكاني من الكتاب والشعراء وكبار الرجال والعلماء والفقهاء، ويذكر شيئا من تاريخ حياتهم، فمعجم البلدان يمكن أن يعتبر أيضاً معجم الرجال إلى حد ما.

أما انتقاد المدن فالمتجلي فيه هو المقدسي. . . وإذا كنا نجد بعض النقد لدى ابن حوقل وياقوت والإصطخري، فإن المقدسي لم يوفر بلدا من نقده، حتى المدن التي يمتدحها. وقد يكون هذا النقد لاذعاً كأنه الشتيمة، فهو نموذج الجرأة الصريحة القاسية في الجغرافيين. ونماذج نقده تتناول كل ما أنكر من الأمور الخلقية والعلمية والصحية والعمرانية حتى كثرة الكلاب واتهام نساء بعض المدن بالفجور ورجال بعضها بالسخف وقلة العقل.

فبعد أن يذكر محاسن زرنج في البنيان، والهمة، والفظنة، والفقه، والحفظ، والدهاء، والبهاء، والأدب، والخطب، والحذق، والهندسة، والحكمة، والمتاجر، والرخص، والكياسة، وتراويق البناء، وكثرة المشايخ، وغزارة المياه، يقول: «... غير أن حياتها كثيرة، وحرها شديد، وتمرها دقل، وهرجها عجب، أبداً تدور عليهم الدوائر. . . وأولاد الزنا بها

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٣.

عصائب، لهم عقارب، وهم في ذاتهم عقارب، يطعن بعضهم على بعض . . مع ثقلهم وبردهم . . «^(١) .

وفي نيسابور التي امتدح رساتيقها وخصبها وعلماءها يقول: «يحكى عن حموية أنه قيل له: هلا اتخذت بنيسابور بيهارستان فقال: لا يسع لذلك بيت مالي . قالوا: كيف وأنت صاحب الجيش؟ قال: لأنه ينبغي أن يدار على البلد كله الحائط . أي أنهم كلهم يحتاجون إلى البيهارستان لطيشهم وخفة رؤوسهم»^(٢) . وبعد أن يمدح ايرانشهر في صفحة كاملة، وزيادة، يقول: «... إلا أن في هوائها يبوسة، وفي أهلها جفوة، وفي لسانهم رخاوة، وفي رؤوسهم خفة، لا رفقة ولا بهية، ولا مساجد وضية، بشوارع بخسة . وخانات شعثة، وحمامات وضرة، وحوانيت منكرة، وجدارات وعرة، قد عاندها البلاء، وخالطها الغلاء، ثقيلة المعاش والمؤن، سواد يابس، وجبل عابس، ليس لمحتسبهم هيبة، ولا صرامة، ولا لخطيبهم خفر ولا لياقة، ولا لجامعهم في الأيام تلك الجماعة . . إلخ»^(٣) .

ويقول المقدسي في بلدة قرب واسط تعرف بالصليق: «مدينة على بحيرة طولها أربعون فرسخاً ضياعها بسواد الكوفة شديدة الحر كربة بليدة . بق مهلك . وعيش ضيق . . وماؤهم حميم، دليلهم عذاب، عقلهم سخيف، ولسانهم قبيح . . «^(٤) . ويقول عن البصرة بعد كل مدحها: «غير أنها ضيقة الماء منقلبة الهواء عفة عجيبة الفتن» .

ويقول عن اقليم العراق: «هذا اقليم الظرفاء، ومنبع العلماء، ومختار الخلفاء، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء، وسفيان سيد القراء، ومنه كان أبو

(١) المقدسي: المصدر نفسه ص ٣٠٥ .

(٢) المقدسي: المصدر نفسه ص ٣٠٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٩ .

عبيدة والقراء، وأبو عمر صاحب القراء، وحمزة الكسائي، وكل فقيه ومقريء، وأديب وسري حكيم، وداود وزاهد ونحيب وظريف ولبيب، وإليه رحل كل صاحب جليل، ومفاخرة كثيرة لا تحصى، غير أنه بيت الفتن والغلاء، وهو في كل يوم إلى وراء، ومن الحور والضرائب في جهد وبلاء، مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤون ثقيلة. «^(١)».

وتمدح المقدسي دمشق أطيب المدح، ويقول: إنها «طيبة جداً، غير أن في هوائها يبوسة وأهلها غاغة وثمارها تفهة، ولحمها عاسية ومنازلها ضيقة، وأزقتها نمامة، وأخبارها رديئة، والمعاش بها ضيقة»^(٢).

ويقول عن بيت المقدس بلده: «... قليلة العلماء، كثيرة النصارى، وفيهم جفاء، على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال... مع قلة يسار، وليس للمظلوم أنصار. والمستور مهموم، والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهور، لا مجلس نظر، ولا تدريس، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس...»^(٣)، وأما الرملة فهي عنده بعد كل الذي يطنب في محاسنها سيئة: «... غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل، وفي الصيف ذريرة من الرمل، لا ماء يجري ولا خضرة، ولا ثلج، كثيرة البراغيث، عميقة الآثار صالحية، فالفقير عطشان، والغريب حيران...»^(٤). وبعد أن يتمدح القسطنطين في ثلاث صفحات طوال يقول: «... إلا أنه ضيق المنازل، كثير البراغيث، عفن، كرب البيوت، قليل الفواكه، مياهه كدرة، وآبار وضيرة، ودور قدرة، وبق منتن، وجرب مزمن، ولحوم غريزة، وكلاب

(١) المصدر نفسه ص ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٧.

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٤.

كثيرة، . . . ولا يتورع مشايخهم عن شرب الخمر . . . إلخ»^(١) ويجعل القيروان
مفخرة المغرب، وأرفق من نيسابور، وأكبر من دمشق، وأجل من أصبهان،
ثم يقول: « . . . إلا أن ماءهم ضعيف، وأدهم طفيف، ولا فيها ظريف،
والعوام كالأغنام المرسله لا تراويح تصلى . ولا بقي للفريقين بها ماء . . . »^(٢)
ويقول عن الأندلس بعامة، رغم امتداح جناتها ورساتيقها: «إن الغالب على
الأندلس البرد . كثير المجذمين والخصيان . والثقلاء والبخلاء . قليل
القصاص . . . »

ولو شئنا نموذجاً من تقديم العرب للمدن وكيف يقاربون أمرها
لوجدنا الكثير من الأمثلة ولنضرب مثلين اثنين من أقصى المشرق، وأقصى
المغرب، بخارى وقرطبة . مثل بخارى نأخذه عن الإصطخري يقول:

« . . . أما بخارى واسمها بومنجكث، فهي مدينة في مستوى،
وبناؤها خشب مشبك، ويحيط بينها قصور، وبساتين وسكك وقرى .
تكون اثني عشر فرسخاً في مثلها . ويحيط بجميع ذلك سور يجمع هذه
القصور والأبنية والقرى والقصبة . فلا يرى في أضعاف ذلك كله مفازة ولا
خراب . ومن دون هذا السور على قصبة المدينة وما يتصل بها من القصور
والمساكن والمحال والبساتين التي تعد مع القصبة، ويسكنها من يكون في جملة
القصبة شتاء وصيفاً، سور آخر قطره فرسخ . وله مدينة داخل هذا السور
يحيط بها سور حصين . ولها قلعة خارج المدينة، تتصل بها مقدار مدينة
صغيرة . وفي داخلها قلعة أخرى . ومسكن ولاية خراسان من آل سامان في
هذه القلعة . ولها روض والمسجد الجامع على باب القلعة في المدينة . وحبسها
في القلعة . وأسواقها في روضها . وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد

(١) المقدسي: ص ٢٠٠ .

(٢) المقدسي: ص ٢٢٥ .

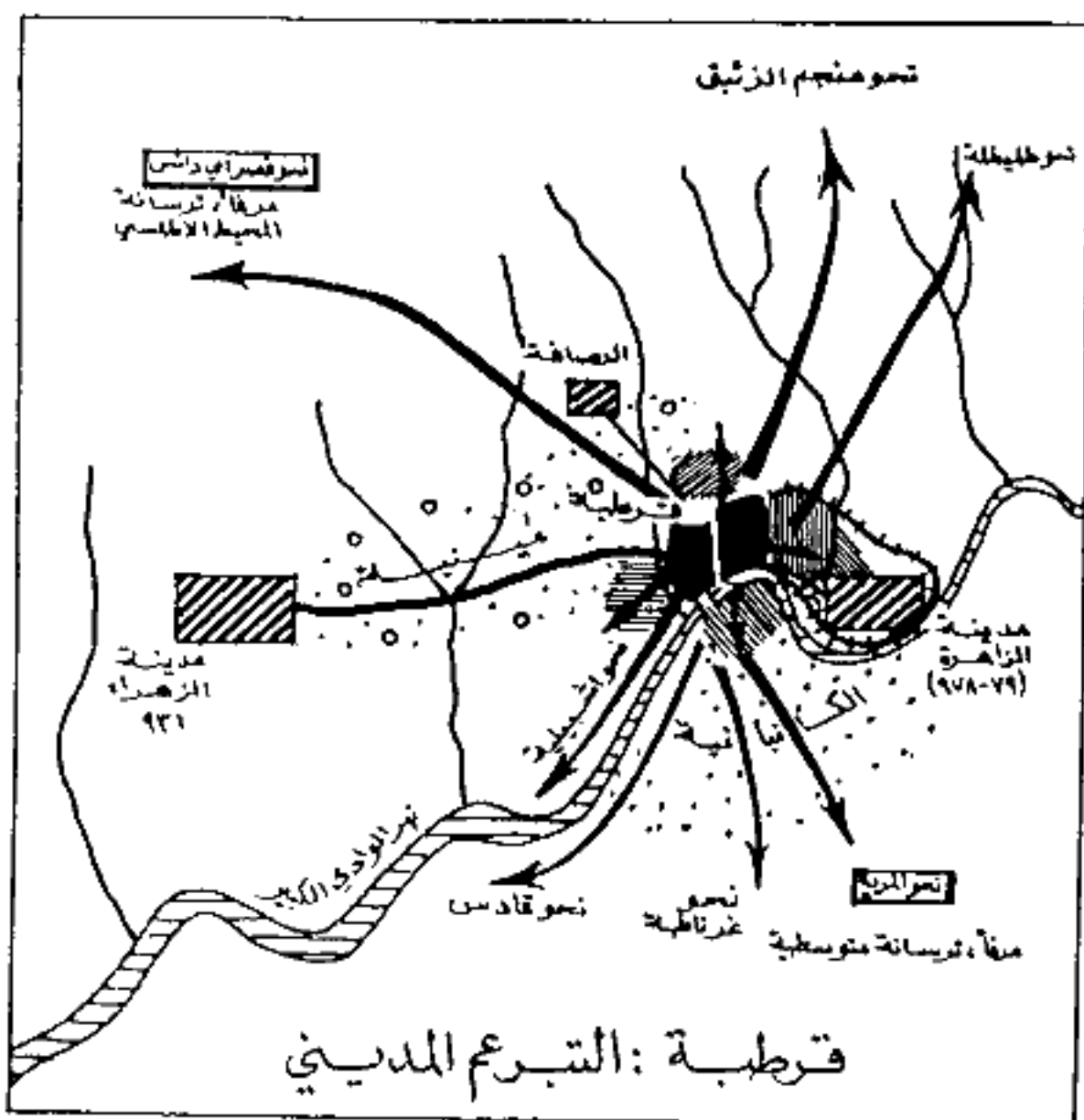
اشتباكا من بخارى . ولا أكثر أهلا على قدرها . ولهم في الربض نهر الصغد يشق الربض وأسواقها . وهو آخر نهر الصغد . فيفيض إلى طواحين وضياع ومزارع . ويسقط فاضله في مجمع ماء مجاور بيكند . . وأما المدينة فلها سبعة أبواب حديد . . . ولقلعتها بابان . . . وعلى الربض دروب (عديدة) . . وفي وسط الربض على أسواقها دروب . . وليس في مدينتها ولا قهندزها ماء جار ، لارتفاعها . ومياههم من النهر الأعظم ، وينشعب من هذا النهر في المدينة أنهار (عديدة) . . يسقي بعضها نحو ألفي بستان ، وقصر سوى الأرضين .

وبعد أن يعدد الإصطخري واحداً واحداً ويصف مجراها يتحدث عن رساتيق بخارى الموجودة داخل الحائط ، والموجودة خارج الحائط ، ويتعقبها بالوصف . ثم يقول : «وأبنية قرى بخارى كلها على اشتباك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع أراضي الأبنية . وهي محصنة فحسب بالقلاع وبالأبنية المجموعة . . وفواكه بخارى أصح فواكه ما وراء النهر وألذها طعماً ، وبعد أن يعدد الإصطخري إنتاج البلد ، يرجع فيتناول المدن حول بخارى داخل السور وخارجه» فالطواويس وهي أكبر منبر بعد القصبة . . (فهي) مدينة لها سوق ، ومجمع عظيم ، ينتابه الناس من أقطار ما وراء النهر ، في وقت معلوم من السنة . كثيرة البساتين والماء الجاري . ولها قلعة ومدينة ، ومسجد . جامعها في المدينة . . والمدن التي داخل الحائط متقاربة ، في الكبر والعمارة . ولكل منها حصن ، ومنها : كرمينية وهي أكبر من الطواويس وأعمر وأكثر عدداً . . ولها قرى كثيرة . وكذلك لكل منبر قرى ومزارع . إلا بيكند فإنها وحدها غير أن بها من الرباطات ما لا اعلم في بلدان ما وراء النهر أكثر عدداً منه . وبلغني أن عددها نحو من ألف رباط . ولها سور حصين . ومسجد جامع . وتأنق في بنائه . وزخرف محرابه فليس في ما وراء النهر محراب أحسن زخرفاً منه . .» (١)

(١) الإصطخري : مسائل الممالك ، ص ٣٠٥ - ٣١٤ .

وهكذا يمضي الإصطخري واصفاً المدن الصغيرة المحيطة ببخارى حتى
ليستوفيهما جميعاً . . .

وأما مثل قرطبة فناخذه مما روى المقرئ في «نفح الطيب» عن أبي
بشكوال (من رجال القرن السادس) فقد ذكر أن عدد أرباض قرطبة، حين
بلغت الغاية في التوسع والعمارة، واحد وعشرون ربضاً منها القبليّة بعدوة
النهر (أي الجنوبية على الضفة اليسرى، من الوادي الكبير) (وهي اثنان)
وأما الغربية فتسعة . . . وأما الشمالية فتلاثة . . . وأما الشرقية فسبعة . . . وقال:



«ووسط هذه الأرباض كلها قصبة قرطبة التي تختص بالسور دونها . وكانت هذه الأرباض دون السور (أي خارجه) فلما كانت أيام الفتنة صنع لها خندق يدور بجمعها وحائط مانع» .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس هنا قائلاً: إن الربض ليس معناه الضاحية، بل معناه الحي من أحياء المدينة، وواضح أن هذه الأرباض كانت أول الأمر ضواحي «لقرطبة العربية الأولى خارج أسوارها ثم امتدت المدينة شيئاً فشيئاً فدخلت الأرباض في المدينة نفسها وأصبحت أحياء . وهكذا فقرطبة تتكون في الواقع «من أربعة أقسام رئيسية: الأول هو المدينة، أو القصبة وهي المدينة القديمة . والثاني الجانب الشرقي، ويضم سبعة أحياء، أو أرباض، والثالث هو الجانب الغربي، أو المدينة الغربية، ويضم تسعة أرباض، والرابع هو المدينة القبلية، على الضفة اليسرى للوادي الكبير، ويضم حين أو ربضين . وإذا كان الأدرسي يذكر أن قرطبة: «في ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، فالمدينة الزائدة ناجمة عن قسمة الحي الأوسط (أي ربض المدينة والقصبة العتيقة وواسطة البلدة) إلى ربضين: الجامع وما حوله ربض واحد يتولاه عريفه . ومحارسه على حدة وربض آخر بذاته يتفرد به أيضاً عريفه . . وكان كل من هذين القسمين كأنه مدينة قائمة بذاتها، له عريفه ومحارسه» . .

وهكذا كانت قرطبة في أيام ابن بشكوال والإدرسي كأنها خمس مدن، وربما كان لها أسوارها أيضاً . وهذا يعني أن البلد فقد وجدته، فلم يعد مدينة واحدة يشرف على الأمن فيها صاحب المدينة، وإنما خمس مدائن متجاورة، يشرف على الأمن في كل منها عريف، وحراسه، والعريف في ذلك الوقت كان نائب صاحب المدينة في كل حي، فأصبح الآن رأسا في

جهته . . (١) .

ولم يكتف الجغرافيون العرب بهذا الفكر التمسديني المدقق، وبهذه اللوحات الوصفية للمدن، ولكنهم أضافوا إليها ملاحظاتهم، حول عدد من الأمور، بعضها يتصل بتوابع المدينة، وبعض يتصل بتقسيمها، حسب وظيفتها، وقسم ثالث يذكر حداتها، أو قدمها، ورابع يتناول المدن التوائم، المؤلفة من مدينتين. وخامس يتصل بتطورها، من عصر إلى عصر، وسادس يذكر المدن المجهضة التي لم تتم . . .

١ - توابع المدينة:

ويقصد المناطق المحيطة بها، والتي تدعى تارة بالربض وتارة بالحاضر، وثالثة بالضاحية، وقد تدعى الغوطة، كما في دمشق، أو بالظواهر، كما في مكة. والربض من مسمات المدينة. وندر أن نجد مدينة إسلامية لا ربض لها. ولهذا يرد ذكره في أقلام الجغرافيين، دون انقطاع من أقصى الأندلس، حتى أقصى تركستان، وأقصى الجزيرة العربية. لأنه مرتفق أهل المدينة من الحاجات اليومية. وقد مرت معنا في تضاعيف الأمثلة السالفة، كلمة الربض مرات ومرات، ويقصد به مدنيا ما يخرج عن الكتلة السكانية الرئيسية للمدينة. وكثيراً ما يكون خارج سورها، إن كانت مسورة، ولكنه مرتبط بالمدينة عمرانياً وعملاً. ومن الواضح أن الأرباض تكبر وتصغر حسب المدينة التي يحيط الربض بها، وقد يكون من الأصح أن نقول أن المدينة تكبر وتصغر، حسب غنى أو فقر الربض الذي يطوقها، فهو إذن من خصائص المدن الأساسية.

(١) انظر المقرئ: نفع الطيب ٢ ص ١٣ - ١٤. وانظر اعلام الاعلام لابن الخطيب وراجع حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا في الأندلس ص ٢٩٠ - ٢٩٣.

وقد ذكر فقهاء الحنفية الربض عند تحديدهم لتوابع مصر، وجعلوا كل قرية متصلة بربض مصر، من توابع هذا مصر، فإن لم تكن متصلة فليست من توابعه. وإن كانوا قدروا أحياناً مسافة عدة أميال، أو فراسخ لهذا التحديد^(١).

وأما الحاضر فيبدو أنه يعني أكثر قليلاً من الربض وأعمر. فالحاضر في قنشرين كما يقول ياقوت: هي قرية كالمدينة تقابل قنشرين «والحاضر السليمانى الذي عرف من قبل بحاضر السليمانية، في ظاهر حلب هو محلة عظيمة، كالمدينة بين بنائها، وسور المدينة رمية بسهم». «^(٢).

وأما الضواحي: فهي القرى الصغيرة، التي تنحّت عن المساكن وبرزت لوحدها والشاعر يقول: «قريش الضواحي لا قريش الأباطح». تمييزاً للضاحين من قريش، عن سكان بطاح مكة منهم. وجذر الكلمة آت من البروز^(٣) والظهور لأن الضاحية تبرز وحدها، وقد أحصى ابن الجيعان مثلاً ضواحي القاهرة في عشرين ناحية، وذلك عدا قرى الحبس الشرقي أو نواحيه وهي ست^(٤). وذكر ابن شيخ الربوة دمشق، وعدها ثلاثة مدن معاً: إحداهما ما في غوطة دمشق من القرى العامرة، التي لو جمعت لكانت مدينة عظيمة^(٥) وليس يستعمل لفظ الغوطة لربض أو ضاحية غير دمشق. وهكذا ميز الجغرافيون بين مختلف أنواع التوضع السكاني حول المدينة، ويقرب معنى الضاحية من معنى الطسوج، لولا أن الضاحية قرية من المدينة، وهي تقسيم عمراني، والطسوج قد يتعد عن المدينة، وهو تقسيم اداري.

(١) الزبيدي: تاج العروس ج ٣ ص ١٤٨.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ٢ ص ٢٠٦.

(٣) ابن منظور: لسان العرب ج ٢ ص ٤٠٢.

(٤) ابن الجيعان: التحفة السنية ص ٨١٥.

(٥) ابن شيخ الربوة: عجائب الدهر.

٢ - أنواع المدن حسب وظائفها :

سجل الجغرافيون بفكر تُمديني واضح ، أنواع المدن حسب وظيفة كل منها ، والدور الذي تلعبه بين المدن ، سواء كانت مصراً ، أو قصبه ، أو فرضة ، أو مدينة ملكية أو مدينة تجارية .

المدينة المصر :

فالفسطاط - حسب المقدسي - «مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين ، وحوى امير المؤمنين ، وفصل بين المغرب وديار العرب . واتسع في بقعته وكثر ناسه ، وتنضر إقليمه ، واشتهر اسمه ، فهو خزانة المغرب ، ومطرح الشرق وعامر الموسم . ليس في الأمصار أهل منه ، كثير الأجلة ، والمشايخ ، عجيب المتاجر ، والخصائص ، حسن الأسواق ، والمعاش ، إلى حماماته المنتهى ، ولقياسيره لباقة وبهاء ، ليس في الإسلام أكبر مجالس منه جامعة ، ولا أحسن تحملاً من أهله ، ولا أكثر مراكب من ساحله»^(١) .

وهذا يعني أن المدينة تكون مصراً إذا حوت السلطان والدواوين أي كانت المركز الإداري ، والسلطة السياسية ، واتسعت رقعتها الأرضية ، وازدحم فيها السكان ، وكانت غنية الاقتصاد (بالتاجر والأسواق والمراكب) ، وكانت لها أهمية علمية . وقد جعل المقدسي هذه الأمصار سبعة عشر مصراً في العالم الإسلامي .

المدينة - القصبه :

والقصبه قد تكون مدينة صغيرة أو كبيرة ، ولكنها مركز السلطان ومحل إقامته ، وتتميز بوجود جامع فيها ، ومنبر مع الرخاء الاقتصادي ، ووفرة

(١) المقدسي : ص ١٩٧ .

المياه . فمدينة المنصورة ، بالسند قصبتها مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، ذات جامع كبير سواريه ساج . . ولهم خليج من نهر مهران في أهلها مروة وصلاح ، ودين وتجارات ، وشربهم من نهر يقال له مهران ، وأسعارهم رخيصة»^(١) .

وذكر ياقوت مدينة الأنبار فقال : «مدينة قرب بلخ وهي قصبه ناحية جوزجان ، وبها مقام السلطان ، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها . ولها مياه وكروم ، وبساتين كثيرة . .»^(٢) . وسجلها قصبه جليلة ، على نهر بمعزل عنها . وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن ، يسمى العسكر ، فيه الجامع ودار الإمارة . . كثيرة التمور ، والأعناب ، والزبيب ، والفواكه ، والحبوب ، والرمان ، والخيرات ، كثيرة الغريباء ، موافقة لهم ، يقصدونها من كل بلد ، ومع ذلك (فهي ثغر فاضل . برستاقها معادن الذهب ، والفضة . وهي في رمال . ولهم مياه . . .»^(٣) .

المدينة - الحصن :

وهي تقوم عادة في المناطق غير الآمنة : فمدينة توزر في إفريقية ، مدينة «عليها سور مبني بالحجر ، والطوب ولها جامع محكم البناء ، وأسواق كثيرة ، وحوطها أرباض واسعة وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب ، كثيرة النخيل والبساتين ، وهي أكثر بلاد إفريقيا ثمرأ ، وشربها من ثلاثة أنهار»^(٤) ومدينة كثة من أجمل المدن ، بكورة إصطخر «مدينة على طرف البرية ، ولها طيب هواء وتربة . وصحة وخصب . ولها رساتيق تشتمل على مدينة محصنة ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص ٢١١ .

(٣) ياقوت : معجم ج ١ ص ٢٥٧ .

(٤) وانظر المقدسي : ص ٢٣٦ ، والإصطخري ص ٣٩ .

بحصن وللحصن بابان من حديد . جامعها في الربض . ومياههم من القنى (وقرية) فيها معدن الأنك، ولها رساتيق خصبة، كثيرة المياه والثمار، تحمل إلى أصفهان^(١) ويبرز في هذه الأوصاف وجود الحصن وأبوابه الحديدية والغنى الزراعي والمعدني الذي يجعل أهل المدينة يبنون الحصن .

وأما هراة فهي : «مدينة محصنة كثيرة الزحمة . نحو الثلث من إصطخر، مشتبكة العمارة، وليس حولها شجر، وهي خصبة، رخيصة الأسعار . . .»

ويمكن أن نفرق هذا النوع من المدن المحصنة، إلى نوعين : مدينة لها حصن، مثل : فسا، وهي مدينة مفترشة البناء، واسعة الشوارع، تقارب في الكبر شيراز، . . . وهي مدينة قديمة، ولها عليها حصن وخنديق ولها ربض وأسواقها في ربضها^(٢) . ومثل زرنج التي هي «محكمة الحصن، عجيبة البنيان . . . وهم حصن عجيب يدور حوله خندق ينبع الماء منه، وتجري إليه فضلات المياه^(٣) . وثمة النوع الآخر الذي هو حصن يحتوي المدينة في داخله مثل، توزر، وتنس، وقفصة، في المغرب، فإن تنسى مثلاً مدينة مسورة حصينة، داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى، ينفرد بسكانها لحصانتها . وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة . . .»^(٤) ومثلها : طليطلة، فهي مدينة بنيت «في جبل عال بناؤها من حجارة قد وثقت بالرصاص، وحولها سبعة جبال كلها عامرة منيعة»^(٥) ومثلها : جاجرم، وهي رشياق صغير سري مدينة لها جامع

(١) ياقوت : ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) الإصطخري : ص ١٢٥ .

(٣) الإصطخري : ص ١٢٧ .

(٤) المقدسي : ص ٢٠٥ .

(٥) ياقوت : ج ٢ ص ٤٨ وانظر وصفاً آخر لها لدى ابن حوقل ص ٧٨ .

(٦) الإصطخري : ص ٤٢ .

حسن وهي كبيرة محصنة^(١). ومثلها: أردبيل، وبها المعسكر ودار الإمارة، وهي مدينة تكون ثلثي فرسخ في مثلها وعليها سور فيه ثلاثة أبواب وبنائها الغالب عليه الطين^(٢).

المدينة الفرضة:

(أو الميناء) وميزتها الأساسية وجودها على البحر وتجارها المتصلة عبره. فعدن مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، ردة، لا ماء بها ولا مرعى. وشربهم، من عين، بينها وبين عدن مسيرة يوم. وهو مع ذلك رديء إلا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليها لأجل ذلك. . . . و«مدينة صحار، قصبة عُمان، ليس على بحر الصين بلد أجل منه، وبها متاجر البحر. وقصد المراكب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً. . . . وقلهات، «مدينة بعمان على ساحل البحر لها مرفأ أكثر سفن الهند وهي الآن - زمن ياقوت - فرضة تلك البلاد وأمثلة أعمال عمان عامرة أهلة. . . .»^(٣)

وأما عكا، فهي «مدينة حصينة على البحر كبيرة الجامع فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة. ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (طولون) وكان قد رأى صورتها وصفتها واستدارة الحائط على مينائها، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء. . . .»^(٤) وصار لها مرفأ يغلق بسلسلة ضخمة كل ليلة. . .

(١) المقدسي: ص ٣٦٨.

(٢) الإصطخري: ص ١٨١.

(٣) ياقوت: ج ٤ ص ٣٩٣.

(٤) المقدسي: ص ١٦٢.

أما دمياط، فهي ثغر من ثغور الإسلام . . وفي شمالها يصب ماء النيل في البحر المالح، وعرضه هناك نحو مائة ذراع، وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها جرس لا يخرج مركب إلى البحر المالح إلا بإذن. وعلى سورها محارس ورباطات. وبها الفرش القلموني من كل لون وتحفه لجميع ملوك الأرض^(١). وأما سفاقس، فهي مدينة من نواحي أفريقية جلّ غلاتها الزيتون، وهي على ضفة الساحل، على البحر، ذات سور، وبها أسواق كثيرة، ومساجد وجامع، وسورها صخر وأجر، وفيها حمامات وفنادق وقرايا كثيرة وقصور حمة ورباطات على البحر ومنابر يرقى إليها في مائة وستين درجة في محرس يقال له: بطرية، وهي وسط غابة الزيتون يقصدها التجار من الأفاق لا يتبايع الزيت . .^(٢).

وذكروا حصانة بعض المراسي: «فوهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ربح، وما أظن له مثلاً في جميع نواحي البربر، سوى مرسى موسى، فقد كنفته الجبال، وله مدخل آمن، وعليها سور، وماؤها من خارجها. . وفي حاضرتها دهقنة وحذق، وهي فرضة الأندلس، إليها ترد السلاح. ومنها يحملون الغلال. .»^(٣) وقد ذكروا ووصفوا مطولاً خشبات البصرة (منارتها) ومنارة الإسكندرية التي وصفها البكري دون أن يراها، ووصفها الإدريسي بعد معاينة بسيطة، ووصفها ابن جبير بعد أن صعدها وصلى في المسجد في أعلاها. كما وصفوا صنم قادس وهي «المنارة العجيبة» التي كانت قائمة على ساحل البحر قرب قادس (وهي أعمدة هرقل) وقد رآها الزهري الجغرافي سنة ٥٤٥ / ١١٥١، قبل أن تهدم لسنوات، ووصفها بمنتهى الدقة، ويقول «إنها كانت في ارتفاع مائة ذراع، وكانت

(١) ياقوت: ج ٢ ص ٤٧٢ - ٤٧٣.

(٢) ياقوت: معجم ج ص ٢٢٣.

(٣) ابن حوقل: ص ٧٩.

مربعة مبنية بالكردان الأحرش المحكم التجارة، معقدة في أعمدة النحاس الأحمر، وكان في رأس العمارة مربع ثان قدر ثلث الأول، وكان في رأس هذا المربع الصغير شكل مثلث محدود له أربعة أوجه على كل وجه من المربع الصغير وجه المثلث، ففي رأس تحديد المثلث رخامة بيضاء مربعة من شبرين في شبرين، وعلى تلك الرخامة مثال صورة ابن آدم، من أبداع ما يكون من الاتقان . . ووجهه لناحية الغرب ملتفتا على ناحية الشمال قدم ذراعه الشمال، وقبض أنامله، وأشار بسباته على فم الخليج الخارج من البحر الأعظم المسمى بالزقاق المعترض بين طنجة وبين جزر طريف . . وفي يده عصا كأنه يشير برميها إلى البحر. وكان هدم هذه المنارة سنة ٥٤٥ / ١١٥١، في أول الفتنة الثائرة في الأندلس هدمها علي بن عيسى بن ميمون، حين شاع في جزيرة قادس أن ذلك التمثال من ذهب. فلما قلعه وجدته من اللاطون، وقد غسل بالذهب الطيب فجرد عنه ١٢ ألف دينار من الذهب . . «^(١) ولم يبق للمسلمين دليل يدلهم على مدخل البحر الأعظم وانقطعت دلالتها.

المدينة الملكية :

وهي التي يبنها السلطان لسكنه الخاص، وسكن جماعته وحرسه . فواسط التي بناها الحجاج، كانت مدينة له ولأصحابه، وبغداد ودار السلام في أول عهدها كانت كذلك، والقاهرة كانت مدينة للخلفاء الفاطميين وحدهم وأعمالهم، وغالبا ما تكون هذه المدينة مسورة ذات رقعة محدودة وتقوم في معزل عن المدينة التي يسكنها الشعب. يقول المقدسي: «وعلى نصف فرسخ من نحو غزنين شبه مدينة تسمى العسكر ينزلها السلطان^(٢) . .»

(١) الزهري: كتاب الجغرافيا ص ٩٠ - ٩١ (٢١٦ - ٢١٧).

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

وأما رقادة، فهي خارج القيروان وهي «أبنية كانت معسكر آل الأغلب وعليها عدة حيطان ومقامهم بها كان إلى أن استحدث عبيد الله المهدي (المهدي) على شطر البحر، فأقام بها وانتقل عن رقادة. . وهي مسورة بالجبل والبحر»^(١).

ويضيف ابن حوقل قائلاً: «وهي في نحر البحر من القيروان في مرحلتين. فرضة لما ولأها من البلاد، كثيرة التجارة. حسنة السور والعمارة، منيعة ولها سور من حجارة، وله بابان ليس لهما فيما رأيت من الأرض شبيه، ولا نظير، غير البابين اللذين على سور الرافقة وعلى مثلها عملاً»^(٢). . وتأتي القطائع وهي «أبنية خارج مصر بناها أحمد بن طولون تكون زيادة على ميل كان يسكنها جنده تسمى القطائع. .»^(٣) ومن مثل هذه المدن الملكية أيضاً خراسان آباد بهراة، «التي يقوم عليها سور وثيق وحواليه ماء، وداخلها مدينة عامرة، ولها ربض، وفي مدينتها قلعة، ومسجد الجامع في مدينتها. ودار الإمارة خارج الحصن بمكان يعرف: بخراسان أباذ منقطع عن المدينة بينه وبين المدينة أقل من ثلث فرسخ على طريق بوشنج غربي هراة. .»^(٤) ومثل غرج الشار فلها مدينتان متضاربتان في الكبر، وليس بهما مقام للسلطان. والشار (أي الملك) الذي تنسب إليه المملكة مقيم في بلدة بالجبل تسمى بلكيان^(٥). ومن المدن الملكية التي كانت من أعاجيب العمران في الأندلس: مدينة الزهراء التي أتت عليها فوضى الأندلس في أواخر القرن الرابع، وقد جاء وصفها المسهب لدى المقرئ في نفع الطيب، نقلًا عن المؤرخ ابن حيان

(١) الإصطخري: ص ٤٠، والمقدسي: ص ٢٢٦، واليعقوبي: ص ٣٤٨.

(٢) ابن حوقل: ص ٧٣.

(٣) الإصطخري: ٢٧١ - ٢٧٢.

(٤) الإصطخري: ص ٣٦٤.

(٥) الإصطخري (ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

وذكر أنه «كان يعمل في جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منهم ثلاثمائة بناء ومائتا نجار، وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع فاستتم بنيانه واتقانه في ثمانية وأربعين يوماً. وجاء في غاية الاتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة وطوله من القبلة إلى الجوف - حاشا المقصورة - ثلاثون ذراعاً، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاثة عشر ذراعاً. .»^(١). ومن هذه المدن الملكية أخيراً قصر الحمراء في غرناطة، فقد كان مدينة خاصة بالسلطان مسورة بجانب غرناطة وكان وادي سنيل يدخل غرناطة من الشمال ويخرج قبلها ما بين القصبتين على باب محكم الصنعة. في جوفه بابان لاستقاء الماء وقت الحرب. وهذا النهر يشق غرناطة شطرين قد بني عليهما أربع قناطر عالية البناء يجوز الناس عليها من النصف الواحد إلى النصف الثاني. .»^(٢).

ومن الملاحظ أن معظم الدول الإسلامية الناشئة كان مؤسسوها يقيمون لأنفسهم مدناً خاصة منعزلة عن كتلة الشعب.

المدينة العامة :

وهي التي تستمد عناصر أهميتها من إنتاجها الزراعي أو الحرفي أو التجاري بصورة عامة. ومعظم المدن الإسلامية كانت على هذه الصفة. وقد تغلب صفة على أخرى حسب الموقع الجغرافي للمدينة. فإن كانت على تصالب طرق كان الغالب عليها التجارة. وإن وقعت في رساتيق خصيبة كان الغالب عليها الطابع الزراعي وما يتصل به. على أنها جميعاً تتمتع بالمناخ المعتدل لوقوع معظمها في المنطقة المعتدلة. وتتمتع بشيء كثير أو قليل من

(١) المقرئ: نفع الطيب، ج ٢ ص ٦٧، وانظر الصفحات ٨٦ - ٨٧.

(٢) الزهرى: كتاب الجغرافيا (طبع المعهد الفرنسي بدمشق) ص ٩٤ - ٩٥ (٢١١ - ٢١٢).

الثقافة وبخاصة الثقافة الدينية . ومعظم المدن التي وصفها الجغرافيون العرب تتدرج تحت هذه الصفة .

٣ - حدائث المدن وقدمها :

فرق الجغرافيون العرب بين المدن المحدثثة بعد الإسلام وبين المدن السابقة له ، وكانوا يسمون مثل هذه المدن بالمدن الأزلية أو القديمة أو الدهرية وقد يقولون في الأندلس مدينة أولية أو جاهلية إن لم يسكتوا عن قدمها وهو الأغلب . أما المدن المحدثثة فكانوا دوماً يشيرون إليها . وإذا كان معروفاً أن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان هي مدن محدثة في الإسلام فثمة العشرات من المدن الأخرى المحدثثة تنبئ إليها الجغرافيون العرب وأشاروا إليها . فمدينة شيراز مدينة إسلامية ليست بقديمة وإنما بنيت في الإسلام ، بناها محمد بن القاسم بن أبي عقيل (ابن عم الحجاج بن يوسف) وسميت بشيراز تشبيهاً بجوف الأسد ، وذلك أن عامة المير بتلك النواحي تتحمل إلى شيراز ، ولا تحمل منها إلى مكان . وكانت معسكراً للمسلمين لما أناخوا على فتح اصطخر . فلما فتحوا اصطخر نزل بهذا المكان ، وجعل معسكر فارس وبنائها مدينة . وهي نحو فرسخ في السعة . وليس عليها سور وهي مشتبكة البناء ، كثيرة الأهل ، بها شحنة الجيش لفارس أبداً ودواوين بين فارس وعماتها ، وولاة الحرب فيها^(١) وبنى الحجاج - كما هو معروف مدينة : واسط ، التي يشير الجغرافيون أنها محدثة في وسط ما بين النهرين . كما بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة في فلسطين . وأخذ الناس على ترك اللد والانتقال إليها ، ووسع جامعها ليجعل منها عاصمة الدنيا ، وانتقل إليها . على أن ثمة مدناً أخرى كثيرة محدثة أيضاً ولكنها مجهولة : ومنها :

(١) الاصطخري : ص ١٢٤ - ١٢٥ .

قصر الفلوس، وهو مرسى (قرب وهران). والمدينة وإن كانت محدثة، فلها سور وهي لطيفة جدا. وسورها من تراب طابية. وماؤها من عين ماء جارية بها. وغلاتهم من القمح والشعير، والمواشي عندهم كثيرة^(١). ومثلها مدينة زلول وهي مدينة لطيفة في شرقي أزيلي لها أسواق قريبة، وكان عليها معول حسن بن كنون الحسني الفاطمي مستحدثها^(٢). «والأقلام» مدينة استحدثها يحيى بن إدريس، ولها سور نبعم عند منابذتهم موسى ابن أبي العافية. وهي في وسط شعراء. وجبال شامخة عالية. والمدخل إليها من مكان واحد. وفيها منبر ومسجد جامع... وهي خصبة حصينة. وإنما قبضها آل أمية بالجوع وتواصل الحصار^(٣)... والحجر مدينة عظيمة محدثة. على جبل عظيم شامخ لآل إدريس. وهي حصن منيع فيه أملاكهم. وهي من أعظم مدنها عندهم منزلة، وأكبرها خطراً. وماؤها فيها وليس عليها طريق ولا إليها سبيل إلا من جهة واحدة يسلكه الراجل بعد الراجل^(٤)... وأما تاهرت، فهي مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة أزلية، والأخرى محدثة. والقديمة ذات سور، وهي على جبل ليس بالعالي. وفيها كثير من الناس. وفيها جامع، وفي المحدثه أيضا جامع. ولكل إمام وخطيب، والتجار والتجارة بالمحدثه أكثر، ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وحمات وخانات، وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفارسة، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات^(٥). يقول الاصطخري عند ذكره مدن الأندلس «وهي كلها مدن عظام. وأكثر أبنيتها من حجارة وهي أبنية جاهلية لا تعرف فيها مدينة محدثة

(١) ابن حوقل : ص ٧٨ .

(٢) ابن حوقل : ص ٨٠ .

(٣) ابن حوقل : ص ٨١ .

(٤) ابن حوقل : ص ٨١ - ٨٢ .

(٥) ابن حوقل : ص ٨٦ .

إلا بجانة فإنها محدثة في حد بلاد يقال لها البيزة^(١) . وتطيلة ، أخيراً أقصى ثغور المسلمين اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبدالرحمن وكان الذي اختطها عمرو بن يوسف ، عامل سرقطة . ومن كبار مدائنها طرسونه ، وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور^(٢) . ومعظم أمثال هذه المدن المحدثة إنما كانت في أراضي المغرب . وقد عاش منها القليل ، وبما عاش واستمر : فاس ومراكش . لكن أمثالها في المشرق قليل مثل المنصورة في السند ، أما المدن التي أقيمت في الثغور (ثغور الشام وثغور أرمينية) فكانت مدناً صغيرة إضمحلت مع زوال وظيفتها الدفاعية .

فالمنصور مثلاً أراد أن يسد الثغور مع الخزر في مادون جبال القفقاس ، « فأخرج سبعة آلاف من أهل السجون . وبعث فجمع من كل بلد خلقاً عظيماً ووجه بهم وبفعله وبنائين ، فبنى مدينة كمخ ، ومدينة المحمدية ، ومدينة باب واق ، وعدة مدن أخرى مثل : أرجيل الكبرى ، وأرجيل الصغرى ، اللتين بناهما يزيد بن أسيد السلمي . وأنزلها أهل فلسطين . وجعلها رداء للمسلمين ، وقلاع ودفاع بدلا من الساساني . » وأقام نظام الأجناد في تلك الحصون ، ورتب فيها المقاتلة المستقرين من أهل النجدة من العراق والجزيرة والشام ، وأجرى عليهم الأرزاق التي كان بنو أمية يجرونها من قبل . وأقام بالقلاع والحصون سكانا تقوى لهم المدن وتنمو^(٣) . « وواضح أن المنصور إنما أقام حصونا واسعة تحتوي المدن في داخلها . ومثلها ما أقامه الأمويون من قبل ، والعباسيون الأوائل من بعد من هذه الحصون . ومنها حصن المثقب الذي بناه عمر بن عبدالعزيز ، وكان به منبر . وحصن منصور الذي كان مدينة صغيرة فيها منبر وزروع » . وبني المنصور

(١) الاضطخري : ص ٤٢ .

(٢) عن حسين مؤنس : ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) شاكر مصطفى : دولة بني العباسي ج ص ٣٦١ .

بعض ثغور الشام تجاه البيزنطيين الروم وهي الرفقة تجاه الرقة على الفرات وملاطية والمصصية، والمدينتان حصون تحتوي المدن في داخلها، كما بنى المنصور بالسند^(١)، وبنى الرشيد بعد ذلك حصن الهارونية وهو حصن صغير^(٢).

ويذكر ياقوت عن قلعات، المدينة بعمان أنها «الآن فرضة تلك البلاد...، عامرة أهلة وليست بالقديمة في العمارة، ولا أظنها تمصرت إلا بعد الخمسةائة»^(٣).

٤ - المدن التوائم :

أشار الجغرافيون العرب إلى هذه المدن وميزوها، وإذا كان معروفا أن بغداد إنما بدأت مدينتين على جانبي دجلة: دار السلام في غربي النهر (أو جانب باب الطاق مع الكرخ) وجانب الرصافة (ويسمى عسكر المهدي) في شرقي النهر، فإن ثمة مدنا أخرى كانت مدينتين، فإن (واسط) مبنية على جانبي دجلة من غربيها وشرقيها. والنصفان متقابلان بينهما جسر يعبر عليه من أراد من أحد الجانبين إلى الآخر. وفي كل جانب مسجد جامع وهي مدينة محدثة في الإسلام، أحدثها الحجاج بن يوسف وبها خضراء الحجاج^(٤). «والرقة والرافقة، مدينتان متلاصقتان. وفي كل واحدة منهما مسجد جامع، وهما على شرقي الفرات. كثيرتا الأشجار والمياه في مستوى...»^(٥). وكذلك «المصيصة مدينتان إحداهما تدعى المصيصة

(١) اليقوي: ص ٢٣٨.

(٢) ابن حوقل: ص ٦٢ - ٦٣.

(٣) ياقوت: معجم البلدان: ج ٤ ص ٣٩٣.

(٤) ابن حوقل: ص ٢١٤، والاصطخري: ص ٨٢.

(٥) الاصطخري: ص ٧٥.

والأخرى تسمى كفريسا، على جانبي (نهر) جيحان، وبينهما قنطرة حجارة
 حصينة جداً على شرف من الأرض ينظر منها الجالس في المسجد الجامع إلى
 قرب البحر نحو أربعة فراسخ . . .^(١) «وأما جرجان فهي أكبر من أمد
 وبنائوها من طين . وهي قطعتان إحداهما المدينة والأخرى بكر أباذ . بينهما نهر
 يجري كبير يحتمل أن تجري فيه السفن . . .^(٢) ويمكن أن نذكر أيضاً غزنين
 (قرب بلخ) التي كان على نصف فرسخ منها شبه مدينة تسمى العسكر ينزلها
 السلطان^(٣) ، كما يمكن أن نذكر مصر القديمة (الفسطاط)، التي بنيت
 بجانبها القطائع ، ثم بنيت بجانبها القاهرة التي ابتلعت المدينتين السابقتين .
 ونذكر تاهرت، فهي «مدينتان كبيرتان قديمة ومحدثة، والقديمة ذات سور
 وهي على جبل . . .^(٤) كما نذكر ودان في منطقة زويلة . ويذكر البكري أنها
 مدينتان، وأكثر معيشتهم من التمر . ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح (أي بلا
 سقي وبماء السماء) .

ونذكر أيضاً أغمات، وهي مدينتان : (أغمات وريكة) و (أغمات هيلانة
 أو عيلان) وقد كانتا كالربضين أو كالضاحيتين لمراكش في جنوبها ثم أنشئ
 في كل من الربضين قصبة أي حصن وجامع . ولكنها لم تكبرا كثيراً بعد
 ذلك، بسبب عداة ما بين القبيلتين الساكنتين في كل منهما . وبسبب قربها من
 مدينة كبيرة صارت مصرأ هي مراكش^(٥) . وقد وصف الاغماتين ابن
 الخطيب في رسالته «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» .

(١) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٢) الاصطخري : ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) المقدسي : ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٤) ابن حوقل : ص ٨٦ .

(٥) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ص ٥٩٢ .

٥ - المدن المجهضة :

التي لم تكمل والملاحظة الأساسية فيها أنها كانت تبدأ الظهور ثم تختفي حسب رغبة السلاطين . وهي عديدة . وقد أهمل الجغرافيون ذكر الكثير منها . وذكرها المؤرخون . ومنها مدينة الجابية ، التي بدأت ، كالبصرة ، والكوفة ، معسكراً للجيش العربي الفاتح ، ثم اضمحلت لأن دمشق ابتلعنها ، وبقي الخلفاء الأمويون فيها . ومثلها كانت قنسرين التي لم تستطع أن تحمل محل حلب القريبة منها ، فظلت مدينة صغيرة ، لم تعط سوى اسمها للجند (للمقاطعة) . وصارت حلب هي القصبه ودار السلطان والمسجد الجامع . ثم جاءت مدينة عين تمر في وسط سهل البقاع التي بنيت زمن هشام ابن عبد الملك . ثم مدينة الموصل (وهي في منطقة الموصل المعروفة) وقد بناها شرقي حران ، الخليفة الأموي الأخير : مروان بن محمد ، فشق الطرق وبني السور وأقام المسجد الجامع وسكن وأسكن ليجعل منها عاصمة الدنيا . «فكان أول من عظمها وألحقها بالأمصار العظام ، وجعل لها ديواناً يرأسه . ونصب عليها جسراً ونصب طرقاتها . .»^(١) وثمة بعد ذلك مجموعة المدن التي بناها العباسيون الأوائل ، ثم تلخصت في بغداد . فقد بدأ البحث عن عاصمة جديدة لبني العباس منذ أول أيام حكمهم ، فبنى أبو العباس مدينة الهاشمية ، قرب الكوفة سنة ١٣٢ ، ثم أبدل بها الخيرة ، ثم عدل عنها إلى منطقة الأنبار سنة ١٣٤ ، «وابتنى بها مدينة بأعلى المدينة عظيمة لنفسه وجموعه - على ما روى الدينوري - وقسمها خططا بين أصحابه من أهل خراسان . بنى لنفسه في وسطها قصرأً عالياً . . وأقام بتلك المدينة باقي خلافته ، وهذه هي الهاشمية - على قول اليعقوبي - هاشمية الأنبار ، وقد توفي قبل أن يستتمها»^(٢) .

(١) ياقوت : معجم ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٢) اليعقوبي : ص ٢٣٧ .

ويبدو أن المنصور لم ترق له هاشمية الأنبار فسكن هاشمية الكوفة أولاً. (عند قصر ابن هبيرة) وبني بها قصراً له، وأقام بها مدة. ولكنه سرعان ما تبين أنها ليست له بعاصمة. وهكذا أمر المنصور بالبحث عن موضع آخر فوجده في بغداد، وكانت بغداد العاصمة حتى إذا جاء الرشيد وأراد الخلاص من الدسائس البرمكية هذه، راح يبحث عن موضع يهرب إليه. فاختر أولاً سنة ١٨١ مدينة الحيرة. وأقطع أصحابه القطائع. فثار بهم أهل الكوفة وأسأؤوا مجاورته، فعاد إلى بغداد^(١) يبحث عن موضع آخر فوجده في القاطول شمال بغداد. وبني هناك مدينة بقيت آثارها، وبقي سورها قائماً حتى أيام المعتصم^(٢)، ولكنه خاف مرة ثانية القرب من بغداد، فقرر الابتعاد النهائي عنها. فلما عصى أهل الشام، خرج الرشيد إلى الرقة^(٣) سنة ١٨٩ فأقام بها وبقيت القاطول لم تستم. وجاء المعتصم فقرر الخروج عن بغداد مع الأتراك من حرسه. «فعزم أن يبني بالشامية خارج بغداد مدينة، فضافت عليه أرض ذلك الموقع وكره أيضاً قربها من بغداد، فمضى إلى البردان بمشورة الفضل بن مروان، وهو يومئذ وزير، وذلك سنة ٢٢١. وأقام بالبردان أياماً، وأحضر المهندسين ثم لم يرض الموضع، فسار إلى موضع يقال له باحشا من الجانب الشرقي من دجلة، فقدر هناك مدينة على دجلة. وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً، فلم يجده فنفذ إلى القرية المعروفة بالمطيرة فأقام بها مدة ثم إلى القاطول فقال: هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة، ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول، فابتدأ البناء، وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني له. وسكن

(١) ابن الأثير: ج ٦ ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) الطبري: ج ٩ ص ١٧ (٣ / ١١٨١).

(٣) ابن الأثير: ج ٦ ص ٤٥٢.

بعض الناس أيضا. ثم قال: «أرض القاطول غير طائفة، وإنما هي حصي وأنهار، البناء بها صعب جداً، وليس لأرضها سعة، ثم ركب متصيذا فمر في مسيرة حتى صار إلى موضع «سر من رأى» وهي صحراء من أرض الطيرهان، لاعمارها بها، ولا أنيس فيها، إلا دير للنصارى فوقف في الدير وكلم مَنْ فيه من الرهبان وقال: ما اسم هذا الموضع؟... ثم عزم على أن ينزل فيه»^(١) وكان من ذلك مدينة سامراء التي صارت عاصمة الدنيا، ويمكن اعتبارها بدورها من المدن المجهضة، لأنها لم تدم سوى خمسين سنة تقريباً. ثم عادت صحراء بلقعاً. وهجرت حتى قصورها. وثمة عدد آخر من مشاريع المدن قامت فترة ثم انهارت، لكن معظمها كانت صغيرة. وكانت حصوناً على الحدود، ومنها مثلاً المدينة التي فكر في اختطاطها أبو عنان فارس المريني (المتوفى سنة ٧٥٩ / ١٣٥٨) في منطقة هنتاتة. وقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب في رسالة: «خطرة الطيف» خبرها فقال: «وقد كان رفع إلى السلطان المغربي بالبناء... خبر ما عليه الناس من إضافة عددهم، واهتضام عرصتهم، واستهداف عقوبتهم، فأمر بارتداد محل لتأسيس مدينة فاختر على غلوات منهم محل، أرضه صخر، منطبق على تراب، يتأق فيه اتخذ الخندق غير مثلوم الشفا بعيد المهوى. يبني السور بما يخرج من الثرى. ويصبون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء. ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء فشرع في البناء. واستبعد الفضاء. ومثلت الأبواب العديدة، والأبراج المشيدة... وعاق عن أي منها هجوم حمامه وانصرام أيامه فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته، واحتياز حسنته».

(١) اليعقوبي: ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

٦ - تطورات المدن :

هذا إلى جانب من حياة المدن، إنما يرتبط ارتباط وثيقاً بتأخر عصر الجغرافيين أو تقدمه أو باطلاعهم على ماضي المدينة أو عدم الاطلاع . وكبار علماء الجغرافيا العربية إنما كانوا في الواقع رحالة يشهدون ما يصفون بأنفسهم . ولذلك كانوا يصورون ما يجدون على مر السنين . كان بعضهم يشهد تدهور مدينة وصفها الذين سبقوه بالأزدهار والعمران . أو ازدهار مدينة أخرى وصفها السابقون بالخمول . وهكذا عرفنا الحركة الحيوية ودورات الحياة التي مرت بها بعض المدن وتطوراتها، وأسباب ازدهار الموضع التمديني أو تخلفه . وأثر ذلك على صعودها أو هبوطها درجة أو درجات بين المدن من مدينة عظمى إلى قرية وبالعكس، فإذا كانت سامراء فعلاً قد عادت خراباً وصحراء مهجورة بسبب انسحاب ظل الخلافة عنها، فالمدن الأخرى لا بد لها من عوامل وأسباب تفسر خمولها . وقد حاول بعض الجغرافيين المتأخرين، كياقوت، تفسير ذلك، وإن كان التفسير يحمل أحياناً بعض الطيوف الفولكلورية . والخط البياني لبعض المدن كان في ارتفاع وهبوط حسب الظروف السياسية أو التجارية، وعبور القوافل على الطرقات بها أو إهمالها لسبب أو لآخر . يذكر معلقاً على ابن حوقل من القرن السادس: «أن سوق دنيسر، كان قبل (عصره) هذا قرية يجتمع الناس في صحرائها كل يوم أحد للبيع والشري . . فانعمرت الآن عمارة كثيرة، واتخذ بها الحانات والفنادق والحمامات والأسواق . . يجلب إليها الجهاز من سائر البلدان قد استوطنها الناس من كل فج عميق وكثر بها الارتفاع والضمانات»^(١)، ويقول ياقوت عن دنيسر إنها «بلدة عظيمة مشهورة . . رأيتها وأنا صبي وقد صارت قرية، ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد

(١) ابن حوقل: ص ٢٠٢ .

صارت مصراً لا نظير له كبراً وكثرة أهل علم وعظم أسواق . . .»^(١) وذلك تبعاً لتحرك الطرق التجارية إليها وتمركز الحكام بها . ويقول ياقوت نفسه عن مدينة برقعيد : «قال أحمد بن الطيب السرخسي : برقعيد، بلدة كبيرة من أعمال الموصل . . . وهي واسعة وعليها سور ولها ثلاثة أبواب، وفيها مائتا حانوت . قلت أنا : كانت هذه صفتها في قرابة ٣٠٠ سنة بعد الهجرة، وكانت حينئذ تمر القوافل من الموصل إلى نصيبين عليها وأما الآن فهي خراب صغيرة حقيرة . . .»^(٢) ويعلل ياقوت ذلك بأن «أهلها كانوا لصوصاً، وكانت القوافل تلقى منها الأمرين» . وأما قبل عصر ياقوت بحوالي ثلاثمائة سنة فقد كتب ابن حوقل، وهو من القرن الرابع، حول بغداد قائلاً : «وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر يقرب باب الطاق، وكانا اثنين لعبور المجتازين، ولما بان النقص عليها عطل أحدهما لبيان الاختلال . وهلك أكثر محالها . وذلك أنه كان من باب خراسان عمارة إلى أن تبلغ الجسر، وتمتد إلى باب الياسرية من الجانب الغربي . وعرضها فقد اختل أيضاً من الجانبين جمعياً نحو خمسة أميال، ونقص وهلك منه الكثير . وأعمار بقعة بها اليوم الكرخ وجانبه . لأن أهل الياسرية ومعظم التجار هناك . . .»^(٣) وقد زارها ابن جبير حوالي سنة ٥٧٠ فقال : «هذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حاضرة الخلافة العباسية، قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها، وهي كالطلل الدارس والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاحض» .

ويقول معلق علق على ابن حوقل في مادة البصرة : «دخلتها سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وقد خربت ولم يبق من أثارها إلا الأقل، وطمست ملاحها فلم يبق منها إلا محال معلومة . . . وقد بقي في محلة بيوت معدودة

(١) ياقوت : ج ٢ ص ٤٧٨ .

(٢) ياقوت : ج ١ ص ٣٨٧ .

(٣) ابن حوقل : ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وباقى بيوتها إما خراب أو غير مسكونة وجامعها باقى فى وسط الخراب، كأنه سفينة فى وسط بحر لجمى، وسورها القديم قد خرب وبينه وبين ما قد بقى من العمارة مسافة بعيدة. وكان السبب فى خرابها ظلم الولاة والجمور. وأيضاً فى كل سنة مرة أو مرتين تشن عليها البادية الغارات. . وابتدأ خرابها منذ. . (ثورة الزنج)»^(١).

ويتحدث ابن حوقل عن حلب أنها كانت عامرة غاصة بأهلها كثيرة الخيرات على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات، وافتتحها الروم (سنة ثلاثمائة واثنين وسبعين) مع سور عليها حصن من حجارة لم يغن عنهم من العدو شيئاً. فأخرب جامعها وسبى ذراري أهلها وأحرقها، ولها قلعة غير طائفة. . ويضيف المعلق فى القرن السادس على كلام ابن حوقل قائلاً: «وهي الآن فى زماننا سنة اثنين وسبعين وخمسمائة، أحسن مما كانت قديماً، وأكثر عمارة مأهولة بالمشايخ والرؤساء، وأما قلعتها فهي حصينة منيعة فى غاية الأحكام لا يقدر عليها. . .»^(٢).

ويقول ابن حوقل عن آمد إنها «مدينة على جبل من غربى دجلة مطل عليها من نحو خمسين قامة. وعليها سور أسود من حجارة الأرحية، ويسمى ذلك السور ميموناً، لشدة سواده. . وليس لحجارته فى جميع الأرض نظير. وبآمد مزدرع. وكان لها ضياع ورساتيق وقصور ومزارع برسمها. هلكت بضعفهم، واقتدار العدو عليهم، وقلّة المغيث والناصر. ولم يبق للمسلمين ثغر أجل ولا أمنع جانباً سوره منه. وقلما ينفع السور بغير رجال والسلاح بغير مقاتل. وإن دام عليهم ما هم فيه خيف عليهم. لأن سلاطينهم أكثر ما يظهر منهم الرغبة فيها إرادة التسمية على منابرها والدعاء

(١) ابن حوقل: ص ٢١٣.

(٢) ابن حوقل ص ١٦٣.

لهم بها دون ما يجب لأهل الثغور على الملوك من تقوية بالمال والكرام
والرجال والعدة والعتاد. وقلما بقي ثغر بالمنى أو ينفعه التسمى على منابره
بالألعاب والكنى و... (هم) بالجمع والمنع في شغل عن صالح الرعايا
وتأمل الرزايا... وكأئنا به وقد قيل أسلمه أهله، أو دخل تحت الجزية من
فيه... « وقد صدق ابن حوقل فقد كتب المعلق عليه في القرن السادس
الهجري قائلاً: دخلتها سنة ٥٣٤ ولم يكن بها إلا بقايا رمل. وفيها من
الصدور والأجلاء والرؤساء والمشايخ والفضلاء وأرباب العلم وأصحاب
المفقه والأدب جماعة. فلم يزل جور بني نيسان وظلمهم وكثرة الاضطهاد
والاجحاف والمصادرات والتضييق عليهم... فأجأهم ذلك إلى التشتت عن
الأوطان... فخربت بيوتهم... فلم يبق بأسواقها حانوت معمور فضلاً عن
أن يقال مسكون. ومع ذلك وسمهم بسمة ردية بحيث كان أحدهم إذا
دخل بلدة غيّر اسمه، وأنكر بلده خوفاً على نفسه وصيانة لعرضه
ودمه...»^(١).

ويقول ياقوت عن قيسارية (في فلسطين) إنها «كانت قديماً من أعيان
أمهات المدن واسعة الرقعة... كثيرة الخير والأهل. وأما الآن فليست
كذلك، وهي بالقرى أشبه منها بالمدن»^(٢). ويقول عن جبّل: إنها بليدة بين
النعمانية وواسط... كانت مدينة وأما الآن فاني رأيتها وهي قرية كبيرة...^(٣)

ويقول عن أذرمة: «إن السرخسي وصفها بأنها مدينة في وسطها قنطرة
معقودة بالصخر والحصن، وعليه رحي ماء وعليها سوران واحد دون الآخر،
وفيهما رحبات وسوق قدر مائتي حانوت، ولها باب حديد ومن خارج السور

(١) ابن حوقل: ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢) ياقوت: ج ٤ ص ٤٢١.

(٣) ياقوت: ج ٢ ص ١٠٣.

خندق يحيط بالمدينة . . . (أما أذرمة اليوم (في عصر ياقوت) فهي قرية ليس فيها مما وصف شيء . . .)»^(١) ويصف ابن حوقل هراة بأنها «مدينة عليها سور وثيق، وحواليه ماء، وداخلها مدينة عامرة ولها ربض، وفي مدينتها قلعة والمسجد الجامع في مدينتها، ودار الإمارة خارج الحصن بمكان يعرف بخراسان آباد . . . ولمدينتها الداخلة أربعة أبواب . . . وعلى كل باب سوق . وفي داخل المدينة والربض مياه جارئة، وللحصن أربعة أبواب . . . وخارج الحصن جدار يطوف بالحصن كله أطول من قامة . وليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد أعمر بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ثم بلخ ثم سجستان، فإن بهذه المساجد حلق الفقهاء والناس يتزاحمون على رسم الشام والثغور . . . وهراة مطرح الحمولات من فارس إلى خراسان وهي فرضة لخراسان وفارس . . .»^(٢) ويقول ياقوت بعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون: «هراة مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان عند كوفي بها في سنة ٦٠٧ مدينة لا أجل ولا أعظم، ولا أفخم، ولا أحسن، ولا أكثر، أهلاً منها . فيها بساتين كثيرة، ومياه غزيرة، وخيرات كثيرة، محشوة بالعلماء، ومملوءة بأهل الفضل والثراء، وقد أصابتها عين الزمان، ونكبتها طوارق الحدثان، وجاءها الكفار من التتر، فخربوها حتى أدخلوها في خبر كان، فإننا لله وإنا إليه راجعون»^(٣) . ويقول شيئاً من ذلك عن خوارزم: «هي لعمري بلاد طيبة وأهلها علماء فقهاء أذكيا أغنياء، والمعيشة بينهم موجودة وأسباب الرزق عندهم غير مفقودة وأما الآن فقد بلغني أن التتر وردوها سنة ٦١٨، وخربوها وقتلوا أهلها وتركوها تلالاً . وما أظن أنه كان في الدنيا لمدينة

(١) ياقوت: ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) ياقوت: ج ١ ص ١٣٢ .

(٣) الإصطخري: ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٤) ياقوت: ج ٥ ص ٣٩٦ .

خوارزم نظير في كثرة الخير وكبر المدينة وسمة الأهل والقرب من الخير وملازمة أسباب الشرائع والدين^(١). ويذكر ابن حوقل عن كورة تاهرت في المغرب: «إنها كانت في القديم مفردة في العمل والدواوين (أهميتها) . . . وقد تغيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت . . .»^(٢).
وأما البصرة: بصرة المغرب، فقد كانت «مدينة كبيرة عامرة وقد خربت وكانت جليلة»^(٣). «وأما مدينة كمودة ومدينة نفايضر، ومدينة كمونس الصابون، (من مدن المغرب) فهي مدينتان قريبة الأحوال، وكانت قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة في غاية الكمال فأق عليها أبوزيد مخلد بن كيداد الإباضي . . .»^(٤).

إن تطورات المدن هذه التي نذكر تنقلنا من العصر الجغرافي الكلاسيكي (في القرن الرابع) إلى القرون التالية، وإذا كان القرن الرابع الجغرافي هو قرن المدينة، فما من أحد خدم الفكر التمديني وتعمق فيه وفي تفاصيله كالجغرافيين، لأن القرون التالية كانت قرون الرحالة الذين خدموا دراسة المدن على وجه آخر. وإذا اثبت الجغرافيون صورها على وجه أو آخر فإن الرحالين هم الذين حوروا الصور وقدموا تطورات المدن عن العصور التالية: إن الجغرافيا التي كانت تحاول وصف الأرض والكون حولها الرحالون إلى مجرد وصف للرحلات، لأنه لم يعد لهم في الواقع ما يضيفونه إلى كلام السابقين سوى هذه التطورات، كما يرونها حادثة. على أن الطرفين ما تعدوا الجغرافيا الوصفية. ثبت الجغرافيون جذور الفكر العمراني وتوسعوا

(١) باقوت: ج ٢ ص ٢٩٨.

(٢) ابن حوقل: ص ٩٣.

(٣) المقدسي: ص ٢٣٠.

(٤) ابن حوقل: ص ٩٢.

في وضع حدوده وتعمقوا في المدن والقرى وفي خصائصها بإلحاح، ودقة نظر، وحسن تصوير. وجاء الرحالة، وهم جغرافيون على وجه آخر، فتتبعوا تطورات هذه المدن موتا وحياة وتغيرات أو ثباتاً. وصلأوا ما بين القرنين الخامس والسادس بملاحظاتهم. ويمر في ركبهم الطويل أمثال : المهلبى، والتنوخي، وناصرى خسرو، والبكري، وأبو حامد الغرناطي، وابن العربي، وابن جبير، والزنجشري، والهروي، وابن البلخي، وابن المجاور، وغيرهم كثير. وكل منهم أضاف شيئاً إلى تراث العرب في وصف المدن وعمارتها وأهلها ونشاطاتها، مما جعل هذا التراث حياً من جهة ومعاصراً للتطورات من جهة أخرى.

ونستطيع القول ان الجغرافيا الوصفية للمدن أعارت مكانها لكتاب الرحلات ليتمموا عملها. وهكذا تنامي الفكر المدني من الفقهاء إلى الجغرافيين إلى الرحالة ليظهر في النهاية ما بين أواسط القرن السادس ومطلع القرن السابع على شكلين متكاملين : شكل الموسوعيين : أي شكل التصوير الشامل للعالم ومدنه حسب آخر ما عرف عنه. وأبرز من قام بذلك الإدريسي (توفي سنة ٥٦٠). وشكل المعجم الشامل لمدن العالم ومواضعه. وأهم من قام بذلك ياقوت الحموي في معجم البلدان.

صحيح أن المعاجم الجغرافية بدأت تظهر قبل ياقوت وفي الاندلس بالذات نتيجة الخوف على التراث الإسلامي، مع الانهيار الذي شاع منذ عهد ملوك الطوائف في القرن الخامس. وقد ظهر في مثل (معجم ما استعجم) للبكري (المتوفى سنة ٤٨٧) الذي كان أول معجم في التأليف الجغرافي العربي مرتب على الألفباء الاندلسية. كما ظهر في المعجم الجغرافي الآخر كتاب (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة بكل مكان) والذي يظن أن مؤلفه مغربي أو اندلسي من القرن الرابع وأنه يدعى إسحق بن الحسن أو الحسين المنجم. لكن لم يتم بهذا العمل بشكل موسوعي إلا ياقوت، وقد

بلغ بالمعجم الجغرافية الأوج . وإن لحقه من بعده العمري في كتابه مسالك الألبصار وقبله الحميري في «الروض المعطار» .

ومثل ذلك يقال في كتب المسالك والممالك ، فقد كتب منها في المشرق الكثير كما كتب الرازي الأندلسي كتاباً موعباً في المدن ، وكتب الحجاري (المتوفى سنة ٥٥٠) كتابه «المسهب في غرائب المغرب» متحدثاً عن المدن أيضاً . وكتب الزهري المعاصر له كتاب (الجغرافيا) . لكن الذي استوعب ما كتب قبله وأفرغه إفراغاً إنما كان الإدريسي . فهو جامع منسق لجميع ما ظهر قبله من المعلومات عن أنحاء الأرض بحاراً ومدناً وجبالاً وكان فهم كل ذلك مرتبطاً بلوحات الترسيم (الخرائط) والصور التي رسم مع المتن والتي تعتبر فترة الأوج في رسم الخرائط الجغرافية العربية . وأما ياقوت فقد جمع بدوره كل ما وقع له من المعلومات الجغرافية والاثولوجية والثقافية والسياسية في معجم ألفبائي من ٣٨٩٤ صفحة نظمه حسب أسماء المواقع المعروفة ، وأكثر من نصفها أسماء مدن صغيرة وكبيرة لم يغفل وصفها وذكر حصونها وأرباضها وتطورها ونشاطها التجاري وآثارها . فهو جامع الجغرافيا العربية في صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات ، بالإضافة إلى الجغرافيا التاريخية ، وجانب الدين والحضارة والاثولوجيا والأدب الشعبي والأدب الفني . . . وقد أضاف ياقوت إلى معجمه كتابين آخرين هما بدورهما معجمان جغرافيان : كتاب : «المشترك وضعا والمفترق صقعا» وكتاب : «مراصد على أسماء الأماكن والبقاع» وكلا المصنفين ايجاز لماورد في المعجم الكبير .

على أن الجهود الموسوعية لكل من الإدريسي وياقوت لم تقطع حركة الرحلات خاصة ، ولا حركة الجغرافيين وإن كانا قد بلغا بها القمة ، فقد استمر الخطان سائرين ، وإن يكن ذلك على ضعف وتقليد للسابقين . فظهر في الرحلات من المؤلفين : ابن سعيد والعبدي ، وابن رشيد وابن الجيعان ، والطبي والتجاني والقزويني والعمري ، وظهر في الجغرافيين ابن شداد (عز

الدين) (المتوفى سنة ٦٨٤) وابن شيخ الربوة وأبو الفداء . وختم الجميع ابن بطوطة برحلته الشاملة .

بهذا الشكل تكوّن لدينا تراث كامل يصف مدن العالم الإسلامي وتطوراتها ما بين القرنين الثالث والثامن وصفاً حياً متطوراً متكاملأ يكشف عمق الجذور المدنية العمرانية في حضارة الإسلام .



الفصل الثالث

فلسفة العمران الإسلامي

لم يتخذ الفكر العمراني الإسلامي سبيله نحو التوسع عن طريق الفقه والتاريخ والجغرافيا والرحلات والمعاجم فقط، ولكنه انجبه في الواقع نحو العمق في وجهة أخرى ليست أقل خطراً هي : العملية الفكرية الفلسفية. وإذا كانت الوجهة الأولى وصفية تستند إلى الواقع المعاش، فإن الثانية كانت تتجه إلى تعميق الفكر العمراني، وربطه بمبادئه الاجتماعية - الاقتصادية، وإلى استخراج المبادئ الأساسية له من الشريعة، ومن طبيعة النفس البشرية، ومن مبادئ الاقتصاد، ومن الفلسفة.

وكلما كانت الحاجات الإدارية والمالية تلح على الجغرافيين والفقهاء، وكانت تطورات المدن الإسلامية تتوالى بين نمو وازدهار وموت، وكانت الحاجات العملية من سفر وحج وتعامل وترحال علمي تكثر، كان التمدني ينمو ويعمق ويتجذر ويتوالد بعضه من بعض في إطار الحاجات الفكرية والعملية، كما يرتبط أكثر فأكثر بالفكر الإسلامي العام، ويكشف عمقه وأبعاده.

كان بديهياً ألا يظهر هذا الفكر في القرنين الأول والثاني، فقد كان هذان القرنان مجال تفاهم وتفاعل بين مختلف الحضارات التي أخذ العرب في

استيعابها. ولعل الجاحظ كان واحداً من الأوائل الذين ظهر على أقلامهم تأثير المدارس الحضارية المختلفة (مع الكندي الفيلسوف، وجابر بن حيان الكيميائي، ومحمد بن موسى، والخوارزمي الرياضي). وكتاب الجاحظ حول البلدان ضائع حتى الآن، حتى في عنوانه، فهو كتاب الأخبار عن الأمصار تارة، وعجائب البلدان تارة أخرى، أو كتاب الأمصار وعجائب البلدان، أو الأوطان والبلدان. ويبدو مما ينقله المقدسي، وابن حوقل، والبسروني، والمسعودي، والثعالبي، وياقوت، عن الكتاب أنه يتحدث عن المدن العشرة الكبرى: بغداد، والكوفة، والبصرة، والفسطاط، والري، ونيسابور، ومرو، وبلخ، وسمرقند، كما يتكلم عن دمشق. ويبدو أن ثقافة الجاحظ الموسوعية وضعت بعض الأسس للفكر العمراني العام. وقد جاء بعده أحمد ابن الطيب السرخسي (المتوفى سنة ٢٨٨/٨٩٩) وهو تلميذ الفيلسوف الكندي «فوضع كتاباً يجمع بين الاهتمام بالفلسفة والعلوم الدقيقة من جهة والأدب الفني من جهة أخرى» لكنه ينضم إلى المدرسة الجغرافية الرياضية ذات النزعة اليونانية^(١). على أن هذه النزعة انقطعت مع ظهور كتب البلدان، والمسالك والممالك، التي نهج فيها العرب المنهج الجغرافي والوصفي الخاص بهم.

وتستوقفنا هنا محاولة يونانية - رومانية المنبع حاولها الفارابي الذي يعتبره بعضهم أكبر فلاسفة الإسلام على الإطلاق، هي كتابه: «آراء أهل المدينة الفاضلة» أنها محاولة فكرية، أو رؤية فلسفية سياسية لما يمكن أن تكون عليه «المدينة» المثالية وهو يحذو فيها حذو الطوباويين أمثال: افلاطون، والقديس أوغسطين. وقد تأثر في كتابتها تأثراً مباشراً بجمهورية افلاطون، ولكنه بسبب فكره التوفيقى، حاول أن يجمع بينها وبين الأفكار الإسلامية. فهو

(١) كراتشكوفسكي: الأدب الجغرافي ص ١٣١.

يرى أن اجتماع المدينة هو أفضل أنواع الاجتماع، وأن الإنسان مدني بطبعه، وأن الاجتماع البشري هو سبيله إلى تحصيل الكمالات، وأن الحياة في المجتمع هي التي تهيم الفرد لنيل السعادة لسكنه، وتعاونه مع من هو من نوعه. فالاجتماع المدني ضرورة لبني البشر. والمجتمعات نوعان : كاملة وناقصة، فالكاملة مجتمعات عظمى كالأمم والشعوب. والوسطى هي كل أمة على حدة. والناقصة هي تجمعات القرى والمحلات والسكك والبيوت. وهذا الاجتماع هو جزء من الاجتماع المدني. والاجتماع في المحلات والقرى إنما يؤدي إلى المدينة، والمحلات أجزاء منها كما أن القرى خادمة للمدينة. فالمدينة هي أول الدرجات في الاجتماع الكامل، وهو الصورة المثلى للاجتماع البشري.

والعلاقة المميزة للمدينة الفاضلة عند الفارابي هي شيوع التعاون بين أفرادها. إن هذا هو الذي يجعلها كما يجعل الاجتماع الإنساني كله فاضلاً. وأهل المدينة الفاضلة يتصفون بالنظام والعلم وعشق الفضيلة، وبالتخضوع لمبدأ تقسيم العمل. أما المدينة غير الفاضلة فهي خمسة أنواع : المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المتبدلة، والمدينة الضالة، ومدينة النوابت (أي مجتمع الجريمة). ويقسم الفارابي بعض هذه المدن بدورها إلى أقسام : فالجاهلة سبعة أنواع مثلاً : مدينة الضرورة، ونحضع أهلها فقط للضروريات. والبدالة وهي التي تطلب فيها الثروة لذاتها. ومدينة الخسة ويطلب أصحابها اللذة المحسوسة. ومدينة الكرامة وأهلها مغرمون بالعظمة. ومدينة التغلب وأهلها يسعون للسيطرة على جيرانهم والجماعية، ويعيش فيها كل فرد حسب ما يشاء. ومدينة الندالة ويجمع أهلها الثروة دون أن ينفقوا شيئاً. . . وإذا كانت المدينة الفاسقة هي التي يتصف أهلها،

(١) الفارابي : السياسات المدنية ص ٣٩.

بالعلم دون العمل والمدينة المتبدلة هي التي دب الفساد في آراء أهلها، والمدينة الضالة هي التي لا تتبع العقيدة الصحيحة في الله والعقل، ومدينة النوايب هي أشبه بالبهايم ويعيشون على تخوم المدن كالمتوحشين، فإن نظام المدينة الفاضلة أشبه بجسم الإنسان فلكل عضو وظيفته لا يتخطاها، متى قام بها سعدت المدينة، وإن اختلفت الوظائف سقطت.

هذه الشطحات الفارابية متأثرة دون شك بأفلاطون وجمهوريته، لا سيما حين يشير الفارابي إلى أن رئاسة المدينة يجب أن تكون للفلاسفة، لأنها أعلى مراتب الحكمة. ويشير إلى التعاون مقابل العدالة عند افلاطون، لكنه يتحدث عن المدن وأنواعها من خلال رؤية إسلامية. فالمدينة الفاضلة عنده تتمثل في حركة توفيق بين الفلسفة السياسية ومسلّمات الوحي والعقيدة الإسلامية.

على أن هذا المذهب النظري كان غريباً على المجتمع الإسلامي، ولذلك لم يجد إلا أقل الصدى في الفكر العمراني. وقد ذبل بسرعة ومات تماماً، كما ذبلت محاولة بناء مدينة عربية على أساس المخطط اليوناني في العهد الأموي وهي مدينة عين جر في البقاع^(١)، كلتا المحاولتين كانتا غريبتين على المجتمع الإسلامي وسرعان ما نسيتهما أو على الأقل لم تجدا من يتابع طريقهما.

أما الذين تابعوا التفكير العمراني على أساس إسلامي فقد قدموا شيئاً كثيراً في هذا السبيل، ولكنه يكاد يكون عملياً كله، ومستمداً من الواقع، لا سيما أولئك الذين دخلوا الفكر العمراني عن طريق الفكر المزدوج، في مطالع الأمر، مع الفكر اليوناني - الفارسي العام والذي كان يُرمز إليه باسم الحكماء : فقد كان لهذا الفكر آثاره هنا وهناك. فاليعقوبي مثلاً يقول : «إن

(١) سنائي على ذكر هذه المدينة فيما بعد.

الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك . فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية، وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال . ومهب الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها . واحترزوا من الأجام والجزائر وأعماق الأرض، فإنها تورث كرباً وهماً» .

وكان قدامة بن جعفر (٣١٠ أو ٣٣٧/٩٢٢ و ٩٤٨) أكثر تأثراً بعلوم الأوائل في آرائه، وأبعد عن الفقهاء وأفكارهم . لكنه يقدم في كتابه (الخراج وصنعة الكتاب) تحليلاً نظرياً للمدينة ونشأتها ليس بالبريء من المنطق اليوناني . ولكن يتصل بأكثر من سبب مع الفكر العمراني الإسلامي . ففي المنزلة الثانية من هذا الكتاب اثنا عشر باباً يتحدث الثاني منها عن السبب الذي احتاج فيه الناس إلى اللباس والكسوة . ثم عن السبب الذي احتاج له الناس إلى التناسل من أجله . ثم عن السبب الذي احتاج فيه الناس إلى المدن والاجتماع فيها . ثم عن حاجة الناس إلى الذهب والفضة والتعامل بهما، وما يجري مجراها . ثم عن السبب الداعي إلى إقامة ملك وإمام للناس يجمعهم . ثم في أن النظر في علم السياسة واجب على الملوك . . . إلخ . وهذه المنزلة الثامنة فصل كامل في العلوم الاجتماعية والسياسية . وفيه يقول قدامه^(١) : «لما كانت كما قلنا أفعال النفس المميزة وتصاريفها كثيرة مختلفة، وحاجة الإنسان بسببها وبسبب الجسم الذي لم يكن للنفس في هذا العالم بد منه، واسعة منتشرة، وتبعث هذه الأحوال والصناعات والمهن فصارت على حسبها في الكثرة، ولم يكن في وسع إنسان واحد استيعاب جميع الصناعات المتفرقة، وكان لابد للناس من جميعها ضرورة، قادتهم الحاجة إلى الترافد

(١) قدامة بن جعفر : الخراج وصنعة الكتابة (تعليق محمد حسين الزبيدي) دار الرشيد - بغداد ١٩٨١ ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

واستعانة بعضهم ببعض ليكمل باجتماعهم جميعهم، ولم يكن بد ضرورة منه. لأن هذا يبذل لهذا قمحاً يتقوته، وهذا يعمل لهذا ثوباً يلبسه، وهذا يصنع لهذا بيتاً يسكنه وهذا ينجز لهذا باباً يغلقه على بيته، وهذا يخرج لهذا خفياً يمنع به الآفات عن رجله، وغير ذلك مما لا يكاد العدد يدركه من فنون الصناعات وضروب الحاجات. لأنه لم يكن في استطاعة إنسان واحد أن يكون فلاحاً، ناسجاً، بناءً، نجاراً، إسكافياً. ولو أنه كان محسناً لهذه الصناعات كلها لم يف وحده بما يحسنه منها. ثم يجوز بعد هذا كله أن تأتي صناعات لم يكن يتأتى للواحد من الناس النفاذ في جميعها كالطب والفلاحة مثلاً . . . هذا إلى أن كلاً منها يحتاج إلى أوصاف جسمية وعقلية تنجم عن العوامل المحيطة. ولهذا تتنوع الوظائف والمهن التي يقوم بها الناس «فتحدث الكثرة في المدينة. وكان علم ذلك ما بقي عند الله. فطر الإنسان محباً للمؤانسة، مؤثراً للاجتماع مع ذوي جنسه، فاتخذ المدائن والأمصار واجتمعوا فيها للتعاقد والتوازن . . . » وهكذا يجعل قدامة ظهور المدينة متصلاً بأمرين.

١ - بتنوع الحاجات وكثرة المهن الضرورية لسد هذه الحاجات لدى الإنسان.

٢ - بفطرة الإنسان التي فطره الله عليها من حبه الاجتماع مع ذوي جنسه.

على أن قدامة إنما يعطي أفكاره في إطار واسع من الفكر السياسي يتحدث فيه عن منزلة الإنسان بين المخلوقات. وإنه إنما خلق كذلك عمداً «لاستكمال القدرة، واستيعاب الحكمة، مزيجاً من صنعة الملائكة في التمييز، وصيغة الحيوان في التغذي والتناسل» فلا هو في منزلة الملائكة المقربين عالياً، ولا في جملة سائر الحيوان البهيمي مبطوحاً ولكثرة تصرف ما في قوة التمييز من الأفعال وزيادتها على ما يفى به الواحد من

الناس احتيج إلى الاجتماع والتمدن ليكون في المدينة ناس كثير يتصرفون في هذه الأفعال المختلفة، ومع اختلاف الصيغ الكثيرة. واجتماعهم في المدينة يتصل بتلك الأفعال التي يلزم قودها إلى حسن السيرة وسداد الطريقة، فعند ذلك ومن أجله وقع الاضطرار إلى السياسة التي إنما هي قود الملوك والأئمة رعاياهم الذين يتقادون لهم إلى الأفعال الحميدة^(١) وهذا الإطار يضيف إلى فكري نشأة المدينة فكرة ثالثة هي :

— ضرورة وجود الملوك والأئمة لقيادة المجتمع وسياسته .

على أن الفكر العمراني لم يجد الكثير من التطور بعد قدامة، ولا يوجد طريق مباشر يصل بين قدامة في القرن العاشر وابن خلدون في الربع الأخير من القرن الرابع عشر^(٢) إلا أننا نعثر على بعض معالم الطريق عبر عدد من المؤلفين الذين كانوا يلمون بهذا الفكر إماما يزيد وينقص، حين يتحدثون عن الاجتماع الإنساني، بشكل عام. وفي هذا المجال يأتي المسعودي الذي تحدث عن قيام الدولة «بالشوكة» ويعني العصبية، وظاهر بن مطهر المقدسي صاحب البدء والتاريخ، وإخوان الصفا في رسائلهم الموسوعية، والبيروني فيما كتب. كما يأتي أصحاب كتب السياسة أمثال : الجغرافي السرخسي (المتوفى سنة ٢٨٦/٨٩٩) في كتاب «السياسة»، والموردي (توفي سنة ٤٥٠) في كتاب «الأحكام السلطانية». وحديثه عن عوارض السياسة، والغزالي أبي حامد (توفي سنة ٥٠٥/١١١١) في كتابه «التبر المسبوك في سياسة الملوك» وأبي محمد علي بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٤/١٠٦٣) وكتابه الضائع : «كتاب السياسة» الذي استخدمه ابن خلدون وابن الأزرقي من بعده^(٣). وكتاب

(١) قدامة بن جعفر : المصدر نفسه ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٢) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين (الترجمة العربية) ص ١٦٥ .

(٣) جمع محمد إبراهيم الكتاني بعض الشذرات من كتاب السياسة لابن حزم من الكتب المختلفة، وقد نشرت في نهاية كتاب «بدائع السلك» لابن الأزرقي (ج ٢ ص ٥١٢ فما بعد) وهي ١٧ قطعة .

ابن ظفر الصقلي (المتوفى سنة ٥٦٥/١١٧٠) «سلوان المطاع في عدوان الاتباع» وابن فرجون في كتابه : «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام»، وكتابي أبي القاسم الوزير عبدالله بن يوسف بن رضوان المالقي (توفي سنة ٧٨٤) «في السياسة السلطانية» وكتابه الآخر «الشهب اللامعة في السياسة النافعة». وقد اخذا عنه ويعتبر من أهم كتب السياسة وكتب الفكر العمراني السابق لكل من ابن خلدون وابن الأزرقي فيما بعد الكثير. وكتاب الطرطوشي (المتوفى سنة ٥٧٠/١١٧٤) «سراج الملوك» الذي يمثل اتجاهها اخلاقيا في علم السياسة عند المسلمين والذي كان من القلائل الذين ذكروهم ابن خلدون ونقدتهم قائلا : «قد بوب الكتاب على أبواب تقرب من أبواب كتابنا، لكنه لم يستوف المسائل، ولم يوضح الأدلة» ثم كتاب «سلوك المسالك في تدبير الممالك على التمام والكمال» لابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ولعله لمحمد بن سليمان المعافري الشاطبي المعروف بابن أبي الربيع، الذي توفي بالإسكندرية سنة ٧٦٢) بعد أن رحل إلى الشرق^(١) والكتاب موسوعة على شكل جداول قسم فيها صاحبها العلوم إلى ثلاثة : علم أعلى هو الإلهيات، وأوسط هو الرياضيات، وأسفل ويشمل الطبيعيات والطب. وهو يدخل التاريخ في العلم الأوسط، ويتحدث فيه عن أخبار الملوك وسياساتهم وذكر الأوائل وسياستهم وأخبار الفضلاء^(٢).

(١) هذا الكتاب يثير مشكلة تاريخية ففي مخطوطه الذي طبع في القاهرة سنة ١٣٢٩، ثم في بغداد منذ فترة أنه شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، وأنه أُلّفه للمعتمد (أوائل القرن الثالث) لكن عنوان الكتاب المسجوع لم يكن يستخدم في هذا العصر أبداً كما أن اللقب الذي يمنح للمؤلف شهاب الدين لم يعرف إلا بعد القرن الخامس الهجري، ثم أن طريقة تأليف الكتاب وإنشاء كلامه يرجع أنه من عصر متأخر، ولهذا رجح بيروكلمان تأليفه حوالي سنة ٦٥٥. للمعتمد قبيل سقوط الخلافة الأموية (ملحق ١/٣٧٢) وهو الأرجح، لا سيما وأنه لا فرقاً كبيراً في الرسم بين المعتمد والمعتمد، والفرق في سنة الوفاة، بين سنة ٢٧٢ وسنة ٦٧٢ وغير بعيد. ولقد وجدنا رجلاً باسم ابن أبي الربيع توفي سنة ٦٧٢ ولم نجد غيره.

(٢) ابن أبي الربيع : سلوك الممالك (طبعة القاهرة ١٣٢٩) ص ٤٦، وانظر روزنثال ص ٥٦ -

ثم أننا نجد آراء وأفكاراً مثورة في بعض المؤلفات التي تجمع بين السياسة والجغرافيا والتاريخ، ككتاب زكريا بن محمد القزويني (المتوفى سنة ٦٨٢) «أثار البلاد وأخبار العباد» ويتميز بين هذه الكتب «الشهب اللامعة» لابن رضوان، المعاصر لابن خلدون والذي كانت مادته مصدراً لابن خلدون في المقدمة، ولابن الأزرق من بعده. كما يتميز قبله كتاب ابن حزم في السياسة. ومن آرائه التي عرفناها فيما بقي لنا من كتابه هذا مثلاً أقواله^(١) : عن السجون وعن الولاة والعمال وصاحب البريد. وبأن يرزق الامام أمراء النواحي رزقا واسعا يقوم بهم وبمؤونتهم على السعة وأن لا تطول مدة غياب أمير لا سيما البعيدة عنه. والثغور التي فيها القلاع المنيعة والجند الكثير أو التي فيها المال الكثير ولا يفتح باب التشكي بالقضاة. وأن يتخذ خازنا ثقة. وخازنا للسلاح، وناظراً للخيل. ويرزق الامام هؤلاء ما يغنيهم عن الخيانة. ويقول إن في ما يلزم الامام من أمور الأمة عشرة أشياء : حفظ الدين، وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، والحماية، والذب عن الحرم، واقامة الحدود، وتحصين الثغور، وجهاد من عاند الاسلام، وجباية الفيء والصدقات، وتقدير العطاء، وما يستحق من بيت المال، واستكفاء الأبناء، وأن يباشر بنفسه مشاركة الأمور^(٢) وكلها مما يتصل بسياسة الحكام في المدن وادارتها.

ويذكر ابن حزم أيضاً رأيه في أن «يأخذ السلطان الناس بالعمارة وكثرة الغراس ويقطعهم الاقطاعات في الأرض الموات. ويجعل لكل أحد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك. فبذلك ترخص الأسعار ويعيش الناس والحيوان،

(١) من كلام ابن حزم المتقول عن كتاب «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» لابن رضوان (آخر كتاب بدائع السلك ج ٢ ص ٥٢٠ - ٥٢٤).

(٢) من كلام ابن حزم أيضاً في المصدر السابق نفسه «بدائع السلك» ج ٢ ص ٥١٥ - ٥١٦.

ويعظم الأجر، ويكثر الأغنياء، ويكثر ما تجب فيه الزكاة. ولا يمنع الامام من البيان الواسع وأن يبلغ به غاية الاتقان والقوة ولكن يمنع من التزويق والتزخرف وما أشبه ذلك . . .»^(١) وعلى من ولاه الإمام الصلاة بأهل بلد أن يتفقد مساجد البلد الذي ولي الصلاة بأهله. فليزِم أهل كل محلة أن يتولى إمامهم أقرأهم لكتاب الله. ويأخذهم بأقامة مؤذن راتب لكل مسجد . . . ولا بد من خدمة يكتفون بقم المسجد وكنسه وتنظيفه وبسط حصره وتسوية حصاه . . . ويجري على ما ذكر من كل مال موقوف على مصالح المسلمين . . .

وأما القزويني في «آثار البلاد» فما يقول في فقرة تكشف الفكر العمراني في عصره حول بناء المدينة، وأثرها في أمزجة السكان وأخلاقهم وأعمالهم : ان البشر «عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح. ولو تستروا في الخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو. ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي بأس. فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار . . . واتخذوا للمدن سوراً حصيناً، وللسور أبواباً عدة، حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج. بل يدخل ويخرج من أقرب باب إليه. واتخذوا لها قهندازاً لمكان تلك المدينة. والنادي لاجتماع الناس فيه. وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات، ومراكض الخيل، ومعاطن الإبل، ومرابض الغنم. وتركوا باقي مساكنها لدور السكان. فأكثر ما بناها الملوك والعظماء على هذه الهيئة. فنرى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة والصور الحسنة والأخلاق الطيبة، وأصحاب الآراء الصالحة والعقول الوافرة. واعتبر

(١) من كلام ابن حزم في المصدر نفسه ص ٥١٨.

ذلك بمن يكون مسكنه كذلك مثل الديالم والجيل والأكراد والتركمان وسكان البحر، في تشويش طباعهم، وركاكة عقولهم، واختلاف صورهم. ثم اختلفت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصة عجيبة. وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة. ونشأ بها صنف من المعادن والنبات والحيوان لم يوجد في غيرها. وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة ونشأ بها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات...» (١)

وقبل أن نصل إلى ابن خلدون في النصف الثاني من القرن الثامن، لا بد أن نشير إلى أمر هام هو أن هذا الخط السياسي - الاجتماعي الذي تتبعناه مفتتاً موزعاً هنا وهناك إنما كان يستقي منهج فكري فلسفي واحد وهو المنطق الأشعري الذي يقوم على المنهج الاستقرائي والذي نضج على أيدي الأصوليين والمتكلمين والفقهاء. ولم يكن ابن خلدون، ولا ابن الأزرق من بعده، سوى الحلقات الأخيرة في سلسلة المتمسكين بهذا المنهج والعاملين ضمن أبعاده. إن استمرارية المدرسة الأشعرية في علم الاجتماع السياسي وفي تطبيق المنهج الاستقرائي التجريبي على الظواهر الاجتماعية والسياسية والأخلاقية واضحة كل الوضوح في مجموع المؤلفين الذين سبق ذكرهم. وإذا كان ابن خلدون أشعرياً تجريبياً حسيماً، فقد برز منهجه بشكل أوضح لدى ابن الأزرق في استخدامه لقياس الغائب على الشاهد، ولمسالك العلة وقوادحها، وللاطراد والعادة، ولتحليل الجزئيات المستقرأة ثم جمعها في أصول عامة. الفارق الوحيد بين ابن خلدون والباحثين الآخرين وبخاصة ابن الأزرق أنه لا يعير انتباهها للجانب الأخلاقي الذي يصر عليه السابقون له، كما يعتبره ابن الأزرق من عوامل العمران. ولعل ابن خلدون ينتقده كل النقد بوصفه أمراً غير تجريبي ولا حسي كما يظهر ذلك في نقده لكتاب

(١) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد (طبع دار صادر - بيروت) ص ٧ - ٨.

الطرطوشي قائلاً : إن هذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد فيه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم . . . وهي من جنس مسائله «ومنهم . . . ومنهم . . . وكذلك حوَم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتابه : سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية، ولا أصاب الشاكلة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، إنما يبوب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار وينقل كلمات متفرقة لعلماء الفرس مثل : برز جمهر، والموبدان، وحكماء الهند، والمأثور عن دانيال، وهرمس، وغيرهم من أكابر الخليفة. ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حججاً. إنما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ. وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه. ولا تحقق قصده. ولا استوفى مسائله. . .»^(١) ويعني ابن خلدون أن الطرطوشي جمع وقَمَّش لكنه لم يصل من النتائج إلى النظريات التي وصل إليها ابن خلدون بالمنهج الاستقرائي الأشعري نفسه. ولهذا يقول بفخر : «ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق. . .»

هكذا، ومن خلال منهج فكري فقهي هو المنهج الأشعري الاستقرائي، دخل ابن خلدون إلى فلسفة العمران وبلغ بها أوج النضج في الإسلام على أنه لم يفهم العمران على أنه بناء المدن فقط ولكن فهمه أيضاً على أنه إحياء موات الأرض وإيجاد الزرع والضرع وبناء القرى والمنازل والمدن على السواء. وإدارة ذلك كله. وبحث في شروط العمران وأحواله. وفي المدن وشروطها باعتبارها مواقع الاجتماع الإنساني بامتياز.

وهو لا يفرق بين المدن والأمصار والقصبات، وليس لديه تصنيف للمدن كما لدى المقدسي قبل أربعة قرون مثلاً. ولكنه يتكلم عنها جميعاً تحت

(١) ابن خلدون - المقدمة ص ٣٠ و ٣١ - ٣٢ (طبع دار العودة تصويراً بيروت).

اسم أمصار. على أنه :

أ - كان يراعي أحياناً كتلة المدينة، واكتمال المرافق فيها، وتنوعها، واحتواءها على مختلف الصناعات. فيدعوها بالمدن العظيمة أو بالمدن الأمصار المستبحرة في العمران. ويدعو العاصمة أو القصبه بكرسي الدولة، ويدعو ما عداها بالمدن المتوسطة أو الأمصار الصغيرة. ويسمي ما دون ذلك بالقرى والضياع والمدائن. ومن خصائص المدن المستبحرة وجود الحمامات مثلاً، ووجود الصنائع كاملة ومتعددة مع وجود الصنائع الترفيحية. وأما المتوسطة فتقتصر في وجود المرافق والصنائع فيها على البسيط والضروري.

ب - كان ابن خلدون يتحدث وفي خاطره المدينة ذات الطابع الدفاعي من أسوار وقلاع وما إلى ذلك. لأنه يعتبر ذلك من لوازم المدينة الأساسية دون أن يعير المدن الإدارية أو غيرها وزناً باعتباره يتكلم بالنظريات العامة وهو معذور لأنه إنما كان يتحدث وفي ذهنه الهجمات الصليبية الأيبيرية على الأندلس والشمال الإفريقي.

يرى ابن خلدون ان الاجتماع الإنساني ليس طبيعياً فقط، ولكنه ضروري أيضاً « ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الإنسان مدني بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة. . وهو معنى العمران، فالله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته. . . فلا بد من اجتماع القدر الكبير من أبناء جنسه ليحصل له القوت وليؤمن حاجاته التي لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. . . » . إذن فالاجتماع ضروري للنوع البشري وإلا لم يكمل وجودهم. وما أرادته الله من اعتبار العالم بهم

(١) المقدمة : ص ٣٣.

واستخلافه إياهم . وهذا العمران «ولا بد من وازع يدفع الناس بعضهم عن بعض، وهذا هو معنى الملك . ولا بد أن يكون بشرع مفروض من عند الله ليقع التسليم به»^(١) «وأجيال البدو والحضر طبيعية» والبدو أقدم من الحضر وسابق عليه . والبادية أصل العمران»^(٢) ، ويخصص ابن خلدون في كتابه (الفصل الرابع من الكتاب الأول) للكلام عن البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال»^(٣) في نظرات كلية شاملة وفي تحليل فكري جغرافي - اقتصادي يضعان الأساس والمبادئ للفلسفة والعمران في الإسلام، ولعلم الاجتماع السياسي .

يقول ابن خلدون في عوامل ظهور المدن : « إن الدول أقدم من المدن والأمصار، وإنما إنما توجد ثانية عن الملك . لأن اختطاط المنازل هو من منازع الحضارة . والمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص . فتحتاج إلى اجتماع الأيدي وكثرة التعاون . . فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك . فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمراتها وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبية تكثر ونطاق الأسواق يتباعد . . إلى أن تتسع الخطة وتبعد المسافة كما وقع في بغداد . ذكر الخطيب (البغدادي) في تاريخه أن الحفامات بلغ عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وأنها (أي بغداد) كانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة واحدة يجمعها سور واحد لأفراط العمران . وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية، وحال مصر القاهرة بعدها . وأما بعد انقراض الدولة

(١) المقدمة : ص ٣٤ .

(٢) المقدمة : ص ٩٥ - ٩٧ .

(٣) المقدمة : ص ٢٧٢ - ٣٠١ .

المشيئة للمدينة فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة . . . بادية تمددها بالعميران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة، كما تراه بفاس وبجاية، من المغرب، وبعراق العجم، من المشرق . . . « أما إذا لم يكن لتلك المؤسسة مادة تفيدها العمران فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها . فيزول حفظها، ويتناقض عمرانها شيئاً فشيئاً، إلى أن يبعد ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة، بالشرق، والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد، بالمغرب وأمثالها . وربما ينزل المدينة بعد انقراض مخطيها الأولين ملك آخر . . يتخذها قراراً وكرسياً يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتزايد مبانيها ومصانعها . . وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد . . . »^(١) .

ثم يقول ابن خلدون : إن الملك يدعو إلى نزول الأمصار فالفائل إذا حصل لهم الملك اضطروا للاستيلاء على الأمصار لأمرين : أحدهما ما يدعو إليه الملك من الدعة والراحة واستكمال ما كان ناقصاً من أمور العمران في البدو، والثاني دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين المشاغبين لأن المصر . . يكون ملجأ لمن يروم ذلك . فيعتصمون بالمصر . ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة بسبب الامتناع والحرب من وراء الجدران (الأسوار) . . وإن لم يكن مصر استحدثوه وضرورة لتكميل عمرانهم أولاً وخط أثقاهم . . »^(٢) .

والمدن العظيمة والهيكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير، وذلك أن تشييد المدن إنما يحصل باجماع الفعلة وكثرتهم . فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة . . حشر الفعلة من أقطارها . . وربما استعين في ذلك بالهندام الذي

(١) المقدمة : ص ٢٧٢ .

(٢) المقدمة : ص ٢٧٣ .

يضاعف القوى . . (ومن ينظر إلى إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال) يتخيل لأصحابها أجساما تناسب ضخامتها ويغفلون عن الصناعة الهندسية، وليس كذلك. ونحن نرى ونعرف بنسأة مباني العبيديين (الفاطميين) بإفريقية والصنهاجيين في صومعة قلعة بني حماد، وكذلك بناء الأغالبة في جامع القيروان، وبناء الموحدين في رباط الفتح وكذلك الحنايا (القناطر) التي جلب إليها أهل قرطاجنة الماء في القناة الراكبة عليها . . وغيرها من المباني . والعامية يسمونها «عادية»، وينسبونها لعاد، وما هي بذلك^(١).

ولا تستقل الدولة الواحدة ببناء الهياكل العظيمة بل إنها تحتاج إلى معاودة البناء في أزمنة متعاقبة، إلى أن تتم فيبتدىء الأول بالبناء، ويعقبه الثاني والثالث. وكل واحد يستكمل الجهد في حشر الفعلة وجمع الأيدي . وانظر في ذلك سد مأرب . وأكثر المباني العظيمة لعهدنا نجد أن الملك الواحد يشرع في اختطاطها، فإذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك بقيت بحالها، يشهد بذلك آثار كثيرة تعجز الدول عن هدمها. مع أن الهدم أيسر من البناء، مثل إيوان كسرى الذي حاول هدمه المنصور، ومثل أهرام مصر التي حاول المأمون إزالتها.^(٢)

وإنما ترسخ الحضارة في الأمصار من قبل الدول باتصالها ورسوخها . فالحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه . وتفاوت الأمم في الكثرة والقلة . ويحتاج كل صنف إلى المهرة فيه . ومتى اتصلت الأيام تعاقبت الصناعات، وحذق الصناع صناعتهم ومهروا في معرفتها، وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستبحار

(١) المقدمة : ص ٢٧٤ .

(٢) المقدمة : ص ٢٧٥ .

العمران فيها . وذلك كله إنما يجي ، من قبل الدولة ، لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها فتعظم ثروتهم . . . ولهذا تجدد الأمصار التي في القاصية ، ولو كانت موفورة العمران ، تغلب عليها أحوال البداوة . بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها . . . والسلطان والدولة سوق للعالم ، وإذا بعدت السوق ، افتقدت البضائع جملة . ثم إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد ، استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً ، كما جرى لدولة الروم ، ودولة القبط (الفراعنة) ، وفي الأندلس . ولم يجر ذلك في شمال إفريقيا وتغلبت عليه البداوة . . . (٢)

وينتقل ابن خلدون إلى ما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة ويقصد شروط بناء المدينة الباقية فيرى : أن المدينة قرار تتخذة الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه ، ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب المنافع ، وتسهيل المرافق لها . محدداً بذلك خصائص المكان للمدن (أو الوضع الطبيعي) لها . فأما دفع المضار فيكون بالحماية :

١ - والحماية نوعان : طبيعية ويكون ذلك :

أ - بوصفها في ممتنع من الأمكنة : إما على هضبة متوعرة « من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر ، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر وقنطرة . فيصعب منالها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها . »

ب - بضمان الشروط الصحية : ويراعى في ذلك الحماية من الآفات السماوية : طيب الهواء للسلامة من الأمراض ، فإن الهواء إذا كان

(١) المقدمة : ص ٢٩٢ - ٢٩٥ .

راكداً . . أو مجاوراً للمياه الفاسدة، أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة،
أسرع العفن إلى مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيها .
لا محالة «كبلدة قابس بإفريقية لا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من
حمى العفن وقابس مستجدة العمران كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً
فكان ذلك معيناً على تموج الهواء وتخفيف الأذى منه . وقد رأينا عكس
ذلك في بلاد وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء، وكانت أولاً قليلة
الساكن، فكانت أمراضها كثيرة، فلما كثر ساكنها انتقل حالها . وهذا
مثل دار الملك بفاس، لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد . . .»^(١).

الحماية الثانية : عسكرية

«فيراعى أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار»^(٢) خاصة وأن «أهل
الحضر يلقون جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وينغمسون في النعيم
والترف». وقد أوكلوا أمرهم في المنفعة عن أحوالهم وأنفسهم إلى واليهم،
والحاكم الذي يسوسهم، والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى
الأسوار التي تحوطهم، والجزر الذي يحول دونهم^(٣). «ومما يراعى في المدن
الساحلية التي على البحر: أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم
موفورة العدد. والسبب أن المدن إذا كانت حاضرة البحر (أي على الساحل)
إذا لم تكن في موقع جبلي (وعليها الأسوار) ولم يكن لها ظهر بشري كثير
العدد، يكون صريحاً للمدينة إذا طرقتها طارق من العدو لم تفلح . والسبب
أنه إذا لم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعها متوعر في
الجبل كانت في غرة للبيات، وسهل طروقها من الأساطيل البحرية على

(١) المقدمة : ص ٢٧٦ .

(٢) المقدمة : ص ٢٧٦ .

(٣) المقدمة : ص ١٣٣ .

عدوها وتحيفه إياها لما يأمن من عدم وجود الصريخ لها، وأن الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة. . «وانظر حال الاسكندرية في مصر، وطرابلس في المغرب، وبونه وسلا التي هوجمت مرات عديدة. . ومتى كانت القبائل متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير، وكانت متوعرة المسالك على من يرونها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى استنها، كان لها بذلك منعة على العدو ويشسوا من طروقها، لما يكابدون من وعرها، وما يتوقعونه من إجابة صريخها. كما في سبتة وبجاية وبلد الفلّ على صغرها»^(١).

وينتقل ابن خلدون إلى جلب المنافع للبلد فيرى أن يراعى فيه أمور تتعلق بما يسمى ظهير المدينة أو ربيضها ومنها:

أ - المياه: أن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون عذبة ثرة. فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء، وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة.

ب - المرعى: ومما يراعى من المرافق في المدين، طيب المراعي لسائماتهم إذ صاحب كل قرار، لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب. ولا بد لها من المراعي، فإذا كان ذلك قريباً طيباً كان ذلك ارفق بحالمهم لما يعانون من المشقة في بعده.

ج - المزارع: ومما يراعى أيضاً المزارع، فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه، وأقرب في تحصيله.

د - توافر الشجر: (الشعراء) «ومن ذلك الشجر للحطب، والبناء،

(١) المقدمة: ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ .
والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من
ضرورياتهم»^(٢) .

هـ - وقد يراعى أيضا قربها من البحر، لتسهيل الحاجات القاصية
من البلاد النائية . إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول .

«وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وقد يكون الواضع غافلا عن
حسن الاختيار الطبيعي ، وإنما يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكر
حاجة غيرهم . كما فعله العرب أول الإسلام في المدن التي اختطوها في العراق
 وإفريقية . فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم من مراعي الإبل ، وما
 يصلح من الشجر والماء المالح . ولم يراعوا الماء ولا المزارع ، ولا الحطب ، ولا
مراعي السائمة . . كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها . ولهذا كانت أقرب
إلى الخراب . . .» .

وهكذا تتفاوت أقدار المدن بتفاوت جودة مكانها الطبيعي أو سوئه .
وتحدد بذلك مصائرهما . ويرى ابن خلدون - إن كان مخطئا فيما يرى - أن
المدن والأمصار في إفريقية والمغرب قليلة ، والسبب في ذلك غلبة البدو من
البربر وتنقلهم . و«إنما يدعو إلى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا
على حمايتها» . فعمران إفريقية والمغرب يدوي ، بعكس رساتيق الأندلس ،
والشام ، ومصر ، والمشرق . كما يرى - وهو أيضا مخطئ ، فيما يرى - أن المباني
والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى ما كان قبلها من
الدول . وأن المباني التي يخططها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل .
والسبب في ذلك عنده أن العرب أعرق في البداوة من البربر . وأنهم بعيدون

(٢) الفقرات الثلاث من المقدمة : ص ٢٧٥ - ٢٧٧ .

(١) المصدر نفسه ، والصفحة ذاتها . .

عن الصنائع . وقد اعتمدوا على غيرهم فيها، ولم ينفسح لهم الأمد في استيفاء رسوم الحضارة . كما منعهم الدين من المغالاة في البنيان، بالإضافة إلى سوء اختيار الأماكن الطبيعية للمدن . . وبديهي أن ابن خلدون إنما كان يتحدث وفي ذهنه التخريب الذي تم في إفريقية والمغرب مع التوغل الهلالي البدوي .

ولا نرى حاجة إلى دحض هذه الآراء فلسنا في معرض مناقشتها، ولكن عرضها . كما أن كل ما في هذا الكتاب يجيب عليها، ولكننا نتقل إلى آرائه في نمو المدن وازدهارها وفي خرابها:

يربط ابن خلدون من نواحي عدة بين الدولة والمدينة: فمن شروط نمو المدن لديه:

وجود الدولة: فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك . ثم أنها هي التي تدفع الناس إلى نزول الأمصار والبناء . ولكن هذا البناء لا يكون خاصاً بالافراد، وإنما يشمل أيضاً المرافق العامة التي تبنيتها الدولة لجميع السكان . وعند ذلك تكون مباني الدولة على نسبة قوتها في أصلها . فالمدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك الكثير . والدولة تستحدث المدن لاستكمال العمران . وتقيم الأسوار لحماية مدنها . عدا أنها هي التي تختار المواقع الملائمة، مع توافر المرعى والزرع والماء والمناخ . ولكن هذا كله لا يكفي لنمو المدن: فلا بد من توافر عوامل أخرى في المدينة، وللدولة دورها الأساسي في تلك العوامل:

١ - فالأمصار إذا اختطت أولاً تكون قليلة الساكن، وقليلة آلات البناء، فيكون بناؤها بدوياً . فهذا عظم عمران المدينة، وكثر ساكنها، كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ وكثرة الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك . فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع، ففقدت الإجابة

والتنميق . ويصير بناؤهم من الآلات التي في مبانهم بسبب خلاء أكثر المصانع والقصور . . إلى أن تعود إلى البداوة والخراب^(١) .

٢ - تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها، ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة . «والمكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق» ويكثر المهرة من الصناعات وتنفق الأسواق ويكثر دخل المصر . . ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية، ثم زاد الترف . . واستنبطت الصنائع، وتضاعف الكسب في المدينة ثانية، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول . . «فما كان عمرانها من الأمصار أوفر وأكثر، كان حال أهلها في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه، على وتيرة واحدة في الأصناف: القاضي مع القاضي والتاجر مع التاجر . . إلى أن تنتهي إلى المداشر الذين اعتسأهم في ضروريات معاشهم فقط ويقصرون عنها . . والأمصار التي لا توفى أعمالها بضروراتها، لا تعد في الأمصار . إذ هي من قبيل القرى والمداشر، فنجد أهل هذه الأمصار ضعفاء الأحوال، متقاربين في الفقر والخصاصة وحال الدخل والخرج متكافئ في جميع الأمصار . ومتى عظم الدخل، عظم الخرج، وبالعكس متى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن، وتوسع المصر . . .»^(٢) .

٣ - ويتكلم ابن خلدون عن أسواق المدينة فيرى فيها الضروري : كالحنطة، والكمالي كالأدم، والفواكه، والملابس . . . فإذا استبحر المصر، وكثر ساكنه، ورخصت أسعار الضروري من القوت غلت أسعار الكمالي . وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانها كان الأمر بالعكس . . . ذلك أن المصر

(١) ابن خلدون : المقدمة : ص ٢٨٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة : ص ٢٨٧ .

إذا كان مستبحراً موفور العمران توفرت الدواعي على طلب المرافق (الكمالية) وهي قليلة، فيقع فيها الغلاء بسبب كثرة الحاجة وكثرة المترفين وقلة المرافق. وسبب الغلاء كثرة الترف وامتethان أهل الصنائع لأنفسهم لسهولة المعاش في المدينة وحاجة المترفين إلى استعمال الصنائع. . . (١)

«وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصلون عليه ويعز وجوده» فيرتفع سعره وأما مرافقهم (الكمالية) فلا يأبهون لها فترخص.

«ويدخل أيضاً في قيمة الأقوات قيمة ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق. وبذلك تكون الأسعار في الأمصار أعلى من الأسعار في البادية لاسيما في آخر الدولة». . . ويصبح من الصعب على أهل القرى والمداشر سكنى مصر الكثير العمران. لأن ازدحام الأغراض عليها مع المغارم السلطانية تزيد في أسعارها فتكثر النفقات على الساكن الفقير ويظهر عجزه. . .

٤ - «وينعكس ذلك أيضاً على الأقطار في اختلاف أحوالها : فحين «تتسع الأحوال ويحيى الترف والغنى، وتكثر الجباية للدولة بنفاق الأسواق، فيكثر مالها، ويشمخ سلطانها، ويتفنن في اتخاذ المعامل والحصون، واختطاط المدن، وتشيد الأمصار. واعتبر ذلك بأقطار المشرق وأقطار البحر الرومي، وكذا تجار أهل المشرق وأحوالهم، . . . والسبب الأرضي هو ما ذكرنا من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق، وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب».

(١) المقدمة : ص ٢٨٨ - ٢٩٠ .

٥ - «وتأثرت العقار والضياع الكثيرة لأهل الأمصار والمدن لا يكون دفعة واحدة، ولا في عصر واحد، إذ ليس لأحد منهم من الثروة ما يملك به الأملاك التي تخرج قيمها عن الحد، ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ، وإنما يكون ملكهم تدريجياً إما بالوراثة، وإما بحوالة الأسواق. فإن العقار في آخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية، وخرق السياج، وتداعي المصر للخراب، تقل الغبطة، لقلّة المنفعة، فترخص قيمها وتتملك بالأثمان اليسيرة» ثم ترتفع قيمتها مع الدولة الجديدة وهذا معنى الحوالة . . . والمتمولون من أهل الأمصار في حاجة إلى الجاه والمدافعة لأنهم متى انفسحت أحوالهم زاحوا الأمراء والملوك. أو مدوا إليهم بسبب يحميهم^(١).

٦ - والحضارة في الأمصار إنما هي من قبل الدول وترسخ باتصال الدولة ورسوخها «فمتى اجتمع المهرة من الصناع في المصر حذقوا صناعتهم ومهروا». وأكثر ما يقع ذلك في الأمصار لاستجار العمران، وكثرة الرفه. وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة. لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها. وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من اتساعها بالمال. فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة، ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر، وهم الأكثر. فتعظم ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه، وتستحكم الصنائع في سائر فنونها. هذه هي الحضارة . . . وإذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً.

(١) المقدمة : ص ٢٩٠ - ٢٩٢.

عوامل الخراب في المدن :

وابن خلدون يربطها بالدولة كما ربط نمو المدن وازدهارها بالدولة .
ولكنه يسير في فكره على سنن فكري منظم فيرى :

أ - أن العمران كله من بدائة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس ، كالإنسان إذا بلغ سن الأربعين توقفت قواه ونموها برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط . وكذلك الأمصار .

ب - أن الترف والنعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها . والحضارة هي التفنن في الترف واستجادة أحواله . والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه
في المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وتعظم بذلك نفقات أهل مصر . ومتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل . وقد كنا قدمنا ان مصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه ، وأسعار حاجاته . ثم تزيدها المكوس غلاء . لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها ، وهو زمن وضع المكوس في الدولة ، لكثرة خرجها . والمكوس تعود على البياعات بالغلاء ، لأن التجار يحتسبون على سلعهم جميع ما ينفقون حتى في مؤونة انفسهم فتخرج نفقات أهل الحضارة عن القصد إلى الإسراف^(١)

ج - وتزداد التكاليف على الناس فيتتابعون في الإملاق ويغلب عليهم الفقر . ويقل المستامون للمبالغ فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة .

د - أما فساد أهلها في ذاتهم . . . فمن الكد والتعب والتلون بألوان الشر في تحصيلها . . . فذلك يكثر الفسق والشر والتحيل والكذب والمقامرة

(١) المقدمة : ص ٢٩٥ .

والغش والسرقة والفجور في الإيمان والربا في المبيعات . . . وإطراح الحشمة حتى بين الأقارب . . . وإذا كثُر ذلك في المدينة أو الأمة أذن الله بخرابها وانقراضها^(١) . . .

ويأتي ابن خلدون بمثل طريف في هذا الصدد وهو قول العامة : إذا كثُر غرس النارج في المدينة تآذنت بالخراب، وما ذلك إلا لأن النارج منظر فحسب، فحين لا يُقصد بالبساتين إلا أشكائها فقط فذلك يعني البطر المفضي إلى الخراب .

هـ - ويتبع ذلك الانصراف إلى شهوات البطن والفرج وتختلط الأنساب . . .

وهكذا : إذا بلغ الترف غايته، انقلب إلى الفساد، وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات . . . بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة هي عين الفساد . . . فالحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة^(٢) .

و - « والدولة إذا اختلت وانتقضت فإن مصر الذي يكون كرسياً لسلطانها ينتفض عمرانها . وربما ينتهي في انتفاضة إلى الخراب . ولا يكاد ذلك يتخلف . والسبب في ذلك أمور . الأول : أن الدولة في أولها أقرب إلى البداوة . وهذا يدعو إلى تخفيف المعارم والجبابة . وتقل النفقات . . . فإذا صار مصر كرسياً للملك نقصت أحوال الترف في أهل مصر لأن الرعايا تبع للدولة . فتقصر حضارته ويخرب .

والأمر الثاني : أن حصول الملك إنما يكون بالغلبة، ومتى غلب أحد المتنافسين أنكر أحوال الدولة السابقة، وأحوال الترف فيها . حتى تنشأ له

(١) المقدمة : ص ٢٩٦ .

(٢) المقدمة : ص ٢٩٧ .

حضارة مستأنفة فيخرب .

والأمر الثالث : أنه لا بد لكل أمة من وطن، فإذا ملكت غيرها صارت هذه تبعاً لها، وأمصارها تابعة لأمصار الغالب، فيخرب . ولا بد من توسط كرسي المملكة بين تخوم الممالك التي للدولة . لأنه شبه المركز للنطاق . فيبعد مكانه عن مكان الكرسي السابق . وتهوى الأفتدة إليه . فيخرب السابق الذي يصبح في الأطراف . كبغداد مع دمشق . وأصبهان السلجوقية مع بغداد .

الأمر الرابع : أن شيعة الدولة يتبعونها حيث تنقل كرسيها، فلا يبقى في الكرسي الأول إلا الحمل من الفلج والباعة والعيارة وسواد العامة^(١) وبخرب .

ز - «والسبب الطبيعي لكل ذلك أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها . وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر . فالدولة دون العمران لا تتصور . والعمران دون الدولة والملك متعذر . لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى (وجود) الوازع . فتتعين السياسة لذلك : إما الشرعية أو الملكية . وهو معنى الدولة . وإذا كانا لا ينفكان فاختلال أحدهما مؤثر في اختلال الآخر . كما أن عدمه مؤثر في عدمه . والخلل العظيم إنما يكون من خلل الدولة الكلية»^(٢)

ويتبين من هذا كله أن ابن خلدون :

١ - يعتبر أن بناء المدن من لوازم الملك وتمامه، ولا بد في تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك .

(١) المقدمة : ص ٢٩٨ .

(٢) المقدمة : ص ٢٩٨-٢٩٩ .

٢ - يعلل نمو المدن وتدهورها بالعامل الاقتصادي أولاً، ثم بالعامل الحضاري (الاخلاقي) فحين تنشأ الدولة يكون لها نظام اقتصادي متقشف، ثم حين يستبحر العمران يفسد النظام وتزداد التكاليف والمؤن والمكوس، فيزداد التحيل للعيش وتنهيار المدن وتنتهي إلى الخراب. إن لم تنته إلى المجاعات والأوبئة. وهو يكشف بذلك العلاقة الواشجة بين الازدهار الاقتصادي وزيادة العمران.

٣ - لابد في حفظ بقاء المدينة من توفر شروط هذا البقاء، ومن وجود ظهر للمدينة يغذيها بالزرع والضرع والركوب، ومن حماية طبيعية وبشرية، ومن تكاثر في السكان يأتيها من القرى والبوادي المجاورة في ظاهرة من الزحف الريفي نحو المدن تماماً كما يؤدي اختلال هذه الأمور إلى تناقص العمران وتشتت السكان ثم الخراب.

٤ - نمو المدن وازدهارها يتم بازدياد عمرانها وكثرة الصناعات فيها، وكثرة المباني، وازدياد مهارات العاملين فيها.

٥ - للأمصار ولكراسي الملك وللمدن أعمار كالإنسان. فمع امتداد عمر الدولة تنشأ المباني، وتتعدد الصنائع، وتوسع الأسواق، وتزداد رقعة المدينة. كما جرى في بغداد، والقاهرة، والقيروان. ومتى بلغت النضج (أي طور الحضارة) بدأ ظهور عوامل الضعف والانهيار فيها: بكساد الأسواق وكثرة الغلاء، وتزايد البيوت المهجورة، وانتشار الفقر. وهو يعتبر ذلك قاعدة أساسية ينطلق منها في فهم المدن والدول.

٦ - عمر كرسي الملك «أي العاصمة»، إنما هو من عمر الدولة. والدولة الجديدة تبني كرسي ملكها بنفسها، فإذا لم يكن الموقع مختاراً الاختيار الحسن ذبلت المدينة مع زوال الدولة. كما حدث للعسكر والقطائع، والمهدية. إلا إذا استغنت الدولة الجديدة عن بناء مدينتها واستخدمت المدينة

السابقة، كما جرى في فاس، والقاهرة، وأما إذا كان اختيار الموقع ملائماً فإن المدينة تبقى وتنمو.

٧ - إن الأمصار الصغيرة التي لا تفي أعمالها بضروراتها يصبح أهلها صنفاء متقاربين في الفقر والخصاصة. إلا في النادر إذ لا فضل لهم يتأثلون به كسباً.

٨ - إن هرم المدن وخرابها إنما يكون من قبل السكن والسكان. فتنتقص الصناعات وتقل. ويهاجر أصحاب الحرف من المدن فتضمحل. ويتراجع عمران المدينة مع تناقص سكانها، فتقلص مساحتها، وتتغير مادة المباني وأنماطها. ذلك أن المدن العامرة تكثر فيها المباني الحجرية والمؤنقة. وحين يتراجع العمران وتقل الصنائع، يتراجع بناء المدينة ليصبح أشبه ببناء المدن الصغيرة والقرى. وقد يستعمل السكان عند تدهور المدن حجارة الأبنية القديمة يقتلعونها بالجهد من الدور القديمة لينوا بها الدور الحادثة.

وما أطلنا إذ أطلنا في آراء ابن خلدون إلا لأمرين:
أولهما: أنه قدم للفكر العمراني وللمدن أعمق النظريات في الإسلام وبنائها على أساس مادي ملموس.

والثاني: أنه كان العمدة والمصدر لابن الأزرق بعده، ولم يزد ابن الأزرق، في هذه الناحية على الأقل، شيئاً عليه. فكل ما ذكرناه إنما يشمل آراء كل من ابن خلدون وابن الأزرق بعده.

وابن الأزرق، أبو عبدالله محمد بن قاسم الأصبحي الغرناطي المالقي (ولد بعد ابن خلدون بعشرين سنة وتوفي في القدس سنة ٩٦٠هـ / ١٤٩٠م قبيل سقوط غرناطة بسنة واحدة) وقد عمد إلى الفصل الذي خصصه ابن خلدون عن المدن في مقدمته فأعاد تلخيصه وتنظيمه في مسائل وفوائد

وتوجيهات وأصول ومزيد إيضاح وبراهين وجود.

ففي الفصل الثاني الذي عقده بعنوان: « في اختيار المنازل الحضرية الاجتماع » يلخص ابن خلدون فقط ويذكر أنه يلخص عنه ولا يزيد عليه تقريباً سوى بعض أهوامش الإضافية، في حين أنه مزج في باقي كتابه بين آراء شتى وأخذ عن ابن رضوان، وابن حزم، والطرطوشي، والغزالي، والماوردي، وابن ظفر، والشاطبي، وأبي بكر المرادي الحضرمي، وابن العربي، وابن فرحون، وابن قيم الجوزية، والجاحظ، وغيرهم، فكأنه رأى في ابن خلدون أحسن المصادر وأجمعها في هذه النقطة، فأكتفى به^(١).

غير أننا لو بحثنا في أبواب الكتاب وأطرافه وأركانه وقواعده ومسائله وفصوله - كما يسميها مؤلفه - لوجدنا العديد مما يضيف من الآراء، فإنه يعتبر تكثير العمارة، الركن الخامس من الأركان التي تقام بها صورة الملك ووجوده، بعد نصب الوزير، وإقامة الشريعة، وإعداد الجند، وحفظ المال، ووضع إقامة العدل بعده. يقول في المقدمة الأولى لهذا الركن:

اتفق الأولون والآخر من المشرعين وغيرهم على اعتبار (تكثير العمارة) في مباني الملك وشروط الاجتماع الانساني . « وبعد ان يروى كلام ابن حزم الذي سلف عنها، يزيد من عنده » قلت: وتكرر عن الحكماء: الملك بالجند، والجند بالمال، والمال بالعمارة^(٢)، ثم يروي في المقدمة الثانية كلمة لابن خلدون من أن الدولة دون عمران لا تتصور، والعمران دونها متعذر. ويضيف ثلاثة مقاصد:

المقصد الأول: في موفور المال على الجملة بكثرة العمارة وبالعكس.

(١) انظر ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٩٦ (تحقيق علي سامي النشار - بغداد ١٩٧٧).

(٢) ابن الأزرق - بدائع السلك ج ١ ص ٢١٩.

وذلك في موضعين : الاقطار لأن تعدد الأعمال بها التي هي السبب في الكسب مقتضى لحصول الثروة بما يفضل عنها بعد الضروريات من الفضلة الزائدة . وينشأ عن ذلك شهاخة الملك بنمو الجباية وصرف ما يفضل منها إلى اتخاذ المعادل والحصون واختطاط المدن والأقطار^(١) .

وأما الموضع الثاني فهو الأمصار لذلك السبب عينه ، وعنه ترسخ فيها عوائد الترفه في التأنق في المساكن والملابس ، واستجادة الأبنية والماعون ، واتخاذ الخدم والمراكب . وكل ذلك مستدع لنفاق الأعمال والصنائع لموجب كسبها . لمزيد كثرة المال ، ونمو الجباية بسببه وبحسب تفاوت الأمصار في العمران .

المقصد الثاني : في ما تحفظ به العمارة وذلك هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض وأمهات الوصية به أمران :

أحدهما : مطلق العمارة قالوا لا جباية إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل . وفي السياسة : « بالعدل عمرت الأرض وقامت الممالك » .

والثاني : المزارعون يقال : « أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لم تزالوا سماناً ما سمنوا » .

المقصد الثالث : فيما يخل يحفظ العمارة وهو الظلم المؤذن بخرابها . وفيه مسائل « ويروي ابن الأزرقي في المسألة الأولى : حكاية الموبدان مع الواعظ إذ قال له : إن الملك لا يقيم عزه إلا بالشرعية . . ولا قوام للشرعية إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ، ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل . الذي نصبه الله وجعل له قيساً هو الملك . وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها

(١) يعتمد ابن الأزرقي في هذا على بعض كلام ابن خلدون وكذلك في الفقرة التالية .

وعمارها . وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال . وأقطعتها للحاشية والخدم وأرباب البطالة . فتركوا العمارة . . وما يصلح الضياع . وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم وخلوا ديارهم . وآووا إلى ما بعد ، أو تعذر ، من الضياع فسكنوها . فقلت العمارة ، وخربت الضياع ، وقلت الأموال ، وهلك الجنود والرعية ، وطمع في ملك فارس من جاورهم لعلمهم بانقطاع المواد التي لا يستقيم الملك إلا بها . «(١)» .

المسألة الثانية : في وجه إفضاء الظلم لخراب العمران ، فإن وفوره إنما هو بالأعمال العائدة بفضل المكاسب النافعة في الأسواق . والعدوان على الناس في أموالهم ذاهب بأموالهم في تلك الأعمال لمصير كسبها بأيدي المنتهين ، فتكسد أسواق العمران . ويخف مساكن قطره فراراً عنه لتحصيل الرزق في غير إبالته ، فتخرب أمصاره . . وتختل باختلاله الدولة .

المسألة الثالثة : في أن ذلك هو الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم لما يؤدي إليه من انقطاع النوع البشري .

المسألة الرابعة : أن نقص العمران بالظلم إنما يقع بالتدريج ، وذلك لأنه قد توجد بالأمصار العظيمة من أهل دولها ولا يقع فيها خراب . وسببه من قبل المناسبة بين حال المصر لعظيمة واستبحار عمرانه لا يظهر فيه من شؤم الظلم كبير أثر . وإنما يظهر بالتدريج بعد حين . وقد تذهب الدولة الضالمة قبل خرابه . .

المسألة الخامسة : في أن المراد بالظلم المؤذن بالخراب . . هو كل من أخذ ملك أحد أو غصبه أو طالبه بغير حق .

(١) ابن الأزرقي: بدائع السلك ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

المسألة السادسة : في تقسيم الظلم وهو على ضربين :

الأول : ما يقع عند الخراب دفعة . وهو أخذ أموال الناس مجاناً . . . قلت في سياسة أرسطو لم يكن سبب خراب هنانيج إلا أن همتهم شفت على جباياهم فامتدوا إلى أموال الناس ، فقامت الجماعة عليهم فكان في ذلك فساد ملكهم . . وهذا أمر لازم لأن المال علة البقاء للنفس الحيوانية . فهو جزء منها ، ولا بقاء للنفس بفساد الجزء .

الثاني : ما يقع من الخراب بالتدريج ومن مراتبه الواقعة ثلاث : ذرائعه المتوسل بها إلى أخذ المال ، كالوظائف الباطلة ، وتكليف الأعمال ، وتسخير الرعايا بها . وهو من أشد أنواع الظلم العائدة بفساد العمران . الثالثة ، وهي أعظم : التسلط على الناس في شراء ما بأيديهم بأبخس ثمن ثم فرضه بأرفع قيمة . .

ويعود ابن الأزرق فيذكر أن الركن السادس في الملك هو إقامة العدل وهو أساس الأركان كلها والمشكل الدوري الذي وصفه أرسطوله هو قوله : العالم بستان سياحه الدولة . الدولة سلطان تحيا به النفوس . السنة سياسة يسوسها الملك . الملك نظام يعضده الجند . الجند أعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمععه الرعية . الرعية عبيد يكتنفهم العدل . العدل به قوام العالم . . وهو هكذا متصل بعضه ببعض . . . (١)

وإذا كان ابن الأزرق يتابع ابن خلدون في خطواته الاقتصادية ، فإنه يشد عنه بأنه يضيف إليها الجوانب المعنوية الخلقية المؤثرة في ازدهار الأمصار وفي انهيارها ، وفي العمران وزواله .

(١) ابن الأزرق : بدائع السلك ص ٢٢٢ - ٢٢٩ .

الفصل الرابع

المدن التي أنشأها العرب المسلمون

قد يكون من الضروري الوقوف عند هذه النقطة من الحضارة العربية الإسلامية، وقد تكون أكثر ضرورة الآن ونحن نتحدث عن المدن الإسلامية وفي أذهاننا أنها لا تزيد عن عشرة أو عشرين، والواقع أنها تبلغ في العدد حوالي / ٤٥٧ / مدينة أو تزيد على ذلك، وكلها من ما أضافه المسلمون إلى عمران ومدن المنطقة التي امتدوا فيها ومن هذه المدن:

— حسب الوظيفة: مدن الفرضة (مرفأ)، والمدن الحصون، والمدن التجارية، والمدن السياسية (الملكية الخاصة)، والبلدان الزراعية، والمدن المختلطة.

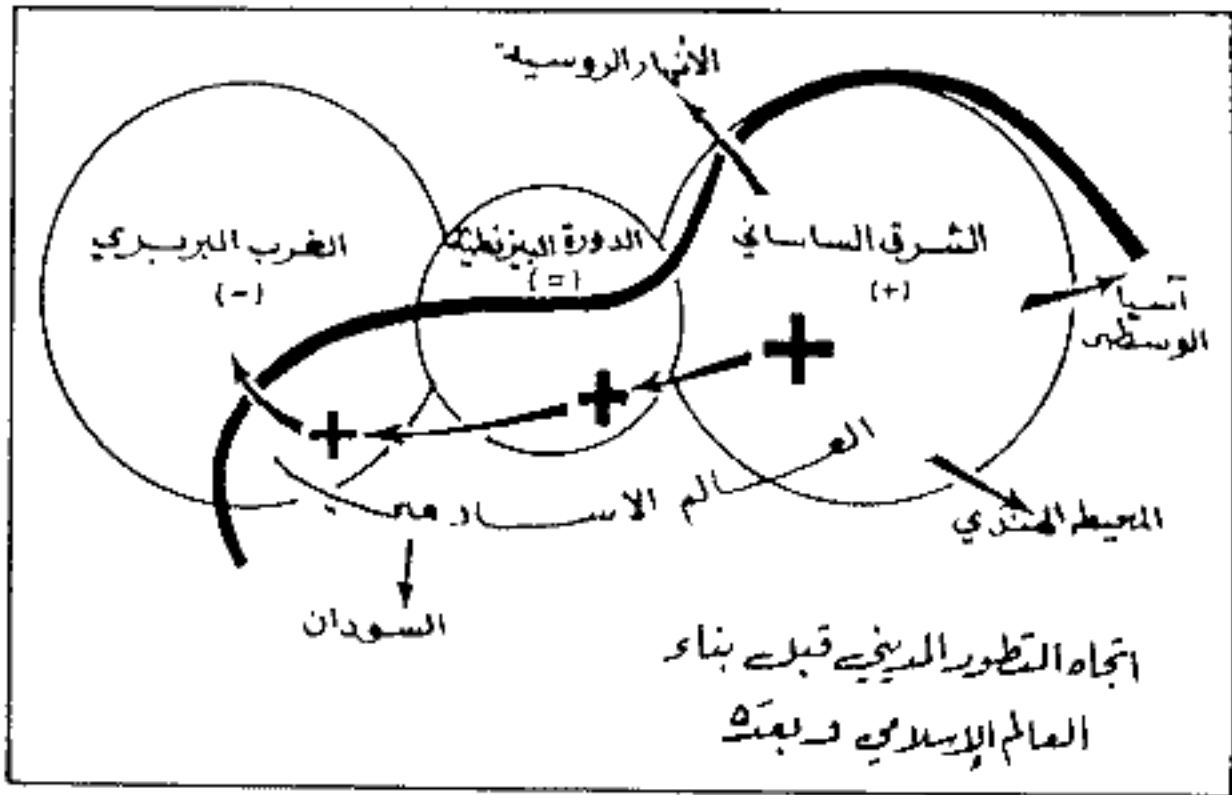
— أما حسب التوزيع الجغرافي: فثمة منها ٤٢ في العراق والجزيرة و٣٦ في مصر، و٤٤ في الشام، و٤٢ في فارس وإيران و١٣ في بلاد العرب، و٩٤ في المغرب، و٤٨ في الهند، و١٠ في تركستان، و٢١ في الملايو وأندونيسيا، و٤٤ في الأندلس، و٢٠ مدينة في شرقي إفريقيا، و٢٤ مدينة في غرب إفريقيا على الأقل، و٢١ في وسط شرق إفريقيا. فالمجموع يبلغ ٤٥٧

مدينة ونيف عدا الكثير من الحصون والمباني الإضافية في المدن القديمة والأربطة^(١).

أقيمت هذه المدن في مواقع، بكر، أو في مواقع كانت فيها من قبل مدن واندثرت، فجددها المسلمون كلياً، أو بنوا من انقاضها وعلى هذه الأنقاض. ولا يدخل في ذلك القرى الصغيرة وما شيدوه من قصور أو قلاع محدودة أو زادوه من المحلات في المدن القديمة فقد كان ذلك من طبيعة العمران المدني المتصل وامتداداً لعمليات العمران ذاتها.

امتدت زراعة هذه المدن جغرافياً من الهند وإيران إلى أقصى المغرب والأندلس، بما في ذلك مدن شرقي إفريقيا، والجزيرة العربية، ومنطقة باب الأبواب، وأقصى تركستان، فهي تشمل كل رقعة جغرافية اتصل بها المسلمون ما بين جنوب شرقي آسيا والهند إلى تركستان، إلى بلاد المغرب، إلى شرقي إفريقيا وشمالها وغربها، بالإضافة إلى الأندلس. أما في الامتداد الزمني فقد استمر إنشاء هذه المدن ما بين القرن الهجري الأول والقرن السادس، ونادر أن نجد مدينة جديدة بعد ذلك إلا في الهند وأندونيسيا وإلا ما كان من مدن دول الطراز حول القرن الإفريقي، وما كان في غربي إفريقيا السوداء أي على أطراف العالم الإسلامي. ويمكن أن تعتبر هذه الحركة العمرانية الإسلامية بكثرتها ثالث الحركتين السابقتين اللتين زرعتا العالم المعروف، حول البحر المتوسط خاصة، بالمدن بعد حركة الإسكندر المقدوني وحركة الرومان. غير أن الحركة الأولى كانت اضيق رقعة وأقل زمناً من الحركة الرومانية، والحركة الرومانية كانت بدورها اضيق رقعة وأقل امتداداً في الزمن من الحركة الإسلامية الواسعة أرضاً وزماناً.

(١) لم ندخل في الحساب مدن الجزيرة العربية لأنها اعتبرناها، رغم قدمها، معدن الإسلام وأبيه، ولذلك سوف نردها لوحدها.



وتدل هذه الحركة العمرانية الإسلامية على تكاثر سكاني اقتضى احتواؤه بناء المدن. كما قد يفسر بعضها بكثرة النشاط التجاري أو بتزايد النشاط الحربي وضرورات الحماية. وبخاصة عند ظهور العداء الغربي العنيف للحضارة الإسلامية (في الصليبيات وحرب الاسترداد الأندلسية - الصقلية) والذي تلاه ظهور العداء المغولي في القرن السابع من جنكيز خان إلى هولاكو وغازان . . .

طبيعي أن المدن الإسلامية لم تكن في شكل البناء كالمدين اليونانية الرومانية لاختلاف فلسفة المجموعتين إحداهما عن الأخرى. فإذا كانت المدن اليونانية والرومانية تهتم بالظاهر الحجري الأنيق والأعمدة، وبمؤسساتها العامة كالمعبد والأغوار والتماثيل، فإن المدن الإسلامية لم تكن مدن استعراض خارجي ولكن مدن حياة وراحة داخلية. وكانت تستقي فلسفتها لا من الأرض والمظهر المادي، ولكن من أوامر الله، ومن الراحة الأخرى

المنتظرة في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا اهتمت المدن الإسلامية بالبحث عن
الهواء العذب، والموقع الخصب، والمسكن المريح، والواجب الديني نحو
الله، والأمن والحماية، والمصالح العامة كتأمين الماء، ووجود المرفأ الحصين أو
الموقع التجاري على مفاصل الطرق، وأهملت الواجهات الحجرية الضخمة
والأعمدة المردة ورددتها إلى داخل البناء دون خارجه، لتكون زينة داخلية
لا فخامة خارجية.

ونستعرض في الصفحات التالية ما عثرنا عليه من المدن الإسلامية
الصرف، معتمدين في ذلك على معجم البلدان لياقوت في الدرجة الأولى،
ثم على المقدسي البشاري فيما يتعلق خاصة بالمشرق، وعلى ابن حوقل في
المغرب، وعلى الحميري محمد بن عبد المنعم (المتوفى حوالي سنة ٧٢٧) في
كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار». ثم على ما نشر عن البكري
والإدرسي، ثم على باقي الكتب الجغرافية والتاريخية. وقد أشرنا إلى المدن
التي شككنا في إسلاميتها الخالصة وعروبيتها بإشارة وهي على أي حال
لا تتجاوز ٦٠ مدينة. وقد اختصرنا أحيانا ما أسهب به بعضهم حول بعض
الأحداث^(١).

أبدة: مدينة بالأندلس من كورة جيان تعرف بأبدة العرب، اختطها
عبد الرحمن بن الحكم بن هشام. . وتمها ابنه محمد بن عبدالرحمن،
(٦٤/١).

أبطير: حصن بالاندلس بمقربة من بطليوس من بناء محمد بن أبي
عاصر من جليل الصخر داخله عين ماء خوارة وهو اليوم (سنة ٧٠٠) خال
(الحميري ص ٩).

(١) أبقينا المصدر الذي أخذنا عنه اسم المدينة المحدثة ووصفها في نهاية كل فقرة. أما الفقرات
التي لا تحمل اسم صاحبها فهي لياقوت الحموي، في كتابه معجم البلدان بأجزائه الخمسة.

الإحساء : مدينة بالبحرين معروفة مشهورة كان أول من عمّرها
وحصّنها وجعلها قصبه هجر : أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي
القرمطي . وهي إلى الآن بلدة مشهورة عامرة (إلى سنة ٦٢٥) . (١١٢/١) .

أجرسيف : مدينة في اخوار تلمسان من أرض المغرب كبيرة لها بساتين
كثيرة، وهي على نهر ملوية، من الأنهار المشهورة، وكانت أجرسيف قرية
كبيرة على النهر المذكور حتى خرج المثلثون من الصحراء فتزلوها، ومدنوها
وبنوا عليها سوراً من طوب (الحميري ١٢) .

أذنة : بنيت سنة إحدى أو اثنتين وأربعين ومائة، وجنود خراسان
معسكرون عليها بأمر صالح بن علي بن عبدالله بن العباس، ثم بنى الرشيد
القصر الذي عند أذنه قريباً من جسرهما على سيحان في حياة ابيه المهدي سنة
١٦٥، فلما كانت سنة ١٩٣ بنى أبو سليم فرج الخادم أذنه . وأحكم بناءها
وحصنها . وندب إليها رجالاً من أهل خراسان . وذلك بأمر محمد الأمين بن
الرشيد . وأبو سليم خادم تركي للرشيد ولآه الثغور . وهو الذي عمر
طرسوس وعين زربة . . ولأذنه ثمانية أبواب وسور وخنديق . ولها نهر يقال له
سيحان، وعليه قنطرة من حجارة عجيبة بين المدينة وبين حصن مما يلي
المصصية، وهو شبيه بالربض . (١٣٣/١) .

أربيل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة . . . ولقلعتها خندق عميق وهي في
طرف المدينة . وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهو على تَل عال من التراب
عظيم واسع الرأس . . . وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع
للصلاة . وهي شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأوسع رقعة . وفي ربض
هذه القلعة، في عصرنا هذا (سنة ٦٢٠) مدينة كبيرة عريضة طويلة، قام
بعمارتها وبناء سورها، وعمارة أسواقها، وقيسارياتها الأمير مظفر الدين
كوكبري بن زيد الدين كوجك علي . فأقام بها وقامت بمقامه بها، لها سوق .

وصار له هيئته بين الملوك . . . وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت
مصرًا كبيراً من الأمصار . . . (١٣٨/١).

ومع سعة هذه المدينة فبنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن »

أرجيل : هما مدينتان : أرجيل الكبرى وأرجيل الصغرى، وقد بناهما
يزيد بن أسيد السلمي في عهد المنصور جنوبي جبال القفقاس وأنزل فيها
اهل فلسطين ليتولوا الدفاع ضد الخزر . (البلاذري فتوح ٢٤٦).

أرتاح : اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب .
(١٤٠/١).

أرشقول : مدينة في ساحل تلمسان من المغرب . . . على نهر وبحر
وهي مسورة وبها جامع حسن فيه سبع بلاطات . وفي صحنه جب قديم
وصومعة متقنة . وفيها حمامان أحدهما قديم . وسعة سورها ثمانية أشبار . وبها
أبار عذبة تقوم بأهلها وبمواشيهم . ولها روض من جهة القبلة . ويقابلها
جزيرة في البحر تحمل اسمها .

الاسكندرونة : مدينة على ساحل البحر المتوسط قرب انطاكية قامت
في عهد الخليفة الواثق (٢٢٧ - ٢٣٤ / ٨٤٢ - ٨٤٧).

أشير : مدينة في جبال البربر بالمغرب في طرف إفريقية الغربي، مقابل
بجاية في البر . كان أول من عمرها زيري بن مفاد الصنهاجي وكان سيد هذه
القبيلة في أيامه . وهو جد المعز بن باديس . . ضاق عليه وعلى اصحابه
مكائهم ، فخرج يرتاد موضعاً فرأى أشير، وهو موضع خال على سفح جبل
وليس فيه أحد، مع كثرة عيونه، وسعة فضائه، وحسن منظره، فجاء
بالبنايين من المدن التي حوله وشرع في انشاء أشير، وذلك في سنة
٩٣٥/٣٢٤ وتوافر عمال البناء والانشاء في المكان ذاته أما المهندس فجاء به

الى الخليفة الفاطمي : فتمت المدينة على أحسن حال . وعمل على جبلها حصناً مانعاً ليس إلى المتحصن به طريق إلا من جهة واحدة تحميه عشرة رجال . . . وزرع الناس فيها وقصدها أهل تلك النواحي طلباً للأمن ، فصارت مدينة مشهورة . . . ، وتملكها بعده بنو حماد ، وهم بنو عم باديس . . .

أصيلة : (العرائش تكتب أحياناً أزيله في كتب التراث) هي أول مدن العدو مما يلي الغرب . وهي في سهلة من الأرض حولها رواب لطاف . والبحر في غربها وجنوبها . وكانت قد خربت بخروج المجوس (الأوروبيين المعروفين بالفايكونغ) على مرساها حتى نزلت من سكانها . . . وماء آبار المدينة شريب . ومرساها مأمون . والمدخل إليها من الشرق . . .

ويعرف ذلك الموضع بباب المجوس . وكان سبب بنائها أن المجوس نزلوا مرساها مرتين أيام الإمام عبد الرحمن بن الحكم ، فأتخذ الناس موضوع أصيلة رباطاً ، فأتوه من جميع الأمصار . وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة . وهو وقت اجتماعهم في رمضان ، وعشر ذي الحجة ، وعاشوراء .

وكان الموضع لقبيلة لواتة ، فابتنى فيه قوم من كتامة واتخذوا سوقاً جامعاً ، فقصدوها في الأوقات المذكورة بضروب السلع . ثم بنوا شيئاً بعد شيء فعمرت . فقدمها القاسم بن إدريس فملكها . وبنى سورها ومصرها . وبها قبره . وكان عليها سور وله خمسة أبواب ، فإذا ارتج البحر بلغ الموج حائط الجامع . وسوقها حافلة يوم الجمعة . وماء آبار المدينة وبخارجها آبار عذبة .

مقالة أبو عبيد البكري في كتابة المالك عند ذكر بلاد البربر .
(٢١٣/١) ، و(الحميري ٤٢) .

أغادير : مرفأ إسلامي على المحيط الأطلسي في جنوب المغرب .

أغمات : وهي مدينتان متقابلتان أو مدينة مزدوجة : أغمات وريكة ، وأغمات عيلان . والاسم يعني بالبربرية سياج المدينة البدائي ، وتقع هاتان الأغماتان في جنوب مراكش ، كأنهما صاحبتان لها . ويبدو أن نشأتها كانت في القرن السادس أو قبله كسياجين لقبيلتين متجاورتين لكنها كانتا في القرن الثاني ، حين زارهما لسان الدين بن الخطيب منفصلتين ، لكل منهما قصبة ، أي حصن ، وجامع . لكن عداة القبيلتين وقربهما من مراكش لم يسمح للمدينتين بالتطور الواسع .

(انظر رسالة ابن الخطيب : خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف) .

أفيس : مرفأ انشئ في العهد الاسلامي في أقصى جنوب المغرب على المحيط الأطلسي .

أقليش : مدينة لها حصن في الأندلس . وهي قاعدة كورة شنترية . وهي مدحثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ستين ومائة . ثم اختار إقليش داراً وقراراً فبناها ومدنها . وهي على نهر منبعث من عين على رأس المدينة فيعم جميعها ، ومنه ماء حمامها . ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع إقليش ، فإن طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر وأحد عشر شبراً . وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف (الحميري ٥١ - ٥٢) .

باب واق : مدينة بناها المنصور أو وسعها وسورها عند المدخل على بحر الخزر بين مملكة هؤلاء وبين البلاد الإسلامية . وبني مثلها مدينة المحمدية ومدينة كمخ .

البيرة : من كور الأندلس ، نزلها جند دمشق من العرب وكثير من موالي الإمام عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) وقد نزل او ما نزل فيها . وهو الذي اسسها وأسكن مواليه ، ثم خالطهم العرب بعد ذلك . وجامعها بناه الإمام محمد ، على تأسيس حنش الصنعاني . وحوطها أنهار كثيرة . وكانت حاضرة البيرة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة ، فخربت في الفتنة . وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة .

الاقلام : يقول ابن حوقل : «هي مدينة استحدثها يحيى بن إدريس . ولها سور منعهم عند منابتهم موسى بن أبي العافية . ولها مياه كثيرة . وهي في وسط شعراء وجبال شامخة عالية . والمدخل إليها من مكان واحد وفيها منبر ومسجد وجامع لآل إدريس . وإليها لجأوا عند محاصرة موسى لهم عند موافعتهم لبني أمية . وقد كان قبضها منذ قريب (حوالي سنة ٣٦٠) بنو أمية . وقد عادت إليهم . وهي خصبة حصينة . وإنما قبضها آل أمية منهم بالجوع وتواصل الحصار . (صورة الأرض ٨١) .

الأميرية : من قرى نهر النيل من أرض بابل . والنيل هنا متفرع من دجلة (٢٥٦/١) .

الانبار : كان أول من عمرها سابور بن هرمز ذو الأكتاف ، ثم جدها أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس . وبنى بها قصوراً . وأقام بها إلى أن مات (٢٥٧/١) .

الأنصاريين : بإفريقية تنسب إلى قوم نزلوها من الأنصار من ولد جابر بن عبدالله رضي الله عنهم . وهي طيبة الأرض كثيرة الزرع وحنطتها أجل حنطة بإفريقية . (الحميري ٣٢) .

باجدا : قرية كبيرة بين رأس عين والرقعة عليها سور . وكان مسلمة بن عبد الملك أقطع موضعها رجلاً من أصحابه يقال له أسير السلمي . فبناها وسورها . وفيها بساتين تسقيها عين تنبع من وسطها وهي قرب حصن مسلمة بن عبد الملك . . . (٣٣٣ / ١) .

بجانة : هي مدينة بجانب المرية ، وهي مستحدثة (ابن حوقل ١٠٥) .

وكانت مرصداً بحرياً هاماً حلت محلها المرية التي صارت قاعدة بحرية هامة (الحميري ٣٧) .

وكانت أشرف قرى أرش اليمن . لأن بني أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا فيها آل قضاة فكانت أرشاً لهم . وبقراب بجانة كان جامع الإقليم الأعظم . إلا أنها كانت حارات مفترقة حتى نزلها البحرىون وتغلبوا على من كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم . فجمعوها وبنوا سورها . وامتلوا في ذلك بنية قرطبة وترتيبها . . . فأما الناس من كل جهة . . . فارين من الفتن التي كانت إذ ذاك شاملة . فكانت أمناً لمن قصدها . وكانت الميرة تجلب إليها من العدو وضروب المرافق والتجارات . وكان ذلك من الأسباب الداعية إلى قصدها واستيطانها . وصار حولها أرباض كثيرة . ويدخلها من النهر جدولان : أحدهما بأعلى المدينة من جانب المشرق يسقي بساتينها كلها . والثاني يشق الأرباض الجوفية ويخرج عنها إلى الأرباض القبلية . . . وجامعها داخل المدينة بناه عمر بن أسود . وفيه قبو على قبة فيها إحدى عشرة حنية منصوبة على أربعة عشر عموداً منقش أعاليه بنقوش عجيبة . . . وفي الصحن بئر عذبة . وكان بمدينة بجانة أحد عشر حماماً وطرز حرير ومتاجر رائجة . . . وبشرقها جبل في حمة منقوشة بالكتابة والذهب ، يؤمها الناس والمرضى . . . (الحميري ص ٧٩ - ٨٠) .

بجاية : مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من
اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري . . . في حدود سنة ٤٥٧ . . .
كانت قديماً ميناء فقط ثم بنيت المدينة وهي في لحف جبل شاهق وتسمى
الناصرية باسم بانيتها. وهي مفتقرة إلى جميع البلاد، لا يخصصها من المنافع
شيء إنما هي دار مملكة . . . وكان السبب في اختطاطها : أن تميم بن المعز بن
باديس صاحب إفريقية أنفذ إلى ابن عمه الناصر بن علناس رسولا لإصلاح
حال كانت بينهما فاسدة . . . فغدر بصاحبه وأشار عليه ببناء بجاية والفائدة
التي تحصل له من الصناعة بها . . . فأمر من وقته بوضع الأساس . وبنائها.
ونزلها بعسكره . . . (٣٣٩/١).

على أن الحميري في «الروض المعطار» يعطي تفاصيل أوسع عن
المدينة فيروي أنها عين بلاد حماد. والسفن إليها متكررة، والسفر إليها براً
وبحراً، والسلع إليها مجلوبة، وأهلها تجار مياسير، ولها بواد ومزارع،
والخنطة والشعير وسائر الفواكه، وبها دار صناعة لانشاء الأساطيل، لأن
الخشب في أوديتها وجبالها كثير. ويجلب إليها من أقطارها الزيت الطيب
والقطران، وبها معادن الحديد، وبها من الصناعات كل غريبة. وعلى نحو
ميل منها نهر يأتي إليها من جهة المغرب، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر
بالسفن . . . وهي محدثة بناها ملوك صنهاجة أصحاب قلعة أبي طويل،
المعروفة بقلعة حماد. وكان سبب بنائها أن العرب (البدو من بني هلال) لما
دخلوا إفريقية، وافسدوا القيروان وأكثر مدن إفريقية، وهرب منهم صاحب
القيروان، المعز بن باديس، إلى المهديّة، وكان ابن عمه صاحب القلعة
المنصور بن بلكين بن حماد أشد شوكة منه. فهزم أمامهم، وكان أخوه نصحه
بصانعتهم فلم يفعل، فطلب (المعز) موضعاً مدينة لا يلحقه بها العرب.
فدل على موضع بجاية. وكان مرسى وفيه آثار قديمة. فبناها المنصور، وسماها
المنصورية، وانتقل ملكهم من القلعة إلى بجاية، واتخذوها دار ملكهم،

وبينها وبين قلعة حماد أربعة أيام، وهي مدينة عظيمة ما بين جبال شامحة قد أحاطت بها والبحر منها في ثلاث جهات والطرق إليها وعرة. فلم يكن للعرب إليها سبيل، فبقي صاحب بجاية في ملك شامخ، لكن إنما عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بين بلكين التي تنسب دولة بني حماد إليها. وهي كانت دار الملك قبل بجاية، وفيها كانت ذخائرهم وأولادهم. . . .

«ورأيت في خبر آخر أن الناصر بن علناس، صاحب قلعة حماد هو الذي بنى، بجاية، وصيرها دار ملكه، ولهذا سميت الناصرية، وأظن ذلك سنة ٤٥٧/١٠٦٤».

«وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة. وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر، متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة في غاية الحسن. فيها طاقات مشرفة على البحر، عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحلاة، والمجالس المقرنصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض، من أعلاها إلى أسفلها. قد نقشت أحسن نقش، وأنزلت بالذهب واللازورد، فجاءت من أحسن القصور وأمتنها جمالاً. . . . (الحميري ٨١ - ٨٢).

البصرة : وهما بصرتان : العظمى بالعراق، وأخرى بالمغرب. روى أهل الأثر أن عمر بن الخطاب أراد أن يتخذ للمسلمين مصراً فقال : إن بيني وبينكم دجلة لا حاجة في شيء بيني وبين دجلة. وبنيت البصرة معسكراً للمسلمين. (٤٣٠/١).

يقول ابن حوقل، البصرة مدينة عظيمة اختطها المسلمون أيام عمر بن الخطاب. ومصرها عتبة بن غزوان، فهي خطط وقبائل كلها. ويحيط بغربها البادية. مقوسة. وبشرقيها مياه الأنهار مفترشة (يروون) أن عدد أنهارها مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر. تجري في أكثرها الزواريق. . . . وهي من بين سائر العراق مدينة عشرية (أي على العشر لا الخراج). ولها نخيل

متصل من عبداسي إلى عبادان، نيف وخمسين فرسخاً متصلة. وهي مستواة لاجبل فيها. وفيها قبور العلماء: (الحسن البصري، ابن سيرين، أنس بن مالك). وكلها قصور وبساتين متصلة كأنها بستان واحد، ومجالس، ومناظر، وأبنية، ورياحين، وأكثر أبنيتها بالأجر. وهي مدينة عظيمة، جليلة، خصبة وافرة الأكل، حسنة النظم (ولها) من استفاضة الذكر بالتجارة والمتاع والمجالب والجهاز إلى سائر أقطار الأرض ما يستغني بشهرته عن إعادة ذكر فيه. ولها من المدن: عبادان، والأبلة، والمفتح، والمذار. . . . وهي مدن صغار متقاربة في الكبر، عامرة. والأبلة أكبرها وأفسحها. (ابن حوقل ص ٢١١ - ٢١٣).

ويقول المقدسي من بعده: البصرة قصة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر. كتب إلى صاحبه: ابن للمسلمين مدينة بين فارس وديار العرب، وحد العراق على بحر الصين. فاتفقوا على موضعها. ونزلها العرب، ثم مصرها عتبة بن غزوان، وهي شبه طيلسان قد شق إليها من دجلة نهران فإذا اجتمعا مدا عليها وتشعبا. . . . وطول البصرة ممتد على البحر. ولها باب على البادية، ما بين الباب والنهر نحو ثلاثة أميال. وبها ثلاثة جوامع أحدها في الأسواق بهي جليل، وجامع آخر على باب البادية، وهو كان القديم. وآخر على طرف البلد. وأسواقها ثلاث قطع. . . . وباب الجامع، وكل أسواقها حسنة. . . . غير أنها خليقة الماء، منقلبة الهواء، عفنة، عجيبة الفتن. . . . (المقدسي - أحسن التقاسيم ١١٧ - ١١٨).

وقد دمرت أطراف البصرة بالفتن في القرن الثالث / ٩م بشورة العلويين ثم الزط ثم الزنج ثم القرامطة وانكشيت أبنيتها كثيرا فمعظمها أيام ياقوت خراب وقال المعلق على ابن حوقل: «دخلتها سنة سبع وثلاثين وخمسةائة وقد خربت ولم يبق من آثارها إلا الأقل وطمست معالمها فلم يبق

منها إلا محال معلومة . . . وبيوت معدودة . وباقي بيوتها إما خراب وإما غير مسكونة ، وجامعها باق وسط الخراب ، كأنه سفينة في وسط بحر لجي . وسورها القديم قد خرب وبينه وبين ما قد بقي من العمارة مسافة بعيدة . . . (ابن حوقل ٢١٣) .

وأما مربد البصرة فهو من أشهر محلاتها وكان سوق الإبل قديما فيه ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء وهو الآن (سنة ٦٢٠) بائن عن البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك كله عامرا وهو الآن خراب وصار المربد كالبليدة المفردة في وسط البرية . (٩٨/٥) .

البصرة (الصفري) بلد في المغرب في أقصاه قرب السوس . خربت . قال ابن حوقل : «البصرة مدينة مقتصدة . عليها سور ليس بالمنيع . ولها عيون خارجها عليها بساتين يسيرة . وأهلها ينسبون إلى الخير والسلامة والجمال وطول القامة واعتدال الخلق . بينها وبين مدينة الأقاليم أقل من مرحلة . وقال البشاري : البصرة مدينة بالمغرب كبيرة . كانت كبيرة ثم خربت وكانت جليلة (كان هذا سنة ٣٧٨) وقال البكري : والبصرة مدينة كبيرة وهي أوسع تلك البلاد مرعى وأكثرها ضرعا . . . وتعرف ببصرة الكتان . كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجاراتهم بالكتان . وتعرف أيضا بالحمراء لأنها حمراء التربة . وسورها مبني بالحجارة والطوب . . . ولها عشرة أبواب . . . ونساؤها مخصوصات بالجمال الفائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن . . . » (٤٤٠/١) .

ومدينة البصرة في المغرب مستحدثة ، أسست في الوقت الذي أسست فيه أصيلة أو قريبا منه (٤٤١/١) . وكان هناك بصرتان في المغرب إحداهما البصرة الخارجية والثانية الواقعة قرب القصر (ماسينيون ص ٣٠) . ولعل

إنشاءها كان على يد إدريس الثاني في مطلع القرن الثالث للهجرة .

بغداد : كان أول من مصرها وجعلها مدينة : المنصور . ثاني الخلفاء . وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده . فبعث رواداً ، وهو بالهاشمية ، يرتادون له موضعاً يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعامية والجندي . فنعت له موضع قريب من بارما . وذكر له غذاؤه وطيب هوائه . فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه فرأى موضعاً طيباً . فقال لجماعة منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب المورياني : ما رأيكم في هذا الموضع ؟ قالوا طيب موافق . فقال موافق صدقتم . ولكن لا مرفق فيه للرعية . وقد مررت في طريقني بموضع تجلب إليه الميرة والأمتعة في البر والبحر وأنا راجع إليه ، وبأنت فيه . فإن اجتمع بي ما أريد فهو موافق لما أريد لي وللناس . . . فأتى موضع بغداد . . . وخط البناء وقدر المدينة . .

أنفق المنصور على عمارة بغداد ثمانية عشر ألف دينار وقال الخطيب في رواية أنه أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق إلى أن أنفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها والأبواب والأسواق إلى أن فرغ من بنائها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثمانين ألف درهم وذلك أن الأستاذ من الصناعات كان يعمل كل يوم بقيراط إلى خمس حبات . والروزجاري (أجير البناء) بحبتين إلى ثلاث حبات . وكان الكبش بدرهم . والحمل بأربعة دوانيق . والتمر ستون رطلاً بدرهم . . . وكان ينادى على لحم البقر في جبانة كندة تسعون رطلاً بدرهم . ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم . والعسل عشرة أرطال بدرهم . وكان بين كل باب من أبواب المدينة والباب الآخر ميل . وفي كل ساق من أسواق البناء مائة ألف لبننة واثنان وستون ألف لبننة من اللبن الجعفري (وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً) . وكان المنصور بنى المدينة مدورة وجعل داره وجامعها في وسطها وبني القبة الخضراء فوق إيوان وكان علوها ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس في يده

رمح . . . وسقط رأس هذه القبة سنة ٣٢٩ وكان يوم مطر عظيم ورعد هائل وكانت هذه القبة تاج البلد وعلم بغداد ومأثرة من مآثر بني العباس وكان بين بنائها وسقوطها مائة ونيف وثمانون سنة .

ونقل المنصور أبوابها (بغداد) من واسط وهي أبواب الحجاج وكان الحجاج أخذها من مدينة بازاء واسط تعرف بزندروذ . . . وأقام على باب خراسان بابا جيء به من الشام من عمل الفراعنة وعلى باب الكوفة بابا جيء به من الكوفة من عمل خالد القسري . وعمل هو بابا لباب الشام وهو أضعفها . وكان لا يلج أحد من عمومة المنصور ولا غيرهم من شيء من الأبواب إلا ترجلا إلا داود بن علي ، وهو عمه ، وكان منقرسا وكان يحمل في حفة . . . وكذلك محمد المهدي ابنه . وكانت تكنس الرحاب في كل يوم ويحمل التراب إلى خارج المدينة . واتخذ قنئ من الساج من باب خراسان إلى قصره . ومد المنصور قناة من نهر دجيل الأخذ من دجلة . وقناة من نهر كرخايا الأخذ من الفرات وجرها إلى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والأجر من أعلاها فكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض تجري صيفا وشتاء . لا ينقطع ماؤها في شتى من الأوقات . . . ثم أقطع (المنصور) أصحابه القطائع . . .

بغراس : مدينة في لحف جبل اللكام على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب ، في البلاد المظلة على نواحي طرسوس . بنى هشام (بن عبد الملك) فيها مسلحة وكانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك ووقفها على سبيل البر . . . (بنيت غالبا في القرن الثالث) .

بظليوس : قال البكري هي حديثة الاتخاذ بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالخليقي بإذن الأمير محمد . . . ليتخذها داراً وهي إذ ذاك خالية فبناها لنفسه ومن معه . . . وحدد له سجلاً وعقد على قومه ثم أرسل إليه

فعلة يبنون له الجامع والحمام ويلحقون البلد بالحواضر . ولبطليوس أقاليم وحصون كثيرة (البكري - جغرافية الأندلس - تحقيق الحجى ١٩٦٨) وكانت بطليوس مدينة في القديم ولكنها تهدمت قبل الفتح الإسلامي بكثير. ويزيد الحميري قائلاً: إن الأمير عبدالله هو الذي أذن ببنائها وأرسل إلى عبد الرحمن الجليقي فأنفذ له جملة من البناة وقطعة من المال فشرع في بناء الجامع باللبن والطابية وبنى صومعته خاصة بالحجر واتخذ مقصورة وبنى مسجداً خاصاً بداخل الحصن وأبنتي الحمام الذي على باب المدينة وأقام البناة عنده حتى ابتنوا له عدة مساجد وكان سور بطليوس مبنياً بالتراب سنة ٤٢١ وهو اليوم مبني بالكلس والجندل (أي سنة ٨٠٠) وهي مدينة جلييلة في بطن الأرض ولها ربض كبير أكبر من المدينة (الحميري ٩٣).

البلد: يقال لمدينة الكرج التي عمرها أبودلف وسماها البلد (٤٨٢/١).

بلدة: مدينة بالأندلس من أعمال رية وقيل من أعمال قبرة. . . (٤٨٣/١).

بلزمة: في المغرب يقول ابن حوقل: «ومدينة بلزمة حصن لطيف فيه رجال جلد وله ماء وهو في وسط فحص عليه سور وتراب وزروعهم تسقى بمائهم وهو بلد محدث للعرب وفيه بقاياهم إلى الآن وهو من الرخص والسعة وكثرة الكراع والماشية والفرو المدبغة في غاية حسنة. (صورة الأرض ص ٨١-٩٢).

بوقة: بنى هشام بن عبد الملك حصن بوقة من عمل أنطاكية ثم جدد، وأصلح حديثاً (القرن الثالث) (٥١٠/١).

بونة: مدينة بافريقيا بين مرسى الخرز وجزرة بني مزغناي وهي مدينة حصينة مقتدرة كثيرة الرخص والفواكه وهي على البحر (٥١٢/١).

بيانة : قصبة كورة قبرة وهي كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار
وأنهار بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا (١/٥١٨) ٨

نادلي : من بلاد المغرب وهي مدينة أزلية وقد بنى الملثمون فيها حصنا
منيعا هو الآن (سنة ٨٠٠) معمور وفيه الأسواق والجامع . والبلد كله كثير
الخيرات والأرزاق .

تاهرت : اسم لمدينتين متقابلتين يقال لإحدهما تاهرت القديمة
ولالأخرى تاهرت المحدثه . وهي مدينة جليلة وكانت قديما تسمى عراق
المغرب وهي مدينة مسورة لها أربعة أبواب . وهي في سطح جبل جزول .
ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة . وكان صاحب تاهرت ميمون
بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم مولى عثمان بن عفان . وكان رأس
الأباضية والصفرية والواصلية . وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت وكان
عدددهم نحو ٣٠ ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها .

ولما قتل محمد بن الأشعث أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري
سنة ١١٤ هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله . وترك القيروان
 واجتمعت إليه الأباضية واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم . فنزل
موضع تاهرت وهو غيضة أشبة . ونزل عبد الرحمن موضعا مربعا لا شعراء
فيه فقال البربر نزل تاهرت (تفسيره الدف لتربيعة) . . . وبنوا في ذلك
الموضع مسجدا وقطعوا خشبه من تلك الشعراء وهو على ذلك إلى الآن وهو
مسجد جامعها . وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من مراسه
وصنهاجه فأرادهم عبد الرحمن على البيع فأبوا فوافقهم على أن يؤدوا إليهم
الخراج من الأسواق ويبيحوا لهم المساكن فاخططوه وبنوه وسموا الموضع
معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم . وقال المهلبى هما تاهرتان القديمة
يقال لها تاهرت عبد الخالق والحديثة . . . (٢/٩٠٨) .

ويصف المقديسي البشاري تاهرت فيقول: هي بلخ المغرب قد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبتت بها الأعين . . . يفضلونها على دمشق وأخطأوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا. هو بلد كبير. كثير الخير. رحب. رفق. طيب. رشيق الأسواق. غزير الماء. جيد الأهل. محكم الرصف. بها جامعان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والجبل، قريبان من الأسواق. . . وتاهرت السفلى على واد عظيم ذات أعين وبساتين (أحسن التقاسيم ص ٢٢٩).

تآمدلت: في بلاد السوس مدينة كبيرة أسسها عبدالله بن ادريس العلوي وتوفي بإيكلي وبها قبره. وتآمدلت مدينة سهلية كثيرة العمارات حافلة بالأسواق على نهر عنصره من جبل على نحو عشرة أميال (وهو نهر درعة) وما بينها عمائر وبساتين متصلة. وتآمدلت على رأس النهر. . . وعليها سور طوب وحجر. وبها حمامان، وسوق عامرة. ولأهلها أربعة أبواب وعلى نهرها أرحاء وأرضها أكرم ارض وأكثر زرعاً، وبها معدن فضة غزير كثير المادة (الحميري ص ١٢٨).

تبريز: كانت قرية حتى نزلها الرواد الأزدي المتغلب على أذربيجان أيام المتوكل. ثم أن الوجناء بن الرواد بنى بها هو واخوانه قصوراً وحصنها بسور فنزلها الناس معه. . . (١٣/٢).

تطيلة: مدينة بالأندلس في شرقي قرطبة. شريفة البقعة كثيرة الأشجار اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبدالواحد (٢٣/٣).

تكرارت: مدينة محدثة اختطها يوسف بن تاشفين غربي أغادير القديمة وبجوارها عند بنائه سور تلمسان القديم (ابن خلدون - العبرج ٦ ص ٣٨١).

تل أعفر: اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جار. وهي على جبل منفرد حصينة محكمة .

تل أعفر: بليدة قرب حصن مسلمة بن عبد الملك . بينه وبين الرقة من نواحي الجزيرة وكان فيها بساتين وكروم (٣٩/٣) ولعلها السابقة نفسها .

تل عبدة: قرية من قرى حران بينها وبين الفرات تنزلها القوافل . وبها خان مليح عمره المجد به المهلب البهنسي وزير الأشرف موسى بن العادل (الأيوبي) .

تلمسان: (بومارية القديمة) بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما ربة حجر احدهما قديمة . والحديثة اختطها المثلثون ملوك المغرب . واسمها تافرت فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس . واسم القديمة أفادير ويسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة وبأرض مصر (٤٤/٢) .

تنس: آخر افريقية مما يلي المغرب بينها وبين وهران ثماني مراحل . وإلى تاهرت خمس مراحل أو ست : وهي مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة، صعبة المرتقى ينفرد بسكنائها العمال لخصانتها . وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهي على نهر . . . يستدير بها من جهة الشرق ويصب في البحر وتسمى تنس الحديثة . وعلى البحر حصن ذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة . وتنس الحديثة أسسها وبنها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركدت وابن عائشة والصقر وصهيب وغيرهم وذلك سنة ٢٦٢ . وسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل البيرة وأهل تدمير . وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر فيجتمع اليهم بربر القطر ويرغبونهم في

الانتقال إلى قلعة تنس ويسألونهم أن يتخذوها سوقاً ويجعلوها سكنى . فأجابوهم وانتقلوا إلى القلعة فلما دخل عليهم الربيع اعتلوا فركب البحرىون مراكبهم وأظهروا لمن بقى منهم أنهم يمتارون لهم ويبددون . فنزلوا قرية بجاية وتغلبوا عليها . ولم يزل الباكون فى تنس فى تزايد وثروة وعدد ، ودخل إليهم أهل سوق ابراهيم وكانوا فى أربعائة بيت فوسع لهم أهل تنس فى منازلهم وشاركوهم فى أموالهم وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذى فيها اليوم . . . (٤٨/٢) وقد حربها الماء وهدمها فى حدود نيف وستائة . وقد تراجع إليها بعض أهلها . . وهم ساكنون بين الخراب (٤٩/٢) .

تنيس : كانت تعرف بذات الأخصاص إلى صدر من أيام بني أمية ، ثم أن أهلها بنوا قصورا ولم تزل كذلك إلى صدر من أيام بني العباس فبنى سورها . . ابتدء فى بنيانه فى شهر ربيع الأول سنة ٣٢٠ وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور الخراسانى المعروف بالرافعى من قبل ايتاح فى أيام الواثق بن المعتصم ، وفرغ منه سنة ٢٣٩ فى ولاية عتبة بن اسحق الضبى الهروى فى أيام المتوكل . . وحكى عن يوسف بن صبيح أنه رأى خمسمائة محبرة بها يكتبون الحديث . . ولما فتحت مصر كانت تنيس خصاصا من قصب وكان بها الروم . . ودخلها أحمد بن طولون فى سنة ٢٦٩ فبنى عدة صهاريج وحوانيت فى السوق كثيرة . وتعرف بصهاريج الأمير . . وفيها تعمل النياب المونة والفرش البوقلمون . (٥١/٢ - ٥٣) .

توزر : هي أم مدن قسطيلة وهي مدينة عليها سور مبني بالحجر والطوب ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة وحوفا أرباض واسعة . وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب . كثيرة النخل والبساتين ولها سواد عظيم وهي أكثر بلاد افريقيه تمرا ويخرج منها فى أكثر الأيام ألف بعير موقورة تمراً وشرها من ثلاثة أنهار (ويذكر طرق الري) (٥٨/٢) .

تونس المغرب : مدينة كبيرة محدثة بافريقية على ساحل بحر الروم .
عمرت من أنقاص مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها يقال لها قرطاجنة ، وكان
اسم تونس في القديم ترشيش وهي على ميلين من قرطاجنة . ويحيط بسورها
أحد وعشرون ألف ذراع وهي الآن قصبة بلاد افريقية وليس بها ماء جار
وشربهم من آبار ومصانع يجتمع بها ماء المطر . . وعليها محترث كثير ولها غلة
فائضة وهي من أصح بلاد افريقية هواء . قال البكري : مدينة تونس في
سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو ويدور بمدينتها خندق حصين ولها خمسة
أبواب . . . وداخل الخندق بساتين كثيرة وسواق تعرف بسواقي المرج . ودون
الباب من داخل الخندق غدير كبير يعرف بغدير الفحاميين . وربض المرضى
خارج عن المدينة وفي قبله ملاحه كبيرة . وجامع تونس رفيع البناء مظل على
البحر ينظر الجالس فيه إلى جميع جواريه ويرقى إلى الجامع من جهة الشرق
على اثنتي عشرة درجة . وبها أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق وحمامات
ودور المدينة كلها رخام بديع . . وهي دار علم وفقه . ويصنع بتونس للهاء
من الخزف كيزان تعرف بالريحية شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشف
ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار . (٦١ / ٢) بنى جامع تونس سنة ١١٤
عبيدالله بن الحجاب مولى بني سلول والي افريقية من قبل هشام بن
عبدالمملك ، وبني دار الصناعة بها . (٦٢ / ٢) .

جاسك وهرمز : جاسك جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس وهي المعروفة
بكيش ، وعمان قبالة مدينة هرمز بينها وبين قيس ثلاثة أيام وفيها مساكن
وعمارات يسكنها جند ملك قيس .

الجامعان : (وهي الحلة) أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة
بن منصور بن دبيس بن علي بن يزيد الأسدي . وكانت منازل آبائه الدور
من النبل ، فلما قوي أمره وكثرت أمواله لاشتغال الملوك السلجوقية

(بحروبهم) انتقل إلى الجامعين، موضع في غرب الفرات، ليعبد عن المطالب وذلك في محرم سنة ٤٩٥ . وكانت أجمة تأوى إليها السباع فنزل بها بأهله وعساكره وبني بها المساكن الجليلة والدور الفاخرة وتآلق أصحابه في فعل ذلك فصارت ملجأ . وقد قصدها التجار فصارت أفخر بلاد العراق . . فلما قتل بقيت على عمارتها . فهي اليوم قصبة تلك الكورة (٢/٢٩٤) .

جبله : قلعة مشهورة بساحل الشام خربت بعد أن فتحها أبو عبيدة وجلا عنها أهلها . فأنشأ معاوية جبله وكانت حصنا للروم وشحنها بالرجال ، وبني معاوية بجبله حصنا خارجا من الحصن الرومي القديم وكان سكان الحصن القديم قوما من الرهبان . فلم تزل جبله بأيدي المسلمين حتى قوى الروم وأخذوها سنة ٣٥٧ . ولم تزل بأيديهم إلى سنة ٤٧٣ . فان القاضي أبا محمد عبدالله منصور التنوخي المعروف بابن صليحة قاضي جبله وثب عليها واستعان بالقاضي ابن عمار صاحب طرابلس فأخرجهم منها . . وصار إلى ابن صليحة منها مال عظيم القدر . . ثم ملكها الفرنج في سنة ٥٢ من يد فخر الملك إلى أن استردها الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٤ . . . (٢/١٠٥) .

جبله : مدينة باليمن تحت جبل صبر وهي من أحسن مدن اليمن وأنزهها . وجبله رجل يهودي كان يبيع الفخار في الموضع الذي بنت فيه الحرة الصليحية دار العروبة وسميت باسمها .

كان أول من اختطها عبدالله بن محمد الصليحي المقتول بيد الأتراك يوم المهجم سنة ٤٧٣ وكان أخوه ولاء حصن التعكر المطل على ذي جبله وهي في سفحه . وهي مدينة بين نهري جاريتين في الصيف والشتاء وكان عبدالله الصليحي قد اختطها في سنة ٤٥٨ وحشر إليها الرعايا من مختلف جعفر . . (٢/١٠٦) .

جراذة مكناسة : مدينة في المغرب في سهل من الأرض وكان عليها سور مبني من الطوب وداخلها وحولها أرباض من جميع جهاتها وعميون متفجرة، وداخلها آبار عذبة وخمسة حمامات أحدها ينسب إلى عمرو بن العاص . وأسسها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان (الحسني) سنة تسع وخمسين ومائتين وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي ورابع جوفي وحواليها بسائط عريضة للزرع والفرع وبينها وبين البحر ستة أميال (الحميري ١٦٢ - ١٦٣).

جرجان : أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة . . قال الاصطخري إنها أكبر مدينة بنواحيها . . وهي أقل ندى ومطرا من طبرستان . وهي قطعتان إحداهما المدني والأخرى بكراباذ وبينهما نهر كبير يحتمل أن تجري فيه السفن . وجرجان مياه كثيرة وضياح عريضة . وليس بالمشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة اجمع ولا أكثر حسنا من جرجان على مقدارها (١١٩/٢) .

الجرجانية : مدينة عظيمة على شاطئ جيحون . وكان يقال لمدينة خوارزم في القديم فيل ، ثم قيل لها المنصورة . وكانت في شرقي جيحون فغلب عليها وخربها وكانت كركانج (الجرجانية) هذه مدينة صغيرة في مقابلة المنصورة من الجانب الغربي فانتقل أهل خوارزم إليها وابتنوا بها المساكن ونزلوها فخربت المنصورة جملة حتى لم يبق بها أثر ، وعظمت الجرجانية (١٢٢/٢ - ٣) وحوطوا على جيحون بالحطب الجزل والطرفاء يمنعونه من خراب منازلهم يستجدونه كل عام ويرمون ماتشعت منه (٣٩٧/٢) .

الجزيرة الخضراء : وتسمى جزيرة أم حكيم مدينة مشهورة بالأندلس وقبالتها من البر بلاد البربر ستة . ومدينتها من أشرف المدن وأطيها أرضا وسورها يضرب به ماء البحر ، ولا يحيط بها البحر كما تكون الجزائر لكنها

متصلة ببر الأندلس . . ومرساها من أجود المراسي للجواز وأقربها من البحر الأعظم (١٣٦/٢).

جزيرة شريك : كورة بافريقية تنسب إلى شريك العيسى وكان عاملا بها وقصبة هذه الكورة بلدة يقال لها ياسو، وهي مدينة كبيرة أهلة . بها جامع وحمامات وثلاث رحاب وأسواق عامرة وبها حصن أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب (١٣٦/٢).

جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام . ولها رستاق مخصب واسع الخيرات وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي . . قرابة سنة ٢٥٠ هـ . وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه افلال . ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماء ونصبت عليه رحى فأحاط بها الماء من جميع جوانبها (١٣٨/٢).

جناياذ : مدينة على جادة الطريق من نيسابور وبينها ثلاثة عشر فرسخا وبعجناياذ سور ومسجد جامع وبنيت أيام عبدالعزیز بن السري بسبب الخوارج ، ولها قهندز عظيم قديم . . وحولها الضياع والرساتيق (الحميري (١٧٦).

الجيزة : بليدة في غربي فسطاط ولها كورة كبيرة واسعة . . قال أصحاب السير لما ملك عمرو بن العاص الإسكندرية ورجع إلى الفسطاط جعل طائفة من جيشه في الجيزة خوفا من عدو يغشاهم من تلك الناحية . فجعل بها آل ذي أصبح من حمير وهمدان ، وآل رعين وطائفة من الأزدي بن الحجر وطائفة من الحبشة . فلما استقر عمرو وامن ، أمرهم بانضمامهم إليه ففكروا ذلك فكتب بخبرهم إلى عمر بن الخطاب فأمره أن يبني لهم حصنا ففكروا ببناء الحصن وقالوا : حصوننا سيوفنا فاختلفوا بالجيزة خططا معروفة بهم إلى الآن (سنة ٦٢٠) (٢٠٠/٢) ، ويذكر الحميري أن الذي اختط

الجيزة هو عمرو بن العاص وأنها قرية كبيرة جميلة البنيان على نيل مصر. لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها وبها مسجد جامع فيه الخطبة ويتصل به مقياس النيل (الحميري ١٨٣).

الحاضرة: اسم قاعدة أي قصبة كورة جيان من أعمال الأندلس ويقال لها أدروبه (٢٠٧/٢).

الحاضرة: بليدة من أعمال الأندلس.

حجاج: من قرى بيهق من أعمال نيسابور.

حجر: هي مدينة اليمامة وأم قراها وبها ينزل الوالي. وهي شركة إلا أن الأصل الحنيفة، وهي بمنزلة البصرة والكوفة. لكل قوم فيها خطة إلا أن العدد فيها لبني عبيد من حنيفة. أسسها (في حديث طويل) عبيد بن ثعبة بن يربوع. ويذكرون أنها واحة كبيرة كانت لطسم وجديس. وقد استوطنها أبناء عبيد وغرسوا فيها المزيد من النخل. (٢٩/٢ - ٢٢٢).

الحجر: مدينة عظيمة محدثة على جبل شامخ لآل ادريس بالمغرب وهي حصن منيع فيه أملاكهم وهي من أعظم مدنها عندهم منزلة، وأكبرها خطرا، وماؤها فيها ولها بساتين فيها. وليس إليها طريق ولا إليها سبيل إلا من جهة واحدة يسلكه الراجل بعد الراجل وهي خصبة رفة كثيرة الخير (ابن حوقل ٨١ - ٨٢).

الحدث: كانت مدينة قديمة ثم خربها الروم وأجلوا عنها أهلها في أوائل العصر العباسي. تكلم الحسن بن قحطبة سنة ١٦١ في بنائها مع المهدي وبناء مدينة طرسوس فأمر بتقديم بناء مدينة الحدث فأنشأها علي بن سليمان وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت المحمدية والمهدية بالمهدي (أمير المؤمنين) ومات المهدي مع فراغهم من بنائها (سنة ١٦٩) وكان بناؤها من

اللبن . وكان علي بن سليمان فرض في مدينة الحدث لأربعة آلاف مجاهد فأسكنهم إياها ونقل إليها من أهل ملاطية وسميساط وشمشاط وكيسوم ودلوك ورعبان ألفي رجل وفرض لهم في أربعين من العطاء . ولما هجم الشتاء وكثرت الأمطار ولم يكن بناؤها وثيقا هدم سوار المدينة وشعثها ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان نزلها من الجند وغيرهم . وبلغ الخبر موسى الهادي فقطع لها ثلاثة من البعوث . ثم ولي الخلافة الرشيد فدفع عنها الروم وأعاد عمارتها وأسكنها الجند وكانت عمرتها على يد محمد بن إبراهيم . وقد خرب الروم الحدث أيام سيف الدولة وكان قد بناه ورد الروم عنه . (٢٢٨/٢) .

حديثة الموصل : بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى كانت كورة الموصل الحالية وإنما أحدثها مروان بن محمد الحمار . وكان اسمها نوكرد وكانت مدينة قديمة فخربت وبقيت آثارها فأعادها مروان بن محمد بن مروان إلى العمارة وسأل عن اسمها فأخبر بمعناه فقال سموها : الحديثة . وكان هرثمة بن عرفة البارقي أيام عمر بن الخطاب أول من أسكنها العرب ، وكانت قرية فيها بيعتان فمصرها واختطها قبل الموصل وإنما سميت الحديثة حين تحول إليها من تحول من أهل الأنبار أيام الحجاج فبنوا بها مسجدا وسموا المدينة الحديثة (٢٣٠/٢) .

والحرثنة : على دجلة عند جرف يصعد إليها بدرج والجامع قرب الشط . بنيانهم طين غير الجامع وهي شرقية (شرقي دجلة) (المقدسني) . (١٣٦) .

حديثة الفرات : وتعرف بحديثة النورة على فراسخ من الأنبار وبها حلقة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها . تولى فتحها أبو مدلاج التميمي (أيام ولاية عمار بن ياسر من عمر بن الخطاب على الكوفة) . وهو

الذي تولى بناء الحديثة التي على الفرات . ثم صار أهل الحديثة من
النصرية .

حديلة : مدينة باليمن سميت بذئ حديلة وهو معاوية بن عمرو بن
مالك بن النجار . . . ولهم هناك قصر .

حصن الأكراد : حسن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حصن
وكان بعض أمراء الشام قد بني في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد
طليلة بينه وبين الإفرنج ، وأجرى لهم أرزاقاً فتدبروها بأهاليهم ثم خافوا
على أنفسهم فجعلوا يحصنون إلى أن صارت قلعة حصينة منعت الفرنج عن
كثير من غاراتهم فنازلوه فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم ومملكه
الفرنج . . . (٢/٢٦٤) .

حصن كيفا : وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد
وجزيرة ابن عمرو من ديار بكر وكانت ذات جانبين وعلى دجلتها قنطرة لم أر
في البلاد التي رأيتها أعظم منها وهي طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران
(٢/٢٦٥) .

حصن مسلمة : بالجزيرة بين رأس عين والرقعة وقد بني على جريد من
الأرض وارتفاع في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً .

حصن منصور : من أعمال ديار مصر لكنه غربي الفرات قرب
سميساط وكان مدينة عليها سور وخنديق وثلاثة أبواب وفي وسطها حصن
وقلعة عليها سوران (والحصن) منسوب إلى منصور بن جعونة بن الحارث
العامري القيسي وكان مقيماً به أيام مروان بن محمد ومعه جند كثيف من أهل
الشام والجزيرة وأرمينية (وقد قتله المنصور في الرقة) . ثم إن الرشيد بنى
حصن منصور وشحنه بالرجال أيام أبيه المهدي . (٢/٢٦٥ - ٦٦) .

الحصوص: مدينة قرب المصيصة في شرق جيحان بناها هشام بن عبد الملك وخذق عليها (٢/٢٦٦).

حصن بنت نعم: حصن استحدثه باليمن عبدالله بن حمزة بن سليمان الزبيدي من ولد أبي طالب بعد أن سيطر على عدد من الحصون الأخرى في اليمن مثل الحقل وكوكبان . . . وذلك بعد موت طغتكين بن أيوب (آخر القرن السادس ومطلع السابع) (٥/٣٧٤).

حلوان: قرية من أعمال مصر بينها وبين الفسطاط نحو فرسخين مشرفة على النيل وبها دير ذكر في الأديرة وكان أول من اختطها عبدالعزيز بن مروان لما ولي مصر وضرب بها الدنانير وكان له كل يوم ألف جفنة للناس حول داره (٢/٢٩٣). وكان قد وقع بمصر طاعون سنة ٧٠ ووالها عبدالعزيز فخرج هاربا من مصر، فلما وصل حلوان هذه استحسن موضعها فبنى فيها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس كروما ونخلا (٢/٢٠٤). والمقدسي البشاري يجعل حلوان مدينة (ص ٢٥).

الحلة: هي بلدة الجامعين.

حمزة: قال البكري تخرج من مدينة أشير إلى شعبة، وهي قرية ومنها إلى مضيق بين جبلين ثم تفضي إلى فحوص أقبج . . . وهناك مدينة تسمى حمزة نزلها وبنها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأبوه الحسن هو الذي دخل المغرب وكان له من البنين الكثير عدا حمزة (٢/٣٠٢).

الحمة: مدينة بافريقية من عمل قسطنطينية من نواحي بلاد الجريد (٢/٣٠٦).

خالد أباد: من قرى سر حسن منسوبة إلى خالد وخالد أباد معناه

عمارة خالد (٢/٣٣٨).

المخالصة: يقول ابن حوقل: مدينة في صقلية تجاه بلرمة. ذات سور من حجارة، وليس كسور بلرمة يسكنها السلطان وأتباعه وفيها حمامات ولا أسواق فيها ولا فنادق. وفيها مسجد جامع صغير مقتصد، وبها جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان ولها أربعة أبواب من قبورها ودبورها، وغربها وشرقيها البحر وسور لا باب له. (ابن حوقل صورة الأرض ١١٤).

الخريبة: بجانب البصرة وقد خربها الفاتحون المسلمون وكان اسمها وهشتاباذ أزدشير خربها المثني بن حارثة الشيباني بالغارات. فلما قدمت العرب ابتنوا عندها وفيها أبنية وسموها الخريبة. (٢/٣٦٣).

الخضراء: مدينة (في المغرب) على نهر ولها فواكه وأسواق وبها السفرجل المعنق الفراسي. ولها ناحية خصبة وفيها سوق وجامع وحمام (ابن حوقل ص ٨٩).

ويقول الحميري: «هي جزيرة أم حكيم (جارية طارق بن زياد) وكان تركها بها. وعلى مرسى أم حكيم مدينة الجزيرة الخضراء. . . وهي على ربوة مشرفة على البحر سورها متصل به وبشرقيها خندق. . . وأنهار عذبة وقصبة المدينة موفية على الخندق. وهي منيعة حصينة سورها حجارة وهي في شرقي المدينة ومتصلة بها. وبالمدينة جامع حسن البناء فيه خمس بلاطات وصحن واسع وسقائف من جهة الجوف وهو في وسط المدينة في أعلى الربوة وأسواقها متصلة من الجامع إلى شاطئ البحر. وعلى البحر مسجد الرايات. . . وبها كان دار صناعة بناها عبدالرحمن بن محمد أمير المؤمنين للأساطيل وأتقن بناءها وعالي أسوارها ثم اتخذها المنتزون بها في الفتنة قصرا (أي قلعة) . . . وتقابلها مدينة قديمة خربة) وبها حائط عريض مبني بالحجارة داخل البحر. . . وهي طيبة رفقة بأهلها جامعة بفائدة البر والبحر قريبة المنافع من كل وجه

لأنها وسطى مدن الساحل وأقرب مدن الأندلس مجازا إلى العدو . ومنها تغلب ملوك الأندلس على ما تغلبوا عليه من بلاد أفريقية ولها ثلاث حمامات ولها كور كثيرة . . ومرسى الجزيرة مشتى مأمون وهو أيسر المشاتي للجواز وأقربها من بر العدو ويحاذيه مرسى مدينة سبتة . . (الحميري ٢٢٣) .

خلم : بلدة بنواحي بلخ على عشرة فراسخ منها وهي بلاد للعرب نزلها الأسد وبنو تميم وقيس أيام الفتوح . وهي مدينة صغيرة ذات قرى وبساتين ورساتيق وشعاب وزروعها كثيرة لا تسكن بها الريح ليلا ولا نهارا في الصيف . (٣٨٥ / ٢) .

خناصره : بليدة من أعمال حلب تحاذى قنسرين نحو البادية وهي قصبة كورة الأجدص . قيل : بناها خناصره بن عمر بن الحارث كذا ذكره ابن الكلبي وقال غيره عمرها الخناصر بن عمرو خليفة الأشرم صاحب الفيل (٣٩٠ / ٢) .

الخنديق : قرية كبيرة في ظاهر القاهرة بمصر يقال هي بنية الاصبع بن عبد العزيز بن مروان (٣٩٢ / ٢) .

خيف سلام : بلد بقرب عسفان على طريق المدينة فيه منبر وناس كثير من خزاعة ومياهما قنى . . . وسلام هذا كان من أغنياء هذا البلد من الأنصار (٤١٢ / ٢ - ٤١٣) .

خيف ذي القبر : أسفل خيف سلام وليس به منبر وإن كان أهلا وبه نخيل وموز وورمان وسكانه بنو مسروح وسعد كنانة وتجار الفاق وماؤه من القنى وعيون تخرج من ضفتي الوادي . وبقبر أحمد بن الرضا سمي خيف ذي القبر . (٤١٣ / ٢) .

خيف النعم : به منبر وأهله غاضرة وخرزاعة ، وتجار بعد ذلك وناس ،

وبه نخيل ومزارع ومياهه خراطة كثيرة (٤١٣/٢).

خيل : كورة وبليدة بين الري وقزوين محسوبة من أعمال الري . . .
ولها عدة قرى ومنبر وأسواق (٤١٣/٢).

دانية : مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقاً
مرساها عجب يسمى السمان، ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب
واللوز وكانت قاعدة ملك أبي الجيش مجاهد العامري وأهلها أقرب إلى أهل
الأندلس . . . (٤٣٤/٢). ويضيف الحميري : أنها مدينة بشرق الأندلس
لها ربض عامر وعليها سور حصين وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر
قد بني بهندسة وحكمة ولها قصبة منيعة جدا. وهي على عمارة متصلة
والسفن واردة عليها صادرة عنها. ومنها كان يخرج الاسطول إلى الغزو وبها
ينشأ أكثره لأنها دار انشائه (الحميري ٢٣٢).

دييق : بليدة كانت بين الفرماة وتيس من أعمال مصر تنسب إليها
الشياب الديقية (٤٣٨/٢).

مدينة الدعوة : أو دار الهجرة وهي مدينة قرب الكوفة كان القرامطة
قد أقاموها لأنفسهم وتجمعوا فيها على مذهبهم سنين عديدة ولكن إنيبار
الدعوة القرمطية في العراق بعد مقتل زعيمها حمدان وعبدان واستار زكرويه
المتهم بقتلها ألغى المدينة قبل أن تستكمل تكويناتها حوالي سنة ٢٨٠.

دلالية : بلد قريب من المرية من سواحل بحر الأندلس (٤٦٠/٢).

دميرة : قرية كبيرة بمصر قرب دمياط . . . وهما دميرتان احدهما تقابل
الأخرى على شاطئ النيل (٤٧٢/٢).

وتيسر : بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردن، ولها
اسم آخر هو قوج حصار. يقول ياقوت رأيتها وأنا صبي وقد صارت، قرية

ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد صارت مصرا لانظير له كبرا وكثرة
وعظم أسواق. وليس بها نهر جار إنما شربهم من آبار عذبة طيبة مرية
وأرضها حرة وهوؤها صحيح (٤٨٧/٢).

دورقة : مدينة من بطن سرقسطة بالأندلس (٤٧٨/٢).

دهستان : بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان
بناها عبدالله بن طاهر في خلافة المهدي كذا ذكر، وليس بصحيح. ولعله
أيام المأمون (٤٩٢/٢).

ذات الحمام : يقول المقدسي البشاري : مدينة (في أفريقيا) عمرت
عن قريب. وسمعت عن يسأل أبا العباس ابن الراعي عنها ويقول عمارتها
أحد إمارات ظهور الفاطمي على مصر (حوالي سنة ٣٥٨).

الرافقة : بلد متصل البناء بالرقّة وهما على ضفة الفرات وبينهما مقدار
ثلاثمائة ذراع . . . وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل وهي على هيئة مدينة
السلام ولها روض بينها وبين الرقة وبه أسواقها . . . ولم يكن للرافقة أثر قديم
إنما بناها المنصور سنة ١٥٥ على بناء مدينة بغداد، ورتب بها جندا من أهل
خراسان وجرى ذلك على يد المهدي وهو ولي عهده ثم أن الرشيد بنى
قصورها . . . وكان فيما بين الرقة والرافقة فضاء وأرض مزارع فلما قام علي
بن سليمان بن علي واليا على الجزيرة نقل أسواق الرقة إلى تلك الأرض وكان
سوق الرقة الأعظم يعرف فيما مضى بسوق هشام العتيق، فلما قدم الرشيد
الرقة استزاد في تلك الأسواق وكان يأتيها ويقيم بها فعمرت مدة طويلة . . .
وقد خرب (فيها بعد) بعض أسوار الرقة وغلب إسمها على الرافقة وصار
اسم المدينة الرقة وهي من أعمال الجزيرة مدينة كبيرة كثيرة الخير . . .
(١٥/٣).

الرباط : مدينة الرباط كبيرة اختطها باسم رباط الفتح أبو يعقوب يوسف بن تاشفين على المحيط الأطلسي وأكملها المنصور. ولا يفصلها عن مدينة سلا سوى واد يعرف بوادي الرمان (وادي بورجرج الحالي) (المراكشي ص ٣٥٩) وقد بنيت في سفح جبل عال مشرفة على بسائط تشقها جداول المياه العذبة عليها سور عظيم. وهي في فسحة من نحو ستة أميال ما بين جبال تنصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة وأنهار تسقى جميع بساطينها ولها نظر كبير كثير الزرع والفاكهة. . . وسورت هذه المدينة سنة ٥٦٨/ سنة ١٠٧٣ (الحميري ١٢٨).

رباط تازي : مدينة كبيرة في سفح جبل مشرفة على بسائط تشقها جداول المياه العذبة وعليها سور عظيم. . . وهي في فسحة على ٦ أميال ما بين جبال ينصب إليها منها مياه كثيرة وأنهار تسقى جميع بساطينها في أعلاها وأسفلها. ولها نظر كثير الزرع وجميع الفواكة والخيرات. أسست سنة ٥٦٨. وكانت تسمى مكناسة تازي نسبة إلى قبيلة مكناسة (الاستبصار ص ١٨٦ - ١٨٧).

رحبة مالك : قال البلاذري لم يكن لها أثر قديم إنما أحدثها مالك بن طارق بن عتاب التغلبي في خلافة المأمون. وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل من قرقيسيا. وقد أعان الرشيد مالكا على البناء بالمال والرجال فلما عمرها واستوسقت له طلب منه الرشيد مالا فتعذر ووقعت بينهما المحاربة حتى قبض عليه وسبق إلى الرشيد فعفا عنه (في حديث طويل) وأمر له بالخلع والجوائز (٣/ ٣٤ - ٣٥).

رشيد : بليدة على ساحل (المتوسط) والنيل قرب الاسكندرية (٣/ ٤٥).

الرصافة : هي مدينة أبي العباس السفاح قرب الأنبار (٣/ ٤٦)

ولعلها هاشمية الأنبار .

رصافة بغداد : هي معسكر المهدي في شرقي بغداد الذي تحول إلى مدينة بمقدار مدينة المنصور وعمل المهدي بها جامعا أكبر من جامع المنصور وأحسن . وخربت (بعد ذلك) تلك النواحي كلها ولم يبق إلا الجامع وبلصقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف وفراشون برسم الخدمة ولولا ذلك لخربت .

وبلصقها محلة أبي حنيفة وبها قبره وهناك محلة وسويقة يلاصقها دار الروم . لم يبق شيء غير هذا (٤٦/٣) . وكان فراغ المهدي من بناء الرصافة والجامع سنة ١٥٩ وهي السنة الثانية لخلافته .

رصافة الشام : هي رصافة هشام بن عبدالمملك في غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية . بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف . في أخبار ملوك غسان أن الحارث بن الأيهم أصلح صهاريج الرصافة وصنع صهريجها الأعظم ، وهذا يؤذن بأنها كانت قبل الإسلام بدهر ليس بالقليل ولعل هشاما عمر سورها أو بنى بها أبنية يسكنها . وقال البلاذري أحمد بن يحيى إن هشام بن عبدالمملك أحدث رصافة الشام وكان ينزل فيها الزيتونة . وقال الأصمعي : الزوراء رصافة هشام وفيها دير عجيب وعليها سور وليس عندها نهر ولا عين جارية إنما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور ، وربما فرغت أثناء الصيف فلأهل الثروة منهم عبيد وحمير يمضي أحدهم إلى الفرات العصر فيجيء بالماء في غد وعندهم آبار طول رشاء كل بئر مائة وعشرون ذراعا وأكثر . وهو مع ذلك ملح رديء . . . (وصار) لبني خفاجة عليها خفارة يؤدونها ولولا حب الوطن لخربت (٤٦/٣ - ٤٧) . وذكر ابن بطلان وهذا القصر يعني قصر الرصافة حصن دون دار الخلافة في بغداد مبني بالحجارة ، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالعض

المذهب أنشأه قسطنطين بن هيلانة . وجدد الرصافة وسكنها هشام وكان يفرع إليها من البعد في شاطئ الفرات . ونحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة معقود على أساطين من الرخام مبلط بالمرمر مملوء من ماء المطر . وسكان هذا الحصن أكثرهم نصارى . . (٤٧/٣ - ٤٨) .

رصافة قرطبة : مدينة أنشأها عبدالرحمن بن معاوية بن هشام وهو أول من ملك (استخلف في) الأندلس من الأموية بعد زوال ملكهم أنشأها وسماها الرصافة تشبيها (٤٨/٣) وهي مساكن في أعالي ربض قرطبة متصلة مبانيها بربضها الأسفل وأبنية قرطبة مشتبكة مستديرة على البلد والخانات والحمامات . بربضها (ابن حوقل ١٠٨) .

رصافة الكوفة : أحدثها المنصور أمير المؤمنين (٤٩/٣) ولعلها الهاشمية (ابن حوقل ١٠٨) .

رصافة القيروان : مدينة كانت تجاور مدينة قصر قيروان وقد ضربت مع هذه المدينة ببناء رقادة (٣٦٢/٤) .

رفع : قال المهلبي : رفع مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق وأهلها من لحم وجذام وفيهم لصوصية (٥٤/٣) .

رقادة : بلدة كانت بأفريقية . . . وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأكثرها بساتين ولم يكن بأفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسima وأرق تربة منها . . . والذي بنى رقادة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وانتقل إليها من مدينة القصر القديم وبنى بها قصورا عجيبة وجامعا، وعمرت الأسواق والحمامات والفنادق . فلم تزل على ذلك دار ملك لبني الأغلب حتى هرب منها (آخرهم) زيادة الله من أبي عبدالله الشيعي ، وسكنها عبيد الله إلى أن انتقل إلى المهديّة سنة ٣٠٨ . وكان ابتداء تأسيس إبراهيم لها سنة ٢٦٣

فدخلها الوهن وانتقل عنها ساكنوها، ولم تنزل تخرب شيئا فشيئا إلى أن ولي معد بن إسماعيل فخرب ما بقي من آثارها ولم يبق منها شيء سوى بساتينها . ولما بناها إبراهيم . . . منع بيع النبيذ بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة (٥٦/٣) .

الرقعة : مدينة مشهورة (قديمة) على الفرات ويقال لها الرقعة البيضاء . . . وكان بالجانب الغربي مدينة أخرى تعرف برقعة واسط كان بها قصران لهشام بن عبد الملك كانا على طريق رصافة هشام، وأسفل من الرقعة بفرسخ الرقعة السوداء وهي قرية كبيرة ذات بساتين كثيرة وشربها من البيلخ والجميع متصل . . . (٦٠/٣) .

الرمادة : بلدة لطيفة بين برقة والاسكندرية قريبة من البحر لها سور وجامع وبساتين، فيها أنواع الثمار وهي قريبة من برقة (٦٦/٣) .

الرمادة : أيضا محلة كبيرة في ظاهر حلب متصلة بالمدينة لها أسواق ووال برأسه (٦٦/٢) .

الرملة : رملة فلسطين . ولما ولي الوليد بن عبد الملك أخاه جند فلسطين . . . نزل الرملة ومصرها وكان أول ما بني فيها قصره ودارا تعرف بدار الصباغين واختط المسجد وبناه . . . وأذن للناس أن ينوا فبنوا مدينة الرملة واحتفر لهم القناة التي تدعى بردة واحتفر أيضا أبارا عذبة . (٦٩/٣) وصارت بعد ذلك لورثة صالح بن علي العباسي لأنها قبضت مع أموال بني أمية وكانوا ينفقون على آبار الرملة وقناتها . فلما استخلف بنو العباس انفقوا عليها أيضا . وكان الأمر بتلك النفقة يخرج كل سنة من خليفة بعد خليفة . فلما استخلف المعتصم أسجل بذلك سجلا فانقطع الإشتار وصارت النفقة يجتسب بها للعمال وشربهم من الآبار الملحة ، والمترفون لهم بها صهاريج مقفلة . وكانت أكثر البلاد صهاريج مع كثرة الفواكه وصحة الهواء .

(البلاذري، فتوح، ص ١٧٠).

وقال المقدسي البشاري : الرملة قصبة فلسطين حسنة البناء خفيفة الماء ، واسعة الفواكة بين رساتيق جليلة ومدن اسرية ومشاهد فاضلة وقرى نفسية . ليس في الإسلام أبهى من جامعها . . . ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة وأطعمة نظيفة ومنازل فسيحة . . . عميقه الأبار مالحة ، وماء المطر في جباب مقفلة وجامع القصبة في الأسواق أبهى وأرشق من جامع دمشق يسمى الأبيض ، ليس في الإسلام أكبر من محرابه ولا بعد منبر بيت المقدس أحسن من منبره ، وله منارة بهية . بناه هشام بن عبد الملك (المقدسي - أحسن التقاسم ص ١٦٤ - ١٦٥) .

الري : يقول الحميري : لما فتح نعيم بن مقرن الري قرب مدينتها القديمة وهي التي يقال لها العتيقة ، وبنى الري الحديثة وهي بلدة ليس بعد بغداد في المشرق مدينة أعمر منها إنيسابور فإنها أكبر منها عرضة وأوسع رقعة . فأثما اشتباك البناء وكثرة العمارة فالري أعمر من نيسابور ومقدار الري فرسخ في مثله ويحترقها نهر يقال له روذة . وقدام المسجد الجامع قلعة الري على قمة الجبل صعبة المرتقى متكائدة المطلع . . . (ولها خمسة أبواب) ولأهلها دهاء وتجارات (الحميري ٢٧٨) . ويقول ياقوت : «قال جعفر بن محمد الرازي : «لما قدم المهدي الري في خلافة المنصور بنى مدينة الري التي بها الناس اليوم وجعل حولها خندقا وبنى فيها مسجدا جامعاً . وجرى ذلك على يد عمار ابن أبي الخصيب . وكتب اسمه على حائطها وتم عملها سنة ١٥٨ ، وجعل لها فصيلا يطيف بين فارقين آجر . والفارقين الخندق وسماها المحمدية . فأهل الري يدعون المدينة الداخلة المدينة . ويسمون الفصيل المدينة الخارجة ، والحصن المعروف بالزنبدي في داخل المدينة المعروفة بالمحمدية .

وقد كان المهدي أمر بممرته ونزله أيام مقامه بالري وهو مظل على المسجد الجامع ودار الإمارة . ويقال الذي تولى فنه واصلاحه ميسرة التغلبي أحد وجوه قواد المهدي . ثم جعل بعد ذلك سجنا ثم حرب فعمره رافع بن هرثمة سنة ٢٧٨ ثم حرب أهل الري بعد خروج رافع . . (وكانت أعمر بلاد المشرق ولها قرى كبار تخرج من أهلها ما يزيد على عشرة آلاف رجل ولها رساتيق غنية) ثم حربت أكثرها وقد اجتزت في خرابها سنة ٦١٧ فرأيت خيطان خرائبها قائمة ومنابرها باقية وتزاويق الحيطان بحالها لقرب عهدها بالخراب إلا أنها خاوية على عروشها بسبب الفتن التي قامت فيها بين الشافعية والحنفية والشيعة . . . وبقي فيها الشافعية أخيرا ولكن دورهم كلها مبنية تحت الأرض ودروهم في غاية الظلمة وصعوبة المسلك لكثرة ما يطرقهم من العساكر بالغارات ولولا ذلك ما بقي أحد . . (١١٧/٣) - (١١٨).

زالاغ: مدينة على جبل عال، يطل على كورة فاس بناها خلوف بن أحمد المعتلي (المقدسي ٢٣٩ و ٢٤٠) وهي القسم العربي من فاس المسمى بعدة القروي .

زافين: راجع سوسنودة

زبيدة: مدينة مشهورة باليمن أحدثت في أيام المأمون . . (١٣١/٣) وقد اختط زبيد سنة ٢٠٤ الزيادي (محمد بن زياد) .

زويلة: مدينة بافريقية بناها المهدي عبيدالله جد (الفاطميين) إلى جانب المهديية بينهما رمية سهم فقط . وأسكن العامة في زويلة وكانت دكاكينهم وأموالهم في المهديية ومساكنهم بزويلة . فكانوا يدخلون بالنهار للمعيشة ويخرجون بالليل إلى أهاليهم . . فقيل للمهدي إن رعيتك في عناء من هذا . فقال: لكن أنا في راحة . لأنني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم ،

وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم فأمن غائلتهم (١٦٠/٣).

الزاهرة: مدينة متصلة بقرطبة من البلاد الأندلسية بناها المنصور ابن أبي عامر لما استولى على دولة خليفته هشام. قال ابن حيان: كان الخليفة الحكم وقف من الأثر على البقعة التي بنيت فيها الزاهرة. وكانت ملوك المروانية قبله تتخوف ذلك، وكان أهجهم بشأنها الحكم فنظر فيها وقاس في مجالها البقعة المدعوة بألش، وهي بقري مدينة الزهراء. ووجد انتقال الملك إليها. فأمر حاجبه أبا أحمد الصقلي بالسبق إلى بنائها طمعا في مزية سعدا ولا يخرج الأمر عن يده وولده. فأنفق عليها مالا عظيما. فمن الغرائب أن ابن أبي عامر تولى له شأنه ولا يعلم يومئذ به. ثم وقع إلى الحكم أن البقعة بغير ذلك الموقع وأنها بشرقي مدينة قرطبة. . . . ولم تطل المدة حتى بناها محمد بن أبي عامر. . . (الحميري ٢٨٣) ويضيف الحميري مقاطع من كتابة للفتح بن خاقان حول المدينة يقول فيها: انه سما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويجمع فيه فتيانه وعلمائه. . . فارتاد الزاهرة وأقام بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم وشرع في بنائها سنة ثمان وستين وثلاثمائة، فحشر الصناع والفعلة وأبرزها بالذهب واللازورد. . . وتوسع في اختطاطها وبالغ في رفع أسوارها وأوثق أبدانها. . . وبني معظمها في عامين. وفي سنة سبعة وثلاثمائة انتقل إليها بخاصته وعامته. . . وشحنها بجميع أسلحته وأمواله ومتاعه، واتخذ فيها الدواوين للععمال. . . والاصطبلات لأنواع الكراع. وعمل داخلها الأهرام ثم أقطع وزراه وكتابه وقواده وحجابه القطائع الواسعة فابتنوا بأكتافها كبار الدور وجليات القصور فاتسعت المدينة في المدة القريبة وقامت فيها الأسواق وكثرت فيها الأرزاق. . . وتنافس الناس في النزول باكتافها للذنوم من صاحب الدولة حتى اتصلت بأرباض قرطبة. . . وخلع (المنصور) الخليفة إلا من الإسم الخلافي ورتب فيها جلوس وزرائه وكتب إلى الأقطار بأن تحمل إليه الأموال

والجبايات . . . (الحميري ص ٢٨٣ - ٢٨٤).

زلول: يقول ابن حوقل: «وزلول مدينة نظيفة في شرقي أزيل (بالمغرب) لها أسواق قريبة. وكان عليها معول حسن بن كنوف الفاطمي وهو مستحدثها. وشربهم كشرب أهل طنجة مجهول المبتدأ غير معلوم الأصل (صورة الأرض ص ٨٠).

جبل زالاغ: مدينة على جبل عال يطل على كورة فاس بناها خلوف بن أحمد المعتلي وهي القسم الغربي من فاس المسمى بعدوة القروي. (المقدسي ص ٢٢٩ - ٢٣٠).

الزهراء: مدينة صغيرة اختطها قرب قرطبة عبدالرحمن الناصر بن محمد عبدالرحمن الأموي وكان سلطان البلاد سنة ٣٢٥ (تولى الناصر ما بين ٣٠٠ - ٣٥٠) وكان أول من تسمى (بالخليفة في بني أمية بالأندلس) وعملها متنزها له وأنفق في عمارتها من الأموال ما تجاوز فيه حد الإسراف. وجلب إليها الرخام من أقطار البلاد وأهدى إليه ملوك بلاده من آلاتها ما لا يقدر قدره. وكان الناصر قد قسم جباية بلاده ثلاثة أثلاث: ثلث لجنده وثلث لبيت ماله وثلث لنفقة الزهراء وعمارتها. وذكر بعضهم أن مبلغ النفقة عليها من الدراهم القاسمية (منسوبة إلى عامل دار ضربها وكانت فضة خالصة بالكيل القرطبي) ثمانون مديا وستة أقفزة وزائد أكيال. ووزن المدى ثمانية قناطير، والقنطار مائة رطل وثمانية وعشرون رطلا، والرطل اثنتا عشرة أوقية والستة أقفزة نصف مدى. ومسافة ما بين الزهراء وقرطبة ستة أميال وخمسة أسداس ميل . . . « (١٦١/٣).

ويقول ابن حوقل: «ابنتي عبدالرحمن بن محمد في غربها (قرطبة) مدينة وسماها بالزهراء في سفح جبل أملس يعرف بجبل بطلش وخط فيها الأسواق وابنتي الحمامات والحانات والقصور والمنتزهات واجتلب إليها العامة بالرغبة

وأمر مناديه بالنداء في جميع أقطار الأندلس : ألا من أراد أن يتبنى دارا أو يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربعمائة درهم . فتسارع الناس إلى العمارة وتكاثفت الأبنية وتزايدت فيها الرغبة وكادت الأبنية أن تتصل بين قرطبة والزهاء ونقل إليها بيت ماله وديوانه ومحبسه وخزائنه وذخائره . . . (صورة الأرض ١٠٧) ثم خربت وأعيد جميع ذلك تشاؤما بموت رجالهم فيها .

ويضيف الحميري أنها كانت «مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى على الحد الأوسط و سطح الثلث الأوسط على الثلث الأسفل . وكل ثلث منها له سور فكان الحد الأعلى منها قصورا يعجز الواصفون عن وصفها، والحد الأوسط بساتين وروضات والحد الأسفل فيه الديار والجامع . . . ثم خرب ذلك كله . . . (الحميري ٢٩٥) .

سامان : مدينة قرب بلخ أسسها سامان خداة، جد الأسرة السامانية وعنى بها أبناؤه بعد أن أسلموا وصاروا ولاية المنطقة في عهد المأمون سنة ٢٠٢ / ٨٢٠ .

سامراء : بناها المعتصم سنة ٢٢١ بعد أن تآذى الناس في بغداد من جندة الترك وخاف هو من التآمر عليه . وقد اشترى له أبو الوزير أحمد بن خالد الكاتب الموضع ، وكان فيه دير للربان كما اشترى ما حوله . فساق من فوره وبنى بها دارا وأمر عسكره بمثل ذلك . فعمر الناس حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله وبنى بها مسجدا جامعيا في طرف الأسواق وأنزل اشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامراء وهو كرخ فيروز . . . ثم ولى المتوكل فأقام (بقصر) الهاروني وبنى به أبنية كثيرة وأقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحيز الذي كان المعتصم قد احتجزه، واتسع الناس بذلك وبنى مسجدا جامعيا فأعظم النفقة عليه وأمر مناره لتعلو أصوات المؤذنين فيها

وحتى ينظر إليها من فراسخ ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول . واشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء . واشتق نهرا آخر وقدره للدخول إلى الخيز فمات قبل أن يتم . وحاول المنتصر تميمه ، فلقصر أيامه لم يتم . ثم اختلف الأمر بعده فبطل . وكان المتوكل أنفق عليه سبعمائة ألف دينار ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل : فمن ذلك قصر العروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم ، والقصر المختار خمسة آلاف ألف درهم ، والوحيد ألفي ألف درهم ، والجعفري المحدث عشرة آلاف ألف درهم ، والغريب عشرة آلاف ألف درهم ، والسيدان عشرة آلاف ألف درهم ، والبرج عشرة آلاف ألف درهم ، والمصبح خمسة آلاف ألف درهم والمليح خمسة آلاف ألف . . . (هكذا حتى بلغ ما أنفق في الجميع) مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم . . . ولاشك أن طول البناء في سامراء كان أكثر من ثمانية فراسخ . . . لكنها خربت بعد تحول الخلفاء وعنها منذ أيام المعتضد حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد (الذي ترى الشيعة أن به سرداب القائم المهدي) (٣/ ١٧٥ - ١٧٨) .

سجلماسة : مدينة وراء جبال الأطلس في الصحراء . اختطها الخوارج الصفريّة سنة ١٤٠ هـ (ابن خلدون العبرج ٦ ص ١٣٠) . فأصبحت حاضرة لدولة بني مدرار ومركز الإمارة التي تولاها عيسى بن يزيد الأسود ومقرا للمذهب الصفري . وقد حرصوا على اقامتها في مكان حصين من جهة ، بعيدة عن العمران من جهة أخرى . وتقوم على طرق التجارة العابرة بين السودان الغربي والبحر المتوسط من جهة ثالثة ، عند التقاء فرعي نهر ملوية . وأسس الصفريّة حصنا وسط المدينة سموه العسكر كما أسسوا المسجد الجامع ودار الإمارة . واقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن فأتسع العمران حتى جاوزت المدينة فرعي النهر . وأسهم في البناء بعض

الأندلسيين وبعض اليهود الذين اجتذبتهم تجارة الذهب (التبر) وقد أسس سورها سنة ٢٠٨ / ٨٢٣ في عهد اليسع بن القاسم وبه من الأبواب اثني عشر بابا وشق فيها عيسى بن يزيد القنوات . واستكثر من النخيل والفاكهة . (انظر الاستبصار ص ٢٠١ بالإضافة إلى ابن خلدون) ويقول المقدسي عن سجلها: «قصة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها . وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطحها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة . شديدة البرد والحر صحيحة الهواء كثيرة التمور والأغاب والفواكه والحبوب . . . كثيرة الغرباء يقصدونها من كل بلد ومع ذلك ثغر فاضل ، برستاقها معادن الذهب والفضة . . . وهم أهل سنة وقوم جياذ . بها علماء وعقلاء لها أربعة أبواب : القبلي والغربي وغدير الجزارين وباب زناته . وهي في رمال ولهم مياه . . . (أحسن التقاسيم ص ٢٢٩) وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب (ياقوت ١٩٢/٣) .

سعيد أباد: قلعة بفارس من كورة اصطخر قديمة ثم تعطلت في الإسلام وخربت ثم استجد عمارتها محمد بن واصل الحنظلي فنسبت إليه ، وكان واليا على فارس فلما ملك يعقوب بن الليث استولى عليها وخربها ثم احتاج إليها فأعاد بناءها وجعلها محبساً لمن يسخط عليه (٢٢٢/٣) .

سفالة : آخر مدينة تعرف بأرض الزنج يجلب التجار إليها الأمتعة ويتركونها ويمضون ثم يجيئون وقد تركوا ثمن كل شيء عنده . والذهب السفالي معروف عند تجار الزنج (٢٢٤/٣) .

سلا : مدينة متوسطة في الصغر والكبر موضوعة على زاوية من الأرض قد حاذها البحر شمالها ، والنهر غربيها جار من الجنوب . وفيه نهر كبير

تجري فيه السفن وهي من مراكش غربية جنوبية . وبسلا رباط يربط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة وقد خربت . والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحف بها وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون في وقت وينقصون لوقت . ورباطهم على برغواطة . . يغزون ويسبون (ابن حوقل - حورة الأرض ٨٢) .

السلطانية : مدينة أسسها ايلخان أرغون (١٢٤٨ - ١٢٩١) في واد عال جنوبي تبريز القريبة منها ولعلها بنيت كمصيف للخانات المغول . ولكنها في أيام غازان (الذي أسلم) (١٢٩٥ - ١٣٠٤) وأيام أوليجائيو (١٣٠٤ - ١٣١٦) اللذين بنيا فيها مساجدهما الخاصة صارت عاصمة المغول في بلاد فارس وقد توسعت بمباني كبار الموظفين وجماهير العامة الوافدين الذين لحقوا بالحكام وتوضعوا حول قصورهم .

السليمانية : في جبال زاغروس وقد انشئت سنة ١٧٨٣/١٨٩٨ عاصمة لأسرة بابان الكردية .

قلعة سميران : وهي قلعة حصينة جدا على نهر عظيم جدا جار بين الجبال في ولاية تارم (شمال غرب ايران) . وكانت من أمهات القلاع . . يشهد المرء من أبنيتها وعمارتها ما لم يره ولم يشاهده في غيرها من مواطن الملوك ، وذلك أن فيها ٢٨٠٠٠ ونيفا خمسين دارا كباراً وصغاراً وكان صاحبها محمد بن مسافر إذا رأى سلعة حسنة أو عملاً محكماً أنفذ فجاء بصاحبه ومنعه أن يخرج من القلعة بقية عمره ليعلم الرعية تلك الصنعة . . . (٢٥٦/٣) .

سوسنדה : (ويقال لها أيضا زامين) وهي على طريق فرغانة إلى السند ولها مدينة قديمة على أنها خربت وصارت الأسواق والجامع ومجمع الناس بسوسنדה وليس على هذا البلد الحادث سور وهي اليوم منزل السابلة من

السند إلى فرغانة ولها ماء جار وبساتين وكروم ومزارع . وماؤهم من نهر سارين وشربهم منه وهي مدينة صحراء ملساء لا جبال بها . ظهرها جبال أشروسنة ووجهها إلى بلاد الفرية (ابن حوقل ص ٤١٤) .

سوق إبراهيم : مدينة صغيرة فيها سوق ولها فواكه وتين عظيم كثير يجهز عنها (ابن حوقل ٨٩) .

سوق حمزة : مدينة في البحر : بناؤهم من الطوب وشربهم من نهر وعين (المقدسي - أحسن التقاسيم ٧١ - ٢٢٨) .

سويقة ابن مكتود : بليدة في أوائل بلاد افريقية وآخر برقة وهي بينهما (٢٨٨/٣) .

شاه دز : قلعتان : قلعة حصينة على جبل اصبهان . استحدث السلطان ملك شاه سنة ٥٠٠ (وهو خطأ ويجب أن يكون قبل سنة ٤٨٥ لأنها سنة وفاة ملك شاه) . ثم كانت معقل ابن عطاش وهو أحمد بن عبد الملك مقدم الباطنية .

شاه دز : قلعة أخرى بناها نصر بن الحسن بن فيروز الديلمي في جبل شهريار في حدود سنة ٣٦٠ ومعنى شاه دز قلعة الملك (٣١٦/٣) .

شيراز : بلد عظيم مشهور وهي قصبة بلاد فارس . هي مما استجد عسارتها محمد بن أبي القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج ، وهي في وسط بلاد فارس وقد ذمها المقدسي البشاري بضيق الدروب وتدانى الرواشين من الأرض وقذارة البقعة وضيق الرقعة وافشاء الفساد وقلة احترام أهل العلم والأدب . . إلا أنها مع ذلك عذبة الماء صحيحة الهواء كثيرة الخيرات تجري في وسطها القنوات . وقد بنى سورها وأحكمها الملك ابن كاليجار سلطان الدولة بن بوية سنة ٤٣٦ فكان طوله اثني عشر ألف ذراع وعرض حائطه

ثمانية أذرع وجعل لها أحد عشر بابا . .

شلطيش : بالأندلس قرب مدينة لبلة وهي جزيرة لا سور لها ولا حظيرة إنما هي بنيان متصل ببعضه ببعض وبها دار صناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفائه . وهي صنعة المراسي التي ترسي بها السفن وقد تغلب عليها المجوس (الفرنجية) مرات ويحيط بجزيرة شلطيش البحر من كل ناحية إلا مقدار نصف رمية حجر فمن هناك يجوزون لاستقاء الماء لشربهم . وطول الجزيرة نحو ميل وأزيد والمدينة منها في جهة الجنوب . . وكان بهذه الجزيرة بيع للأول فأنخذت في الفتنة (في القرن الخامس) مدينة ولها أرباض واسعة وبها آبار عذبة قريبة الأرشية، وبساتين حسنة وبها أطيب الصنوبر ولها مراعي خصيبة لا تصوح وعيون ماء عذب تصلح بها الألبان والقطاني . (الحميري ٣٤٣ - ٣٤٤) .

الصالحية : قرية قرب الرها من أرض الجزيرة اختطها عبدالملك بن صالح الهاشمي . وقال الخالدي قرب الرقة . . وقال الخالديان في تاريخ الموصل : أول من أحدث قصور الصالحية المهدي .

الصالحية : مدينة علم بجانب دمشق على جبل قاسيون . أول من اختطها هو أبو عمر بن الجماعيلي المقدسي الحنبلي في أواسط القرن السادس للهجرة . وقد هاجر إليها مع جماعته هربا من الصليبيين في فلسطين . وقد تكاثر السكان فيها تدريجيا حول الجامع الذي بناه أبو عمر والمسمى بجامع الحنابلة وحول المدرسة التي أقامها . ثم مازالت تزداد الأبنية وتتكاثر حتى أضحت في مطالع القرن السابع مدينة صغيرة مشرفة على دمشق ذات أسواق ومساجد وباعة وصوفيين وقد استمرت على ذلك . وكان أكثر أهلها على مذهب أحمد بن حنبل وقد أخرجت حتى أواخر العهد المملوكي ما يزيد على المائة من كبار العلماء والقضاة وبها قبور عدد من الصالحين ومن المشاهد .

صبرة: يقول المقدسي: بناها الفاطمي أول ما ملك الإقليم واشتق اسمها من صبر عسكره في الحرب. وهي مدورة مثل الكأس لا ترى مثلها. ودار السلطان وسطها على عمل مدينة السلام. والماء يجري وسطها شديدة العمارة حسنة الأسواق بها جامع السلطان وعرض سورها اثنا عشر ذراعاً منفصلة عن العمارة بينها وبين مصر (القيروان) عرض الطريق. وتجارها يقدون ويروجون إليها من مصر على حير مصرية. والأبواب: باب الفتوح باب زويلة باب وادي القصارين كلها محددة. الحيطان آجر مكحل بالجير (أحسن التقاسيم ص ٢٢٦) ويقول ياقوت: صبرة بلد.

بلد قريب من مدينة القيروان وتسمى المنصورية أيضا من بناء مناد بن بلكين الصنهاجي. سميت بالمنصور بن يوسف بن زيري بن مناد واسم يوسف بلكين والمنصور هذا هو والد باديس وجد المعز بن باديس. وكانوا ملوك هذه النواحي. مات المنصور سنة ٣٨٦ وقد ولى ملك تلك البلاد ثلاث عشرة سنة وشهوراً. قال البكري: صبرة متصلة بالقيروان بناها اسماعيل بن أبي القاسم بن عبيد الله (الفاطمي) سنة ٣٣٧ واستوطنها. وقال في خبر المهدي: لم تزل المهديّة دار ملكهم حتى خرج أبو يزيد الخارجي عليهم وولى الأمر اسماعيل بن أبي القاسم سنة ٣٣٤ فسار محارباً لأبي يزيد واتخذ مدينة صبرة واستوطنها بعده ابنه وملكها. وخلا أكثر أرض مدينة المهديّة وتهدم) وصبرة الآن (سنة ٦٢٠) خراب ياب (٣/٣٩١ - ٣٩٢)

صريفين: مدينة صغيرة تعرف بقرية عبدالله وهو عبدالله بن طاهر (٣/٤٠٤).

الصلت: قلعة بناها الملك المعظم بن الغازن لحماية طريق التجارة أثر غزوة ذهبت فيها بعض جواريه في شرقي الأردن في مكان ملتف الشجر مالبث أن تحول إلى مدينة (ابن شداد الاعلاق الخطيرة - قسم فلسطين (٧٣).

الصليق : مواضع كانت في بطيحة واسط بينها وبين بغداد . كانت دار ملك مهذب الدولة إبي نصر المستوفي على ملك البلاد . وقبله لعمران بن شاهين . إذا هرب الخائف من بغداد لجأ إلى صاحبها فلا سبيل إليه بوجه ولا سبب (٤٤٢/٣) .

طرسوس : مدينة قديمة لها في التاريخ المسيحي والبيزنطي مكانها . وقد تهدمت في مطالع العهد الإسلامي فأعاد بناءها سليمان خادم الرشيد في سنة نيف وتسعين ومائة وكان عليها سوران من حجارة وبها مائة الف مقاتل من الجند والمتطوعة ولم يكن ثمة من بلد في العالم الإسلامي كله إلا وله فيها متطوعون منه . احتلها الروم سنة ٣٥٤ وكان حولها حصون قديمة (سيرالغور ، ملخص) .

طلبيرة : كانت مدينة قد استولى عليها الخراب فاستجدها عبدالرحمن الناصر الأموي . ولطلبيرة حصون ونواح عدة (٣٨/٤) .

طلمنكة : مدينة بالأندلس . . اختطها محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام . (٣٩/٤) وبينها وبين وادي الحجارة عشرون ميلا (الحميري ٣٩٣) .

طريف : مدينة وميناء في جنوبي الأندلس غربي جبل طارق يبدو أن عندها كانت تؤخذ الجبايات على التجارة وقد صار اسمها علما في اللغات الاسبانية والفرنسية وغيرها على تحديد الأسعار Tarif . وهي جزيرة عليها مدينة صغيرة ويشقها نهر صغير وبها أسواق وفنادق وحمامات . « وكان طريف مولى لموسى بن نصير ارسله إليها للاكتشاف » . (الحميري ٣٩٢) .

طنجة : مدينة أزلية . . سكنها اهلها قديما في صدر الإسلام . ثم استحدثوا لهم مدينة عن مسيرة ميل منها على ظهر جبل . والذي أوجب استحدثائها خوف آل ادريس عليها عند استحوادهم على سبتة في وقتهم .

وأكثر أموال أهلها من الزرع حنطة وشعير وحبوب وماؤها مجلوب إليها في قنى من مكان بعيد لا يعلم أصله . . وهي خصبة صالحة الأسعار وليس عليها سور (ابن حوقل ٨٠) .

طور : بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسواق لها مناظر وبساتين . أنشأها الأمير درباس الكردي المعروف بالأحول في أيام الملك ناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (٤٧/٤) .

الظاهرية : قريتان بمصر منسوبتان إلى الظاهر بن الحاكم الفاطمي إحداهما من كورة الغربية والأخرى من كورة الجيزة (٥٧/٤) .

العباسة : بليدة هي أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ذات نخل طوال وقد عمرت في أيامنا (٦٢٠) لكون الملك الكامل ابن العادل بن أيوب جعلها من متزهاته ويكثر الخروج إليها للصيد سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون . عملت عباسة في هذا الموضع قصرا وأحكمت بناء لودائع بنت أخيها . فلما سارت قطر الندى عمر ذلك الموضع بالفقر وصار بلدا لأنه في أول أودية مصر من جهة الشام فكان يقال له قصر عباسة ثم حذفت كلمة قصر (٧٥٥/٤) .

العباسية : مدينة بناها إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقية قرب القيروان نسبها إلى بني العباس (٧٥/٤) وكانت حصينة وسبقت في بنائها مدينة رقادة لأن الأغالبة جعلوها مقرهم قبلها .

العجلانية : بليدة بثغور مرج الديباج قرب المصيصة كأنها منسوبة إلى رجل اسمه عجلان (٨٧/٤) .

عجلون : بلد في شرقي الأردن كانت قرية صغيرة منذ العهد الأيوبي

مدينة بساتين وأسواق وقلعة بناها الأمير عزالدين أسامة من أكابر العادلية ليتقي عدوان البدو من آل عوف وقد منعه أولاً ثم احتال عليهم فوافقوا (ابن شداد الأعلام الخطيرة - قسم فلسطين ص ٧٣).

العزيزية: خمس قرى بمصر تنسب إلى المعز الفاطمي اثنتان بالشرقية وواحدة في سمود وأخرى في الجيزة وثالثة في المرتاحية (٤/١٢٠).

عسكر: وهي خطة بمصر سميت بذلك لأن عسكر صالح بن علي عبدالله الهاشمي وأبي عون عبدالملك بن يزيد مولى هناءه نزل هناك في سنة ١٣٣ فسمي المكان بالعسكر إلى الآن (٤/١٢٣).

عسكر مكرم: بلد مشهور من نواحي خوزستان منسوب إلى مكرم بن مغران الحارث أحد بني جعونة. . وكان هناك مدينة من مدن خوزستان خربها العرب في صدر الإسلام ثم اختطت بالقرب منها المدينة التي كانت معسكر مكرم بن مغراء صاحب الحجاج بن يوسف وقيل بل مكرم مولى كان للحجاج أرسله لمحاربة خرزاد بن باس حين عصى. . وكانت هناك قرية قديمة فبناها مكرم ولم يزل يبني ويزيد حتى جعلها مدينة (٤/١٢٣).

العلاقي: مدينة في جنوب مصر. وهي المنهج الذي يجتاز به الحجيج إلى عيذاب. وهم أهل معدن الذهب وإقامتهم عليه. بنتها قبائل ربيعة ومضر وتميم (ابن حوقل ٣٨).

علقمة: بلدة بجزيرة صقلية كبيرة منيعة فيها السوق والمساجد وسكانها مسلمون (الحميري ٤١٢).

العلويين: قرية (في الغرب) على نهر يأتيها من القبلة ولها عليه فواكه عظيمة. (ابن حوقل ٨٨).

العلويين : أيضا قرية عظيمة (في المغرب) أهلة على نهر ولها أجنة وعيون . (ابن حوقل ٨٨).

العمادية : قلعة حصينة مكيئة عظيمة في شمال الموصل ومن أعمالها . عمرها عماد الدين زنكي بن أقسنقر في سنة ٥٣٧ . وكان قبلها حصنا للأكراد ، فلكبره خربوه . فأعادته زنكي وسماه باسمه في نسبة إليه . وكان اسم الحصن الأول أشب . (٤ / ١٤٩).

عمان : (مضمومة الأول) مدينة معروفة سميت بعمان بن سنان بن إبراهيم . كان أول من اختطها . وهي فرضة البحر من العروضي وبلاد عمان متصلة بأرض بهرة . . . وهي مجاورة لها من جهة الشمال وهي مستقلة بذاتها عامرة بأهلها . . وبلاد عمان ثمانون فرسخا . . ولها عدة مدن ومدينة عمان حصينة على ساحل البحر وهي كثيرة النخل . والبساتين والنخل . وبها أبواب من حديد وبها مياه وأسواق وموز كثير وهي فرضة الصين وبها مرفأ الصين وتحمل إليها من سيراف الأمتعة والحمولة في قوارب ومناطق عمان فيه اللؤلؤ (الحميري ص ٤١٣).

عيزاب : بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد (٤ / ١٧١) ومرسى عيزاب ليس بكبيرة ومساكنها من حجارة . والماء العذب يجلب إليها من مسيرة يوم . وهي محط السفن من جدة ، ومنها تسير القوافل إلى مدينة سواكن . . (الحميري ص ٤٢٣).

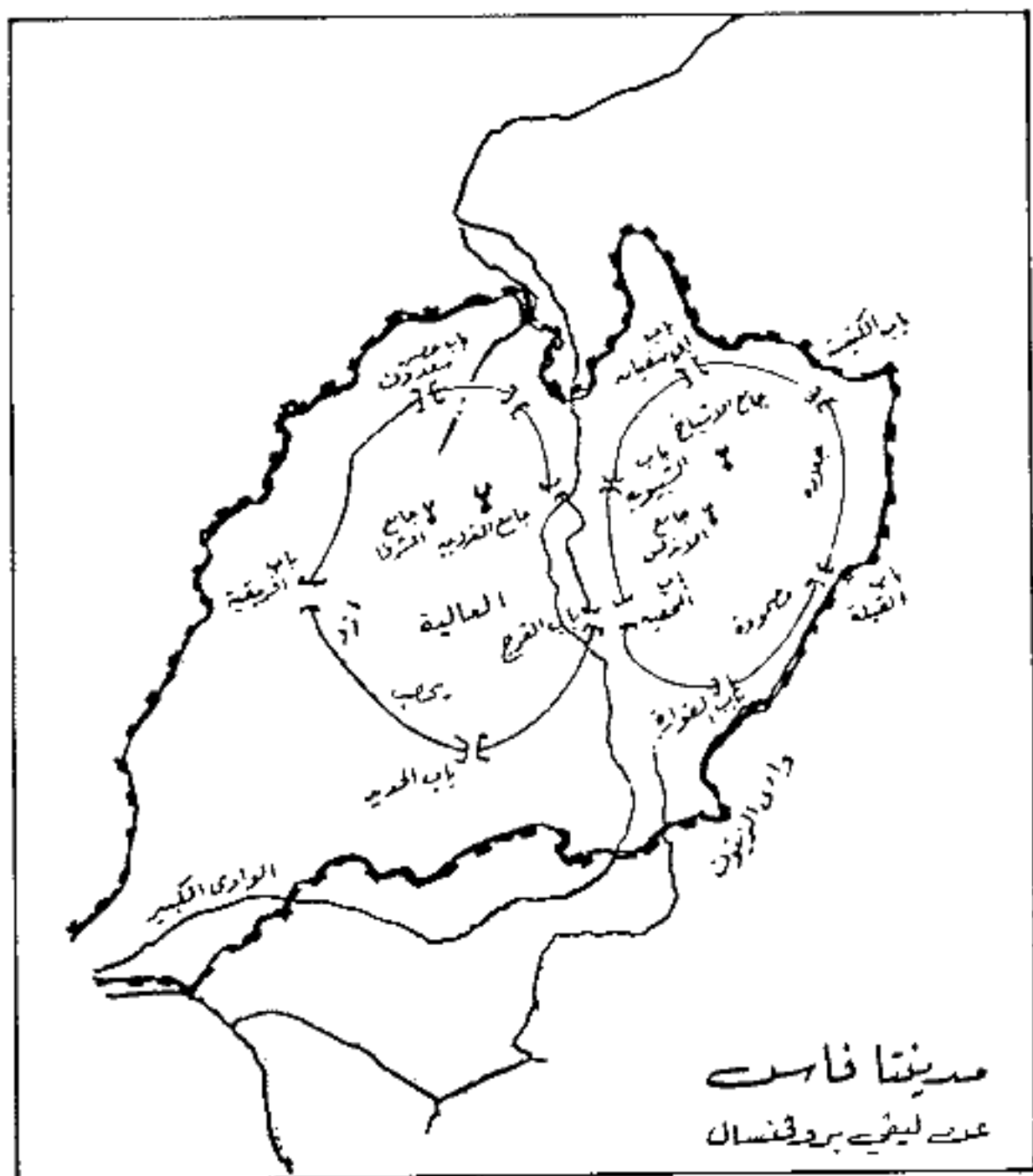
عين زربي : بلد بالثغر من نواحي المصيصة . قال ابن العقبه : كان تجديد زربي وعمارتها على يد أبي سليمان التركي الخادم في حدود سنة ١٩٠ (والواقدي يذكر أن الأمر بينائها كان سنة ١٨٠) وكان قد ولي الثغور من قبل الرشيد ثم استولى عليها الروم وخربوها . فأنفق سيف الدولة بن حمدان

ثلاثة آلاف ألف درهم حتى أعاد عمارتها ثم استولى الروم عليها في أيامه . .
(١٧٨/٤).

غرناطة : (ويسمىها الحميري أغرناطة) ويقول : مدينة بالأندلس . . .
من مدن البيرة وهي محدثة في أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة
المقصودة البيرة فخلت وانتقل أهلها إلى أغرناطة ومدنها وحصن أسوارها
وبني حقبها جيوش الصنهاجي ثم خلفه ابنه باديس فكملت في أيامه
وعمرت إلى الآن (سنة ٨٠٠) . . . وهي اليوم مدينة كبيرة قد لحقت بأمصار
الأندلس الشهيرة وقصبتها بجوفها (شرفها) وهي من القصبات الحسنة .
وجلب الماء إلى داخلها من عين عذبة تجاورها . والنهر المعروف بنهر فلوم
ينقسم عند مدينتها قسمين . . . فيجري في بعض حماماتها وتطحن الأرحاء
عليه خلال منازلها . ومخرجه من جبل هناك وتلقط في جريه برادة الذهب
الخالص . وفحص البيرة أطيب البقاع لا يعدل به مكان غير غوطة دمشق
وساحة الفيوم . ولا يعلم شجرة تستعمل وتستغل وما من فاكهة توصف
وتستطرف إلا وهي هناك . . . وبها معادن جوهريّة وجبل الثلج جبل يشرف
على جبل البيرة (الحميري ص ٤٦).

غزة : مدينة صالحّة (في المغرب) . وفيها سوق وحمام . ويصاقب أعمالها
سوق إبراهيم (ابن حوقل ٨٩).

فاس : مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب وهي (حسب ما كانت في
أوائل القرن السابع أيام ياقوت) حاضرة البحر وأجل مدينة قبل أن تختط
مراكش . وفاس مخططة بين ثنتين عظيمتين وقد تصاعدت العمارة في جنبها
على الجبل حتى مستواها من رأسه وقد تفجرت كلها عيونا تسيل إلى قرارة
واديها إلى نهر متوسط ينبجس من عيون في غربها . فإذا انتهى النهر إلى
المدينة طلب قرارها فيفترق منه ثمانية أنهار تشق المدينة عليها ستمائة رحي



داخل المدينة كلها دائرة لا تبطل ليلا ولا نهارا . وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها إلا غرناطة الأندلس . . . وقلعتها في أرفع موضع يشقها نهر يسمى الماء المفروش إذا تجاوز القلعة أدار رحي هناك . وفيها ثلاثة جوامع يخطب يوم الجمعة في جميعها . قال البكري (قبل قرنين من ذلك) . فاس مدينتان مفترقتان مسورتان : عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين وعلى باب دار

الرجل رحاه وبستانه بأنواع الثمر وجداول الماء تخرق داره . وبالمدينتين أكثر من ثلاثمائة رحى وبها نحو عشرين حماما وهي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق أسست عدوة الأندلسيين سنة ١٩٢^(١) وعدوة القرويين سنة ١٩٣ في ولاية ادريس بن ادريس (وهو الذي أحدثها) ومات ادريس بمدينة ويلي من أرض فاس . . . « (٢٣٠ / ٤) وابن حوقل ص ٨٩) .

ويقول المقدسي البشاري : فاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منهما محصن بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحية قد استولى على أحدهما الفاطمي وعلى الآخر الأموي وكم ثم من حروب وقتل وغلبة . بناؤهما مدر وحصنها طوب وبها قلعة سميت بناها ابن البوري ، وأخرى على الوادي بناها ابن أحمد . وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون غير أنهم كما ترى وفيهم نقل وغباء قليل العلماء . كثير الغوغاء . . . « (أحسن التقاسيم ٢٢٩ - ٢٣٠) .

ويقول الحميري عن فاس : «فيها اليوم ثلاثة جوامع بثلاث خطب . . . ماؤها من الوادي وجلب إليها ماء عين هو في أيام الحر في نهاية البرد وفي أيام البرد فيه بعض الحرارة . . . وكذلك بقصبة السلطان جامع شريف معظم أحدثه فيه خلفاء بني عبدالمؤمن القصبة منحازة عن البلد بسور . . . وهي كثيرة الخصب والرخاء كثيرة البساتين والمزروعات ولها أنظار واسعة متصلة بالعمائر وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثر بساتين وأشجارا ومياها وعيوننا من عدوة الأندلسيين . . . (الحميري ٤٣٥) .

فراوة : بلدة بين وهستان وخوارزم ويقال لها رباط فراوة . بناها عبدالله بن طاهر في خلافة المأمون (٢٤٥ / ٤) .

فرج : مدينة بالأندلس تعرف بوادي الحجارة وهي بين الجوف

(١) ثبت بدليل من النفوذ أن فاس هذه بنيت في سنة ١٧٠ هـ .

والشرق من قرطبة ولها مدن بينها وبين طليطلة (٢٤٧/٤).

الفسطاط: هو مجتمع أهل الكورة حوالي مسجد جماعتهم . وكل مدينة فسطاط . ومنه قيل لمدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص الفسطاط (٢٦٣/٤) ويقول المقدسي: هو مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين (الفاطمي) ، وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه وتنصر اقليمه واشتهر اسمه فهو مصر مصر ناسخ بغداد ومفخر الإسلام ومتجر الأنام وأجل من مدينة السلام . خزانة المغرب . . ليس في الأمصار أهل منه كثير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق المعاش إلى حماماته المنتهى ولقياسه لباقة وبها . ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعها ولا أحسن تجملا من أهله ولا أكثر مراكب من ساحله به أطعمة وادامات نظيفة وحلاوات رخيصة . كثير الموز والرطب غزير البقول والخطب . خفيف الماء صحيح الهواء . معدن العلماء طيب الشتاء . أهل سلامة وعافية ومعروف كثير وصدقة . . قد استراحوا من أذى الأمطار وأمنوا من غاغة الأشرار . . قاضيهم أبدا خطير . والمحتسب كالأمير . . ودورهم أربع طبقات وخمس كالمنابر يدخل إليها الضياء من الوسط . وسمعت أنه يسكن الدار الواحدة نحو مائتي نفس . (ويوم الجمعة) لقيت الصفوف (من المصلين) في الأسواق على ألف ذراع من الجامع ورأيت القياسير والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من المصلين . وهذا الجامع يسمى السفلاي من عمل عمرو بن العاص وفيه منبر حسن البناء في حيطانه شيء من الفسيفساء على أعمدة رخام أكبر من جامع دمشق والإزدحام فيه أكثر من الجوامع الست . وقد التفت عليه الأسواق وهو أعمر موضع بمصر . . . « (المقدسي ١٩٧ - ١٩٩) . وجامع عمرو بنى في موضع الراية وكان عمرو قد منحه إلى قيسية بن كلثوم التجيبي فتنازل عنه للمسلمين واختط مع قومه الجامع فبنى سنة ٢١ . وكان طوله خمسين ذراعا في ثلاثين . وقد أعاد بناءه

مسلمة بن مخلد الأنصاري لما ولي مصر لمعاوية سنة ٥٣ وبيضه وزخرفه وزاد في أرجائه وابته وكثر مؤذنيه . ثم لما ولي قرة بن شريك العيسى (مصر) سنة ٩٢ هـ أعاد بناءه فأمر الوليد بن عبد الملك فزاد فيه ونمقه وحسنه على عادته في بناء الجوامع . ثم ولي صالح بن علي العباس فزاد فيه سنة ١٣٢ ، ثم زاده موسى بن عيسى أيام الرشيد سنة ١٧٥ ، وعاد فزاد فيه عبدالله بن طاهر أيام المأمون سنة ٢١١ وزيد فيه أيام المعتصم وأعيدت عمارته بعد أن احترق سنة ٢٧٥ أيام خمارويه بن أحمد بن طولون . . (٢٦٥/٤) .

وقد بنى في الفسطاط أيام أحمد بن طولون جامع آخر مشابه للجامع سامراء بمئذنة ملوية ابتداء بناؤه سنة ٢٦٤ و فرغ منه سنة ٢٦٦ بعد أن شكأ، أهل مصر ضيق جامع عمرو بن العاص . وانفق ابن طولون على جامع مائة وعشرين ألف دينار (٢٦٤/٤) ويسمى «الجامع الفوقاني» وهو أكبر وأبهى من السفلافي على أساطين واسعة مصهرجة وسقفه عالية . في وسطه قبة على عمل قبة زمزم فيها سقاية . . . ومنارته من حجر صغير درجها من خارج . . . وتجارة (الفسطاط) عجيبة ومعايشه مفيدة وأمواله كثيرة يجيء إليها ثمرات الشام والمغرب وتسير الرفاق إليه من العراق والمشرق ويقطع إليه مراكب الجزيرة والروم (المقدسي ١٩٩)

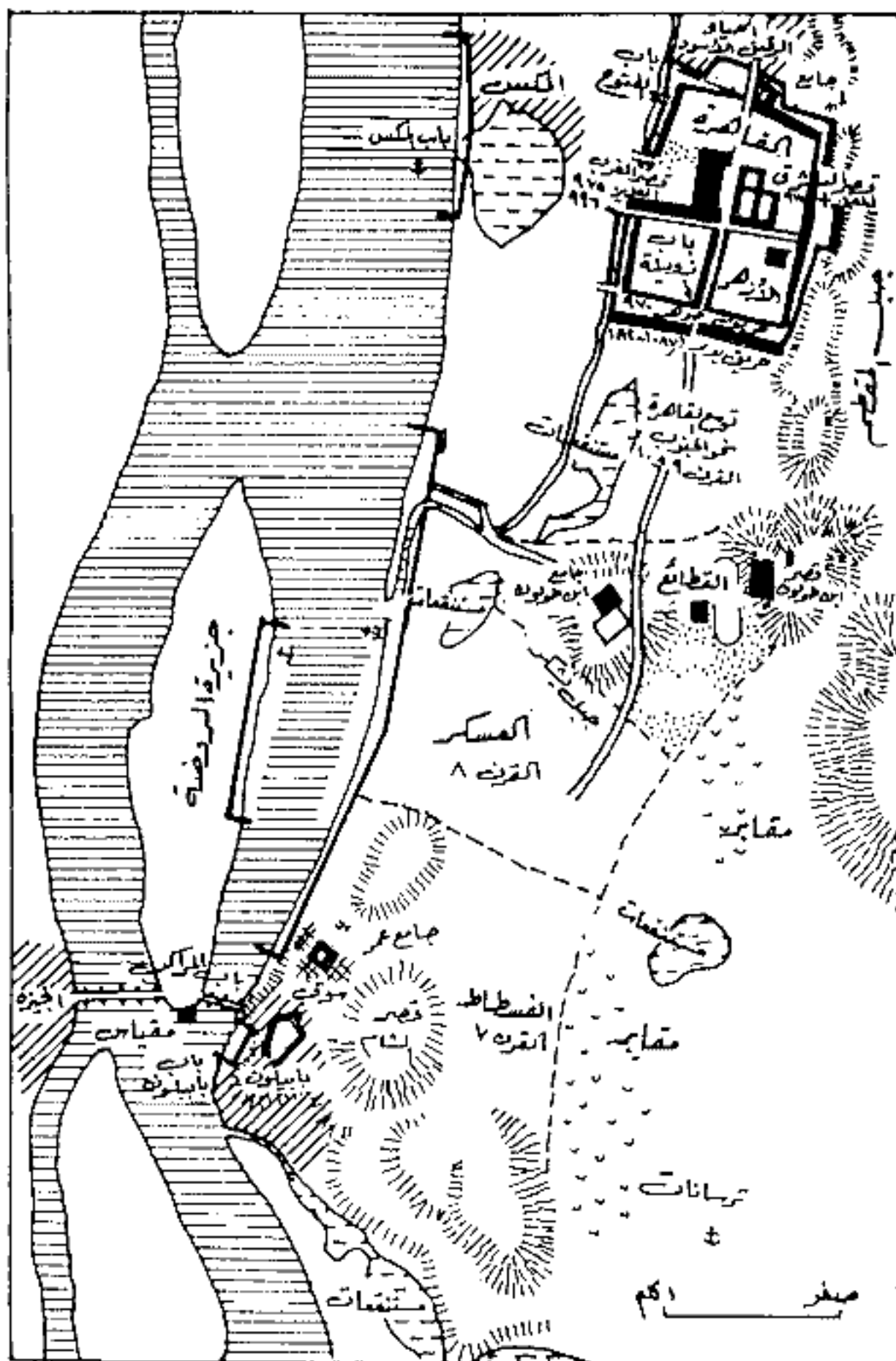
ويضيف ياقوت «وكان السبب في خراب الفسطاط واخلاء الخطط حتى بقيت كالتلال» الشدة المستنصرية التي دامت سبع سنوات (٤٥٦ - ٤٦٣) . ومن الدليل على دثور الخطط أنه كان في مصر من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوكة وألف ومائة وسبعون حماما . . . وفي سنة ٥٧٢ (بعد تملك صلاح لمصر) أمر ببناء سور الفسطاط والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم فذرع دوره فكان تسعة وعشرين ألف ذراع بالذراع الهاشمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين فبلغ

دوره هذا سبعة أميال ونصف الميل وهي فرسخان ونصف (٤/٢٦٦).

فكان : مدينة . . . من أحواز تلمسان بالمغرب . وعلى فكان النزول . وهي مدينة كبيرة قديمة فيها آثار الأول وكانت خربت فبعث إليها المنصور ابن أبي عامر من بناها وعمرها . وهي قريبة من البحر وكانت سوقا قديمة من أسواق زناتة فمدنها لعلي بن محمد بن صالح اليفرنى فكان ابتداء تأسيسه لها سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة . وارتحل إليها أهل العسكر فعمرت وتمدنت وهي في سفح جبل وانشويش وهو بجوفها . وعلى فكان سور طوب وبها جامع وحام وفنادق (الحميري ٤٤١) .

القاهرة: مدينة^(١) بجانب الفسطاط يجمعها سور واحد وهي اليوم المدينة العظمى (سنة ٦٢٠) وبها دار الملك ومسكن الجند وكان أول من أحدثها جوهر (الصقلي) غلام المعز لدين الله الفاطمي . وكان السبب في استحداثها . . . أن أهل مصر اشترطوا عليه ألا يساكنهم فدخل الفسطاط فاشتقها بعساكره ونزل تلقاء الشام (في شأنها) بموضع القاهرة اليوم وشرع فبنى قصر المولاه وبني للجند حوله فأنعم ذلك الموضع فصار أعظم من مصر . بتكاثر البناء واستقرار الدولة الفاطمية ورواج الأسواق وكثرة التجارات مع أفريقيا الغربية ومع الشرق والهند . ويقول المقدسي : والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي . . . كبيرة حسنة بها جامع بهي ، وقصر السلطان وسطها ، محصنة بأبواب محددة على جادة الشام ولا يمكن أحدا دخول الفسطاط إلا منها لأنها بين الجبل والنهر ومصلى العيد من ورائها والمقابر بين

(١) ثمة وصف آخر للفسطاط والقاهرة واسع وهام جداً في رحلة ناصري خسرو . وهو فاطمي الهوى ولكننا فضلنا ما أنقصر على الفسطاط والقاهرة لدى المقدسي لأنه أقدم في التاريخ بحوالي خمسين سنة . كما لم نشأ الإطالة في الموضوعين . ويمكن مراجعتها في الرحلة ولها ترجمتان إلى العربية .



القاهرة

المصر والجبل. (المقدسي أحسن التقاسيم ص ٢٠٠). ولدى ناصرى خسرو وصف للقاهرة يمتد على ٢٤ صفحة من رحلته يذكر فيه كل شيء عنها ومنها أن فيها ٢٠ ألف دكان. والحمامات كثيرة ومحطات إقامة المسافرين والقصور لا تدخل تحت حصر وفيها ٨ آلاف منزل للسلطان يؤجرها وقصر الخليفة بقدر مساحة مدينة ميفارقين يقوم على حراسته ليلا ألف حارس مسلح منهم ٥٠٠ فارس. ويبدو من الخارج كجبل عظيم. وله ١٢ ألف خادم وبالقصر ما يقرب من ٣٠ ألف شخص وله عشرة أبواب وللسلطان قصر آخر خارج القاهرة. وشرب الخمر محرم تماما وأبواب القاهرة خمسة وفي مدينتي القاهرة ومصر ٥٠ ألف جمل لجلب الماء. وفي القاهرة كثير من الحدائق حتى على السطوح. وقصورها نظيفة متباعدة. ولها أربعة مساجد جامعة الأزهر، ونور، والحاكم والمعز. والأخير خارج المدينة. وبعد أن يصف عيد فتح الخليج على النيل الذي وقف عليه السلطان خراج ٣٠٠ قرية يصف فرق الجيش وموكب السلطان بالتفصيل الواسع ثم يذكر محلات القاهرة وأن عشر محلات. يذكر جامع بن طولون ويصف القصور والأسواق والأزقة وأن مجموع المساجد في مصر والقاهرة هو خمسة عشر مسجدا. (سفر نامه - ناصرى خسرو - ترجمة البدلي - الرياض ١٩٨٣ (ص ٩٢ - ١١٦).

قسنطينة : كتامة : مدينة قريبة الأمر تداني ميله، ونقاوس في حالها. ونقاوس مدينة كبيرة عليها سور من حجارة ولها مياه كثيرة وبها جميع الفواكه وزرعهم عزير كثير (ابن حوقل ٩١).

القصر : مدينة الأندلس بينها وبين شلب أربع مراحل وهي مدينة حسنة متوسطة على ضفة النهر الكبير. . . وفيها استدار بها من الأرض كلها شجر الصنوبر وبها الانشاء الكثير. وهي خصبة كثيرة الألبان والسمن والعسل واللحم وبين القصر والبحر عشرون ميلا (الحميري ٤٧٦ - ٤٧٧).

قصر الفلوس : مدينة بالمغرب قرب وهران (٣٦٢/٤) وهي «وان» كانت مدينة محدثة فلها سور وهي لطيفة جدا وسورها من تراب طابية وماؤها من عين ماء جارية بها وغلاتهم من القمح والشعير. والمواشي عندهم كثيرة» (ابن حوقل ٧٨ - ٧٩).

قصر قيروان : كانت مدينة عظيمة في قبلي القيروان بينهما أربعة أميال. أول من أسسها ابراهيم بن الأغلب بن سالم في سنة ١٨٤ وصارت دار أمراء بني الأغلب وكان بها جامع وفيه صومعة مستديرة مبنية بالأجر والعمد سبع طبقات لم ير أحكم منها ولا أحسن منظرا. وكان بها حمامات كثيرة وأسواق وصهاريج للماء حتى أن أهل القيروان ربما قصر بهم في بعض السنين الماء فكانوا يجلبونه منها. وكان في وسطها رحة واسعة وتجاورها مدينة يقال لها الرصافة، خربت معا بعمارة رفاة (٣٦٢/٤).

قصر كتامة : مدينة بالجزيرة الخضراء من أرض الأندلس (٣٦٢/٤).

قصر ابن هبيرة : سميت باسم منشئها الوالي ابن هبيرة وهي مدينة كبيرة جيدة الأسواق يجيئهم الماء من الفرات كثيرة الحماكة واليهود. والجامع في السوق (المقدسي ١٢١) وهي التي نزلها بنو العباس أول حكمهم عند الكوفة. وقد رفضها المنصور وبني بجوارها مدينة هاشمية الكوفة لكنها ظلت حتى ما بعد القرن الثالث مدينة كبيرة ومركزاً لصناعة النسيج في العراق.

قصر مصمودة : حصن كبير بينه وبين سبتة اثنا عشر ميلا وهو على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحوارق التي يسافر بها إلى بلاد الأندلس. وهو على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس (الحميري ٤٧٦).

القصر القديم : عند القيروان أسسه ابراهيم الأغلب سنة أربع

وثمانين ومائتين وصار دار أمراء بني الأغلب وهو في قبلة القيروان وعلى ثلاثة أميال منها وبه جامع له صومعة مستديرة مبنية بالأجر والعمد سبع صبقات لم يبن أحكم منه ولا أحسن منظرا وبه حمامات كثيرة وفنادق وأسواق جهة ومراجل الماء وإذا قحطت القيروان وفقد الماء من مراجلها نقلوا الماء من مراجل القصر . وكان لها من الأبواب (خمسة أبواب) . وداخل المدينة رحبة كبيرة واسعة تعرف بالمدائن وتجاور مدينة القصر بنية تعرف بالرصافة . ولما بنى ابن الأغلب مدينة القصر وانتقل إليها خربت دار الإمارة التي كانت بالقيروان بقبلي الجامع منه (الحميري ٤٧٦) .

قصر سعد : بجزيرة صقلية على فرسخ من المدينة على ساحل البحر وحوله قبور كثيرة للمسلمين . وبازائه عين وداخله مساكن وبيوت منتظمة وهو كامل مرافق السكنى . وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا مفروش بحصر نظيفة وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الزجاج والصفير وفي أسفل القصر بئر عذبة وبمقربة منه إلى جهة المدينة قصر آخر على ضفته يعرف بقصر جعفر وداخله ساقية تفور بماء عذب (الحميري ٤٧٦) .

قصر المصمودة : مدينة - قلعة أنشئت من قبل المصامدة في المغرب في العهد الإسلامي ولعل ذلك كان في القرن الخامس سنة ١١ م .

قصور حسان : كان عبدالله بن مروان سير حسان بن النعمان الغساني إلى أفريقية لمحاربة البربر فدافعهم فهزموه فرجع عنهم وأقام بأفريقية خمس سنين وبني في مقامه هناك قصورا نسبت إليه (٣٦٦/٤) .

قلعة أبي طویل : بأفريقية . قال البكري هي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة وتمصرت عند خراب القيروان وانتقل إليها أكثر أهل أفريقية وهي اليوم مقصد التجار وبها تحل الرحال من الحجاز والعراق ومصر والشام وهي اليوم (سنة ٦٢٠) مستقر مملكة صنهاجة وبهذه القلعة احتصن أبو يزيد مخلد

بن كيداد الخارجي (٣٩٠/٤).

قلعة أيوب : مدينة عظيمة جلييلة القدر بالأندلس بالثغر . . . من أعمال سرقسطة (وهي مدينة محدثة) بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والمزارع ولها عدة حصون وبالقرب منها مدينة لبلة (٣٩٠/٤) والبكري - جغرافية الأندلس تحقيق الحججي (١٩٦٨ ص ٩١).

قلعة حماد : مدينة متوسطة بين اكم وأقران . لها قلعة عظيمة على تلة جبل يسمى تاقربوست تشبه في التحصين ما يحكى عن قلعة انطاكية . وهي قاعدة ملك بني حماد بن يوسف الملقب بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي البربري . وهو أول من أحدثها في حدود سنة ٣٧٠ . وهي قرب أشير من أرض المغرب الأدنى وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن إنما اختطها حماد للتحصين والامتناع لكن يحف بها رساتيق ذات غلة وشجر مثمر كالتين والعنب في جبالها وليس بالكثير . ويتخذ بها لبابيد الطيلقان جيد غاية ، وبها الأكسية القلعية الضعيفة النسج الحسنة المطرزة بالذهب ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابرلسيم . ولأهلها صحة مزاج ليس لغيرها . . (٣٩٠/٤) ويذكر الحميري أنها هي قلعة أب طويل نفسها ويقول :

أن بينها وبين المسيلة اثنا عشر ميلا وهي من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وحضبا ، وحنظتها رخيصة ولحومها طيبة سميئة وهي في سند جبل سام صعب المرتقى وقد استدار سورها بجميع الجبل . وأعلى الجبل بسيط الأرض ومنه ملكت القلعة . . . وهذه القلعة منيعة وتحضرت عند خراب القيروان انتقل إليها أكثر أهل أفريقية وكانت مقصد التجار وبها تحمل الرحال (الحميري ٤٧١).

قلعة رباح : مدينة كبيرة ذات سور من حجارة وهي على واد كبير منه شرب أهلها ويزرعون عليه وبها أسواق وحمامات ومتاجر . (ابن حوقل ١١١) . ويقول الحميري انها : «بالأندلس من عمل جبل حيان وهي بين قرطبة وطليلة وهي مدينة حسنة ولها حصن حصين على نهر آنة وهي مدينة محدثة في أيام بني أمية وانما عمرت قلعة رباح بخراب أوريط وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين أمر الامام محمد بتحسين مدينة قلعة رباح والزيادة في مبانيها ونقل الناس إليها وإلى مدينة طلبيرة (الحميري ٤٦٩) .

قلعة بحصب : في الأندلس (٣٩١/٤) .

قلوذية : هو حصن كان قرب ملطية ذكر أنه هدم ثم أعاد بناءه الحسن بن قحطبة سنة ١٤١ في أيام المنصور (٣٩٢/٤) .

قناطر الأندلس : بلدة في روضة (بالأندلس) (٤٠١/٤) .

القيروان : مدينة عظيمة في افريقية . . ليس بالغرب أجل منها . وهي مدينة مصرت في الإسلام في أيام معاوية . . (بناها عقبة بن نافع الفهري حين خاف على جنده من انتفاض البربر) . فقال : رأيت أن ابني ها هنا مدينة يسكنها المسلمون فأستصوبوا (أي قادته) رأيه فجاؤوا إلى موضع القيروان وهي في طرف البر، وهي أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك أشجارها فقال : إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا تطرقه مراكب الروم ، وهي في وسط البلاد . ثم أمر أصحابه بالبناء . . ثم اختط جامعها (٤٢٠/٤ - ٤٢١) . «والقيروان مصر الإقليم بهي عظيم حسن الأخبار جيد اللحوم قد جمع أصداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم مع علم كثير ورخص عجيب . . وهي فرضة المغربين ومتجر البحرين لا ترى أكثر من مدنها ولا أرفق من أهلها . . فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان أرفق من نيسابور وأكبر من دمشق وأجل من اصبهان الا ان ماءهم

ضعيف وأدهم طفيف . . الماء مخزون في مواجين والضرائب موضوعة على أصحاب الدكاكين وأسواق المصر معطلة . . تكون أقل من ثلاثة أميال في مثلها بلا سور . . الجامع بموضع يسمى السماط الكبير وسط الأسواق في سره البلد أكبر من جامع ابن طولون، بأعمدة من الرخام . . له (تسع) أبواب . . ودروها خمسة عشر دربا . . (المقدسي أحسن التقاسم ص ٢٢٤ - ٢٢٥) . . كان هذا إلى أن قدمت أعراب بني هلال افريقية وأخربت البلاد فانتقل أهلها عنها فليس بها اليوم (٦٢٠) إلا صعلوك لا يطمع فيه (٤/٤٢٠) .

الكاظمية : مدينة بجوار بغداد يبدو أنها كبرت اعتباراً من القرن الثالث ثم تمصرت واستكملت خططها العمرانية في القرن الرابع أيام البويهيين . وهي في الأصل تجمع سكاني حمل ضريح موسى الكاظم الإمام السابع للشيعه الاثني عشرية ثم قامت حوله المساكن والأسواق فكان فيها في الفترة البويهية ستة محلات محتشدة من جميع الجهات وأسواق ومساجد ودروب ضيقة . (ياقوت ٢/١١٤)، وابن عبد الحق البغدادي مرصد الاطلاع ج ٢ ص ٥٠٢ - ٥٠٤) .

كدر : مدينة محدثة في ما وراء النهر جرى وقت نصب منبرها حروب . وهم قوم فيهم بأس ولأصحاب الحديث بها الغلبة (المقدسي ٢٧٣) .

كدره : مدينة في اليمن على وادي سهام اختطها حسين بن سلامة وهي أمة ، أحد المتغلبين على اليمن في نحو سنة ٤٠٠ هـ (٤/٤٤١) . وقد ذكر ياقوت نفسه عن هذا الرجل (بعد أن سماه باسم حسين ابن أبي سلامة) أنه وزر لأبي الجيش بن زياد وأنشأ الجوامع الكبار والمغائر الطوال من حصر موت إلى مكة . وحفر الآبار واتصلت عمارة الجوامع منها إلى عدن . في كل مرحلة جامع ومثدنة وبئر . بقي مستوليا على اليمن ثلاثين سنة ، ومات سنة ٤٣٢ وله فضائل وجوامع في كل بلدة في اليمن (٣/٣١٨) .

كربلاء: وهي بقعة زراعية قديمة وإنما تمصرت تدريجياً بعد إنشاء مقام الحسين فيها وبخاصة منذ القرن الثالث والرابع الهجريين فبدأ ابن همام المتوكل القبر والدور حوله. عاد محمد بن زيد الحسيني الملقب بالداعي الصغير فشيده بقبة عالية وسور ومساكن وبالع في فخامة البناء. ثم جاء البويهيون وبخاصة عضد الدولة فشيده الضريح وسط صحن واسع وقبة بالفسيفساء مع مئذنتين مزخرفتين ثم ازدهرت المدينة بهذا الشكل عمراناً واقتصاداً وثقافة.

كرج: مدينة بين همدان واصفهان في نصف الطريق. وإلى همدان أقرب. ويضاف إليها كورة وأول من مصرها أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي وجعلها وطنه. . وكانت الكرج مدينة متفرقة ليس لها اجتماع المدن. وأبنيتها ابنة الملوك: قصور واسعة متفرقة وهي ذات زرع ومواش. فأما البساتين والمنتزهات فليست بها وإنما فواكههم من بروجرد وغيرها وبنائهم من طين وهي مدينة طويلة نحو من فرسخ ولها سوقان على باب الجامع وسوق آخر بينهما صحراء (٤٤٦/٤).

كرج بغداد: حين تكاثر الناس في مدينة بغداد إثر انشائها أمر المنصور باخراج السوق من المدينة وتقدم إلى إبراهيم بن حبيش الكوفي، وخراسن بن المسيب اليماني بذلك. وأمرهما أن يبني ما بين الصراة ونهر عيسى سوقاً وأن يجعلها صفوفاً ورتب كل صف في موضعه. وقال: اجعلوا سوق القضايين في آخر الأسواق فانهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع. ثم أمر أن يبني لهم مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة ولا يدخلوا المدينة. . وقلد المنصور ذلك رجلاً يقال له الوضاح بن شبا، فبنى القصر الذي يقال له قصر وضاح والمسجد فيه. . ولم يضع المنصور على الأسواق غلة حتى مات. فلما استخلف المهدي أشار عليه أبو عبدالله حتى وضع على الحوانيت الخراج. . (وقد ضاقت بالأسواق أصحابها فتوسعوا في البناء وبنوا من أموالهم أسواقاً

أخرى . . وقد قيل أن السبب في نقلهم إلى الكرج أن دحاخينهم ارتفعت
واسودت حيطان المدينة وتأذى المنصور وقيل أنه (خاف توغل الجواسيس في
مدينته) (٤٤٨/٤) .

كرد فناخسره : أو فناخسره . وهو اسم عضد الدولة أبي شجاع بن
ركن الدولة البويهى وهي مدينة اختطها على نصف فرسخ من شيراز وشق
إليها نهراً كبيراً أجراه من مسيرة يوم انفق عليه الأموال العظيمة وجعل إلى
جنبها بستاناً سعته نحو فرسخ . ونقل إليه الصوفيين وصناع الخبز والديباج
وصناع البركانات وكتب اسمه على طرازها . واتخذ بها القواد دوراً وعقارات
جليلة وجعل لها عيداً في كل سنة يجتمع اليه للفسق واللهو . والآن قد
خربت بعد موته وبطلت رسومها . . وكان وصول الملك (عضد الدولة) إليها
سنة ٣٥٤ وجعل هذا اليوم عيداً يجتمع فيه الناس من النواحي للشرب
والقصف ويقيمون فيه في أسواق تستعد لذلك (٤٥٠/٤) .

الكرك : قلعة بناها الصليبيون على الضفة الشرقية من نهر الأردن ثم
فتحها صلاح الدين ومصرها الملك المعظم بن العادل الأيوبي والولاية
الأيوبيون من بعده حتى غدت مدينة، وحوها ربض . وقد زاد المعظم في
عمارتها وتحصينها ونقل إليها أرباب الصناعات ونصب الأشجار وأجرى
العيون (وهي ما تزال قائمة) (ابن شداد - الاعلاقة الخطيرة - قسم فلسطين
ص ٨٣) .

كرمة : قرية كبيرة ذات جامع ومنبر وخلق كثير وماء جار ونخل . من
نواحي طبرس (فارس) شادها ابن النجار الحافظ (٤٥٦/٤) .

كروخ : باتفتح بلدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ وهي مدينة
صغيرة . قال الأصبغخري : وأهلها شراة وبنائها طين وهي في شعب جبل .
وحدها مقدار عشرين فرسخاً كلها مشتبكة البساتين والمساجد والقرى

والعمارة (٤/٤٥٨).

كفرييا: هي مدينة بازاء المصيصة على شاطئ جيجان . وكانت مدينة كبيرة ذات أسواق كثيرة وسور محكم وأربعة أبواب كانت قد خربت قديما ثم جدد بناها الرشيد . وقيل بل ابتداء بناءها المهدي ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق ثم رفع المأمون غلة كانت على منازلها كالحانات أمر فجعل لها سور فلم يستتم حتى مات . فأمر المعتصم بإتمام وتثريته . . (وهي اليوم سنة ٦٢٠ : للروم) (٤/٤٦٨).

كفرتوثا: من قرى فلسطين قال البلاذري : كان كفرتوثا حصنا قديما فاتخذها ولد أبي رمثة منزلا فمدنوها وحصنوها (٤/٤٦٩).

كفرلاب: بلد بساحل الشام قريب من قيسارية بناء هشام بن عبد الملك . (٤/٤٧٠).

كمخ: بناها المنصور على جبهة جبال القفقااص للتصدي للخزر وقد أخرج سبعة آلاف من أهل السجون وبعث فجمع من كل بلد خلقا عظما وبفعله وبنائين فبنى مدن كمخ والمحمدية وباب واق (الطبري والبلاذري واليعقوبي).

كنكور: قلعة حصينة عامرة قرب جزيرة ابن عمر معدودة في قلاع الزوزان وهي لصاحب الموصل . تنسب إلى كنكور همذان : جباخ بن الحسين بن يوسف وأبي بكر الصوفي الكتكوري شيخ الصوفية بها (٤/٤٨٤).

الكوفة: المصر المشهور . . . ويسميتها قوم خد العذراء سميت الكوفة لاستدارتها . . . أو لاجتماع الناس بها . . . وأما تمصيرها وأوليته فكانت في أيام عمر بن الخطاب في السنة التي مصرت فيها البصرة سنة ١٧ هـ . وقيل سنة ١٨ لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة القادسية (وجمع سعد بعد ذلك

جنده إلى كويقة ابن عمر دون الكوفة فنقضوا . فكتب سعد بذلك إلى عمر فكتب إليه . . أن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة والبعير فلا تجعل بيني وبينهم بحرا عليك بالريف . (ودلوه على أرض تدعى سورستان) فأنتهى سعد إلى موضع مسجدها (وجعل مرمى السهم من هذا الموقع (هي حدود الابتعاد عنه) ثم علم دار أمارتها ومسجدها . وأسهم لأصحابه فيها فصارت خطط أهل اليمن في الشرق وخطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات التي حددها . وترك ما دون العلامات فخط فيها المسجد ودار الإمارة فلم يزل على ذلك . . قال ابن عباس كانت منازل أهل الكوفة قبل أن تبني أخصاصا من قصب إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها فإذا عادوا بنوها فكانوا يغزون ونساؤهم معهم . فلما كانت في أيام المغيرة بن شعبة بنت القبائل من لبن من غير ارتفاع ولم يكن لهم غرف . فلما كان في إمارة زياد بنوا أبواب الأجر فلم يكن في الكوفة أكثر أبواب الأجر من مراد والخزرج . وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد أن اختط موضع المسجد الجامع على عدة مقاتلتكم فخط على أربعين ألف إنسان . فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف إنسان وجاء بالأجر وجاء بأساطين من الأهواز . . وقدر بشر القرشي مولى بني أمية الكوفة فكانت ستة عشر ميلا وثلاثي ميل وذكران فيها خمسين ألف دار للعرب من ربيعة ومضر وأربعة وعشرين ألف دار لسائر العرب وستة آلاف دار لليمن . . اخبرني بذلك سنة ٢٦٤ . وقال الشعبي كنا نعد أهل اليمن اثني عشر ألفا وكانت نزار ثمانية آلاف . وولى سعد بن أبي وقاص السائب بن الأقرع وأبا الهياج الأسدي خطط الكوفة (واختار) ابن الأقرع المنتزهات والديرة الكبيرة (٤/٤٩١ - ٤٩٣) . وقد كان لها دور في الثقافة العربية وفي تخريج العلماء لا يقدر . يقول ابن حوقل : ومدينة الكوفة قريبة الأوصاف من البصرة وهواؤها أصح وماؤها أعذب . . إلا أنها خراج بخلاف البصرة لأن ضياعها قديمة وضياع البصرة أحياء موات . قبر علي بن

أبي طالب على فرسخين منها . وقد شهر أبو الهيجاء عبدالله بن حمدان هذا المكان وجعل عليه حصارا منيعا وابتنى على القبر قبة عظيمة مرتفعة الأركان من كل جانب لها أبواب وسترها بفانخ السطور ودفن حولها جلة سادات أبي طالب . . ويقول المقدسي : الكوفة قصبة جليلة خفيفة حسنة البناء جليلة الأسواق كثيرة الخيرات جامعة رفة . مصرها سعد ابن أبي وقاص وكان البلد في القديم الحيرة وقد خربت . . والجامع إلى ناحية الشرق على أساطين طوال من الحجارة الموصلة . بهي حسن . والنهر على طرفها من قبل بغداد . وهم أبار عذبية وهو بلد مختل قد ضرب أطرافه وقد كان نظيرا بغداد . . (المقدسي - أحسن التقاسيم - ١١٦ - ١١٧) .

الكويفة : تصغير الكوفة وتنسب إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب نزها حين قتل بنت أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة العبادي . وهي بقرب بزيقيا (في العراق) (٤/٤٩٦) .

كيش : مدينة في جزيرة كيش عمرها ابن عميرة (٣/٢٩٥) ويقول الحميري عنها : «جزيرة في وسط البحر ، بحر فارس ، مربعة طولها اثنا عشر ميلا في مثل ذلك عرضا . وكان وليها عامل من اليمن فحصنها وأحسن إلى أهلها وعمرها وأنشأ بها أسطولا فعزاه به بلاد اليمن الساحلية وأضر بالمسافرين والتجار ولم يترك لأحد مالا . . وانقطع بذلك السفر من عمان إلى عدن . وكان يغزو بهذا الأسطول مدينة الزابح بالهند . وأهل الهند يخافونه ويهابون شره (ويدارونه) . ولمدينة كيش زروع وأغنام وأبقار وكروم وبها مغايص اللؤلؤ الجيد (الحميري : ٥٠٥) .

لاردة : في ثغر الأندلس الشرقي وهي مدينة قديمة ابنتت على نهر يخرج من أرض جليقية . وهي بشرقي مدينة وشقة . وكانت مدينة لاردة قد خربت وأقمرت فجدد بنيانها اسماعيل بن موسى بن لب ، سنة سبعين

ومائتين . وحصنها منيع فلا ترام بقتال ولا يطمع فيها بطول حصار . وبأعلاه مسجد جامع متقن البنيان بني سنة ثمان وثمانين ومائتين . والحصن مشرف على فحوص عريض . . ومدينة لاردة حصينة على الجذوب ولها بساكن كثيرة وفواكه غزيرة وهي مخصوصة بكثرة الكتان . . وفحصها كثير الضياع والمزارع والمراعي ولا تخلو ضيعة منها أن يكون بها برج أو سرداب يمتنع فيه العامرون لها من العدو . . (الحميري ٥٠٧) .

لاعة : مدينة صغيرة في اليمن كانت قرية ثم دخلها دعاة الفاطميين ، أبو عبدالله الشيعي ، ومحمد بن الفضل الداعي سنة ٣٤٠ وجعلوها مدينة صغيرة قرمطية على نظام خاص لهم إلى أن انتزعها أسعد بن أبي يعفر (٧/٥) مع معلومات أخرى .

مزغان : مرفأ على المحيط الأطلسي . أنشئ في العهد الإسلامي في أقصى جنوب المغرب .

ماسة : مرفأ آخر كالمرفأ السابق وبجواره .

المباركية : قرية من قرى خوارزم (٥١/٥) .

المباركية : حصن بناه المبارك التركي أحد موالى بني العباس وبه قوم من مواليه (٥١/٥) .

المتوكلية : مدينة بناها المتوكل قرب سامراء بني فيها قصرا وسماه الجعفري أيضا سنة ٢٤٦ ، وبها قتل وانتقل الناس عنها إلى سامراء وخربت (٥٣/٥) .

المنقبة : حصن على ساحل البحر قرب المصيصة سمي المنقبة لأنه في جبال كلها منقبة فيها كوى كبار . كان أول من بنى الحصن هشام بن عبدالملك على يد حسان بن ماهوية الأنطاكي . ووجد في خندقه حين حفر

عظم ساق مفرط في الطول فينسب به إلى هشام (٥٤/٥).

مجريط : هي مدريد عاصمة اسبانيا بناها الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط الأموي في القرن الثالث الهجري فوق مستودعات من المياه الجوفية ، يقول الحميري : مدينة بالأندلس بناها الأمير محمد بن عبدالرحمن وهي آخر حيز الإسلام . وحصن مجريط من الحصون الجليلة وهو في بناء الأمير نفسه وخارج سور مجريط خندق (الحميري ٥٢٣) والإسم مشتق من كلمة مجرى (بالألف المائلة) ثم بالمقطع الأسباني (ite) وتعني الكثير . (خاتمة أوليفر آسين - تاريخ مدريد (العربية) ص ٨٩ ومحمد علي مكي مدريد العربية ص ٥٢) .

مجريط : مدينة بوادي الحجارة (في الأندلس) اختطها محمد بن عبدالرحمن بن الحكم (٦١/٥) فهل هي مجريط نفسها؟

محلة دقلا : هي مدينة مشهورة بالديار المصرية بين القاهرة ودمياط (وأعطى الإسم لمحلات أخرى لكن هذه) أكبرها وأشهرها ٦٣/٥ .

محلة منوف : وهي مدينة بالغربية ذات سوق (٦٣/٥) .

محلة شريقيون بمصر : وهي المحلة الكبرى وهي ذات جنبين أحدهما سندفا والآخر شريقيون (٦٣/٥) .

المحمدية : (بلد) من أعمال برقة من ناحية الإسكندرية .

المحمدية : مدينة بنواحي الزاب من أرض المغرب .

المحمدية : بالمغرب أيضا وهي مدينة المسيلة اختطها محمد بن المهدي الملقب القائم في أيام أبيه وذلك أن أباه أنقذه في جيش حتى بلغ تاهرت فقتل وتهلك . ومر بموضع المسيلة فأعجبه فخط برمحه وهو راكب فرسه صفة مدينته وأمر علي بن حمدون الأندلسي ببناؤها وسماها بالمحمدية باسمه . وكانت خطة

«لبنى كملان قبيلة من البربر فأمر بنقلهم إلى فحص القيروان فهم كانوا أصحاب أبي يزيد الخارجي عليه، فأحكمها ونقل إليها الذخائر وذلك سنة ٣١٥ (٦٤/٥ - ٦٥).

المحمدية : مدينة بشمالى أرمينية على جبهة الخزر بناها المنصور مع مدينتي كمخ وباب واق. أتى بالفعللة لها من كل مكان وأكثر فيها الأجناد ورتب المقاتلة من أهل النجدة من العراق والجزيرة والشام وأجرى عليهم الأرزاق التي كان يجريها عليهم بنو أمية من قبل. وأسكن حولها مجموعات قبلية جديدة واصطنع من الأرض جماعات أخرى وأقام بالقلع والحصون سكاناً تقوى بهم المدن وتنمو.

المحمدية : هي الايتاخية وتعرف بايتاخ (الغلام التركي) ثم سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه المنتصر. وكانت تعرف أولاً بدير أبي الصفرة وهم قوم من الخوارج وهي بقرب سامراء (٦٥/٥).

المحمدية : لما قدم المهدي الري في خلافة المنصور بنى مدينة الري التي بها الناس اليوم (وبنى بها المسجد الجامع) وجعل حولها خندقاً وبنى فيها مسجداً جامعاً وجرى ذلك على يد عمار بن أبي الخصيب وكتب اسمه على حائطها وتم عملها سنة ١٥٨ وجعل لها فصيلاً يطيف به فارقين آخر، وسماها المحمدية. فأهل الري يدعون المدينة الداخلة المدينة، ويسمون الفصيل المدينة الخارجة والحصن المعروف بالزبيدية في داخل المدينة بالمحمدية. وقد كان المهدي نزله أمام كونه بالري وكان مطلاً على المسجد الجامع ودار الإمارة ثم جعل بعد ذلك سجناً ثم حزب فعمره رافع بن هرثمة سنة ٢٧٨ ثم خربه أهل الري بعد خروج رافع عنها (٥٠٠٠ / ٦٥).

محمد أباز : قرية على باب نيسابور بينها فرسخ (٦٤/٥).

المختارة : مدينة على دجلة على مسيرة يوم من البصرة بالقرب من
عبادان سماها بذلك محمد بن أحمد وهو المعروف بصاحب الزنج المتغلب على
البصرة سنة ٢٥٨ . وكان حاصرها (ودمرها) في خلافة المعتمد والمهتدي . . .
وكان هذا الدعي سكن المختارة بسودانه . وكانت مدينة إلى أن قتل ست
عشرة مدينة (الحميري ٥٢٥) .

مخيل : حصن قرب برقة بالمغرب فيه جامع وسوق عامرة وحواليه
جباب ماء وبرك وليس ينبسط فيه وهو وادي الشعر بينه وبين اجدايبه خمس
مراحل وكذلك بينه وبين انطابلس مدينة برقة (٧٣/٥) .

مدينة : أسسها بلجيين بن زيري على الهضبة شرقي نهر الشليف
بالمغرب بعد أواسط القرن الرابع / ١٠ م .

مدينة جابر : ويقال قصر جابر بين الري وقزوين من ناحية دستبي
منسوبة إلى جابر أحد بني زمان بن تيم الله (٧٩/٥) .

مدينة بني جناد : وهي في شرقي مدينة مرسى الدجاج (على ساحل شمالي
أفريقيا) لكنها أصغر منها (١٠٧/٥) .

مدينة المبارك : هي بقزوين استحدثها مبارك التركي وبها قوم من
مواليه ، وأظن مباركاً من موالي المعتصم أو المأمون (٧٩/٥) .

مدينة مصر : ومن مشاهير خطط مصر خطة عبدالعزیز بن مروان
وهي التي في سوق الحمام غربي الجامع وتسمى الآن بالمدينة (٧٩/٥) .

مدينة موسى : بقزوين كان موسى الهادي سار إلى الري في حياة أبيه
المهدي وقدم منها إلى قزوين فأمر ببناء مدينة بإزاء قزوين فبنيت فهي تدعى
مدينة موسى الهادي ، وابتاع أرضاً تدعى رستم أباد فوقفها على مصالح
المدينة (٨٠/٥) .

مدينة يثرب : هي المدينة المنورة وقد عمرت وتمصرت بعد هجرة الرسول الأعظم إليها .

المذيخرة : قلعة حصينة في رأس جبل صبر وفيها عين في رأس الجبل يصير منها نهر يسقي عدة قرى . وهي قريبة من عدن يسكنها آل مناخ . . . فيها المزارع والمياه والزعفران لا يسلك إليها إلا من طريق واحد . ولما ملك الزيادي في اليمن واختط زبيد (رفده المأمون) بألف فارس فيهم من مسودة خراسان سبعمائة . . . وتقلد جعفر مولى زياد هذا الجبل واختط به مدينة يقال لها المذيخرة ذات أنهار ورياض واسعة . وكان جعفر هذا من الكفاة الدهاة (٩١/٥) .

المحدثة : بناها بنو ربيعة ومضر بظاهر أسوان حين اخرجهم بنو الاخير من ديارهم بالحجاز فسكنوا بين النيل وبحر القلزم وصارت لهم ولتميم كالدار التي لم يزالوا بها وابتنوا بها غير منبر (ابن حوقل ص ٣٨) .

مراغة : بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان . وكانت تدعى أفران هرود . وعسكر مروان بن محمد عندها فبنى بالقرب منها قرية مراغة وقد ألقاها أهلها إلى مروان فابتناها . وكلاة أهلها فكثروا بها للتقريب وعمروها ثم أنها قبضت مع ما قبضت مع ما قبض من ضياع بني أمية وصارت لبعض بنات الرشيد فلما ولي خزيمة بن خازم أرمنية وأذربيجان في خلافة الرشيد بنى سدها وحصنها ومصرها وأنزل بها جندا كثيفا ، ثم لما ظهر بابك الخرمي لجأ الناس إليها فترلوها وسكنوها وتحصنوها بعد ورم سورها في أيام المأمون عدد من عماله منهم أحمد بن محمد بن الجنيد فرزنداء ، وعلي بن هشام ثم نزل الناس بربضها . . كان فيها أدباء وشعراء محدثون وفقهاء . ولم تزل قصبتها (إلى اليوم سنة ٦٢٠) وبها آثار وعمائر ومدارس وخانكاهات حسنة (٩٣/٥) .

مراكش : أعظم مدينة بالمغرب وأجلها وبهار يرملك بني عبدالمؤمن (الموحدين) وهي في الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر . وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين الملقب بأمير المسلمين في حدود سنة ٤٧٠ . . وكان موضع مراكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص على القوافل . . . وبقيت مدة يشرب أهلها من الآبار حتى جلب إليها ماء يسير من ناحية أغمات يسقي بساتين لها . وكان أول من اتخذ البساتين عبد المؤمن بن علي يقولون : ابن بستانا منها طوله ثلاثة فراسخ . . (٩٤/٥) . ويذكر الحميري عن مراكش أن ابن تاشفين اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال واخططها له ولبني عمه . وهي في وطاء من الأرض وليس حولها جبل إلا جبل صغير ومنه قطع الحجر الذي بنى منه قصر علي بن يوسف أمير المؤمنين : وبنّاؤها بالطين والطوب والطواي . ثم استخرجوا مياهها فكثرت فيها البساتين والجنان واتصلت عمارات مراكش وحسن قطرها ثم بنى أسوارها علي بن يوسف سنة أربع عشرة وخمسمائة . . ومياه مراكش قريبة من قامتين من وجه الأرض ، وبساتينها تسقى بالآبار ينفذ بعضها إلى بعض حتى تخرج على وجه الأرض . . وإنما بناها صاحبها ليملك منها جبل درن لكثرة من يعمره . وكان اسلام قبائل الصحراء في سنة ٤٣٥ ، ثم ملكها عبد المؤمن بن علي وأنقضت دولة بني تاشفين بعد أن كانت دار إمارة لمتونه وقاعدة مملكتهم . وكان بها قصور كثيرة بجملة من الأمراء والقواد وخدام الدولة . وكانت أزقتها واسعة وأرجاؤها فسيحة وأسواقها حافلة وسلعها نافقة . وكان بها جامع بناه يوسف بن تاشفين وهو صاحب الزلاقة (المعركة المعروفة) فلما ملكها عبد المؤمن تركوا ذلك الجامع معطلا مغلق الأبواب . . لا يرون الصلاة فيه وينوا لأنفسهم جامعاً يصلون فيه بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء . . وكان ذلك لمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالات . وكان علي بن يوسف قد جلب ماء من عين بينها وبين المدينة أميال

فلم يستتم ذلك . فلما تغلب عبد المؤمن . . . تمموا جلب الماء إلى داخل المدينة وصنفوا منه سقايات بقرب دار الحجر وهي الحظيرة التي فيها القصر منفردا متحيزا بذاته . والمدينة بخارج هذا القصر . وطولها اشفا من ميل وعرضها قريب ذلك . . . وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر تانسيفت وليس بالكبير ولكنه دائم الجرى . وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بن علي هذا النهر فنظرة عجيبة متقنة البناء . وعظمت مراكش في الدولتين فكانت أكبر مدن المغرب الأقصى ، وعظمت تجارتها وتنافس الناس في البناء فيها ، وبنيت فيها الفنادق والحمامات وفيها قيسارية عظيمة البنيان وهي أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعنابا وفواكه وأكثر شجرها الزيتون . . . وجعل فيها مارستان للمرضى وذلك سنة ١١٩٤/٥٨٥ ، ثم استدعى علماء الحديث وأهل الفنون المختلفة فجلبوا من الأقطار وقصدها التجار من كل جهة فصارت حاضرة المغرب (الحميري ص ٥٤٠) .

مرباط : فرضة مدينة ظفار وبينها خمسة فراسخ . ولما لم تكن ظفار مرسى ترسي فيه المراكب كان لمرباط مرسى جيد كثر ذكره على افواه التجار وهي مدينة مفردة بين حضرموت وعمان على ساحل البحر لها سلطان برأسه ليس لاحد سلطان عليه (٩٧/٥٠٠) .

مرسى الدجاج : بينها وبين اشير أربعة أيام . وهي مدينة قد احاط بها البحر من ثلاث نواح وقد ضرب بسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية ومن هناك يدخل إليها . وأسواقها ومسجد جامعها من داخل ذلك السور له باب واحد ولها مرفأ غير مأمون لضيقه . يسكنها الأندلسيون من كتامه وبشرقيها مدينة بني جناد وهي أصغر منها (٩٧/٥) .

مرسى الزيتونة : (بلد) من نواحي أفريقية بينه وبين ميله يوم واحد (١٠٧/٥) .

مرسى علي : مدينة على سواحل جزيرة صقلية (١٠٧/٥).

مرسيه : مدينة بالأندلس من أعمال تدمير اختطها عبدالرحمن بن الحكم بن هشام وسماها تدمير بتدمر الشام فاستمر الناس على اسم موضعها الأول. وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها وبها كان منزل ابن مردنيش وانعمرت في زمانه حتى صارت قاعدة الأندلس. (١٠٧/٥)، ويضيف الحميري : «أنها قاعدة تدمير واتخذت قاعدة العمال وقرار القواد». وكان الذي تولى بنائها... جابر بن مالك بن لبيبة (خرج العهد إليه فيها في ٤ ربيع الأول سنة ٢١٦ فلما بناها ورد كتاب الأمير عبد الرحمن علي جابر) (في الأصل عامر وهو خطأ) بن مالك بخراب مدينة ألة المضربة واليهانية (وتقاتلهم). ومرسية على نهر كبير يسقى جميعها كنييل مصر، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة. وهي راحية رخيصة الفواكه كثيرة الشجر وبها معادن فضة غزيرة وكانت تصنع فيها البسط الرفيعة الشريفة ولأهلها حذق بصفتها وتجويدها (الحميري ٥٣٩).

مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخذق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالرواني بناه مروان بن محمد... ثم أحدث الرشيد بعده سائر المدينة. وبها ربض يعرف بالهارونية وهي مما يلي الحدث (١٠٧/٥).

مرقب : بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. قال أبو غالب همام بن المهذب المعري في تاريخه : «وفي سنة ٤٥٤ فيها عمر المسلمون الحصن المعروف بالمرقب بساحل جبله وهو حصن يحدث كل من رآه أنه لم ير مثله». وأجمع رأي أصحابه على الخيلة بالروم فباعوهم بمال عظيم (وقبضوا المال فلما جاء ٣٠٠ من الروم لاستلامه) قتلوهم وأسروا آخرين منهم وحصل المسلمون على الحصن والمال (١٠٨/٥ - ١٠٩).

مرقية : قلعة حصينة في سواحل الشام كانت خربت فجددها معاوية
(بن أبي سفيان) ورتب فيها الجند وأقطعهم القطائع (١٠٩/٥).

المرية : مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس . كانت هي
وبجانة بابي الشرق منها يركب التجار وفيها تحمل مراكب التجار . وفيها مرفأ
ومرسى للسفن والمراكب يضرب ماء البحر سورها . ويعمل بها الوشي
والديباج . دخلها الفرنج سنة ٥٤٢ من البر والبحر ثم استرجعها المسلمون
سنة ٥٥٢ وفيها يكون ترتيب الاسطول الذي للمسلمين ومنها يخرج إلى غزو
الإفرنج (١١٩/٥) . وقد بناها عبدالرحمن الناصر بن محمد بعد أن كانت
قرية في سنة ٩٥٥/٣٤٤ لتكون مرصدا بحريا (الروض المعطار - ١٨٣ -
١٨٤) فاتخذها العرب مرابطا وابتنت بها محارس وهي أشرف مراسي
الأندلس وأعمارها . من أجل امصارها وأشهرها . وعليها سور حصين بناه
أمير المؤمنين عبدالرحمن . وعلى ربضها المعروف بالمصلى سور تراب بناه
خيران العامري وكان قد أوصل إلى هذا الربض ماء العين إلى هناك واجراه
في سقاية ثم أوصله محمد بن صمادح إلى سقاية عند جامعها داخل المدينة ،
واستطرد منه جدولا يصب في أسفل القصبة ويرقع بالدواليب إلى أعلاه . . .
والبحر بقبلي المرية وقصبتها بجوفها وهو حصن منيع لا يرام وله باب قبلي
يفضي إلى المدينة (على) مسافة ٢٨٠ ذراعا وعرض ممثي السور الدائر
بالقصبة خمسة أشبار . . . وكانت المرية في أيام الملتهمين مدينة الإسلام وبها
من الصناعات كل غريبة وكان بها من طرز الحرير ٨٠٠ طراز . . . ومن
صنوف آلات النحاس والحديد ما لا يحمد . وكانت تقصدها مراكب التجار
من الاسكندرية والشام ولم يكن بالأندلس أكثر من أهلها مالا . والمرية في
ذاتها جبلان بينهما خندق معمور وعلى الجبل الأول قصبتها المشهورة بالحصانة
وفي الجبل الثاني ربضها والسور يحيط بالمدينة والربض ولها أبواب عدة وفيها
ألف فندق إلا ثلاثين فندقا . . . (الحميري ٥٣٨).

المسيلة : مدينة بالمغرب تسمى المحمدية اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي في سنة ٣١٥ وهي يومئذ ولي عهد أبيه وقد سلفت (١٣٠ / ٥).

المسيلة : وهي مدينة محدثة استحدثها (في المغرب) علي بن الأندلسي أحد خدم آل عبيد (الفاطميين) وعبيدهم . وعليها سور حصين من طوب ولها واد يقال له وادي سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض وليس بالعميق ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم . وهم السفرجل المعتق يحمل إلى القيروان وأصله من تنس . ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي من الدواب والنعم والبقر . وعليها (على المدينة) من البربر (عدة قبائل) وعليهم صدقات وخراج كثيرة (ابن حوقل ٨٥).

ولدى الحميري أنها مدينة جليلة على نهر يسمى نهر سهر في بساط من الأرض . وأسس المسيلة أبو القاسم اسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سمالك الجذامي المعروف بابن الأندلسي فلما أتمها أمره الشيعي عليها . فلم يزل بها أميرا حتى مات في فتنة أبي يزيد وبقي ابنه جعفر وولى الزاب كلها . . والمسيلة كثيرة النخل والبساتين تشققها جداول المياه العذبة . وكانت مدينة عظيمة على نظر كبير وحوها قبائل من البربر . وبها أسواق وحمامات ويجود عندهم القطن وهي كثيرة اللحم . وقيل أن المسيلة المستحدثة أحدثها علي بن الأندلسي في ولاية ادريس بن عبدالله بن الحسن وهي عامرة في بساط من الأرض ولها مزارع ممتدة . ولأهلها سوائم وخيل وأبقار وعيون وفواكه وبقول ولحم ومزارع قطن وقمح وشعير . وبها قوم من البربر والتجار . وبها ماء كثر منبسط على وجه الأرض عذب وفيه سمك . . وأهل المسيلة يفتخرون به . . (الحميري ٥٥٨).

مليانة : مدينة في أحواز أشير من أرض المغرب بين تنيس والمسيلة وبقرب نهر شلف . وهي مدينة رومية فيها آثار وذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء جدها زيري بن مناد وأسكنها ابنه بلكين . وهي عامرة ومشرفة على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنو واريفن وغيرهم . وهي عامرة أهلة ولها أبار عذبية وسوق جامعة ويقعنها كريمة ومزارعها خصيبة . ونهرها يسقي أكثر من مزارعها وجناتها . ولها أرحاء على نهرها . ولأقاليمها حظ من سقي شلف وعلى ثلاثة أميال منها جبل وانشريس (الحميري ٥٤٧) .

مليلة : من أرض طنجة وهي قريبة من نهر ملوية بالمغرب . وهي مدينة مسورة بسور حجارة وداخلها قصبة مانعة وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق وهي مدينة قديمة ويقال أن موسى بن أبي العافية المكناسي جدها ، وسكنها قوم يقتربون على من يدخلها من التجار فمن أصابته القرعة كان تجره على يديه فيحميه ممن يريد ظلمه ويأخذ منه على ذلك الأجر ويأخذ الهدية لتزوله عنده . . وذكر أن عبدالرحمن الناصر افتتحها سنة أربع عشرة وثلاثمائة . وإلى هذه المدينة وقع ادريس بن عبدالله بن الحسن (مؤسس دولة الادارسة) بعد وقعة فح فاستجاب له من بها وبأعراضها من البربر (الحميري ٥٤٦) .

المعمورة : اسم لمدينة المصيصة نفسها وذلك أنها خربت بمجاورة العدو فلما ولي المنصور شحنها بثمانمائة رجل ، فلما دخلت سنة ١٣٩ أمر بعمران المصيصة وكان حائطها قد تشقت بالزلازل وأهلها قليلون في داخل المدينة فبنى سورها وسكنها أهلها في سنة ١٤٠ وسأها المعمورة وبنى فيها مسجداً جامعاً . (١٥٩/٥) .

مكناسة : مدينة في المغرب في بلاد البربر على البر الأعظم بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق . وهي مدينتان صغيرتان على ثنية

بيضاء بينها حصن جواد اختط أحدهما يوسف بن تاشفين ملك المغرب من المثلثين والأخرى قديمة وأكثر شجرها الزيتون . ومنها إلى فاس مرحلة واحدة . . . حصينة مكيئة في طريق المار من فاس إلى ملا . . . (١٨١/٥) .

ولدى الحميري أن مكناسة الزيتون مدينة في المغرب . . . وهي أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون . الممدن يسمى تاجارات ، وتفسيره المحلة وهو محدث البناء يشرف على بطاح وبقاع مملوءة بفيضات الثمار وأكثرها الزيتون ولذلك نسبت إليه . وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة وهي مدينة جليلة منها الأسواق الخفية . وأنشأ فيها بعض ملوك عبدالمؤمن بحاير عظيمة في نهاية الاتساع وجلب ماء نهرها وغرست زيتونا وكروما وزيتها أكثر زيت في المغرب . . . وهي كريمة الأرض طيبة المدرة بل هي غربلاد المغرب أنظارها واسعة وقراها عامرة وعمائرها متصلة تشقها الأنهار والمياه السائحة والعيون كثيرة العذبة وتطحن عليها الأرحاء وتدخل الحمامات . ومكناسة مرتفعة عن الأرض يجري في شرقها نهر صغير عليه الأرحاء وتتصل بها عمارات جنات وزروع ولها مكاسب وأحوال صالحة وسميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه عند حلولهم بالمغرب ، واقطاعه لكل ابن من بنيه بقعة يعمرها مع ولده . فكل هذه المواضع التي أنزلهم فيها تتجاور ويتقارب بعضها من بعض وبلاد مكناسة لها أسواق وحمامات وديار حسنة والمياه تخرق أزقتها . . (الحميري ٥٤٤) .

ملطية : في سنة ١٤٠ وجه أبو جعفر المنصور عبدالوهاب بن إبراهيم الإمام لبناء ملطية فأقام عليها سنة حتى بناها وأسكنها الناس وغزا الصائغة (وهي في الأصل قديمة) (١٩٣/٥) وقد فتحها الدمستق سنة ٣٢٢ وهدم سورها وقصورها .

منارة : من ثغور سرقسطة بالأندلس (٢٠١/٥) .

المنستير: موضع بين المهديّة وسوسة بأفريقية وهي خمسة قصور يحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم . . قال البكري: ويقال أن الذي بنى القصر الكبير في المنستير هرثمة بن أعين سنة ١٨٠، وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير. وبالمنستير البيوت الحجر والطواحين الفارسية ومراجل الماء. وهو حصن كبير عال متقن العمل وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه وفيه جماعة من الصالحين المرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه .

المنصورة: في السند وهي قصبتها . مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ذات جامع كبير سواريه ساج ولهم خليج من نهر مهران . كان اسمها وهمان أباذ . قال المسعودي سميت المنصورة لأن منصور بن جمهور الكلبي بناها فسميت به ، وكان عاملا لبني أمية ثم خالف (العباسيين) . وقال المهلب سميت المنصورة لأن عمرو بن حفص الهزار مرد الكلبي بناها أيام المنصور من بني العباس فسميت به . وفي أهلها مروة وصلاح ودين وتجارا وشربهم من نهر يقال له مهران وهي شديدة الخر . . (٢١١/٥) .

المنصورة: في البطيحة (بالعراق) عمرها فيما أحسب مهذب الدولة في أيام بهاء الدولة بن عضد الدولة القادر بالله (آخر القرن الرابع) وقد خربت ورسومها باقية . . . (٢١١١/٥) .

المنصورة: وهي مدينة خوارزم القديمة كانت على شرقي جيحون مقابل الجرجانية . . أخذها الماء حتى انتقل أهلها بحيث هم اليوم .

المنصورة: مدينة بقرب القيروان (من أفريقية) استحدثها المنصور بن القائم المهدي (الفاطمي) سنة ٣٣٧ وعمر أسواقها واستوطنها ثم صارت منزلا للملوك . . الذين زعموا أنهم علويون (فاطميون) . . ولم تنزل منزلا لملوك أفريقية من بني باديس حتى خربتها العرب (من بني هلال) لما دخلت

افريقية وخربت بلادها بعيد سنة ٤٤٢ فكانت هي فيما خربت في ذلك الوقت . وقيل سميت بالمنصورية بالمنصور بن يوسف بن زيري ، جد بني باديس وأكثر ما يسمون هذه التي بافريقية خاصة المنصورية بالنسبة (٢١٢/٥) .

المنصورة بمصر : بلدة أنشأها الملك الكامل بن العادل الأيوبي بين دمياط والقاهرة ورابط بها في وجه الافرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة ٦١٦ ولم يزل بها في عساكر . وأعانته أخواه الأشراف والمعظم حتى استنقذ دمياط في رجب سنة ٦١٨ .

المنصورة باليمن : بلدة . . بين الجند وبقبل الحمراء كان أول من أسسها سيف الاسلام طغتكين بن أيوب وأقام بها إلى أن مات .

منية أبي الخصيب : (مولى أبي جعفر المنصور؟) مدينة كبيرة حسنة كثيرة الأهل والسكن على شاطئ النيل في الصعيد الأعلى . أنشأ فيها اللمطي أحد الرؤساء جامعا حسنا . . (٢١٨/٥) .

منية الشيرج : بلدة كبيرة طويلة ذات سوق بينها وبين القاهرة فرسخ على طريق الاسكندرية (٢١٨/٥) .

مدينة موسى : حين ولي سعيد بن العاص الكوفة غزا الديلم وقدم قزوين فمصرها وجعلها مغزى أهل الكوفة وحين سار المهدي إلى الري قدم قزوين وأمر ببناء مدينة بإزائها فهي تعرف بمدينة موسى وابتاع أرضا يقال لها رستم آباد ووقفها على مصالح المدينة وكان عمرو الرومي تولاهم ثم تولاهم بعده ابنه محمد وكان المبارك بنى بها حصنا سماه المباركية وبه قوم من مواليه (٣٤٣/٤) .

موسىاباد: قرية بالري منسوبة إلى موسى الهادي لأنه أحدثها
(٢٢٢/٥).

الموصل: مدينة غربي دجلة صحيحة التربة والهواء وشرب أهلها من
مائها. وفيها نهر يقطعها في وسطها اتخذه بنو أمية (فتح زمن هشام بن
عبد الملك) وبين مائها ووجه الأرض. نحو ستين ذراعاً وزائد وناقص. .
وهي مدينة أبنيتها بالحصى والحجارة. كبيرة غناء وأهلها عرب وهم بها خطط
وكان بها جنس من الأسواق الاثنان والأربعة والثلاثة. مما يكون في السوق
المائة حانوت وزائد، وبها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب
والساحات والعمارات ما دعت إليها سكان البلاد النائية فقطفوها وجذبتهم
برخصها وميرها وصلاح أسعارها. . ولما تملك بنو حمدان ورجاهم غرسوا
فيها الأشجار وكثرت الكروم وغزرت الفواكه وغرست النخيل والخضار. .
وبها مسكن سلطان الجزيرة ودواوينها ومجتمى أموالها وارتفاعها ولها أقاليم
ورساتيق ومدن كثيرة مضافة إليها. (ابن حوقل - صورة الأرض - ١٩٨ -
٢٠٠). والنص طويل هام وفيه تفاصيل الخراج والسكان.

ويقول المقدسي: «بلد جليل حسن البناء. صحيح الماء كبير الإسم
قديم الرسم. حسن الأسواق والفنادق كثير الملوك والمشايخ. . . وله منارة
وخصائص وثمار حسنة وحمامات سرية ودور بهية. غير أن البساتين بعيدة
وريح الجنوب مؤذية وماء النهر بعيد المستقي والبلد شبه طيلسان مثل البصرة
ليس بالكبير. في ثلثه شبه حصن يسمى المربعة على نهر زبيدة ويعرف بسوق
الأربعاء داخله فضاء واسع به يجتمع الأكره والحواصيد. على كل ركن فندق
وبين الجامع والشط رقبة سهم. . . وأكثر الأسواق مغطاة. . . وقصر الخليفة
على نصف فرسخ من الجانب الآخر عند نينوى القديمة. . . (المقدسي
ص ١٣٨).

ويقول ياقوت (في القرن السابع): المدينة المشهورة العظيمة احدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كبرا وعظما وكثرة خلق وسعة رفعة فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان . . . وكثيرا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظيمة ثلاث: نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل مالا يمر بها . . . وهي مدينة قديمة الأس . . . كان اسمها أيام الفرس نو أردشير. ثم كان أول من عظمها وألحقها بالأمصار وجعل لها ديوانا برأسه ونصب عليها جسرا ونصب طرفاتها وبني عليها سورا، مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية . . . وكان لها ولاية رساتيق وخراج مبلغه أربعة آلاف ألف درهم . . . والآن (سنة ٦٢٠) فقد عمرت وتضاعف خراجها وكثر دخلها . . . وليس للموصل عيب إلا قلة بساتينها وعدم جريان الماء في رساتيقها وشدة حرها في الصيف وشدة بردها في الشتاء . فأما ابنتهم فهي حسنة جيدة وثيقة بهيمة المنظر لأنها تبنى بالنورة والرخام ودورهم أزواج وسرايب بنية، ولا يكادون يستعملون الخشب في سقفهم البتة وقل ما عدم شيء من الخبرات في بلد من البلدان إلا وجد فيها . وسورها يشتمل على جامعين تقام فيهما الجمعة أحدهما بناء نور الدين محمود وهو في وسط السوق وهو طريق الذهاب والجائي مليح كبير والآخر على نشر من الأرض في صقع من أصقاعها قديم وهو الذي استحدثه مروان بن محمد . . . (٢٢٣/٥ - ٢٢٤).

المهدية: (بأفريقيا) . . . اختطها (الفاطمي) وهي على ساحل بحر الروم داخلية فيه ككف على زند - عليها سور عال محكم كأعظم ما يكون يمشي عليه فارسان عليها باب من حديد مصمت مصراع واحد تأتق المهدي في عمله . . . وقد خرج المهدي بنفسه سنة ٣٠٠ یرتاد موضعاً يبني فيه مدينة من خارج يخرج عليه وأراد موضعاً حصينا حتى ظفر بموضع المهدية وهي جزيرة متصلة بالبر . . . فبناها وجعلها دار مملكة وحصنها بالسور المحكم

والأبواب الحديد المصمت وجعل في كل مصراع من الأبواب مئة قنطار ولها بابان بأربعة مصاريع . لكل باب منها دهليز يتسع خمسمائة فارس وكان شروعه في اختطاطها سنة ٣٠٣ . قال البكري وكمل سورها في ستة خمسة وانتقل إليها سنة ثمان في شوال . ولم تزل دار مملكة لهم إلى أن ولي اسماعيل بن أبي القاسم سنة ٤٤ فسار إلى القيروان محاربا لأبي يزيد واتخذ مدينة صيرة واستوطنها بعد أبيه معد . وعمل فيها مصانع واحتفر أبارا وبني بها قصورا عالية . . . وجعل لمدينة المهدي بابا حديد لا خشب فيها كل باب وزنه ألف قنطار وطوله ثلاثون شبرا وكل مسبار من مساميره ستة أرتال وجعل فيها من الصهاريج العظام . وأهل تلك النواحي يسمونها مواجل : ثلاثمائة وستين موجلا غير ما يجري إليها من القناة التي فيها . والماء الذي بالمهدية جلبه عبیدالله (المهدي) من قرية ميانس . . . ويصب في المهديّة في صهريج داخل المدينة عند جامعها ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب . وكذلك يسقى أيضا من قرية ميانس من الأبار بالدواليب يصب في محبس يجري منه في تلك القناة . قال : ومرسى المهديّة منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركبا . على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد فإذا أريد ادخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يمدونها كما كانت تجيسا لها . ولما فرغ من ذلك قال : اليوم أمنت على الفاطميات . يعني بناته . . . أقام بها ثم عمر الدكاكين ورتب فيها أرباب المهن كل طائفة في سوق فنقلوا إليها أموالهم فلما استقام ذلك أمر بعمارة مدينة أخرى إلى جانب المهديّة وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان وأفردها بسور وأبواب وحفظه وسماها زويلة وأسكن أرباب الدكاكين في البزازين وغيرهم فيها بحرهم وأهاليهم . وقال : إني فعلت ذلك لأمن عائلتهم وذلك أن أموالهم عندي وأهاليهم هناك فإن أرادوني بكيدهم بزويلة كانت أموالهم عندي وإن أرادوني بكيدهم في المهديّة خافوا في حرمهم هناك وبنيت ببني

وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا . . . وشرب أهلها من الآبار
والصهاريج . . . ومهما ذكرنا من حصانتها فإن أحوال ملوكها تناقصت حتى
انتهى الأمر إلى أن أنفذ روج صاحب صقلية جرجى إليها في سنة ٥٤٣
فاخلاها الحسن بن علي بن يحيى حفيد المعز بن باديس وخرج هاربا . وبقيت
بيد الإفرنج اثني عشر سنة حتى قدم عبد المؤمن في سنة ٥٥٥ إلى أفريقية
فاستردها في أسرع وقت . . . (٢٢٩/٥ - ٢٣١) .

موزار: حصن ببلاد الروم استجد عمرته هشام بن عبد الملك بسبب
قطعهم الطريق فغمره مسلحة للمسلمين ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من
الخراجة وأقام في بفراس مسلحة أخرى ٢٢١:٥ .

المونسية: قرية بالصعيد على شرقي النيل دون قوص بيوم أنشأها
مونس الخادم مملوك المقتصد في أيام المقتدر بالله أيام قدومه إلى مصر لقتال
المغاربة (أوائل القرن الثالث) (٢٢٨/٥) .

المهدية: في المغرب اختطها عبد المؤمن بن علي قرب سلا (٢٢٩/٥) .

ميلة: مدينة صغيرة أمر بهدم سورها المنصور بن المهدي الفاطمي
حين ثارت كتامة المنطقة عليه وسير أهلها إلى مدينة بانماية . . . فلقبهم
ماكس بن زيوري فنبههم جميع ما معهم . وبقيت ميلة خرابا ثم عمرت بعد
ذلك وسورت وجعل فيها سوق وحمامات . في وسطها عين تعرف بعين أبي
السباع مجلوبة تحت الأرض من جبل بني سازوت (٢٤٤/٥) .

ناجية: مدينة صغيرة لبني أسد وهي طوية لبني أسد في بلاد العرب
(٢٥٠/٥) .

النجف: قال السهيلي: بالفرع عينان يقال لأحدهما الربض وللأخرى
النجف تسقيان عشرين ألف نخلة وهو بظهر الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء

أن يعلو الكوفة ومقابرها . وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٢٧١/٥) .

وقد تزايد السكن حول الضريح وأنشيء على عمارة حسنة بقبة عظيمة في القرن الرابع بتشجيع البويهيين وبنيت المساجد . وفي العهد العباسي الأخير بذل الخليفة الناصر عناية فائقة بمدينة النجف . وشملت المدينة حركة عمرانية واسعة وفتحت المدارس الدينية وازداد توسع النجف في العصرين الأيلخاني والجلاتري سواء في العمران أو في اعمار المدارس والخانقافات ، وشق الأنهار وبناء الدور وتكاثر الأسواق (انظر مسكوية - تجارب الأمم ٤٠٥/٦ وابن جبير الرحلة ١٦٧ وابن بطوطة : الرحلة ١٧٦) .

نفزاوة : مدينة من أعمال افريقية . قال البكري : وتسير من القيروان ستة أيام وبمدينة نفزاوة عين تسمى البربرية وهي كبيرة لا يدرك قعرها . ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة ، وهي كثيرة النخل والثمار وحواليها عيون كثيرة وفي قبلتها مدينة أزلية تعرف بالمدينة عليها سور وبها جامع وسوق (٢٩٦/٥) .

النيل : مدينة أنشئت في عهد الحجاج على فرع دجلة الذي سمي بالنيل في السواد والذي يصل دجلة بالفرات وقد أصبحت المدينة الرئيسية في المنطقة أواخر العصر الأموي .

مدينة القصور : في افريقية .

مدينة النيل : (نيل العراق قرب واسط) مصرها الحجاج بن يوسف حين احتفر نهر النيل (الواصل بين الفرات ودجلة) (٣٤٨/٥) .

مدينة سالم : في الأندلس ولها سور عظيم ورستاق واقليم واسع وناحية كثيرة الماشية رفة في جميع أسبابها فائضة الخير واسعته ، وهي أكثر

كور الأندلس حربا وغزوا. (ابن حوقل ١١١ - ١١٢).

وادي الحجارة: مدينة كبيرة وثغر مشهور الحال سور بحجارة ذات أسواق وفنادق وحمامات وحاكم ومخلف وبها يسكن ولاية الثغور. . . . وعليها أكثر جهاد حليقية (ابن حوقل ١١١).

واسط (الحجاج): إنها اعظمها وأشهرها (أي المدن المسماة بواسط).
شرع الحجاج في عمارتها في سنة ٨٤ و فرغ منها في سنة ٨٦ في العام الذي مات به عبدالملك. . . قال الأصمعي: وجه الحجاج الأطباء ليختاروا له موضعا حتى يبني فيه مدينة ورجعوا فقالوا: ما أصبنا مكانا أوفق من موضعك. وكان قبل اتخاذه واسطا أراد نزول الصين من كسكر. وحفر بها نهر الصين وجمع له الفعلة ثم بدا له فعمر واسطا ثم نزل واحتضر النيل والزاب. وأحيا على هذين النهرين من الأرضين. وواسط على أربعين فرسخا من كل من البصرة والكوفة والمدائن والأهواز. وكان موضعها لاحد الدهاقين فاشتراها منه وابتدأ البناء أول سنة ٨٣ واستتمه سنة ٨٦ ومات في سنة ٩٥. . . ونقل الحجاج إلى قصره والمسجد الجامع أبوابا من الزندروود والدرقرة ودير مارسرجيس وسراييط فضج أهل هذه المدن. فلم يلتفت إلى قولهم. . . قالوا وأنفق الحجاج على بناء قصره والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم فقال كاتبه صالح بن عبدالرحمن: هذه نفقة كثيرة وان احتسبها لك أمير المؤمنين وجد في نفسه. . . فاحتسب منها في الحروب بأربعة وثلاثين ألف ألف درهم واحتسب في البناء تسعة آلاف ألف. . . فلما فرغ منه وسكنه أعجبه اعجابا شديدا. . . وكان ذرع قصره أربعمائة (ذراع) في مثلها، وذرع مسجد الجامع مائتين في مائتين، وصف الرحبة التي تلي صف الحدادين ثلاثمائة في ثلاثمائة ذراع. وذرع الرحبة التي تلي الجزارين والحوض ثلاثمائة في مائة والرحبة التي تلي الأضمار مائتين في مائة. . . ولما فرغ

الحجاج من بناء واسط أمر باخراج كل نبطي فيها وقال: لا يدخلون مدينتي فإنهم مفسدة. فلما مات دخلوها عن قريب. . . . «ويضيف ياقوت: «ورأيت أنا واسطا مرارا فوجدتها بلدة عظيمة ذات رساتق وقرى كثيرة وبساتين ونخيل يفوت الحصر. وكان الرخص موجودا فيها من جميع الأشياء مالا يوصف. . . . (٣٤٩/٥ - ٣٥٠).

وقد ذكر ياقوت عدة قرى ومواضع تحمل اسم واسط منها:

* واسط (الرقعة) كان أول من استحدثها هشام بن عبد الملك لما حفر نهري الهني والمرى. وهي غربي الفرات مقابل الرقة (٣٥٢/٥)، والرافقة وبها أحدث واسط. وقد قبضا أول الدولة العباسية وانتقلت واسط إلى أم جعفر وزادت في عمارتها (٤١٩/٥).

* واسط (الأندلس) بليدة من أعمال قبرة (٣٥٦/٥).

* واسط (قرية كانت قبل واسط في موضعها خربها الحجاج وكانت تسمى واسط القصب (٣٥٣/٥) وقد بناها الحجاج أولا قبل واسط هذه ثم بنى هذه فسماها واسطا بها (٣٥٣/٥).

* واسط: قرية قرب مطير أباد قرب حلة بني مزيد (بجنوب العراق) (٣٥٣/٥).

* واسط: قرية في شرقي دجلة بالموصل بينها ميلان ذات بساتين كثيرة.

* واسط: قرية مشهورة ببلخ (٣٥١/٥).

* واسطه: قرية بحلب قرب بزاعة مشهورة عندهم وبالقرب منها قرية يقال لها الكوفة (٣٥١/٥).

واسط: بدجيل على ثلاثة فراسخ من بغداد (٣٥١/٥).

وجدة: أسسها أحد رؤساء زناته سنة ٤٠ / ٩٩٤ على الطريق المتجه غربا من تازة إلى فاس .

ودان: مدينة في جنوب افريقيا (تونس) بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية ولها قلعة حصينة وللمدينة دروب . وهي مدينتان فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون فتسمى مدينة السهميين دلباك ومدينة الحضرميين بوصى . وجامعها واحد بين الموضعين . وبين القبيلتين تنازع وتنافس يودي بهم ذلك مرارا إلى الحرب والقتال . وعندهم فقهاء وقراء وشعراء وأكثر معيشتهم على التمر ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح . . . (٣٦٦/٥) .

الواردة: منزل في طريق مصر من الشام في وسط الرمل والماء والملح من أعمال الجفار فيها سوق للمتعيشين ومنازل لهم ومسجد ومبرجة للحمام (الزاجل) يكتب ويعلق على أجنحتها ويرسل إلى مصر بالوارد والصادر . وكانت قديما مدينة فيها سوق وجامع وفنادق وكان يرسمه عدة من الجند أما الآن فكما حكمتا فإنه بين تلال رمل موحشة (٣٦٩/٥ - ٣٧٠) .

ورثان: بلد في آخر حدود أذربيجان بينه وبين وادي الرس فرسخان وكانت ورثان منظره فبناها مروان بن محمد وأحيا أرضها وحصنها فصارت ضيفة له ثم صارت لأم جعفر زبيدة حفيدة المنصور فبنى وكلاؤها سورها ثم رم وجدد قريبا (في القرن السادس) (٣٧١/٥) .

الوزيرية: قريتان بمصر احدهما في كورة الغربية والأخرى في كورة البحيرة (٣٧٥/٥) .

وشقة: مدينة حصينة بالأندلس لها سوران من حجر . بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا وهي مدينة حسنة متحضرة ذات متاجر وأسواق عامرة وصنائع قائمة . . . وهي مدينة كبيرة أزلية . . . قديمة رائعة البنيان قد

اتقن سورها أيما اتقان وبها أزيد من ستين مسجدا وهي على نهر يشق مدينتها ويجري في حمامين من حماماتها . وتسقى بفضل مائه بساتين . وهي كريمة التربة ويحيط بها من جنباتها جنات مغروسة وحدائق من الثمار ملتفة . . . وحاصر المسلمون مدينة وشقة منذ فتح الأندلس حصارا طويلا حتى بنوا المساكن وغرسوا الغروس وحرثوا لمعايشهم واتصل ذلك من فعلهم سبعة أعوام ، والنصارى في القصبة القديمة محصورون . فلما طال عليهم الحصار استأمنوا لأنفسهم ودرارهم . . . فليس بوشقة من أهلها المتأصلين رجل ينتهي إلى أصل صحيح من العرب . . . (الحميري ٦١٢) .

وهران : مدينة على البر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليلة . وهي مدينة صغيرة على ضفة البحر وأكثر أهلها تجار لا يعدون نفعهم أنفسهم . قال البكري : وهران مدينة حصينة ذات مياه سائحة وأرجاء ولها مسجد جامع وبني مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين الذين ينتجعون مرسى وهران باتفاق منهم مع نفزة وبني مسقن . وكانوا من أصحاب القرشي سنة ٢٩٠ فاستوطنوها سبعة أعوام ، وفي سنة ٢٩٧ زحف إليها قبائل كثيرة بطالبون أهلها باسلام بني مسقن فخرجوا ليلا هاربين واستجارت القبائل (بقبيلة) ازداجة وتغلبوا على مدينة وهران وخربت المدينة وأضرمت نارا . ثم عاد أهل وهران إليها بعد سنة ٢٩٨ بأمر أبي حميد دواس بن صولاب وابتدأوا في بنائها وعادت أحسن مما كانت وولى عليهم داود بن صولاب المهلهصي محمد بن أبي عون فلم تزل في عمارة وكمال وزيادة إلى أن وقع يعلي بن محمد بن صالح اليفرنى بازداجه (ذي القعدة سنة ٢٩٨) فبدد جمعهم وحرق مدينة وهران ثانية وخربها وكذلك بقيت سنين ثم تراجع الناس إليها وبنيت . . . (٣٨٥/٥ - ٣٨٦) . ويزيد الحميري على ذلك وهي مدينة كثيرة البساتين والثمار ولها ماء سائح من عيون الأنهار وأرجاء كثيرة وهي من غر البلاد ولها نظر كبير فيه قرى كثيرة وآثار

قديمة . . . ولوهران مرسى كبير يكن من كل ريح لأنه في جون جبل مطل على وهران مرتفع . وعلى وهران سور تراب متقن وبها أسواق وصنائع كثيرة وتجارات نافعة وهي مدينة المربة في الأندلس وسعة البحر بينها مجريان . ومنها أكثر ميرة ساحل الأندلس . ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئاً ولها على ميلين منها المرسى الكبير به ترسى السفن الكبار وهو يستر من كل ريح لا مثال له في المراسي . وشراب أهلها من واد يجري إليه من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة وأهلها في خصب والعسل بها والسمن والزبد كثيرة والبقر والغنم رخيصة والمراكب مختلفة إليها . وفي أهلها عزة أنفس ونخوة . . (الحميري ٦١٢ - ٦١٣) .

الهارونية : مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية استحدثها هارون الرشيد وعليها سوران وأبواب حديد وقد شحنت بالمقاتلة ومن نزع إليها من المطوعة ونسبت إليه . ويقال أنه بناها أيام أبيه وتمت في أيام ابنه ثم استولى عليها الروم سنة ٣٤٨ وخربوها وسبوا من أهلها ألفاً وخمسمائة مسلم ما بين امرأة ورجل وصبي فأرسل سيف الدولة غلامه فرعوية فأعاد عمارتها . وهي اليوم سنة ٦٢٠ ، من أعمال ليون الأرمني (٣٨٨/٥) .

الهاشمية : مدينة بناها السفاح في الكوفة حول قصر ابن هبيرة وسماها الهاشمية ثم تركها إلى الأنبار وبنى هاشمية الأنبار . وعاد المنصور فسكن هاشمية الكوفة ثم لم يستطعها فتركها ليسكن مدينته التي بناها (بغداد ٣٨٩/٥) .

هجر : مدينة بالبحرين صارت قصبة القرامطة واتسعت ما بين القرنين الثالث والخامس ثم تراجع .

هرمز : مدينة في البحر (في مدخل الخليج العربي) إليها خور، وهي على ضفة ذلك البحر، على بر فارس وهي فرضة كرمان إليها ترفأ المراكب .

ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخراسان ومن الناس من يسميها هرمز (٤٠٢/٥).

همذان : مدينة كبيرة قديمة فتحها المسلمون سنة ٢٣ هـ . وكانت منازلها تقدر بثلاثة فراسخ . ويبدو أنها تخربت بعد ذلك في العهد الأموي ثم عادت فازدهرت من جديد فأبن حوقل يكتب : إنها محدثة إسلامية ولها سور وربض وللمدينة أربعة أبواب حديد وبنائوهم من طين ولها مياه وبساتين كثيرة وزرع . . كثيرة الخيرات والمير . . (ابن حوقل ص ٣٠٨).

الباروقية : محلة بظاهر حلب تنسب إلى أمير من أفراد التركمان كان قد نزل فيها بعكسره وقوته ورجاله وعمّر بها دورا ومساكن وكان من أمراء نور الدين محمود بن زنكي . ومات باروق هذا في سنة ٥٦٤ (٤٢٥/٥).

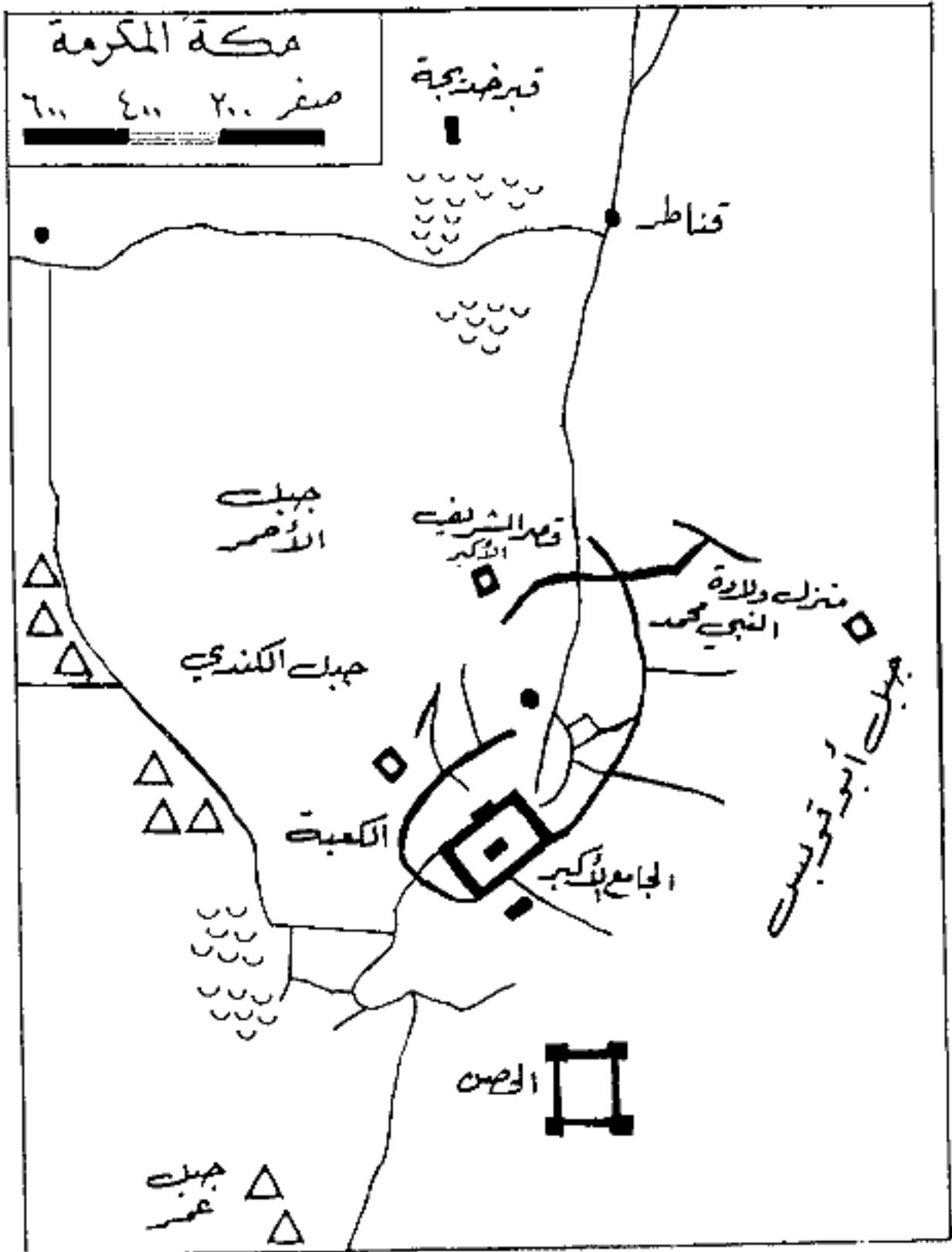
الياسرية : قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى بينها وبين بغداد ميلان تنسب إلى رجل اسمه ياسر وعليها قنطرة مليحة فيها بساتين (٤٢٥/٥).

يثرب : مدينة الرسول الأعظم تمصرت عقب تحولها عاصمة له وللخلفاء الراشدين بعده وظلت محتفظة إلى اليوم بحرماتها وقديسياتها . وينقص هذه الصورة الشاملة مجموعات أخرى من المدن أهمها مدن الجزيرة العربية (التي لم نذكر منها سوى يثرب) وهي تزيد على الستين وقد اخترنا منها ثلاثاً وثلاثين . وكلها بالطبع عربية . وبعضها وهو لا يقل عن ثلاثة عشرة بنيت في الإسلام أو توسعت وصارت مدناً ، ومدناً هامة بعد الإسلام . وقد أفردناها في البحث .

مدن الجزيرة العربية : رأينا أفرادها وحدها لأنها لب مدن الإسلام منذ عهد الرسالة ومع أن الحدث الجديد فيها قليل إلا أنها لا يمكن أن نعتبرها كالمدين التي احتلها المسلمون من بعد . وهذه المدن هي كما وصفها

المقدس^(١) في أواخر القرن الرابع .

مكة : مصر إقليم الحجاز قد خطت حول الكعبة في شعب وأد .



(١) مدن الجزيرة العربية تزيد على الستين وقد اخترنا منها ثلاثة وثلاثين هي الأبرز والأهم .

بناؤها حجارة سود والمسجد في ثلثي البلد والكعبة في وسطه وفيه طول . باب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة عليه مصرعان ملبسان بصفائح الفضة ثم طليت بالذهب، قبال المشرق طول المسجد ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعاً وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشرة ذراعاً وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر، في ثلاثة وعشرين ذراعاً وشبر. وذرع دور الحجر خمسة وعشرون ذراعاً . وقد فرش الطواف بالرمل، والمسجد بالحصى وأدير على صحنه أروقة ثلاثة على أعمدة رخام حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة والمسجد من بنائه . وقد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء حمل إليها صناع الشام ومصر . الا ترى اسماءهم عليه؟ وله تسعة عشر باباً . (والأسواق من حول الحرم) وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شققتها زبيدة . . وقد حج المنصور فرأى صغر المسجد الحرام وشقته وقلة معرفتهم بحرمته فسأه ذلك . (وأراد توسيعه بشراء البيوت حوله فتأبى أصحابها ثم أنقذه أبو حنيفة بحيلة شرعية)^(١) ومكة بها بنيان كثير من الحجارة ومساجد .

مدينة منى : على فرسخ من مكة تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها^(٢) .

الجحفة : مدينة عامرة يسكنها بنو جعفر عليها حصين بيايين^(٣) .

الطائف : مدينة صغيرة شامية الهواء باردة الماء أكثر فواكه مكة منها . موضع الرمان الكثير والزبيب^(٤) .

(١) المقدسي ٧٥ .

(٢) المقدسي ٧٦ .

(٣) المقدسي ٧٧ .

(٤) المقدسي ٧٩ .

جدة: مدينة على البحر منه اشتق اسمها. محصنة عامرة أهل تجارات
ويسار. خزانة مكة، ومطرح اليمن ومصر. وبها جامع سرى. غير أنهم في
تعب من الماء. بها قصور عجيبة وأزقة مستقيمة^(١).

أمج: صغيرة بها خمس حصون اثنان حجر وثلاثة مدر والجامع على
متن الطريق. (٢)

السوارفيه: كثيرة الحصون بها بساتين ومزارع^(٣).

الفرع والسيرة: حصنان بكل واحد جامع^(٤).

جبله: كبيرة بها متاجر عليا عليها حصن منيع يقال له المهدي. الجامع
خارجة.

حاذة: مدينة مليحة للبيكرين بها عدة من الحصون وجامع كبير.

يثرب: مدينة النبي ﷺ تكون أقل من نصف مكة يحيط بأكثرها
بساتين ونخيل وقرى. وقد جر عمر بن الخطاب إلى باب الجامع قناة قد
اختلت. والأسواق عند الجامع بها نور وبهاء أكثر سكانها بنو الحسين بن
علي. بنيانهم مدر بلحة الأرض. قليلة الأهل. والمسجد في ثلثيها. على
عمل جامع دمشق (والجامعان من بناء الوليد بن عبد الملك). وقد زاد فيه
بنو العباس (قام بالزيادات عمر أولا ثم عثمان. ثم الوليد. ثم المهدي^(٥)).

(١) المقدسي ٧٩.

(٢) المقدسي ٧٩.

(٣) المقدسي ٧٩.

(٤) المقدسي ٧٩.

(٥) المقدسي ٨٠ - ٨١.

والعقيق قرية على ميلين (من المدينة) عامرة ينزل بها السلطان وماؤها
عذب^(١)

بدر: مدينة صغيرة من نحو الساحل (وثمة) مساجد بناها ملوك مصر
الفاطيون^(٢).

الجار: على ساحل البحر محصنة بثلاثة حيطان والريع البحري مفوه.
بها دور شاهقة وسوق عامرة. خزانة المدينة ومدنها. يحمل إليها الماء من بدر
والطعام من مصر وليس لجامعهم صحن^(٣).

ينبع: كبيرة جليلة حصينة الجدار غزيرة الماء حسنة الحصن، حارة
السوق لها بابان. الجامع عند أحدهما. الغالب عليها بنو الحسن^(٤).

المروة: بلد حصين. كثيرة النخيل. سقياهم من قناة غزيرة عليها
خندق وأبواب حديد. الغالب عليها بنو جعفر^(٥).

الخوراء: هي ساحل خير لها حصن وربض عامر فيه سوق من نحو
البحر^(٦).

خير: بلد حصين مثل المروة بها جامع حسن^(٧).

ناحية قرح: تسمى وادي القرى وليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأعمر
وأهل وأكثر تجارا وأموالا وخيرات بعد مكة من هذا. عليه حصن منيع على

(١) المقدسي ٨٢.

(٢) المقدسي ٨٣.

(٣) المقدسي ٨٣.

(٤) المقدسي ٨٣.

(٥) المقدسي ٨٣.

(٦) المقدسي ٨٣.

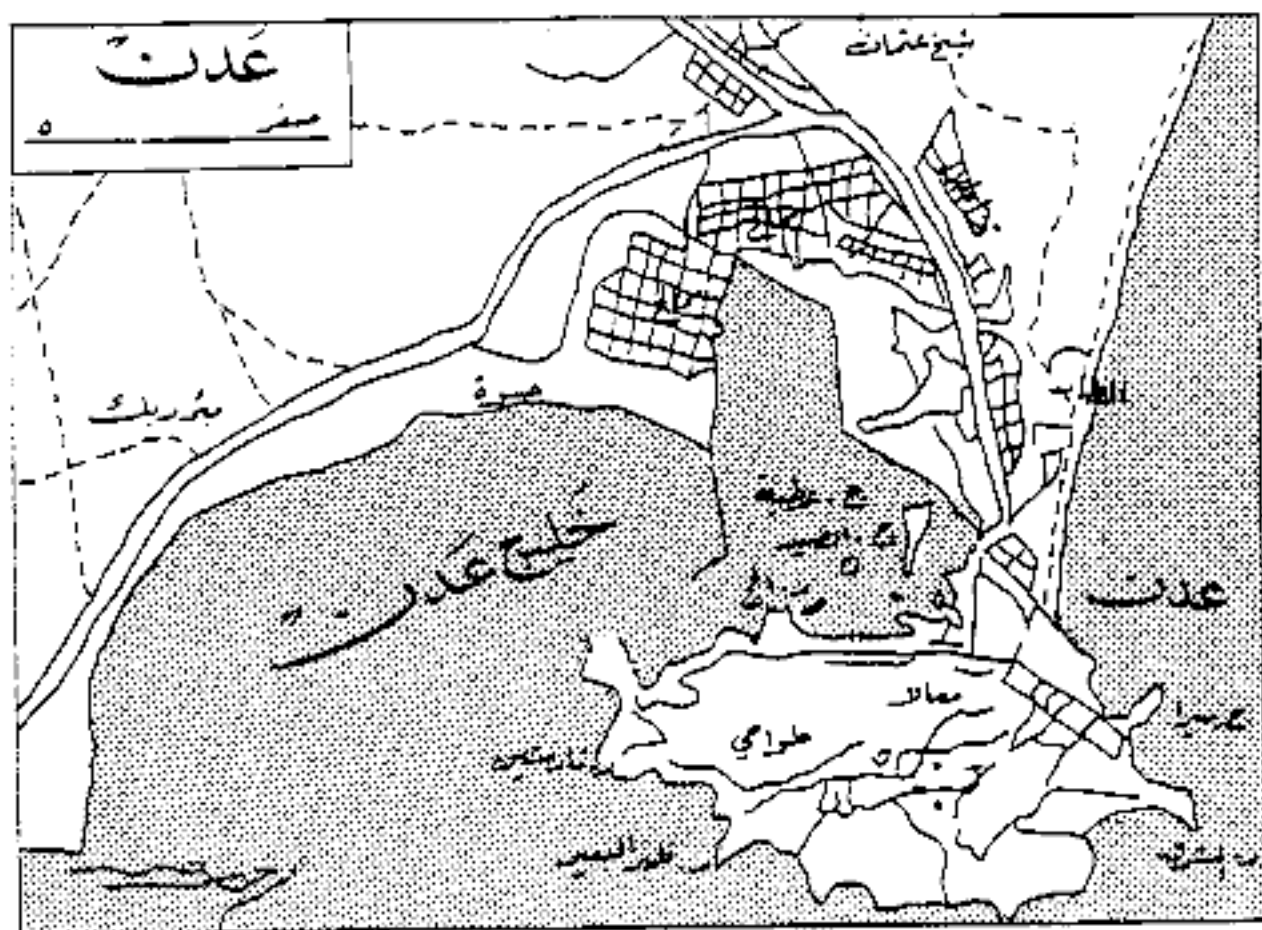
(٧) المقدسي ٨٣.

قرنته قلعة قد أحرق به القرى . . . تمور رخيصة وأخبار ومياه . . . عليه خندق وثلاثة أبواب محددة . والجامع في الأزقة . . . وحمامهم خارج البلد والغالب عليها اليهود^(١) .

الحجر : صغيرة حصينة كثيرة الآبار والمزارع^(٢) .

زبيد : قصبة تهامة وهو أحد المصريين لأنه مستقر ملوك اليمن . بلد جليل حسن البنيان يسمونه بغداد اليمن . . . وبه تجار كبار وعلماء وأدباء . وحماماتهم نظيفة عليه حصن من الطين بأربعة أبواب . . . أعمر من مكة . . . والجامع ناء عن الأسواق نظيف . وقد أجرى إليها ابن زياد قناة . وهو بلد نفيس ليس باليمن مثله . غير أن أسواقه ضيقة والأسعار غالية والثمار قليلة .

عدن : بلد جليل أهل حصين . دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة



(١) المقدسي ٨٣ - ٨٤ .

(٢) المقدسي ٨٤ .

المغرب ومعدن التجارات . كثير القصور . مساجد حسان . ومعاش واسعة . وهو في شبه صيرة الغنم (شبه الجزيرة) قد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر ودار خلف الجبل لسان من البحر فلا يدخل إليه إلا أن يخاض ذلك اللسان . . وقد شق فيه طريق في الصخر عجيب وجعل عليه باب حديد ومدوا من نحو البحر حائطا من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب . والجامع ناء عن الأسواق . ولهم أبار ملحة . جامع شعث وحمامات ردية .

مخا : مدينة لزبيد عامرة كثيرة السليط . شربهم من عين خارج البلد والجامع على طرفه على الساحل .

غلافقة : فرضة زبيد . بها جامع على البحر . رأيتهم يفضلونه ويرابطون فيه .

عثر : مدينة كبيرة طيبة مذكورة لأنها قصبة الناحية وفرضة صنعاء .

صعدة : بها سوق حسن وجامع عامر يحمل إليهم الماء عن بعد وحمامهم وضر وهي مدينة العلوية وعملهم .

بيكش : بها ينزل السلطان . داره إلى جانب الجامع . (المقدسي ٨٦) .

السرين : بلد صغير له حصن . الجامع فيه على باب البلد . وهو فرضة السروات (المقدسي ٨٦) .

صنعاء : قصبة نجد اليمن كانت أجل من زبيد وأعمر وأما اليوم فقد أختلت . . بلد رحب رخيص الأسعار . أخباز حسنة وتجار مفيدة ولا تسئل عن طيب الهواء .

— ما ورد في وصف المدن عن المقدسي ص ٨٤ - ٨٧ .

حضر موت : قصبة الاحقاف موضوعة في الرمال . عامرة نائية عن الساحل أهلة . إلا أنهم شرارة (خوارج أباضية) .

صحار : قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه . عامر . أسواق عجيبة . دورهم من الأجر والساج شاهقة . والجامع على البحر . دهلينز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن . قد غلب عليها الفرس . المصلى وسط النخيل .

نزوة : في حد الجبال كبيرة بنيانهم طين والجامع وسط السوق إذا غلب الوادي في الشتاء دخله .

عمان : كورة جليلة تكون ثمانين فرسخا في مثلها، كلها نخيل وبساتين . وأهل هذه المدن كلهم شرارة .

الاحساء : قصبة هجر وتسمى البحرين كبيرة كثيرة النخيل أهلة . معدن الحر والقحط على مرحلة من البحر وثم جزائر . وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد . وثم نظر وعدل إلا أن الجامع معطل . وبالقرب خزانة المهدي (الفاطمي) التي تحوي خمس الأموال، خزائن آخر لهم أيضا فبعض الأموال بتلك وبقيته في خزائهم .

اليامة : ناحية قصبتها الحجر (الهجر) بلد كبير، جيد التمور يحيط بها حصون ومدن منها الفلج .

هذا العدد من المدن (والحصون والقرى) التي أنشأها العرب المسلمون في أنحاء الأرض الإسلامية ينقصها بخاصة أيضا عدة مجموعات أخرى من المدن الإسلامية في الأطراف البعيدة :

● أولا : ما أنشئ من المدن في غربي افريقيا (السودان حسب المصطلح

— وصف المدن عن المقدسي من ٨٦ - ٩٤ .

الإسلامي) ولم نذكر منها في المسرد السابق سوى تومبكتو وثمة ما لا يقل عن
عشرين مدينة إسلامية أخرى على الأقل منها :

فوتا : على حوض نهر السنغال الأعلى .

كابنورو : على ساحل المحيط الأطلسي .

سيجو : على نهر النيجر .

سوكوتو : العاصمة الداخلية لدول التكرور الفولاني .

كانو : من مدن الهاوسا في مملكة نيجيريا .

كاتسينا

نوبه

أرغونغو : من مدن مملكة نيجيريا الإسلامية

أبوجا

زاريا

غواندو

أودغشت : من مدن أمراء نيجيريا الفولاني .

جنتة : أكبر المدن على نهر النيجر بعد تمبكتو .

غانة : أكبر مدن مملكة صونغاي .

اودغشت : من مدن بلاد غانه .

نجيمي : عاصمة دولة الكانم .

جاو : من مدن بلاد مالي .

ومن الهام أن نسجل أن بعض هذه المدن وربما معظمها لم يكن من
انشاء المسلمين ولكنها كبرت واتسعت وصارت مدنا في العهود الإفريقية
الإسلامية هذا إذا لم نذكر مدن : مزاب، شنقيط، عين صالح، وارجلا،
توات في الداخل ونواكشوط على ساحل المحيط . وهي أيضا مدن إسلامية .

● ثانيا : ما أنشئ على الساحل الشرقي لأفريقية . فقد كشف المسح الأثري في السنوات الأخيرة عن أكثر من أربعمئة موقع كانت مأهولة تماما على طول ذلك الشريط الساحلي الممتد ثلاثة آلاف كم من زنجبار في الشمال إلى سفالا في الجنوب وذلك قبل أن يصل البرتغاليون إليه عام ١٤١٨ بزمن طويل . وهؤلاء السكان كانوا خليطا من العرب المسلمين الذين جاؤا المنطقة للتجارة فمَنحوها الحضارة والعمارة والبناء ومن السكان الزنوج (البانتو) الذين يَهلون الداخل . فقد ذكر أن وفودا أرسلها عبدالمك بن مروان إلى هذا الساحل فأنشأت خمسين مدينة ويبدو أنها كانت بعوثا للاستقرار وجلب الذهب والعاج . وكل المدن الاستيطانية في هذا الساحل كانت تقوم في مواقع جزر بحرية قريبة جدا منه أو عليه ، ولكنها مأمونة . وحفريات شانغا في جزيرة باته كشفت عن وجود ٢٥ مرحلة استيطان في منطقتها وكان للمسلمين فيها ، في القرن التاسع ثلاثة مساجد خشبية بما يرجح وجود ما لا يقل عن ٥٠٠ من المسلمين فيها علما بأن الإسلام كان دين الحكام والنخبة وليس العامة . وكانت أبنيتهم في القرن العاشر مجموعة ضخمة من الابنية الحجرية بجدران من حجر المرجان المغطى بطبقة من الجص ولكل بناء درج من الحجر وأسوار حجرية كما ظهرت آثار مجمع قصر ملكي .

وأكدت حفريات المدن الصغيرة المجاورة : ماندا ، دانغوانا ، مافيا ، كلوة هذا المستوى الحضاري كما وجد في مدينة متامبومكو في جزيرة بمبا موقع أثري من القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر ميلادي ، وجدت فيه لقيحة من العملات الإسلامية أكثرها فضي وبعضها ذهبي (منها ٧ دنانير فاطمية) تاريخ سك أحدثها يعود إلى سنة ٤٥٩ / ١٠٦٦ . وقد ظهر من العملات الأخرى أن سكان هذه المدن اتخذوا من نماذج النقود المتوسطة نماذج قلدوها ويقدر أن ما لا يقل عن ٢٠ مليون اونصة من الذهب من شرق أفريقيا دخلت في اقتصاد المنطقة الإسلامية في الشمال خلال ٢٨٠ سنة بمعدل ألفي

اونصة كل سنة . هذا عدا العاج والحديد وغيرهما . وأهم المدن التي كان لها سلاطينها ولها نظمها وتجاراتها مع الخليج ومع البحر الأحمر ومع الهند والصين هي :

مقديشو أسسها المهاجرون المسلمون سنة ٢٩٥هـ وصارت شبه جمهورية يحكمها مجلس الشيوخ حوالي ٣٠٠ سنة . وفيها مساجد وقصور ذات طوابق وكان لها سور بأربعة أبراج .

مركة : مدينة بجوار مقديشو وتضم حوالي ٥٠ قرية من حولها .

براوا : مدينة أخرى تبعت مقديشو في التجارة .

قسمايو : مدينة صغيرة على الساحل .

كلوة : مدينة يقولون أن الذي أنشأها هم مهاجرون من شيراز ولذلك يسمون بالشيرازية وقد صارت دولة تجارية هامة وتوالى عليها ٥٢ سلطانا .

كانك : مدينة تجارية تابعة لكلوة .

ماندة : المدينة الثانية المجاورة لكلوة وكانت المدن الثلاث مجتمعة تشكل جبهة تجارية سياسية واحدة .

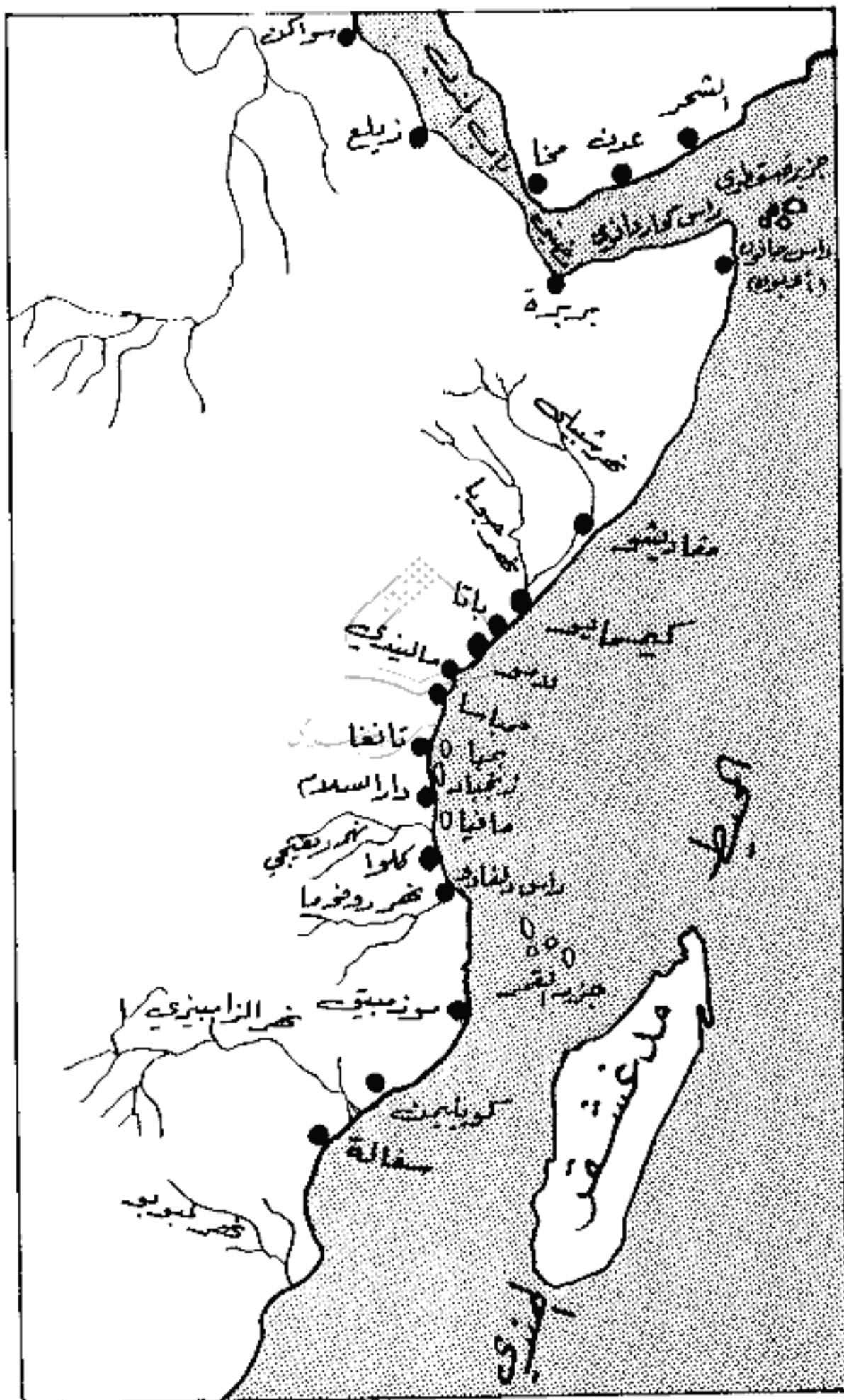
مافيا : من المدن التجارية على الساحل تجارها العاج خاصة .

باته : لعلها انشئت من أول عهد عبد الملك بن مروان وأهلها خوارج وصارت مركز دولة هامة امتدت قوتها حتى الغزو البرتغالي .

شانغا : هي المدينة التي أجريت فيها الحفريات مؤخرًا وكشفت عن أوان فخارية صينية وأبنية حجرية ومساجد .

لامو : مدينة تابعة لمملكة باته وهي مركز تجاري قوي .

مالندي، فاترا، ممباسا، سيو، يامبا : وكان لكل مدينة من هذه المدن قاضيها الذي يفيه سلطان بافا ولها علاقاتها التجارية الواسعة مع البر الغربي والهند والصين . ولم تنقطع أساطيل الصين عنها إلا قبل الغزو البرتغالي بحوالي



سبعين سنة .

زنجبار : وصلت جماعة زنجبار الأولى من الشيعة سنة ١١١ هـ/٧٢٩م واستمرت المدينة قائمة التجارة والإزدهار حتى أواخر عهد البوسعيديين في القرن ١٩م .

دار السلام، موزمبيق، سفالا : وهي المدن الجنوبية الأخيرة التي كانت تزودها مراكب التجار المسلمين وتأخذ منها العبيد والذهب والعاج . وأقصى ما وصلته هذه المراكب هي مدينة سفالا .

●ثالث : وثمة إلى الشمال من مجموعة هذه المدن الإسلامية أي حول القرن الأفريقي وفي ضفاف البحر الأحمر الغربية وفي الحبشة واريترية مدن أخرى عديد منها :

زِيلَع، عَصَب، مَصُوع، سِوَاكِن : وكانت مراكز تجارية على البحر الأحمر تلجأ إليها المراكب القادمة من عدن أو الذاهبة إليها . وقد تفرغ فيها بضائعها للتجارة مع الداخل الأفريقي أو للانتقال بها برا إلى مصر .

عَدَل : مدينة ومركز سلطنة صغيرة على الساحل . وزِيلَع بجوارها وهما متحدتان في التاريخ على سواحل الدناقل والصومال حتى لتعتبر زِيلَع عاصمة السلطنة . وثمة، في جنوب الحبشة نحو الداخل في غرب عدل سلطنة ايفات أو عفات وهي موجودة منذ القرن السابع هـ/١٣م .

مدينة هَرَر : وهي المركز الإسلامي الأول والأهم في تاريخ الحبشة منذ القرن السابع الهجري/١٣م ثم صارت منذ سنة ٩٢٧/١٥٤٠ أكبر منطقة إسلامية استند إليها أحمد غران في فتوحاته .

دِوَارُو، بَالِي، هَدِيَّة : وهي ثلاثة ممالك صغيرة إسلامية متجاورة .

وكانت سبعة من هذه الدول وهي : عفات، دوارو، عريبي، هدية، بالي، دارة، عدل تشكل ما يسمونه بدول الطراز. وتشكل قوسا من الدول المتتالية في جنوب الحبشة .

وثمة أيضا نحو الداخل الإفريقي في غربي ما نسميه اليوم بالسودان مدن إسلامية أخرى منها :

سنار : التي أسسها عمارة دونقس حوالي سنة ١٩١٠هـ/ ١٥٠٤م وهي عاصمة مملكة الفونج في السودان النيلي قامت حولها قرى عديدة للجنود .

كاري : عاصمة بني عبد اللاب الذين انتقلوا إلى حلفايا وبنوها .

حلفايا : صارت عاصمة بني عبد اللاب منذ القرن ١٨ .

دنقلة : من مدن عبد اللاب الهامة .

شندي : صارت العاصمة التجارية للسودان النيلي منذ أواخر القرن

. ١٨

لامو : كانت عاصمة السلطان عمارة الدونقس قبل سفار .

العاشر : عاصمة سلاطين دارفور منذ القرن الخامس عشر .

وارا : عاصمة مملكة وادي الإسلامية منذ سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م

حتى القرن العشرين .

● رابعا : ما أنشئ في الهند الإسلامية من المدن :

فقد كان لسلطنة دلهي التي استمرت ٣٦٠ سنة (٩٠٢ - ١٣٠٦/٩٦٢ -

١٥٥٥) دورها الكبير في بناء وتمصير أعداد كثيرة من المدن . وهذه السلطنة

التي لم تحكمها خلال هذه الفترة أسرة واحدة ولكن توالى عليها :

المهاليك . والخلجيون الأفغان وبنو تغلق والسادات وبنولودي وبنوسور

الأفغان . وكان مما اعتادت عليه أن تبنى كل أسرة من هذه الأسر مدينة خاصة بها على نهر جهنا تحمل اسم دهي . وهكذا نستطيع أن نعد سبع مدن تحمل هذا الإسم لكن الأسوار التي مازالت آثارها قائمة قد تجعلها ضعف هذا العدد . وإذا كان من المدن المشهورة التي يشك في الإسلامية الكاملة لبنائها مثل :

لاهور، فيروزكوة، دولت آباد (التي كان إسمها ديفيكيري) وبيهارع فإن مدن دهي الإسلامية واضحة : فهناك :

– مدينة روي بثوري (أوبرفوري راجا) وهو اسم مؤسسها من سلالة جوهان لكنها اغتصبت من قبل قطب الدين ايبك الغوري . وفيها المنارة الفضية، وبرج النصر الذي يرتفع ٨٦ مترا ويسمى قطب منار ومسجد قطب الإسلام .

– مدينة سيرى وقد شيدها علاء الدين الخلجي على مسيرة ٣ كم إلى الشمال واستولى عليها تيمورلنك سنة ٨٠٠ وفيها مسجد خركي الشبيه بجامع قرطبة في أنه مسقوف كله .

– بين المدينتين السابقتين قامت دهي ثالثة هي جهان بناه .

– مدينة آباد أسسها تغلب شاه على مسيرة ٦ كم من دهلي وهي الآن أطلال وخرائب .

– فيروز آباد أسسها تغلق أيضا ولم يبق منها ولا من سابقها اليوم إلا القلعة المائلة والأسوار مع قبر مؤسس المدينة . ضمن الحصن المحصن في البحيرة (الجافة الآن) .

– فيروز شاه سميت باسم السلطان الذي بناها (توفي سنة ٨٩٠ / ١٣٨٩) وقد بنيت على مسيرة ثماني كيلومترات إلى الشمال من سيرى وكانت أوسع من دهلي الأصلية لدرجة أن أبنية فيروز شاه اتصلت بها . وفيها مسجد

شاهجان الكبير وقبر فتح خان (ابن فيروز) الذي قتل في حرب المغول .
ويقوم على قمة شرفة على اطلال الميدان الملكي المعروف باسم جهان نامه .
وكان جامع مسجد يلاحق القلعة من الغرب وهو المسجد الذي أثار اعجاب
تيمور . ويعتبر فيروز شاه من كبار العمرانيين فقد بلغ عدد أبنائه تسعمائة بناء
ما بين مدرسة وجامع ومشفى ورباط وقصر وحمام عدا بناء ثلاث مدن هي
فيروز شاه هذه ، مع : فتح آباد ، وجونبور .

وقد دمرت دهلي على يد تيمور سنة ٨٠٠ واتخذت :

١ - أسرة الأسياد كلكري حاضرة لها وهي جنوب فيروز آباد
وسميت مبارك بور .

٢ - وأسرة لودي مدينة مباركبور . وهي إلى الجنوب الشرقي من
فيروز آباد . ثم نقل آخر حكام لودي مقره إلى مدينة اكرا .
على أن مدينة أخرى ظهرت بعد ذلك هي :

مدينة برانا قلعة عند دهلي إلى الجنوب من فيروز آباد بناها شير شاه
نائب الحاكم فيها . وشيد فيها مسجدا جامعاً رائع النقوش . وقد غلب اسم
أندربات على المدينة .

وفي بلاد السند اتخذ الارغونيون (٨٨٠ - ١٠٠٨ / ١٤٧٥ - ١٥٩٩) :

- مدينة قندهار عاصمة لهم .

- ثم تحولت إلى مهاكر حين استطاع شاه شجاع بك أرغون أن
يستولي على السند الجنوبي . وتقوم في جزيرة على نهر السند ولم تكن حصينة
فقط ولكنها كانت قاعدة هجوم قوية على اليلوج .

- أما الجاميون في السند فكانت حاضرتهم مدينة تنه (ما بين ٧٢٦ -

٩١٩ / ١٣٢٥ - ١٥١٣) .

— أما سلاطين البنغال المستقلون فكانت لهم حاضرتان لكنهوتي
وسوناركاون .

— أما البهمنيون في شمال الدكن (٧٤٨ - ٩٢٤ / ١٣٤٧ - ١٥٢٧)
فكانت عاصمتهم مدينة ديوكير التي سميت فيما بعد دولت اباد ثم انتقلت
العاصمة إلى مدينة كلبركة الحديثة حوالي ٨٠ عاما .

وكسنت أبنية البهمنيين جميعا عسكرية دفاعية تطيف بالملكة على
الحدود وهكذا :

- قامت في الشمال حصون : اليكبور، غاويلفاره، نازنالا، ماهور .
- وقامت في الغرب حصون : بارندا، نالدروع . بانهالا . كلبركة .
- وقامت في الوسط حصون : بيدار، لكوند، آرانفال .
- وفي الجنوب الغربي لاغال ورايسور .

وكثير من هذه الحصون والأبنية ظل باقيا فترة طويلة وبعضها أعيد
بناؤه في عهد أحمد شاه ولي (سنة ٨٢٥ - ٨٢٩) الذي جدد قلعة بيدار، وفي
عهد محمد الثالث (٨٦٧ - ٨٨٧) .

وأسوار كلبركة محفوظة بجدرانها المزدوجة التي يبلغ سمكها ١٦ مترا
ومحاطة بخندق بعرض ثلاثين متراً . والأسوار مزودة بأبراج للمدافع . وفي
المدينة المسجد الجامع (بني سنة ٧٦٩ / ١٢٦٧) بناه المعمار رافع بن شمس
القزويني وهو نموذج فريد في أن النور يأتيه من القبة ومن النوافذ العليا : وفي
كلبركة مجموعتان من الأضرحة . وفي بيدار جامعي مسجد (مسجد الأعمدة
الستة عشرة) ومسجد زناتي (الذي بني سنة ٨٢٧ / ١٤٢٣ قبل نقل
العاصمة . وأبنية القصور الملكية ومدرسة محمود جوان والأسوار .

وقد أقام ملوك الطوائف (ما بين الثمانينات من القرن التاسع وأواخر

القرن العاشر) حواضر عديدة:

بيجاپور: صارت عاصمة بني عادل شاه (٨٩٥ - ١٠٩٧ هـ / ١٦٨٦ م) وقد بنوا فيها عددا من الآثار منها جامعي مسجد الذي بناه عادل شاه الأول وضريح محمد عادل شاه (١٦٢٧ - ١٦٥٦)، الشهير بقبته وقطرها ٣٨ متراً بارتفاع ٤٣ متراً.

برار: حاضرة دولة عماد شاه (٨٩٦ - ٩٨٣ هـ).

بيدار: حاضرة دولة بريد شاه (٨٩٧ - ١٠١٨ هـ).

كلكتده: حاضرة بني قطب شاه (٩١٨ - ١٠٩٨ هـ). وكانت مدينة حصينة في الدكن.

حيدر آباد: وهي من بناء بني قطب شاه بناها محمد قلي وهو الخامس من الأسرة ونقل إليها عاصمته وسميت أولا بهاغ نكر ثم صار اسمها حيدر آباد.

وقد بني شير، شهور الذي أخرج همايون من الهند، في أول أيامه مدينة ساسارام وبقي فيها خمسة عشر عاما. كما بني ضريحا لنفسه على ضفة بحيرة بقبة تشبه قبة الصخرة في فلسطين.

وأقام سلاطين الشرق (٧٩٦ - ٨٨٣ / ١٣٩٤ - ١٤٧٩) في عاصمتهم جانيبور:

وهي مدينة شيدت سنة ٧٦٢ / ١٣٥٩ على يدي فيروز شاه الثالث من بني تغلب وسميت باسم ابن عمه وراعيه، ثم أصبحت في القرن الخامس مركزا لدولة إسلامية قوية الثقافة حتى عرفت باسم شيراز الشرق.

وكسبت مجموعة هامة من الأبنية منها: المسجدان في آثلة وجهنجهري

الليذان بناهما إبراهيم شاه، ومسجد داريه الذي بناه بعض الأشراف والمسجد الجامع الذي بني بين عامي ١٤٣٨ - ١٤٧٨، ومسجد لال درمازه الذي أقامته زوجة محمود شاه. وكلها أبنية فخمة ذات مصاطب عالية وفيها أروقة ذات طابقيين وأبواب شاهية مزخرفة.

وأما سلاطين كجرات فكانت حاضرتهم أول عهدهم (٧٩٢ - ٩٩١ / ١٢٩١ - ١٥٨٢) مدينة انهيلوارا ثم:

— بني أحمد الأول (٨١٤ - ٨٤٦ هـ) مدينة أحمد آباد وزينها بالمباني الجميلة حتى أضحت من العواصم الهامة في الهند واشهر أبنيتها المسجد الجامع الذي بناه أحمد شاه الأول وانتهى سنة ١٤٢٣.

— واتخذ محمود الأول (٨٩٢ - ٩١٧) في عهده الطويل حاضرة له قلعة شامبانر، التي سميت باسم محمد آباد.

واتخذ سلاطين مالوه ثلاث حواضر: دهار أولا ثم ماندو القلعة المنيعه التحصين والصعبة المنال، وأخيرا شاري آباد.

أما السلطان أكبر (جلال الدين محمد) وهو أعظم سلاطين المغول في الهند (١٥٤٢ - ١٦٠٥) فقد جعل همه في بناء مدينة أكرا وأقام فيها أقدم أثر باق من آثاره وهو تحصين المدينة التي بنيت بين ١٥٦٤ و ١٥٧٩ م: القلعة الحمراء (لال قلعة)، وأسوارها تبلغ ٢٥٠٠ م في الطول بارتفاع ١٨ مترا. وتحوي القلعة في داخلها قصر أكبر، وإدارة الأبراطورية وعددا من المساجد بالإضافة إلى ما تحتاجه القلاع. وليس القصر قصرا واحدا ولكنه قصور عدة: واجد للاستقبال أحمر الحجارة والثاني أصغر ولكنه من المرمر والثالث لأبنة (جهاجيري محل) من المرمر الأبيض. وقصر رابع يدعى خاص محل للإمبراطورة. بالإضافة إلى صمام برج (برج الياسمين) من عدة طبقات.

وقد أضاف شاه جهان إلى داخل القلعة بين ١٦٤٨ - ١٦٥٥ مسجد اللؤلؤة (موتى مسجد) من المرمر الأبيض في أتقن وأدق صناعة . وأقيم جامع اكرا من قبل أبنة شاهجان : جهان آرابين ١٦٤٤ - ١٦٤٩ وبنيت في اكرا عدة أضرحة فخمة أقدمها مقبرة أكبر التي أقامتها جهانكير على بعد ٨ كم من المدينة كما شيد ضريح آخر حوالي ١٦٢٨ - ١٦٣٠ من قبل اعتماد الدولة والد زوجة نكير . على أن أعظم ضريح وأروعها انما كان تاج محل الشهير في العالم بينائه وحدائقه والذي أقيم ضمن سور واسع (٥٨٠ × ٣٠٥,٥ متر) . وقد بنى الضريح مربع ضلعه ٩٥ مترا وعلى قاعدة ترتفع ٧ أمتار، وارتفاع قبته ٧٠٤ امتار وله مثذنة رائعة وبوابة رائعة وكل ذلك من المرمر المزين . وقد أنشأ أكبر عاصمة جديدة هي فاتح بور سيكري سكنها ١٧ عاما ثم تركها سنة ١٥٨٨ لقلّة الماء فيها . بعد أن بنى فيها عدة قصور كما في أكرا له وللأسرة ولإدارة الدولة .

● خامسا : ما أنشئ من المدن في جنوب شرق آسيا الإسلامي المقسم إلى إمارات صغيرة عديدة :

ففي الملايو على البحر، في الممر بينها وبين سومطرة قامت فيها يقولون أولى المدن الإسلامية هناك :

ملقا : لما تميز به الموقع من شأن هام في طريق التجارة القادمة من الصين وإليها . واسمها نفسه يكشف معنى الموقع بوصفه ملتقى تجار العرب والفرس والهند . وكان ذلك حوالي سنة ٦٧٥ / ١٢٧٦ أو ٧٨٢ / ١٣٨٤ فأصبحت ملقا بعد نصف قرن مركزا لنشر الإسلام في شبه جزيرة ماليزيا وما حوفا .

— فطاني (أو بطاني) مدينة اسلامية قريبة من ملقا كان كل سكانها قد أسلموا في القرن العاشر الهجري / ١٦١٥ م .

وسبقتها مدينة كيداه فكان لها سلاطينها المسلمون منذ سنة ٥٥٦ / ١١٦٠ م. وبرزت بعد ذلك باهانك منذ سنة ٨٧٥ / ١٤٧٠ بالسلاطين المسلمين ومن بعدها.

— سلاطين جوهر أيضا منذ ٩١٧ / ١٥١١.

— وتوالى بعد ذلك سلاطين ترينغ غانو منذ سنة ١١٣٨ / ١٧٢٥.

— ومدينة سيلانغور منذ سنة ١١٧٠ / ١٧٥٦.

— ومدينة كيلانتان منذ ١٢٠٥ / ١٧٩٠.

بالإضافة إلى مدن أخرى: يانغ دي برتون وبرليس وترنغ غانو. وكان طبيعيا أن تنتقل العدوى إلى جزيرة سومطرة ويظهر فيها:

— مدينة وسلطنة بالمبانك حوالي سنة ٨٨٤ / ١٤٤٠.

— ثم مدينة وملوك آجيه (أنجيه) منذ القرن ٩ هـ / ١٥ م

— ومدينة سباك منذ سنة ١١٣٤ / ١٧٢١.

وأما في جاوة فظهر الإسلام بمدينة أمبل بجوار مدينة حريسك.

وفي جزيرة ماداوا المجاورة وبني مسجدا هناك ثم انتشر الإسلام في مملكة بالامبانجان في أقصى شرق الجزيرة وتلا ذلك مدينة سيرنك مركز مملكة بنتام في غرب جاوة، ومدينة ديمك. وعزا الإسلام أخيرا وسط الجزيرة وظهرت مدن ماتارام وجوجاكارتا وسوراكارتا.

وأما في جزيرة بورينو فقد وصل الإسلام إلى مدينة بروني وسلاطينها منذ سنة ٨٠٨ / ١٤٠٥.

وفي جزيرة مولوك ظهر الإسلام في تارنات وتيدور قبل القرن العاشر وكان القوة الدافعة لمقاومة الاستعمار البرتغالي ثم الاسباني.

وفي جزيرة سيليبس ظهر الإسلام في مرفأ مكسر.

وأما في الفلبين فظهر في مدينة صولو منذ ٨٥٤ هـ وجزيرة مندناو منذ سنة ١٠٥٥ / ١٦٤٥ وبالاوان .

وإذا لم تكن نعرف بالضبط أي هذه المدن كانت من إنشاء المسلمين فما من شك في أن بعضها كانت قرى ثم مصرها المسلمون وجعلوها مراكز مدينة للدعوة وأخذت مكانتها حين ظهر فيها سلاطين مسلمون .

● سادساً : ما أنشئ من المدن في تركستان وما وراءها :

— في إقليم فرغانة : شيد شاه رخ حوالي سنة ١١١٢ / ١٧٠٠م في خوقند العاصمة قلعة هامة سكنها ، ثم شيد حفيده عبدالكريم سنة ١٧٤٦ قلعة أخرى عرفت باسم اسكى دره .

— ويبدأ التاريخ الواضح لخانات مدينة خوقند في مطلع القرن ١٣ / ١٩ مع عالم خان وابنه عمر فهما المؤسسان الحقيقيان للخانية ولمدينة خوقند . وبنى عمر جامعها المعروف باسم مدرسة جامع .

كما بنى عمر مدينة شهر خان (غربي اندخان) . وأوصل الماء إلى المدينة عن مسافة ١٢٠ كم بقناة كبرى عرفت باسم (شهر خان ساي) غيرت نظام الري في فرغانة لأنها روت ٦ آلاف ميل مربع . وكثرت المدارس في المدن كما كثرت أقبية الري (ومنها خان أديق الكبرى في طشقند) .

وأما الجانيون فكانوا في استراخان التي يرد اسمها منذ النصف من القرن ٨ هـ / ١٤م . وكانت محطة تجارية هامة وقد خربها تيمور تماماً ثم عادت فبنيت وانتعشت ثانية في القرن الخامس عشر بسبب اضمحلال المحطة التجارية المجاورة لها والمسماة سراي . وكان لوقوعها على مصب نهر الغولف الفضل في ازدهارها .

وأما خانات خيوة في خوارزم ، بنو عرب شاه ، فقد قاموا حوالي سنة ١٥١٥ / ٩٢١ في :

– مدينة كاث قصبة الاقليم التي هجرت لجفاف النهر المار بها .
– ثم انتقلوا الى اوركنج وجعلوها العاصمة وبنوا فيها .
– وأخيرا انتقلوا إلى خيوة : في النصف الثاني من عهدهم . وكانت
خيوة مستوطنا بدويا صارت قصبة الاقليم زمن عرب محمد (١٠١٢ -
١٠٣٣ / ١٦٠٣ - ١٦٢٣) وهجرت اوركنج تدريجيا . حين جف فيها الفرع
الايسر لهزجيحون .

– وفي سنة ١٦٤٥ / ١٠٥٥ قامت أوركنج جديدة على مسيرة ٣٥ كم
من جنوب شرقي خيوة فصارت أهم مركز للتجارة في المنطقة .
– وقامت مدينة وزير في وقت متأخر على الضفة الشرقية لجيحون
لتحل محل كاث .

– وأعاد خان أنوشا (١٠٧٤ - ١٠٧٩) تشييد كاث الجديدة على
الضفة اليسرى على مسافة ٢٥ كم من جنوب اوركنج وحفر قناة شاه اباد
العظيمة سنة ١٠٩٢ / ١٦٨٧ وهي مازال قائمة إلى اليوم . وتعد من أهم
قنوات البلاد .

وقد تخربت خيوة بغزوات الفرس والتركمان والروس لكن سلطانها
أونق أمين أعادها إلى الازدهار وبنى :

– خيوة الجديدة التي ازدهرت بسرعة مع الحركة التجارية .
وفي عهد محمد أمين أقيمت أهم عمارة خيوة هذه وهي المنارة الزرقاء
(بارتفاع ٥٣ م) .

ورغم هذا المسرد الطويل فلننا نعتقد اننا استوفينا ما شيده المسلمون
من المدن في مختلف انحاء البلاد التي وصلها الإسلام ولا بد قبل إنهاء الفصل
من إيراد الملاحظات التالية حول المسرد :

١ - لم نذكر محلات بغداد العديدة ولا نيسابور وكل منها تكاد تكون مدينة برأسها. فقد كانت هاتان المدينتان كالنبته القوية كلما تخرب منها جزء قام في جانب آخر منها جزء^(١).

٢ - كثير مما بني في مصر كان من القرى، وقد سجلنا بعضه لأن المدن في مصر كانت تغطي البلاد منذ العهد الفرعوني الطويل. ولم يكن بإمكان التمدن الإسلامي أن يظهر في أرض زراعية إلا عن طريق القرى.

٣ - كثير مما سجلناه في الشام كان من الحصون وبخاصة في الثغور الشامية لأنها كانت منطقة الحدود مع الروم.

٤ - تبلغ المدن والمراقب والحصون التي أنشئت في المغرب ضعف ما أنشئ في فارس والشام والأندلس ومصر. والسبب أنها كانت بعد انسحاب الرومان من مدنهم فيها لا تحوى إلا جماعات البربر وكانت لديهم أراض فارغة واسعة دون المراكز المدنية الضرورية لها. ثم أن المسلمين أضافوا إلى وظيفة هذه المراكز التي أنشأوها وظيفة التجارة مع السودان وراءهم، وتجارة الذهب فكان لابد من ركائز مدينة على الطرق الصحراوية ثم على الموانئ المصدرة له.

٥ - لم نذكر الأربطة وهي أنصاف مدن لا في المشرق ولا في المغرب وقد كانت أعدادا كبيرة جدا: فقد كان في إقليم ما وراء النهر ١٠ آلاف رباط منها ١٧٠٠ في أسبيجاب ونحو ألف في بيكندر. والرباطات في المغرب أقل

(١) ذكر المقدسي أن نيسابور من حولها مدنا: ريوند. خوخان سايزدار خسروجرود. ازادار. اسفرايين. طرثيث. بوزجان. زوزن. مالنبي فهذه عشرة مدن جليلات ولها اثنا عشر رستاقا وقصرا ودارا وإمارة وثلاث خزائن وفوق مائة منبر ويحرق بها أربعة رساتيق جليلة (انظر ص ٣٠٠ في الهامش).

عددا إلا أنها من الأبنية الأساسية^(١).

٦ - لم نذكر الدور والقصور والجوامع الفخمة الاماندر وأقنية الري والمدارس والمشافي والمنابر والأضرحة وغيرها مما أضافه المسلمون إلى المدن قديمها وحديثها.

٧ - استنتجنا أحيانا إسلامية بعض المدن من عروية أسمائها. وقد شمل هذا مدن ما بين فارس والأندلس وربما ازداد خطأ التعداد في الهند وفي جنوب شرقي آسيا.

٨ - أهملنا الكثير من الحصون المفردة والقلاع لأننا لم نعتبرها مدنا ولكنها مراكز دفاعية.

٩ - أهملنا المدن الإسلامية العثمانية لأننا اعتبرنا الدولة العثمانية من ميدان العصر الحديث ولو أضفناها لأضيفت إلى القائمة بضع عشرة مدينة أخرى.

١٠ - بعض القرى التي لم نذكرها وبخاصة في إيران وما وراء النهر كانت كبيرة لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع^(٢) وربما بلغت القرية في فرغانة مرحلة لكثرة أهلها^(٣) وقرى بخارى تمتد ١٢ فرسخا في مثلها ويحيط بجميع ذلك السور^(٤) وفي ما وراء النهر ٣٠٠ ألف قرية^(٥). وحول مدينة كنجينة ١٥ ألف قرية تخرج نحو عشرة آلاف مقاتل بنفقاتهم

(١) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ٢٢٧ - ٢٩١ وص ٢٨٢، وانظر الاصلطخري ص ٣١٤ وص ٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) المقدسي المصدر نفسه ص ٢٨٢.

(٣) الاصلطخري ص ٣٣٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠٥.

(٥) الاصلطخري ص ٢٩٠ - ٢٩١.

ودوابهم إذا خرج على السلطان خارجي^(١). وإذا كانت ثمة قرى كالمدين مثل
بابت مثلاً^(٢) فإن ثمة بالمقابل مدنا كالقري مثل اربيل (قبل نهضتها)^(٣).

١١ - وأخيراً فإن ثمة قلاعاً وحصوناً صارت مع الأيام مدناً،
وقصوراً (والقصر حصن أحياناً) تحولت كذلك إلى مدن، وبعض الجزر
صارت مدناً كما قد تتحول بعض الأسواق إلى مدن، في حين أن مدن
طخارستان تسمى أسواقاً بالإضافة إلى تحول بعض المراسي إلى مدن. وهكذا
فإن قلعة الصراط، وقلعة القوارب وقلعة برجمة. وقلعة النور وقلعة شميث
وقلعة ابن الهرب وقلعة أبي ثور وقلعة البلوط بالمغرب والقلعة بالرحاب كلهن
مدن. . وحصن مهدي مدينة بالأهواز وحصن السودان وحصن البرار
وحصن ابن صالح مدن بسجلهاسة، وحصن بلكونة مدينة في الأندلس،
وحصن الخواي بالشام وحصن منصور بالثغور. . . (وعلى هذا النهج) فإن
قصر ابن هبيرة وقصر الجص بالعراق وقصر الفلوس مدينة بتاهرت ومدينة
القصور بافريقية. وقصر الريح منزل بنيسابور، وقصر اللصوص منزل
بالجبال كلها مدن.

«وسوق ابن خلف بافريقية وسوق ابن جبلة وسوق كرى وسوق ابن
مبلول وسوق إبراهيم مدن بتاهرت. «وعين المغطى بصقلية وعين زربة
بالثغور، ورأس العين بأثور مدن وقري» و«ينبع بالحجاز وعينونا مدينة
لسويلة، وبيت عينون قرية بإيليا» . . . و«مرسى الخرز ومرسى الحجامين
ومرسی الدجاج مدن بالمغرب»^(٤).

(١) المقدسي ٢٨٣.

(٢) ياقوت ص ٣٣٤.

(٣) ياقوت ١/١٣٨.

(٤) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ٢٨ - ٢٩.

وأخيراً فإن معظم المدن والقرى التي أنشئت في إيران كان لغايات زراعية وسياسية ودفاعية ومعظم ما أنشئ في العراق كان لأغراض زراعية في حين ما أنشئ في الشام كان لأغراض دفاعية في حين كان الغرض الزراعي هو المسيطر فيما أنشئ في مصر. أما في المغرب فكان القصد سكانياً في الدرجة الأولى ثم زراعياً. ومنشآت الأندلس كانت دفاعية في الدرجة الأولى واثباتاً للبدخ والفخامة. ويلاحظ أن إنشاء هذا العدد الكبير من المدن والحصون بالإضافة إلى ما توسع بالبناء والتحصين من المدن القديمة إنما هو دليل على التكاثر السكاني في المنطقة الإسلامية وعلى استبحار العمران فيها.

الفصل الخامس

مِيلاد المدينة الإسلامية وَحَطَّطهَا

في يثرب، وبعد الهجرة النبوية إليها مباشرة بدأ ميلاد المدينة الإسلامية. الرسول الأعظم بأعماله خلال السنوات العشر التي قضاها في يثرب حول هذه الواحة من عدة قرى متقاربة إلى وحدة حضارية واحدة ومنحها مفهوم المدينة. وأوجد معظم الأسس لما سيظهر في المدن الإسلامية المقبلة من مؤسسات. صورتها تكاملت على أيدي الرسول الأعظم وفي خاطره قطعة قطعة وكسبت بذلك اسمها الجديد: المدينة. لينسى الناس بسرعة اسمها القديم يثرب الذي غاب في التاريخ.

كانت صورة يثرب قبل الهجرة صورة تجمعات سكنية متعددة بعضها للأوس وبعضها للخزرج وبعضها لليهود^(١). تتوزع في واحة منبسطة خصبة التربة والماء تحيط بها حرات بركانية هي دلائل المنطقة البركانية التي أقيمت فيها. وتفصل الحقول المزروعة بين هذه التجمعات كما تفصل بينها الأطم^(٢).

(١) كان اليهود في الجزيرة العربية من مجموعات قبلية شتى واضحة ولكن رابطتهم الدينية كانت أقوى من رابطتهم القبلية ولذلك أخذوا اسم اليهود.

(٢) الأطم بناء من الطين والحجارة على شكل برج ذي فتحات يحتمي به المقاتلون للدفاع. وجمعها أظام وقد هدم أطم المدينة عثمان بن عفان (المقريزي الخطط ص ٣٤٨).

(وكانت تقارب ستين أطما) يتحصن بها القوم عند المنازعات وعلى أطرافها أسواق المبيعات ولعل أبرزها كانت أسواق اليهود.



كان امتداد الواحة من قباء وأطم شنيف وبني عوف بن مالك من الأوس في الجنوب إلى منازل بني حارثة في الشمال قرابة ٢٠ كم في ثلث ذلك من العرض . وفي الجنوب الشرقي منها كانت تقوم التجمعات السكنية لليهود متقاربة من بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير . ولبعض تجمعات الأوس أو الخزرج سقائف (أماكن مسقوفة) يجتمعون فيها كالنوادى فيتداولون فيها أمورهم ، ولليهود مثل ذلك ماداراش (أي مدارس) هي أشبه بالمساجد لها وظائفها الدينية والاجتماعية . وكان من حسن الطالع أن تكون منازل بني النجار أخوال الرسول عليه السلام تتوسط الواحة (بني مالك ومازن ودينار وعدي بن النجار) . وإلى الشرق منها والجنوب منازل أقوى المجموعات من الخزرج والأوس . وحين نزل الرسول الأعظم في ختام هجرته كانت في خاطره دون شك صورة مكة والتفاف المنازل فيها حول المركز الذي تقوم فيه الكعبة وتتفرع منه الطرق ، وكان الفرق بين تكوين البلدين كبيرا سواء في تجمع مكة السكني الديني وبعثرة يثرب القروي أم في قرى الوادي غير ذي الزرع عند البيت المكرم الذي تقوم فيه مكة ، وبين كثرة الحقول والزرور والأطام في يثرب ذات الطابع الزراعي . وقد أصبح الرسول السيد الأقوى في المدينة لا ينافسه أو يحسده إلا زعماء اليهود مثل (كعب بن الأشرف) لكن هذه الزعامات سرعان ما خفتت اثر انتصار المسلمين في بدر وعرف بينه وبين نفسه كما عرف الناس أنه جمع إلى النبوة والرسالة ، رئاسة دولة تتكون في يثرب .

كان الأنصار منذ نزل الرسول بينهم قد أسلموا إليه أمورهم كما بدأ هو في تكييفهم حسب مبادئ الإسلام . وقد أصدر الصحيفة التي دعيت فيما بعد بدستور المدينة . وفيها يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ويأمر بالمساكنة بينهم ويوزع المنازل على من يطيق البناء منهم ملغيا بذلك المبدأ القبلي ، ومؤكدا بالمقابل المبدأ الإسلامي بتساوي المسلمين أمام الله والناس



«إنما المسلمون اخوة». ومن ذلك الوقت بدأ المسلمون يتحدثون لا عن أوس وخزرج وقينقاع في يثرب ولكن عن أهل المدينة، ولا عن بني عددي وبني أمية وزهرة في مكة ولكن عن «أهل مكة». وعن «أهل الطائف». ثم من بعد ذلك «أهل اليرموك» و«أهل القادسية».

وقد رافق اصدار الصحيفة بل سبقها بناء منزل للرسول يؤويه، ومسجد جامع بجانبه ومتصل به إلى الغرب يصلي فيه الناس جماعة. وبني من بني المهاجرين منازلهم حول هذا المركز الذي يتوسط يثرب. ثم انتشروا بعد أن فتح أهل يثرب للرسول «كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء»^(١). وما كان الماء نهرا جاريا ولكنه آبار يحتفرونها ويعجزهم الحصول على الماء في الأرض الموات. وهكذا ظهرت الخاصة الثانية من خصائص المدينة الإسلامية بأن يقوم المسجد الجامع في المركز ودار الإمارة في جانبه. وإذا كانت مركزية الكعبة ماثلة في خاطره حين بني مسجد الجامع متوسطا المدينة فلم يكن في خاطره حين بني بيته سوى القرب من الجامع ولم تكن دار الرسول دار إمارة^(٢) ولكنها كانت عدة حجرات له ولزوجاته على نسق واحد كل حجرة منها مربع طوله بين ٨ - ٩ أذرع (٤ - ٤,٥ م) صنفت جدرانها من أكسية من الشعر مربوطة بخشب من العرعر، وبعضها باللبن، ولكل حجرة عند مدخلها حجرة تحجب ما بداخل الحجرة الكبيرة وفيه بيت الخلاء وأما السقوف فمن جذوع النخل.

وأما المسجد الجامع فقد بني بعمد من جذوع النخل وسقف من جريد

(١) ابن سلام: كتاب الأموال (تحقيق الهراس - القاهرة ١٩٧٥) ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) يذكر الطبري أن موضع مسجد الرسول وبينه كان مريدا لفلانين يتيمين من بني النجار في حجر معاذ بن عفراء وكان فيه نخل وحرث وقبور فقال لهم رسول الله ﷺ ثامنوني فقالوا لا نبتغي به ثمنا إلا من عند الله. وقطع النخل وأفسد الحرث وبدأ البناء (الطبري ج ٢ ص ٣٩٧).

بطول مائة ذراع (٥٠ م). وجعل له بابين شارعين باب عرف فيما بعد بباب عائشة والآخر بباب عاتكة، وثمة باب ثالث في مؤخر المسجد يقال له باب مليكة. ولم يزد فيه أبو بكر شيئاً ولكن زاد فيه عمر أربعين ذراعاً وبناه على ما كان من بنائه بارتفاع ١١٠ أذرع وبنى أساسه بالحجارة، وجعل له سبعة أبواب وحصنه. ثم غيره عثمان وبناه بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من خشب الساج وزاد فيه إلى أن أعاد بناء الوليد ابن عبد الملك فوسعه وكساه الفسيفساء بين سنتي ٨٧ - ٩٠ للهجرة فجعل طوله مائتي ذراع. . . (١) وبنيت في عهد الرسول في خطط المهاجرين تسعة مساجد أولها مسجد قباء أول مسجد في الإسلام جنوب المدينة، ومنها مسجد السيق شمال مسجد الرسول، ومسجد الفتح في غربه، وكانت متقاربة بعضها من بعض بحيث يسمع الناس صوت بلال وأذانه في المسجد الجامع.

وظهرت الخاصة الثالثة للمدينة الإسلامية على الفور حين وهب بعض الأنصار وأولهم حارثة بن النعمان خططه ومنازله للرسول فمنحها له وأقطعه. ولكن الأنصار منحوا الرسول «كل أرض لا يبلغها الماء يصنع بها ما يشاء» بعد أن كانوا قد أعطوه الأرض الفراغ غربي بني النجار لبني بها منزله ومسجده. يدفعهم إلى ذلك إثارة العقيدة الواحدة على التنافس القبلي والتكالب المادي. وهكذا استطاع الرسول الأعظم أن يقطع المهاجرين حتى «الدور الرابع» وكانوا يتكاثرون باستمرار مع تكاثر المهاجرين بدينهم إليهم فكان يقطعهم الأرض خطة لخطة للنزول بها وبناء المنازل. فخط لبني زهرة من ناحية مؤخر المسجد، وكان لعبد الرحمن بن عوف الحصن المعروف به، وجعل لعبدالله وعتبه ابني مسعود الهدلين الخطة المشهورة بهم عند المسجد،

(١) انظر ياقوت - البلدان ص ٨٦ - ٨٧.

وأقطع الزبير ابن العوام بقيةا واسعا . (مدى ركض فرسه في موات البقيع ، ففعل الزبير ورمى سوطه في النهاية رغبة في الزيادة فناها وهو زوج أسماء بنت أبي بكر . وبنى بها ست منازل وبقي فيها فضاء واسع لم يعمر حتى بعد مائة سنة) . وجعل لطلحة بن عبدالله موضع دوره ، ولأبي بكر رضي الله عنه موضع داره عند المسجد ، وأقطع كلا واحد من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد وعبيد والطفيل موضع دورهم ، يقطع أصحابه هذه القطائع فمن كان في عفا من الأرض فإنه أقطعهم إياه . وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهبوه له فكان يقطع ذلك من شاء . وكان أول من وهب له منزله وخطط منزله حارثة بن النعمان فوهب له ذلك وأقطعه^(١) ويبدو من مراقبته تفاصيل هذا التوزيع أن الرسول الأعظم ﷺ :

١ - لم يشدد على مبدأ الأخوة الإسلامية المطلقة كما لم يشدد على مبدأ التجمع القبلي وكان بين ذلك قواما . لأن أراد التدرج في دمج عناصر المجتمع الإسلامي الجديد . فكانت هناك خطط لبني هذيل وبني مزنة وبني وبلي وجهينة ، وبني عمرة وبني الليث بن بكر . وهي خطط قبلية ولكن كان بينها أحيانا خطط الجماعات وأسر من غير هذه القبائل تبعا لفراغ الأرض ولساحتها ولقدرة من منح الأقطار على البناء ، وكثرة العيال ولامتداد العمران . ويظهر ذلك في توزيع الخطط حول المسجد الجامع للمهاجرين الأول ونزولهم بخطط الأنصار .

٢ - لم يتدخل في توزيع الإقطاعات بين أفراد القبيلة الواحدة وترك ذلك بينهم يتوزعون الخطة كيف شاؤوا حسب حاجاتهم .

٣ - جمع في يثرب ، وفي خطط متجاورة أفراد القبائل المختلفة تمهيدا لتكوين المجتمع الإسلامي الواحد ، كي يكون التعاون القبلي والتساند

(١) باقوت ، البلدان ج ٥ ص ٨٦ (مادة مدينة) .

الأسرى قائمين بين الجماعة القبلية الواحدة من جهة وليكون تجاور الجماعات من القبائل المختلفة سبيلا لترابطها وتقارب بعضها من بعض من جهة أخرى.

كسبت يثرب من هذا النزوح البشري الإسلامي إليها الكثير فتقاربت تجمعاتها السكنية وتلاصق بعضها وكثر السكان كثرة واضحة وزاد عمران المدينة.

بهذا الشكل وجد المبدأ الثالث من مبادئ المدينة الإسلامية بإقطاع الأراضي حول المسجد الجامع ودار الإمارة لجماعة الأمير، بينونها خطة خطة بأمر الأمير وتنظيمه ومع مراعاة تجمع القبيلة الواحدة في خطة واحدة إلا أن المدينة كانت تجمع القبائل المختلفة تحت راية عقيدة واحدة. وتوالت بعد ذلك الظواهر المدنية في يثرب. كلما دعت الحاجة إلى شيء استنه الرسول الأعظم :

١ - كانت الأسواق بجانب الخطط. لكل قبيلة سوقها بجانبها مع الأطم. فأراد الرسول جمعها في سوق واحدة اختار لها موقعا في ظاهر المدينة من الجنوب أقصى بقية الزبير بن العوام، ولكن كعب ابن الأشرف اليهودي، وكان له أطم هناك، خشي على أسواق اليهود المجاورة فقطع أطناب الخيام التي وضعت للسوق، فنقلها الرسول ﷺ إلى العرصة في شامها وقال : «هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج»^(١). وكانت إقامة السوق هناك أجمع للمسلمين بعضهم إلى بعض وأكثر ضررا لليهود الذين أصبحوا يعيدون عنها.

وظلت سوق المدينة عرصة مكشوفة في عهد الخلفاء الراشدين تنصب فيها الخيام، ولم يبدأ البناء فيها إلا في أوائل خلافة معاوية ابن أبي سفيان .

(١) ابن سيد الناس : عيون الاثر (لجنة حفظ التراث - بيروت ١٩٨٠) ج ١ ص ٣٥١.

٢ - وحين تكاثر الناس في يثرب واستفحل البناء نتيجة لذلك عنى الرسول الأعظم بصيانة الطرق العامة وحفظها من عدوان الناس عليها سواء كانت طرقاً رئيسة تصل جميع المؤمنين بمسجد الرسول أم طرقاً تجارية تعبر المدينة من الشمال إلى الجنوب، أم طرقاً فرعية بين المساكن والمنازل. فكان عرض الطريق الأعظم الذي يصل بين مسجد الرسول ومصلى العيد عشرة أذرع (٥ أمتار)^(١) والطرق الأخرى دون ذلك إلى النصف وما دون ذلك. وحددت بعض المواضع لقضاء الحاجات عرفت بالمناصع كما حددت بعض المواضع لقضاء الحاجات عرفت بالمناصع^(٢) كما حددت بعض المواضع الأخرى للذبح في طرف السوق^(٣).

٣ - واستن الرسول الأعظم سنة الرقابة على الأسواق بمروره في السوق وإيضاح الأسس الإسلامية في التعامل، وباستعماله عمر بن الخطاب على السوق ثم باستعماله بعد فتح مكة سنة ٨ هـ سعد ابن سعيد بن العاص عليها. أنه وضع بذلك كله خطة الاحتمساب والمحتمساب في المدينة الإسلامية^(٤).

٤ - وسن الرسول سنة التحصين للمدينة الإسلامية. فلم يكن ليثرب من سور يحميها وإنما هي أطام متفردة لكل مجموعة سكنية على حدة تزيد في العدد على عشرين أطاماً. وحين تكالبت عليه الأحزاب مع قريش سنة ٥ هـ تريد مهاجمة المدينة سرعان ما قبل فكرة إقامة خندق لها يرمى ترابه من جهتها فيكون أشبه بالسور. وحفر هذا الخندق في المنطقة السهلية

(١) السمهوري ج ٢ ص ٧٢٥ و ص ٧٣٢ و ص ٧٣٥ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى (تحقيق محي الدين عبد الحميد) بيروت ١٩٧١.

(٢) السمهوري ج ٢ ص ٦٩٣ و ج ٣ ص ٧٨٠ وابن سيد الناس ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣) ياقوت : ٢٠٢/٥.

(٤) الطبري ج ٣ ص ٢٢٣.

الشمالية التي تعتبر ثغرة في الحرات الجبلية المحيطة بالمدينة . اشترك في الحفر ثلاثة آلاف من المسلمين وفرض الرسول على كل عشرة منهم أربعين ذراعا (أي ٢٠ مترا) واستمر الحفر حوالي ٢٤ يوما رغم تلكوء بعض الناس وتعذرهم بالضعف^(١) وقد بلغ الخندق بذلك ١٢ ألف ذراع (٦ كم) واسترك ﷺ بنفسه في العمل . فلما وصلت جيوش قريش والأحزاب وجدوا أمامهم الخندق ومن ورائه السد الترابي تولاهم الغيظ لأنهم لم يكن لهم بمثل هذه التحصن خبرة سابقة . قال تعالى ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾ (الأحزاب : آية ٢٥) .

٥ - وسن الرسول إقامة معسكر الجند وتجمعهم في ظاهر المدينة حين جمع جند أسامة بن زيد قبيل وفاته في الجرف شمالي المدينة . فكان أول ما فعله أبو بكر بعد وفاته عليه السلام أن نادى مناديه «ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا أخرج إلى عسكره بالجرف»^(٢) .

٦ - واستن الرسول الكريم سنة تهدف إلى زيادة العمران وتكثير الزرع حيث قال : «من أحيأ أرضا ميتة فهي له»^(٣) رواه احمد بن حنبل والنسائي وابن حبان وهو عند البخاري «من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها» .

وقد أصبح الرسول الكريم منذ السنة الثانية للهجرة أنه المسؤول الأول عن مجتمع يثرب الجديد فمارس سلطاته بوصفه رئيسا لدولة المدينة

(١) الطبري ج ٢ ص ٥٦٨ .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٣) ابو يوسف - كتاب الخراج ص ٦٥ وانظر ص ٦٣ - ٦٤ ، والماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٨١ .

الدينية وبهذا الشكل :

أ - نظم مالية الدولة فكان أول خمس خمسه رسول الله من غنائم بني قينقاع^(١) . وأتم ارسال أمراء الصدقات يجمعونها من البقاع التي أمنت برسالته .

ب - كان إذا غاب عن المدينة استخلف عليها ، وهكذا استخلف سعد بن معاذ حين ذهب في غزوة الأبواء ، ثم زيد بن حارثة في غزوته يطلب كرز الفهري ، كما استخلف عبدالله بن رواحة في غيابه^(٢) .

ج - منذ السنة الثانية أخذ يمشي بين يديه في أيام الأعياد رجل يحمل العترة (وهي عصا كالرمح القصير أو الحربة القصيرة) أتى بها الزبير من الحبشة يقال أن النجاشي أهداها له^(٣) . وقد ظلت هذه العادة متبعة أيام العباسيين في مراكب ولاة العهود .

د - جعل يعقد العهود والاتفاقات باسم الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة (كمعاهدة الحديبية) وغيرها .

هـ - جعل يقود جيش المدينة في الغزوات أو يبعث البعث باسمه في الغزوات .

و - جعل يفض الخصومات بنفسه ويقضي بين الناس مطبقا وموضحا الشريعة الإسلامية الجديدة .

وكانت هذه كلها سننا استنها الرسول الكريم لمن بعده من حكام البلاد . صحيح أن بعضها من رسوم الدول الأخرى ولكن الرسول تبناها فأصبحت من السنن المتبعة . وبعضها (كخمس المال) أضحى من الفروض .

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٨١ و . ج .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٠٧ و ص ٥٦١ .

(٣) المصدر نفسه ج ص ٤١٨ .

بذلك كله أصبحت دولة المدينة هي الدولة النموذج سواء في جوانبها الإدارية - السياسية أو في مؤسساتها المادية لكل الحكام المسلمين في مدنهم من بعد. وأضحى يثرب هي المدينة - الأم لكل المدن الإسلامية بعد ذلك. وكان ميلاد المدينة الإسلامية.

وجاء الفتح الإسلامي وشيكاً فظهرت على الفور آثار هذه الأمومة واضحة لا على المدن التي أنشئت فلم يكن في الظن أول الأمر أن تكون مدناً، ولكن على المعسكرات العربية، ومراكز تجمع الجيوش الفاتحة.

فكان على جبهة الفرس معسكران: البصرة والكوفة، وفي أرض الشام معسكران آخران: الجابية وقنسرين، وفي مصر معسكر الفسطاط. ولما تقدمت الفتوح نحو أفريقية (تونس) أقيم معسكر القيروان. وكانت هذه المدن الست هي نواة المجموعة الأولى من المدن الإسلامية التي توالت بعدها مجموعات عديدة تبلغ الست، ضمن المنطقة العربية خاصة. تلتها بعد ذلك على الأطراف القصية في أفريقيا والهند وتركستان وسومطرة وجاوه وما حولها مجموعات أخرى قلما أدخلت في حساب الباحثين لبعدها الجغرافي من جهة ولتوافق ظهورها مع أزمان الإنكماش العربي السياسي في المناطق المركزية من جهة أخرى.

ولدراسة هذه المدن يمكن أن يقترح أربعة مناهج:

١ - أن تدرس على أساس وظيفتها من مدن تجارية أو دينية أو موانئ، أو حربية، أو زراعية، أو إدارية. لكن المدن الإسلامية لم تكن اختصاصية في جانب حياتي واحد. كثير منها يختلط فيه التجاري بالإداري، والميناء بالحربي، والزراعي بالديني. مما يجعل دراستها على هذا الأساس تمزيقاً لوحدتها أو على الأقل لطابعها الإسلامي الخاص. كما ينسى هذا المنهج تعددية الوظائف التي تقوم بها كل مدينة.

٢ - أن تدرس على أساس المدن الذاتية والمدن المخلوقة أي المدن التي تمت وتطورت عبر فترات تاريخية طويلة بفعل ظروف عديدة جغرافية وتجارية ومراكز نقل أو زراعة، والمدن التي نشأت بأمر من الأمير أو السلطان لتكون مقر له ولحكمه، أو منتزها، وقد يكون وجودها مرتبطا بوجود صاحبها أو أسرته وهي النظرية التي قال بها الباحث بوتي Pauly. وبالرغم من أن صاحب هذه النظرية يركز على العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على أنها قوام المدن؛ ويرى أن المدن التي نشأت دون تخطيط مسبق ودون أن تراث تصميميا قديما أكثر من تلك التي خضعت للتصميم والتخطيط، إلا أنه ينسى أن العوامل والظروف تتغير من زمن لآخر. وهكذا تختلط في النهاية وعند الموت أو الازدهار المدن الذاتية بالمدن المخلوقة.

٣ - أن تدرس حسب أجيالها. أي حسب التطور الزمني لوجودها، وللحاجات التي فرضتها عبر الزمن. وهو منهج يقترب من المنهج الأول ولكنه يدخل عليه عامل الزمن. ويمكن أن نعد من أجيال المدن العرب سبعة أجيال على الأقل على امتداد الفترة التي تنتهي مع انتهاء الحروب الصليبية. ويلاحظ أن المد العمراني المدني بدأ في المركز ثم أخذ ينتشر إلى الأطراف الأبعد فالأبعد، في حين كان المركز يتوقف تقريبا عن الإنشاء ليهتم بالعمران الحضاري.

نعد في الجيل الأول من المدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والرملة والموصل وشيراز والمنصورة والجيزة، كما تعد منها المدن التي أجهضت: الجابية وقنسرين. ولكنها ظهرت في القرن الأول الهجري بالإضافة إلى عدد من الحصون مثل مرقية وبقراس وحصن منصور ويتميز هذا الجيل بأنه أوجد خمسة مراكز استيطان جديدة، وقواعد تجمع في المناطق المفتوحة بالإضافة إلى إقامة عدد من المراكز الهجومية على جبهة الروم القريبة. كما يلاحظ أمر هام هو أن العرب الفاتحين مصرروا البصرة مقابل

الإبلة في جنوب العراق، والكوفة مقابل المدائن، وأحيوا الموصل مقابل أربيل، وأقاموا الجابية في الشام مقابل دمشق، وقنسرين في شمال الشام مقابل حلب. وفي مصر أقاموا القسوطا مقابل حصن بابليون، كما أقاموا القيروان في أفريقية مقابل قرطاجة، كأنهم بمراكزهم المدنية الجديدة يريدون مراقبة المراكز القديمة في مواضعها.

ونعد في الجيل الثاني من المدن ما بين أواخر القرن الأول وأواسط الثاني: مدن بغداد. الرافعة. المنستير (في تونس)، مراغة، الري، الحمدية، سجلماسة، مدينة موسى. تبريز، الحديثة (قرب الموصل)، الرصافة، حلم، تونس. والمدن المجهضة: عين جر، هاشمية الأنبار، هاشمية الكوفة، العسكر (في مصر)، القاطول. وحصون المصيصة والهارونية، والمثقب، وورثان ومرعش وموزار وملاطية. ويتميز هذا الجيل الثاني بأنه أوجد مدن استقرار وإدارة ومدنا ملكية في المركز، ومدن استيطان على أطرافه سواء في إيران أم في المغرب مع حصون دفاع وقرى استغلال زراعي.

ونعد في الجيل الثالث من المدن الإسلامية ما بين أواسط القرن الثاني وأواخر الثالث: سامراء، القطائع، فارس، رقادة، بجانة، الأقلام، الحجر، تطيلة، طنجة، مجريط، زبيد، طريف، الرحبة، المذنجرة، هجر (الأحساء)، وهران، البصرة (بالمغرب)، تنس، صبرة، المبارك، مقديشو. بالإضافة إلى عدد من الحصون. ومن المدن المجهضة كدار الهجرة.

ويتميز هذا الجيل بأنه أبرز المراكز التجارية الهامة والمرافئ التي تربط العالم الإسلامي بالهند، كما تربط ساحل شمالي أفريقيا بالاندلس. وبرزت في الوقت نفسه أكثر من ذي قبل ظاهرة المدن الملكية المرفهة.

ونعد من الجيل الرابع (ما بين مطلع القرن الرابع وأواخر القرن

السادس): القاهرة، المهديّة، مراکش، الرباط، زلّول، قصر الفلوس، تاهرت، مرسي، أبدة، أشير، موسى الدجاج، المهديّة (قرب سلا)، المحمديّة (بالمغرب)، الزهراء مرند، دانية، أغمات ذات الحمام. زويلة، كربلاء، النجف، مكناسة، المسيلة، لامو، باته، مافيا، شانغا.

وهذا الجيل من المدن تركّز بخاصة في المغرب وأنشئ فيه المزيد من مراكز الاستيطان والمرافئ، كما أبرز المدن التجارية في شرقي أفريقيا والمدن الشيعة المقدسة في العراق.

ومن مدن الجيل الخامس منذ مطلع القرن الهجري :

دنيسر، المنصورة (بمصر)، اربل، الصالحية، الكرك. بالإضافة إلى مدينة أبي عنان المجهضة^(١). وفي هذا الجيل يقل انشاء المدن سواء في المركز أم على الأطراف العربية من إيرانية وأندلسية ويظهر طابع المدن الحربية على ما أنشئ منها.

أما بعد ذلك فتبدأ الأطراف البعيدة لأرض الإسلام ببناء مدنها الإسلامية على طريقتها في أجيال متفاوتة حسب البقاع : ابتداء من تمبكتو وجنة في أفريقيا السودانية إلى هرر ومصوع في شرقيها، إلى ساسارام وحيد

(١) ذكرها لسان الدين ابن الخطيب في رحلته المسماة «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» فقال : وكان رفع إلى السلطان المغربي بالبناء وتخليداً لآثار أبي عنان (ويقصد أبا عنان فارس المريني المتوفى سنة ٧٥٩/١٣٥٨) خير ما عليه الناس من أخافة عدوهم واهتضام عرصتهم واستهداف عقوبتهم. فأمر بإرتياد محل لتأسيس مدينة فاختر على غلوات منهم محل أرضه صخر منطبق على تراب يتأق فيه اتخاذ الخندق غير الشغاف، بعيد المهوى، بيني السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء. ويكون سطح الأرض على خمس قسامات من منبع الماء. فشرع في البناء، واستبعد الفضاء، ومثلت الأبواب العديدة والأبراج المشيدة وعاق عن اتمامها هجوم حمامه وانصرام أيامه . . . (حسين مؤنس - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ص ٥٩٥).

آباد ومدن دلهي في الهند، بالإضافة إلى مدن الملايو وأندونيسيا وتركستان .

وبالرغم من أن دراسة المدن الإسلامية على أساس من أجيالها المتعاقبة يساعد على إيضاح تطورها فإن هذه الدراسة قد تأخذ الوقت الطويل دون فائدة كبيرة، وقد يخلط ما بين أنواع المدن ووظائفها. ولذلك يفضل أن ندرسها جملة على هدى أسسها التخطيطية العامة، وعلى هدى الظواهر المميزة لها في خططها ومظاهرها المدنية من حماية عسكرية، وبنيتها الاجتماعية وحياتها الدينية وفعاليتها الاقتصادية وأدوار السياسة ومؤسساتها الثقافية. وأخيرا في المرافق والخدمات العامة فيها وهذا ما يوصلنا إلى المنهج الرابع ، وبموجبه :

تدرس المدن الإسلامية على أنها وحدة حضارية مميزة لعمران إسلامي متميز. أي أن تدرس من منظور خاص بها يجمعها كلها أولا في مجموعة واحدة ثم يعطيهما بعد ذلك ميزاتها الوظيفية الخاصة. ومع أن هذا المنهج يعيد للمدينة الإسلامية ما تفتقده على أيدي الدارسين الغربيين بصورة خاصة من طابع إسلامي خاص، إلا أن الاعتراض الوحيد عليه يأتي من أن ثمة نوعين من المدن ظهرت بعد الإسلام سواء في التخطيط أم في التحصين والحياة العامة .

١ - المدن التي أنشأها المسلمون والتي بدأت معسكرات ثم صارت مدنا تجارية أو زراعية أو مراكز حربية، أو مرافئ هامة .

٢ - المدن التي وجدها المسلمون في البلاد المفتوحة ثم حوروا في بنائها وهيكلها العمراني لتتوافق مع فلسفة العمران الإسلامية. وبدهي أن المسلمين لم ينزلوا حيث نزلوا في أرض لا تعرف الحضارة والعمران ولكن في مناطق امتلأت بالمدين والعمران المتقدم . وكان لها طابعها الخاص سواء على حوض البحر الأبيض المتوسط أم في بلاد فارس، ولها تقاليدها في بناء المدن

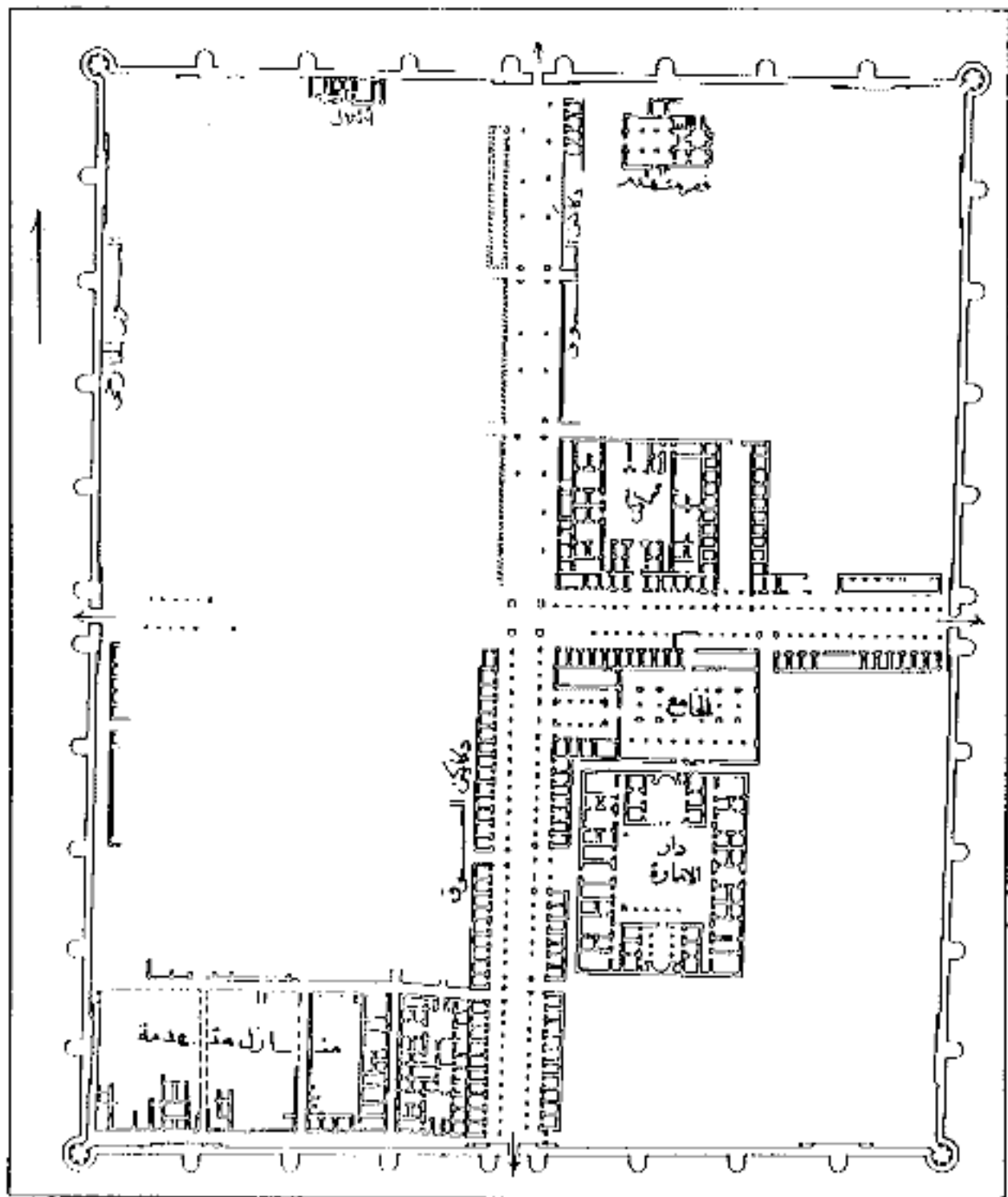
والاستقرار والزينة والنظام . وكان عليهم أن يكيّفوها ويتكيّفوا معها بشكل يتلاءم مع حاجاتهم الروحية خاصة والحياتية .
ويجب أن نضيف نوعاً ثالثاً ثانوياً هو :

٣ - المدن التي أنشأها المسلمون على المنهج اليوناني الروماني ولسنا نعرف منها بوضوح إلا مدينة عين جر .

على أن نتنبه إلى أن هذا التقسيم وبصورة خاصة في النوعين الأولين الرئيسيين لم يكن واضحاً إلا في الفترات الأولى لإنشاء المدن الإسلامية الخالصة . ولكن الفروق كانت تتلاشى وتزول سريعاً مع الأيام لتتماثل المدن من النوعين، لتشكل وحدات حضارية عمرانية ومتشابهة في مظهرها العام تشابهاً في التكوين الاجتماعي والديني والعسكري . وهكذا يكون من السهل بعد أن ندرس ظهور المدن الإسلامية الخالصة وتطوير المدن القديمة بشكل عام أن نتكلم عن ما يمكن أن يسمى بحق «المدينة الإسلامية» .

ولكي نفرغ إلى النوعين الأولين الرئيسيين نقف لحظات عند النوع الثالث الذي ظهر فترة قصيرة ثم غاب بسرعة . نعتبره ثانوياً عابراً وهو التقليد للمنهج الروماني اليوناني في المدن . فإن البيت الأموي الذي استقر في الشام تأثر إلى حد ما بالتأثير البيزنطي وبخاصة بعد بناء قبة الصخرة، والمسجد الأقصى والجامع الأموي وجامع الرسول بالأقواس والقباب والفسيفساء، وبناء المئذنة عالية بدل برج الناقوس في أواخر القرن الأول للميلاد ما بين عهدي عبد الملك وإبنة الوليد . وهكذا ظهر ميل إلى تقليد المدينة الرومانية البيزنطية أيضاً وكانت نماذجها تملأ بلاد الشام وغيرها فبنى أحد أمراء البيت الأموي مدينة نستطيع أن نسميها «مدينة ملكية» له ولحاشيته وجماعته في عين جر، شرقي شتورا، من سهل البقاع . كان ذلك في أوائل القرن الثاني، في عهد هشام بن عبد الملك . وقد يكون الخليفة يزيد

ابن عبد الملك هو صاحبها ولكن موته السريع منع اتمامها أو ذكرها. وقد بنيت عنجر (وهي في الأصل عين جر) مستطيلة الشكل يستدير بها سور منيع تقوم فيه أربعة أبواب على الجهات الأربع : الشرق والغرب باتجاهي دمشق



بهايا مدينة عين جبر

وبيروت، والشمال والجنوب باتجاهي بعلبك ووادي الليطاني. ووراء هذه الأبواب يقوم شارعان رئيسان بالاتجاهات نفسها يؤديان إلى مركز المدينة يتقاطعان فيه، مما يتفق تماما مع التخطيط الروماني للمدن: الكاردو Cardo والديكو مانوس Decamanus. ومنها تتفرع جميع مخططات المدينة وخططها بأقسام متساوية.

إن خرائب هذه المدينة التي لم تعش طويلا والتي لم يتابع منهجها العمراني أحد ماتزال موجودة قائمة وهي تكشف عن تأسيس جامع صغير عند تصالب الشارعين ويليه من جانب الجنوبي، ومن جانبه الشمالي عبر الشارع العرضاني قصران كبيران هما للامير الحاكم (دار الإمارة). والشارعان محفوفان عن الجانبين بأعمدة يرتبط بعضها مع بعض بأقواس تشابه ما تتمتع به المدن اليونانية الرومانية من الأعمدة. ولكن تقوم وراء الأعمدة سلسلة من دكاكين البيع والشراء ماتزال أسس جدرانها الحجرية قائمة لتدل على الأسواق كما ظهرت في المدن الإسلامية المتأخرة. وأما الأبنية الأخرى فزالت معالمها الا قصر في الشمال ومجموعة من المنازل في الجنوب. إن هذه المحاولة لإحياء النموذج الديني اليوناني الروماني تشبه إلى حد كبير المحاولة النظرية التي قام بها الفارابي في مدينته الفاضلة لتقليد جمهورية افلاطون وكما حاول الفارابي المزاجية بين الأفكار اليونانية والإسلامية ضمن الإطار اليوناني وتحت تأثيره ليخرج مدينته النظرية حاول صاحب مدينة عنجر إدخال العنصر الإسلامي على بناء المدينة دون المساس بالمخطط العام. وكما ماتت محاولة الفارابي في مهدها لأن الجو الإسلامي لم يتقبلها كذلك ماتت هذه المدينة وماتت معها فكرة إقامة مدن على المخطط اليوناني - الروماني التقليدي. وبقي للمسلمين نموذجهم الخاص المستوحى من المدينة الأم يثرب. هذا إلى أن المحاولة العمرانية هذه ظهرت مبكرة في مطلع القرن الثاني الهجري وظهرت المحاولة الأخرى في القرن الرابع. ولم يكن

للمحاولتين أي عمر.

ونعود إلى النوعين الأساسيين من المدن لنرى أن المدن التي أنشأها المسلمون قامت تقريبا على مخطط موحد بإعتبار أن صفحة الموقع الذي تقوم عليه المدينة ماتزال فارغة يستطيعون التصرف بشأنها كيف شادوا، وأن الحاجات الدينية والحياتية للمسلمين الأول كانت واحدة ومتأثرة بالنموذج - الام الذي تمثله يثرب (المدينة). إما المدن القديمة التي نزلها المسلمون فكانت تحتاج إلى شيء كثير أو قليل من التعديل لتتوافق مع الحاجات والضرورات الإسلامية وعلى هذا فلا بد من النظر في النوعين كل على حدة.

١ - تخطيط المدن الإسلامية الخالصة وخططها وأمنها :

أن تخطيط المدينة يعكس جماع حياة المجتمع . وهو فن في حد ذاته يعبر عن ارادة الجميع . مع أنه في الكثرة الكاثرة من الأحيان يعبر عن إرادة فرد هو صاحب السلطان الذي يبني المدينة لكنه في الواقع يعبر أيضا عن تصدر مجموعة من البناة المجهولين يعملون على التنفيذ في إطار التمسك بالحاجات المرسومة . . . والمدينة الإسلامية في خطوطها العامة ليست إلا تطبيق لسنة الرسول الأعظم على شروط الواقع المحلي من جهة وفي الإطار المرحلة الزمنية من جهة أخرى . وواضح أن العرب كانت لهم تجاربهم الواسعة والكثيرة خلال القرون، في تخطيط المدن وقبل أن يخرجوا للفتوح . وأن هذه التجارب أعطت المدينة الإسلامية نمطها الحضاري الأصيل ، وواضح طابعها المميز بين مدن الأقاليم الأخرى . ويجب ألا يغرب عن البال أن العرب الفاتحين الذين خرجوا من الجزيرة العربية لم يكونوا بداءة أعرابا جهلاء ولكن كانوا ذوي خبرة في كتلة كبيرة منهم ، في تخطيط المدن والقلاع والحصون والصياصي . ويكفي أن نذكر ما كان في اليمن منها وما كان في الحجاز وفي عمان والبحرين لنذكر أن هؤلاء الفاتحين حين وضعوا مخططاتهم الأولى لما

سوف يكون مدنا (كالبصرة والكوفة والفسطاط) لم يضعوها لتكون مدنا ولكن لتكون معسكرات مؤقتة للجيش . ولكن ضرورات أخرى كالأمن وحاجات أخرى كالتجارة دفعت إلى تحويل هذه المعسكرات تدريجياً إلى مدن . وحين جرى هذا التحول لم يكن من الأمور المرجحة ولكنه كان يجري وفق ايدولوجية دينية مفروضة ونظام هندسي واضح .

اختار العرب المسلمون عند الفتح خمس معسكرات لجيوشهم ، اثنان في العراق (البصر والكوفة) واثنان في الشام (الحايبة وقنسرين) وواحد في مصر (الفسطاط) ثم أضافوا وشيكا معسكراً سادساً في أفريقيا حين امتدوا إلى المغرب (القيروان) . وتطورت هذه المعسكرات - فيما عدا معسكري الشام - لتصبح المدن الإسلامية الأولى . ونسجل قبل الحديث عنها أربع ملاحظات : الأولى : أن الهيكل الأساسي للمدن التي نشأت مكان هذه المعسكرات إنما جرى تصوره وتنفيذه في عهد عمر بن الخطاب وبتوجيهات منه استلهم بعضها من أعمال الرسول الأعظم وابتكر بعضها الآخر أو اقتبسها فكانت قواعد للمدينة الإسلامية فيما بعد . فالأفكار الموجهة إذن إسلامية بحثة أشرف على وضع بعضها وعلى تنفيذها عمر بن الخطاب نفسه . والكثيرون يذكرون لهذا الخليفة الثاني عدله خاصة وتواضعه وصرامته في الحق ولا يذكرون أنه فكر عمراني مدني أنشأ على الأقل ثلاث مدن ما تزال إلى اليوم قائمة مع أنه ليس بين عهده وعهد الرسالة سوى سنتين .

الثانية : أن جميع المدن التي أقيمت أيام الفتوح (كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان) كانت على سيف الصحراء وظهرها إلى البادية تستمد منها المدد المباشر وتتوخى بموقعها جانب الخذر ولم تبدأ في التوغل داخل الأراضي الزراعية إلا بعد سنتين . أو سبعين سنة حين استقرت الدولة وآمنت لمصيرها (كما جرى في واسط والرملة والموصل وشيراز) التي بنيت ضمن المناطق الزراعية . وكان لها مع ذلك سببها القريب من البادية العربية .

الثالثة : أن القبيلة كانت هي الأساس الإسكاني في خطط المدن الأولى (البصرة والكوفة والفسطاط) حتى عهد مروان بن محمد لا بسبب الإصرار على القبلية ولكن لأن تكوين السكان النازحين من الجزيرة كان قبليا ولأن التكوين التعبوي للجيش كان قبليا كذلك. وسجلات العطاء كانت منظمة على الأساس نفسه استمر ذلك حتى عهد مروان بن محمد الذي ضرب أهم معول في تحطيم الرابطة القبلية نتيجة لازدياد المسلمين من الأمم الأخرى وتقاوس العرب عن عمليات الجهاد. (ظهر ذلك في الموصل) فلما جاء العصر العباسي الأول ظل هذان الأمران يتوضحان وظهرا في سكان بغداد وسامراء إذ ضعفت الرابطة القبلية وصارت موضع هزء من الناقمين عليها كأبي نواس (الشاعر المعروف).

وفي حين كان الكثيرون يفخرون بالنسب العربي كانوا من جهة أخرى موضع هزء الآخرين (كأبي تمام المتوفى سنة ١٣٢).

ولنلاحظ أن كتب النسب الأولى كالأنساب لابن الكلبي نظمت كلها على الأساس القبلي ذكرى للماضي الذي يندثر، ثم بدأت الأنساب تتصل بالمدن أو المهن لتضيع القبائل فلا يبقى في أنساب الناس منها إلا من يريد شيئا من الفخر عن طريق الارتباط الديني بالنسب العربي وكانوا ينصون عليه فيقولون مولا هم وما أكثرها في الأنساب في القرنين الثالث والرابع. فلما كان القرن الخامس وما بعده كانت الأنساب قد تحولت إلى المدن أو الصناعات ونظرة إلى كتاب السمعي تظهر الفرق بينه وبين أنساب ابن الكلبي.

هذا كله لا يعني فقط تحول الأنساب ولكن يعني أن سكان المدن قد أصبحوا خليطا غير قبلي لا يميزهم إلا المهنة أو اسم المدينة أو القرية!

الرابعة والأخيرة : هي أن جميع المدن الإسلامية التي نعرف

تخطيطها أو وصلنا شيء عنه كانت تقوم على أساس مخطط مسبق وكانت خططها منظمة التنظيم المدني (كالبصرة والكوفة والفسطاط وواسط والرملة وبغداد وسامراء) وقد حافظت في فتراتنا الأولى على هذا التخطيط. لكن التورم السكاني أصابها بعد ذلك فأعوجت الطرق أو جرى فيها التراكم الفوضوي على محلات الأطراف أو ألزمتها عوامل أخرى كالدفاع الأمني على تضيق الأزقة أو إغلاقها. فما ينسب إلى المدن الإسلامية من الفوضى فإنما يتحدث عن أوضاعها الأخيرة لا الأولى وهذا بدوره يحتاج إلى معالجة خاصة.

ومن المؤسف بعد أن معلوماتنا عن تخطيط الكثير من المدن الإسلامية محدودة عامة ومتفاوتة جدا وهي لا تسمح بالحديث الواسع بل المقارنة بينها فنحن نملك عن بعضها (البصرة - الكوفة، واسط، الفسطاط، القيروان) معلومات حسنة ولكننا لا نملك إلا القليل جدا من المعلومات عن إنشاء شيراز والموصل والجزيرة والرملة المعاصرة لها في الجيل الأول من المدن. وتقل المعلومات أكثر فأكثر في الجيل الثاني فإذا استثنينا بغداد التي حظيت بأكثر قدر من الاهتمام وجاءنا عنها أكبر كمية من المعلومات وردت عن مدينة إسلامية، فلا يكاد يكون لدينا شيء ذو قيمة عن الرافعة أو المنستير أو مراغة أو تبريز وقد يكون ثمة شيء عن تونس أو سجلماسة أو جرجان لكنه قليل أو أقل من القليل.

ويتكرر ذلك في الجيل الثالث من المدن فنحن نعلم الكثير عن سامراء باعتبارها - كبغداد - مركز الخلافة الأكبر كما نعرف شيئا عن رقادة، وعن القطائع وعن فارس ولكن لا نعرف شيئا ذا قيمة عن صبرة أو وهران أو تطيلة أو مقديشو. وتضيق المعلومات بوضوح في الجيل الرابع فلا نكاد نعرف بوضوح سوى القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة الفاطمية. ونعرف القليل عن المهديّة ومراكش والرباط والزهاء ثم نغض الأبخار عن الباقي

فلا دانية في الصورة ولا اغمات ولا تاهرات أو زويلة ولا مكناسة أو بانه أو
أشير ومرسية . . .

وعلى هذا فسوف نعتمد ما هو متوفر عن المدن المعروفة ونستعين كلما
أمكننا الاستعانة ببعض المعلومات عن المدن الباقية .

١ - الموقع والمناخ : يقصد بالموقع مكان توضع وطبوغرافيتها وابن
قتيبة يذكر أنه «قالت الحكماء من الروم أصلح مواضع البنيان أن يكون على
تل أو كبس وثيق ليكون مطلا* . ويقول ابن الفقيه في هذا المعنى : «وأصح
البلاد ما كان على الجبال والأماكن التي تواجه مهب الصبا (الشمال) . وما
كان في قعور وأغوار ومواجهة لرياح الجنوب أو الدبور فهي مواضع ردية،
مولدة للأمراض . وأولى المواضع ببناء المدن والدور المشرف من الأرض
ليشرف على ما حولها . . .»**

يظهر بوضوح أن الموقع الجغرافي والمناخ الملائم حتى لو كانا لمعسكر
كان يجري اختيارهما اختيارا حسنا من جانب المسلمين ويتفق عليهما مسبقا
بين أهل الرأي من الجماعة العسكرية أو السكانية التي تريد النزول بأحد
المواقع . وكان ذلك شرطا من شروط بناء المدن في الإسلام فقبل أن يستقر
العرب الفاتحون في البصرة بحث زعمائهم القبليون عن الموقع الملائم وكانوا
يعرفون المنطقة جيدا بحكم التردد عليها قبل الإسلام فاخترتوا منطقة سهلية
شرقي النهر تدعى في ذلك الوقت باسم : بهشتاباد أزدشير (وتدعى الخريبة)
عند العرب . وقد ذكروا أن عددا من الغزاة مثل أبي الجرباء عام بن الدلف
الغيلاني، وقطبة بن قتادة يغيرون على الفرس في تلك الناحية . . . فلما قتل
قطبة بعث عمر عتبة بن غزوان الذي نزل (أولا) على الشاطيء بجبال جزيرة

(*) ابن قتيبة : ج ١ ص ٢١٣

(**) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ١٥٣ وص ١٥٥ .

العرب فأقام قليلا ثم ارزمع أصحابه (مرات). ثم شكوا ذلك حتى أمره عمر بأن ينزل الحجر بعد ثلاثة أوطان إذا اجتسوا الطين فنزلوا في الرابعة البصرة وكل أرض حجارتها جصى^(١). وكان اختيار الموقع سنة ١٤ هـ لقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم. وذكروا أن عمر قال لعتبة بن غزوان : قد فتح الله على إخوانهم الحيرة وما حولها وقتل عظيم من عظمائها ولست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل فارس فإني أريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل تلك الجزيرة من إمداد إخوانهم على إخوانكم . . . فأقبل عتبة في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا. وضوى إليهم قوم من الأعراب . . . فقدم البصرة سنة ٦٥ في خمسمائة . . . وكانت تدعى أرض الهند . . . فنزل الخريبة وليس بها إلا سبع دساكر . . .^(٢) فكتب إلى عمر ووصف له منزله فكتب إليه عمر : اجمع للناس موصفا واحدا ولا تفرقهم . . .^(٣) وكان في موضع البصرة حلفاء وقصب نابتة فقالوا ها هنا أمرتم^(٤) وقال عتبة إن أمير المؤمنين أمرني أن أنزل أقصى البر من أرض العرب وأدنى أرض الريف من أرض العجم . . . فنزل الخريبة . وهكذا كان المطلوب في البصرة لا الموقع الحسن فموقعها سيء ولكن الموقع الاستراتيجي للمعسكر لمراقبة الأمداد وقطع الطريق عليها «وبعد أن استقر شهرا غزا عتبة الأبله وفتحها . . .» وانثالت الدنيا على المسلمين فهم يهيلون الذهب والفضة فرغب الناس في البصرة فأتوها^(٥). وتوالت الوفود من العرب بعد ذلك فاستأذنوا الخليفة في بنيان القصب فأجاب : شأنكم فابتنى أهل المصريين (البصرة والكوفة) بالقصب^(٥).

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٩٢ (١/٢٣٨٠).

(٢) الطبري ج ٣ ص ٥٩٠ (١/٢٣٧٠٧ - ٢٣٧٨).

(٣) الطبري ج ٣ ص ٥٩٤ (١/٢٣٨٥).

(٤) الطبري ج ٤ ص ٤٣ (١/٢٤٨٧).

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٣٨ .

أما الكوفة فقد مصرت بدورها سنة خمس عشرة دهم على موضعها رجل يسمى ابن ببيعة . قال لسعد بن أبي وقاص : أدلك على أرض ارتفعت عن البق وانحدرت عن الغلاة؟ فدهم على موضع الكوفة . وكان الفاتحون يبحثون عن «دار هجرة»^(١) أي عن موقع يستقرون فيه بعد أن فتحوا السهل العراقي بما فيه المدائن . على أن لا يجعل بينه وبينهم بحرا وتستند الروايات الخمس التي رواها الطبري حول إنشاء الكوفة إلى مشكلة المناخ^(٢) . ويذكر أن وفدا من المحاربة قدم على عمر بعد القادسية فلما رأهم قال : والله ما هيأتكم بالهيئة التي ابتدأ ثم بها فما غيركم قالوا : وخومة البلاد^(٣) فلما احتوى المسلمون المدائن بعد أن خددتهم وغيّرت ألوانهم وآذاهم الغبار والذهب كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن يبعث روادا يرتادون منزلا بریا بحريا فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما أصلح البعير والشاة (بسبب المرعى) وسأل عمر من قبله عن هذه الصفة فيما بينهم فأشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان (وهو ظهر الكوفة) فكتب إلى سعد يأمره به : فأرسل سعد حذيفة بن اليمان في شرقي الفرات، وسلمان بن ربيعة الباهلي في غربه حتى أتى الأنبار وبدو أن الأنبار أعجبت سعدا وأراد أن يتخذها منزلا فكثرت على الناس البعوض فتحول إلى موضع آخر فلم يصلح فتحول إلى الكوفة^(٤) «وهي أصح هواء من البصرة» .

وذكر عمر للإبل وتشبيه العرب بها لا يدل على تصور رعوي للوجود العربي في العراق ولكنه ربط بين الحاجة إلى رعى الإبل للتحرك وبين المقاتلة ولأسباب نفسية أكثر منها اقتصادية . فالعرب كانوا ما يزالون يعتمدون الإبل

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٠ (٢٤٨٢/١) .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٥١ و ٤٢ .

(٤) البلاذري - فتوح ص ٣٣٨ ، والطبري ج ٤ ص ٤١ (٢٤٨٣/١) .

والشاة ولا يتكيفون بمكان إلا إذا تكيفت به هذه السوائم والمواشي . وموقع الكوفة يقوم على سيف الريف المزروع من جهة وعلى سيف البادية من جهة أخرى فله شأن الحدود في المراقبة . وكان ممكنا اختيار الأنبار لأنها في موقع استراتيجي حدودي طيب وتقع على منطقة التقارب المائي بين دجلة والفرات لكن الباحثين عن الموقع فضلوا موقع الكوفة الفضاء فهو أرحب من الأنبار والمدائن المحددتين بالأبنية . وبالإطار الحضاري الذي لا يتفق مع أمزجتهم ومقاييسهم وبالمناخ الوخيم الذي لم يكونوا يألفونه . . . ، ولم يختاروا الحيرة رغم قرب موقعها من الكوفة لأنها شديدة التوغل في البادية ولأن موقع الكوفة كان أيسر مكان للدخول إلى العراق دون أن تعترض الفاتحين السباح والأهوار الجنوبية . وهي نقطة اتصال بين عالمين : الإمداد العربي القادم من الصحراء من جهة ، والأرض التي أخذ العرب يحتلونها في السواد من جهة أخرى .

وهكذا لعبت الظروف الجغرافية دورها في اختيار موقع الكوفة فهي بجانب موقعها الاستراتيجي كقاعدة عسكرية للعرب تتمتع بهواء نقي ملائم للعرب النازلين ولم يكن في الموقع إلا ديرات ثلاثة (حرقه وأم عمرو وسلسلة) وخصائص خلال ذلك . . .^(١) .

ومن الهام أن نلاحظ أن مواقع المدن الإسلامية التي بنيت في العراق على أطرافه الغربية لم يجر اختيار مواقعها عبثا فقد بنيت البصرة مقابل الأبله في الجنوب ، والكوفة في وسط العراق مقابل المدائن وقرب الجزيرة ، وحديثة الفرات قرب الأنبار ، والموصل مقابل نواردشير الفارسية على الضفة الغربية من دجلة . وجنوبها أقاموا اربيل مقابل اربائيلو وشحنوها بالمقاتلة . . . فهو خط دفاعي هجومي واحد على الحدود التي كانت ساسانية . وكذلك كانت

(١) الطبري ج ٤ ص ٤١ .

نيتهم في الشام وعلى الفكرة نفسها بنيت الفسطاط والقيروان في مواقعها المختارة .

لكن لم يكن خط الشام كخط العراق في معسكراته : فالجابية كانت وما تزال موقعا في شرقي الجولان وهي الى حوران أقرب وأرضها حرات سوداء حجرية وينقصها ما يتوفر بدمشق من الماء فلم تستطع أن تكون أكثر من معسكر مؤقت ما لبث أن ابتلعتة دمشق، وأما قنسرين فيبدو أن خالد بن الوليد الذي خربها بعد أن فتحها^(١) فضل أن ينزل الجيش في حاضرها (أي ظاهرها) وكان هذا الحاضر لتنوح . منذ أول ما تنحوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل^(٢) . وعلى أي حال فقد فضل الناس حلب على قنسرين المخربة ولم يتحول المعسكر فيها إلى مدينة وانتهى مع توقف الفتوح .

لكن الشام حظيت في أواخر القرن الأول بمدينة الرملة لأن موضعها كان رملة من قبل . ولسنا ندري السبب في بنائها ولكن سليمان بن عبد الملك الذي بناها كره لسبب ما فيها يبدو بلدة (لد) المجاورة لها حين كان عامل جند فلسطين لأخيه الوليد . فأحدث مدينة الرملة ومصرها ولم يطل به تفكيره لا في الموقع ولا في المناخ فهو يعرفها جيدا ويرتضيها وإنما أزاح مكان الاستقرار قليلا فهي قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل وفي الصيف ذرية من الرمل . . .

والموصل التي عمرت في نهاية القرن الأول الهجري بنيت في موقع مأهول قديم كان قاعدة لعدد من المدن من أهمها نينوى والحضر وكان

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٠١ وذكر البلاذري أن الذي فتح قنسرين هو السمط بن الأسود الكندي (ص ١٧٢) .

(٢) البلاذري - فتوح ص ١٧٢ .

للساسانيين في موضع الموصل بلد باسم نواردشير ومن حولها كان ثمة مدن
بزنطية مثل الزعفران (سنجار) وحصون آشورية قديمة . وهذا الموقع عقدة
مواصلات بين الطرق من العراق ومن أذربيجان ومن أرمينية ومن الشام فهي
إذن في موقع استراتيجي حربي وتجاري هام يضاف إلى ذلك مناخ صحيح
التربة ، طيب الهواء . .

وأما الفسطاط فقد مُصر بعد فتح الإسكندرية الأول سنة ٢٠ هـ وكان
موضعه فضاء ومزارع فميا بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بالجبل
المقطم . ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر
الشمع والمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر وكان بجوار هذا
الحصن من بحريه (الجهة الشمالية) أشجار وكروم صار موضعها الجامع
العتيق (جامع عمرو) وفيها بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات
للنصارى^(١) . أما عدد الفاتحين الذين يريدون النزول فكان ثلاثمائة
وخمسين رجلا توابع عمرو بن العاص و١٢ ألفا جاءوا نجدة له مع الزبير
ابن العوام .

كان اختيار هذا الموقع يتناسب من جهة مع تعليقات عمر بن الخطاب
بأن تكون منازل الناس على سيف الصحراء لا يججز بينه وبينهم بحر^(٢) .
وتتفق من جهة أخرى مع الإختيارات السابقة القديمة التي اختارها الأولون
في مصر لإقامة مدينة مثل منف التي خربت والحصون التي ذكرت بعدها .
فالمكان مجرب مألوف للسكنى وقد بنى به الفرس قصر الشمع الذي عرف فيما
بعد بحصن باب اليون (ببليون) كما أنه متصل بالصحراء التي دخل منها
العرب . وليس في الإمكان اختيار موضع بعيد عن النيل لأن ما وراء الشريط

(١) المقرئزي - الخطط (ط - بولاق) ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) ياقوت : البلدان ج ٤ ص ٢٦٣ .

النيلي صحراء مرتفعة لا يصلها الماء . . . وهكذا حزم أمر القادة الفاتحين على أن الموقع الذي قاتلوا منه حصن بابليون ونصبوا فيه فسطاط الأمير هو الموقع المناسب للنزول أرضا ومناخا . . . ليكونوا - كما قالوا - «على ماء وصحراء»^(١) .

ويبدو أن الزبير بن العوام اختار موقعا ثانيا بجوار الإسكندرية فثمة خبر يقول أن الزبير اختط بمصر والإسكندرية خطين^(٢) ولكن خطة الإسكندرية - على ما يبدو - اجهضت لقربها من البحر - وكان البحر للروم - ولأن الطريق إليها يخترق الدلتا وما فيها من نزع وزرع وأدغال ونبات . . . ونجد مرة ثالثة أن الموقع الاستراتيجي والمناخ الملائم يفرضان أنفسهما عند اختيار مواقع المدن الإسلامية .

وأما القيروان فكانت بدورها معسكرا وقد اختير موقعها على أساس حاجات استراتيجية واضحة . قال مؤسسها عقبة بن نافع لأصحابه بعد الفتوح في المغرب «أن أهل هذه البلاد قوم لاخلاق لهم إذا عضهم السيف أسلموا وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عاداتهم ودينهم ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا وقد رأيت أن أبنى ها هنا مدينة يسكنها المسلمون فاستصوبوا رأيه . . . » فجاؤوا إلى موضع القيروان وهي في طرف البر وهي أجمة عظيمة وغيضة لا تشققها الحيات من تشابك أشجارها وقال : «إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها . وهي في وسط البلاد . . . »^(٣) . ويبدو أن أصحاب عقبة خافوا كثرة الهوام والسباع في البقعة فلما بدأوا الاستقرار شهدوها تهرب . . . وكان

(١) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٢) البلاذري - فتوح ص ٢٥١ .

(٣) ياقوت ج ٤ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

اختيار موقع القيروان بعد تردد فقد كان للعرب معسكرهم السابق في منطقة القرن الذي كادوا يبدؤون فيه البناء .

وأما بغداد فجرى بدورها اختيار موقعها بدقة، ومع أن اسمها موجود من عهد حمورابي وموقعها كان سوقاً مربة خالد بن الوليد^(١) وأرسل من أغار عليه وملاء المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء وماخف حمله من



(١) الطبري ج ٧ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

المتاع^(١). وقد بعث المنصور من يرتاد له الموقع المناسب وهو بالهاشمية. فنعت له موضع قريب من بارما فخرج إليه بنفسه وبات فيه ثم لم يعجبه فعاد إلى موضع كان رآه أكثر ملاءمة. والكثير من المؤرخين يذكرون أنه اختار موقعا كانت فيه من قبل قرية باسم بغداد^(٢) فيها دير عتيق وللناظره وعدد من الأديرة وبعض الأسواق لبعض القرى السريانية هناك. ويجواره نحو الجنوب قرية تدعى كرخا يبدو أنه كان لها سور. . . وعلى أي حال فقد وجد المنصور في هذا الموقع الخصب الشاسع بغيته. ويذكر اليعقوبي أنه حمد الله أن ادخر له هذا الموقع ليبنى فيه مدينته فهي «جزيرة بين دجلة والفرات. دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة الدنيا. كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليهامة والبحرين وما يتصل بذلك (إلى الصين) فإليها يرقى وإليها ترسى وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية مما يحمل في السفن في دجلة، وما يأتي من ديار مصر والرقّة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في الغراب فيها يحتط وينزل، ومدرجة أهل الجبل واصبهان وكورخراسان. . .»^(٣) فهي تتوسط العرق «فأنت متوسط البصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله، وأنت قريب من البر والبحر والجبل - وهي بين أربعة طساينج؟ . . . وهي حصينة الموقع فأنت بين أنهار لا يصل إليها عدوك. . . وطيبة المناخ «قليلة البور. . .»^(٤). وهكذا كان اختيار موقع بغداد اختيارا لموقع استراتيجي من النواحي العسكرية والإقتصادية إلى مناخه الطيب. على أن معظم ما ذكر عن حسن موقع بغداد فلأنما هو من الأدب الذي صنف في القرن الثالث بعد

(١) البلاذري فتوح ص ٣٠١.

(٢) الطبري ج ٧ ص ٢٧٧/٢ و ٢٠٦٧/١، اليعقوبي - البلدان ص ٢٣٥.

(٣) اليعقوبي ص ٢٣٧ و ٢٣٨.

(٤) ابن طباطبا الطفطفي - الفخري في الأدب السلطانية (ط - صادر بيروت) ص ١٦٢.

ازدياد سمعتها وقوتها . وبعد أن صارت سرّة الدنيا بما اجتمع لها من أسباب الرفاه والعلماء والتجار فهذه الأوصاف إذن لاحقة لا سابقة وتمثل ما رآه الناس بعد ازدهار المدينة من حسنات الموقع وأن وصفوة بصيغة التنبؤ بها . ويبدو على أي حال أن اختيار الموقع كان حسنا وأن كونه العاصمة للدولة الجديدة دعا إلى بناء مدينتين على الفور حوله تتمهانه وتحتضنان تدفق السكان والعطاء والتجار والعامّة عليه : التي بناها المنصور إلى الجنوب من بغداد وحلت محل قرية كرخا القديمة هناك وحملت اسمها . وقد جعل فيها الأسواق التي أخرجها من بغداد مرتابا من أهلها مبتعدا عن وساحتها ونظم هذه الأسواق .

الثانية هي الرصافة على الضفة الشرقية لبغداد وقد بناها معسكرا لابنه المهدي وجنده . فبنى فيه قصرا ينزل فيه وقد تخير المنصور الموقع عمدا لأنه وقد أعجبه موقع بغداد أراد أن يصير هذا بلدا وذلك بلدا فإن فسد عليك - كما قال له الناصحون أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ثم تالت من بعد ذلك مدن أو احياء ضخمة أخرى متصلة ببغداد وصارت جزءا منها كالشامية إلى شرقي دجلة شمال الكرخ . والمخرم دونها .

ثم انتقلت بغداد كلها إلى الجانب الشرقي من دجلة وبنى لها المستعين سورا نحو الشمال ثم زحفت جنوبا فبنى لها المستظهر سورا آخر . . .

وحين شاء المعتصم التخلص من شغب الناس على جنده في بغداد وشغب جنده على الناس بعث يرتاد موضعا لعاصمة جديدة .

وأراد المعتصم أولا البناء بالشامية (شمال رصافة بغداد) ثم تركها لضيق المكان ولقربها من بغداد واقترح الفضل بن مروان وزيره البناء بموقع البردان سنة ٢٢١ فاقام فيه أياما وأحضر المهندسين ثم لم يرضى الموضع فصار

إلى موضع يقال له باحشا من الجانب الشرقي من دجلة فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب وضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده فنقذ إلى القرية المعروفة بالمطيرة فأقام بها مدة ثم مد إلى القاطول فقال : « هذا أصلح المواضع فيصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول . فابتدأ البناء وأقطع القواد والكتاب والناس فبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بني له وسكن بعض الناس أيضاً»^(١) وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر^(٢) ولكن الخليفة أمر بالتوقف عن العمل لصعوبة الأرض وضيقها وقال : « أرض القاطول غير طائلة وإنما هي حصاد أنهار . والبناء بها صعب جدا وليس لأرضها سعة . ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي منعت الرشيد والد المعتصم من بناء مدينة في الموقع نفسه من قبل » ثم ركب المعتصم متصيذا فمر في مسيره حتى صار إلى موضع سامراء وهي صحراء لا عمارة فيها لا أنيس فيها إلا دير للنصارى فوقف بالدير (وتحدث مع أهله) ثم «عزم على أن ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن عبد الملك الزييات (وزيره) ، وابن أبي داود (قاضييه) وعمر بن فرج وأحمد بن خلد المعروف بأبي الوزير وقال لهم اشترؤا من أصحاب هذا الدير هذه الأرض وادفعوا إليهم ثمنها أربعة آلاف دينار ففعلوا ذلك»^(٣) .

وقد اثبتت حفريات الأثري هورتر فيلد أن هذا المكان مأهول منذ العصر الحجري الحديث (٥ - ٤ آلاف ق . م) ويظهر أنه ظل مأهولا بعد ذلك وكان له شأنه في العصر الروماني . واسم سامراء قديم ولو أن المؤرخين

(١) انظر ذلك لدى اليعقوبي - البلدان ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٤ ص ٥٣ . وقد تضابق بعض البغداديين لهذا الانتقال فقال بعض العيارين منهم أبا ساكن القاطول بين الجرامقة وتركت ببغداد الكباش للبطارقة .

(٣) اليعقوبي (٢٥٧ - ٢٥٨) والمسعودي ٥٣/٤ .

الإسلاميين حاولوا جعله عربيا إسلاميا على شكل «سر من رأى».

وقدم البناء في الموضع ووجود حصن قديم فيه ودير يعلل لنا سبب اختيار المعتصم له فالواقع أن المكان المختار مرتفع عن دجلة فهو آمن من الفيضان وارتفاعه هذا مع احاطة الماء به يجعله مكانا حصينا من الناحية العسكرية كما أنه ليس بالبعيد عن بغداد فميزات موقع بغداد موجودة فيه من توسط ومركز استراتيجي ومناخ ملائم جيد بالإضافة إلى عدم اخراج مركز الخلافة من العراق.

ونصل إلى موقع القاهرة فنراها تبنى في شمال مصر (الفسطاط) وكانت حينئذ رملة فيما بين مصر وعين شمس يمر بها الناس فيما بين الخليج المعروف في أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين وبين الخليج المعروف بالبحاميم وهو الجبل الأحمر. وكان الخليج المذكور فأصلا بين الرملة المذكورة وبين القرية التي يقال لها أم رنين ثم عرفت بالمقس . . ولم يكن عند نزول جعفر (الصقلي قائد المعز الفاطمي) بهذه الرملة ببيان من أماكن سوى بستان الأخشيد ودير للنصارى يعرف بدير العظام . . وكان بهذه الرملة مكان ثالث يعرف بقصر الشوك تنزله بنو عذرة في الجاهلية . . وقرب جبل يشكر أرض تعرف بالحمراء القصوى فيها عدة كنائس وديارات للنصارى . . .»^(١).

ولم يكن على جوهر باني القاهرة أن يتردد كثيرا في اختيار الموضع فهو موقع قديم السكنى عند رأس الدلتا المصرية، والدوافع التي دفعت السابقين للبناء فيه (من جغرافية واستراتيجية ومناخية واقتصادية هي الدوافع التي دفعت جوهر إلى اختياره بالإضافة إلى أمر آخر هو أن القائد الفاطمي لم يكن يريد الابتعاد عن الفسطاط التي كان «بها محل الأمراء ومنزل ملكهم وإليها

(١) المقرئزي - الخطط ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

تجبي ثمرات الأقاليم وتأوي الكافة وكانت قد بلغت من وفورة العمارة وكثرة الناس وسعة الأرزاق والتفنن في أنواع الحضارة والتأنق في النعيم ما أربت به كل مدينة في المعمورة حاشا بغداد^(١) وكان على جوهر مراقبة هذا المركز المدني الخطر فابتنى في شماله .

وتقوم فاس التي بنيت سنة ١٧٢ نموذجاً فريداً في اختيار الموقع فقد نزل ادريس بعد انهزامه مع ابن أخيه الحسين في معركة فسخ في الحجاز على قبيلة أوربة البربرية في مدينة ولبلى وسرعان ما تجمعت حوله القبائل الأخرى وتأليف جيش فتح به المنطقة في المغرب وكان أكثرها على المسيحية واليهودية فاستكانت له وصارت إمارة بلغت أخبارها بغداد وهزت الرشيد . وأراد ادريس تقليد المنصور في البحث عن موقع لمدينة له يؤسسها ويسكنها بخاصته وجنوده فركب في خاصة قومه إلى أن بلغ جبل زالغ فعزم أن يبني المدينة عليها سنة ١٧٠ وشرع بالفعل في بنائها فبنى بعض دورها ونحو الثلث من سورها فأتى السيل من أعلى الجبل في بعض الليالي فهدم السور والدور وحمل ما حول ذلك من الزرع والخيام على ما يذكره صاحب جذوة الإقتباس . ثم خرج في العام التالي ليرتاد موقعا آخر فأنتهى إلى موقع على نهر سبوق أعجبه الموقع لقربه من الماء ووجود حمة ساخنة بجواره وشرع في حفر الأساس وابتدأ البناء ثم فكر في النهر وما قد يأتي به من المدود والسيول في الشتاء فكف عن البناء وعاد إلى ولبلى وعهد إلى وزيره عمير بن مصعب الأزدي بمهمة البحث عن موقع منزل على عين ماء تسمى بعمير حتى وصل إلى العيون التي ينبع منها وادي فاس فاستطابه ثم سار في اتجاه الوادي ونزل على موقع بجواره فاستطابه ولم يكن فيه إلا بعض خيام الشعر فرجع إلى ادريس يبلغه عن الموقع ومياهه وطيب تربته ورطوبة هوائه فسر ادريس

(١) المصدر نفسه ص ٣٥٩ .

وركب إلى هناك واشترى موضع الفيضة بستة آلاف درهم وابتدأ البناء سنة ١٧٢^(١).

أما موقع سجلهاسة فكان موضعا براحا يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المجاورين له يتسوقون فيه فنزله عيسى بن يزيد الأسود من الخوارج الصغرية واجتمع إليه كثير من أصحابه الصغرية وسكنوا معه في خيام وكان عددهم يزيد على أربعة آلاف فلما ولوه عليهم قام بأمرهم ورأى أن يبني لهم مدينة فشرع في بنائها سنة ١٤٠ هـ.

أما مراکش فيذكر صاحب الحلل الوشية أن الأمير أبا بكر عمر اللمتوني اختار موقعها وكان خلاء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا ينبت إلا السدر والحنظل وكان يوسف بن تاشفين في حاجة إلى معسكر لقواته في جنوبي المغرب فرأى في هذه البقعة موقعا ملائما سرعان ما فكر في جعله عاصمة للمرابطين بلاد من أغمات لأنه يسمح له بمراقبة المصامدة البربر الذين يجارهم ويوجد قاعدة لنفوذه في الجنوب. كان ذلك سنة ٤٥٤ ويذكر ابن أبي زرع أن ابن تاشفين اشترى موضع المدينة من جماعة من المصامدة فسكنه في خيام من الشعر وأسس مسجدا للصلاة وقصبة صغيرة لخزن أمواله وسلاحه لعلها القصر المعروف بقصر الحجر^(٢).

(١) ثمة مشكلة تتعلق بسنة تأسيس مدينة فاس فهي لدى جمهرة المؤرخين سنة ١٩٢ وقد ثبت بالأدلة من النقود خاصة ومن غيرها أن التأسيس كان سنة ١٧٢.

(٢) يكاد المؤرخون يجمعون على أن مؤسس مراکش هو يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ لكن ابن عذاري يشير إلى أن أبا بكر عمر اللمتوني هو الذي شرع في بنائها سنة ٤٦١، وصاحب الإستبصار يذكر أن ابن تاشفين أسسها سنة ٤٥٩ في حين أن ياقوت يذكر أن يوسف خططها سنة ٤٥٩ ويذكر صاحب الحلل الوشية أن ذلك كان سنة ٤٥٢. والأرجح أن بناءها كان بعد التدقيق سنة ٤٥٤ على يد يوسف بن تاشفين.

وفي المدن الإسلامية الأخرى كانوا يحرصون على حسن اختيار الموقع وعلى جودة الهواء. فمدينة قطيلة في الأندلس «شريفة البقعة»، وحلوان بمصر استحسن عبدالعزیز بن مروان موقعها فبنائها ودينسرها أرضها حرة وهواؤها صحيح» ورفادة «لم يكن في أفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرق تربة منها». ومراكش «كان موقعها مخافة لقطاع طريق القوافل فاستخدم الموقع الاستراتيجي لبناء المدينة. وتوصف الموصل في العراق بأنها واسعة الرقعة طيبة الهواء صحيحة الماء وموقعها كان قديم السكنى وليس من عيب فيها سوى شدة حرها في الصيف وشدة بردها في الشتاء وأن ريحها مؤذية». كما توصف شيراز بأنها قلدة البقعة ضيقة الرقعة. وكانت مواقع الفرضات والموانئ تختار بحيث تؤدي وظيفتها من مرسى ومن أمن. فبجاية أقيمت بين جبال شامخة قد أحاطت بها والبحر منها في ثلاث جهات والطرق إليها وعرة «ووانية مرساها عجيب». والمهدية داخلية في البحر ككف على زند وقد جعلوا لها مع السور وأبواب الحديد وسلاسل على أبواب المرسى المنقور في الحجر الصلد والذي يتسع لثلاثين مركبا.

وكانوا يختارون مواقع الفرضات خاصة بحيث يمكن وصول الصريخ إليها أي وصول النجيدات وهذا الشرط يجعله ابن خلدون من الشروط الأولى للمدن - المرافئ.

٢ - وجود الماء

ثمة عملية تجاذب قوية بين الأنهار والمياه من جهة وبين المدن من جهة أخرى وبخاصة في الشرق العربي وشمال أفريقيا حيث يشح الماء عامة. فالأنهار تجتذب المدن والمدن بدورها تجتذب فروع الأنهار وتشققها إليها. ولا تكاد تجد مدينة إسلامية لا يتوفر فيها الماء - أو لم يوفر لها بشك أو بآخر فما لم لا يوجد فيها على نهر أجرى المسئولون عليها نهرا أو اعتمدوا على الآبار أو

حتى على مياه المطر يجمعونها في مداخل (برك كبيرة) فإذا لم يتوفر بعد ذلك كله الماء الكافي غادر الحاكم - على الأقل - المدينة وغادرها الحظ بالتوسع .
ونكاد لا نجد مدينة لا تؤكد على وجود الماء فيها أو على جودته .

فالبصرة لم يكن موقعها الذي اختير لها على ماء ولكنه قريب من الفرات على ١٥ كم منه ولذلك كانت تعتمد أولا على قناة قديمة جانبية تجري إلى الغرب من الفرات تنفصل عنه في هيت ثم تعود للفرات بعد قليل من هور الحمار لتصب في البحر في الموضع المعروف بخور عبدالله وتسمى كرى سعده . ولم يكن من السهل تحويل معسكر إلى مدينة سكنية واسعة دون أن تبرز مشكلة الماء على السطح . وكلما تكاثرت السكان فيها كانت مشكلة الماء تزداد وقد حفرت إليها عدة اقنية من الفرات منها نهر معقل الذي احتفراه الصحابي معقل بن يسار أيام عمر بن الخطاب وهو أهم أنهار كانت البصرة .
وثمة نهر الأبله أيضا والنهران يمتدان من البصرة نحو الجنوب الشرقي لكن كانت بساتين الأبله تسقى بالمد والجزر وثمة فروع شقت من الفرات مثل نهر المرة ونهر الدير ونهر الجاحد ونهر الفيض وكلها سواق صغيرة . وكان منها في البصرة الكثير حتى قال ابن حوقل أن فيها ١٢٠ ألف نهر تجري في أكثرها الزواريق ومع ذلك فقد استعمل أهل البصرة لرفع المياه إليهم الدولاب والدالية . كما ضبط الوالي العباسي محمد بن سليمان (المتوفى سنة ١٧٣) توزيع المياه كما قام بمثل هذا العمل طالوت بن عباد^(١) . وكانت المياه المخزنة في حوض المربد موزعة في أنابيب من الرصاص إلى مسافة فرسخ ثم يرفع مستوى هذه المياه بواسطة دواليب كبيرة على النمط الذي استعمل في واسط والذي وضعه الخوارزمي في خوارزم . وقد دمر هذه المنشآت في سنة ٤٣٨ .
ومع ذلك كان على البصريين الذهاب إلى النهر للتزود بالماء وللتزود بالرزق في

(١) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٢٠ .

الميناء الذي عرف بهذا الإسم والذي كانت ترسو فيه السفن القادمة من الصين والهند إلى الخليج العربي .

وكان هذا كافيا لتطور البصرة إلى مدينة كبيرة لولا أن القوافل السياسية والإقتصادية والنفسية كانت أقوى من أن تخرج البصريين عن مدينتهم إلى أن أتت عوامل أخرى (مثل بناء بغداد) ثم ضعفت السلطة المركزية للخلافة والفضوى السياسية الناجمة عن ثورة العلويين . ثم الزط ثم الزنج ثم القرامطة (طوال القرن الثالث) فأجهزت على المدينة .

ولم تكن الكوفة أكثر حظا من البصرة في الماء لأنها بدأت بدورها معسكرا بعيدة بعض البعد عن الفرات ، في غربه ولا تمتلك من الثروة غير هذا القرب ، لأن الفرات الذي يحيط بها شرقا وجنوبا يغذي سهلها وقد امتاز ماؤه بالعدوية والنقاء والبرودة (في حين أن ماء البصرة مالح أجاج) «وإنما مثل الكوفة كمثل اللهاه من البدن يأتيها الماء ببرده وعدوبته . والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها بعد تغيره وفساده»

أما واسط فكانت في أول أمرها تشكو قلة المياه وكانت دجلة في شرفيها هي التي تسقيها . وقد شغلت المشكلة الحجاج فأخذ بشق الأنهار والجداول ومنها نهر الزاب لسقي الأراضي حول واسط وتم بعده شق نهر فم الصلح والنهر المبارك (فتحة خالد القسري) بالإضافة إلى نهر النيل (نيل العراق) مما زاد المياه في المنطقة وأخصب تربتها فأصبحت واسط جنة - كما قال ابن فلكان - بين حماه وكنة (هما) البصرة والكوفة^(١) . واستعمل أهل واسط اضافة إلى ذلك التازوحة لرفع المياه إليهم .

وبنيت الرملة بعد واسط بقليل في فلسطين وقد وصفت بأنها خفيفة

(١) ابن فلكان - وفيات ١ / ٢٣٠ .

الماء مريّة «لكن لا ماء يجري فيها. . . ولا ثلج. . . عميقة الآبار، مالحة وماء المطر (يجمع فيها) في جباب مقفلة فالفقير عطشان والغريب حيران على حد قول المقدسي . وكان سليمان بن عبد الملك قد احتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة واحتفر آبارا وولى النفقة على بنائها بالرملة ومسجد الجماعة كاتباً له نصرانياً من أهل اللد يقال له البطريق بن النكا . وكان بنو أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك ثم تولى النفقة بنو العباس حتى أوقفها المعتصم^(١) . وما تزال بقايا القناة موجودة إلى عهد قريب .

وفي أيام مروان بن محمد مصرت الموصل ولما كانت دجلة عميقة المجرى عن مستوى المدينة فقد كان الولاة الأمويون من قبله قد عنوا بإيصال المياه إلى هذه المنطقة فحفر سعيد بن عبد الملك نهر سعيد وكان مكانه غيضة ذات سباع فأقطعه إياه أخوه الوليد^(٢) . واحتفر الحر بن يوسف وإليها أيام هشام بن عبد الملك نهرًا أجراه وسط المدينة ثم أكمله من بعده الوليد بن تليد سنة ١٢١ أيام هشام أيضا^(٣) واستعمل أهل الموصل الطواحين المائية إضافة إلى النواعير والدوالي .

وأما بغداد فقد كانت جزيرة - على حد تعبير المنصور بأنها بين دجلة والفرات وكان المنصور يرمم بنفسه شبكة العلاقات المكانية لمدينته نتيجة لذلك . وقد استفاد - وما زالت بغداد تستفيد إلى اليوم - من اختلاف مناسيب المياه بين دجلة والفرات ومن القنوات والروافد التي تربطها مما يشكل

(١) البلاذري - فتوح - ص ١٧٠ .

(٢) البلاذري - فتوح ص ٢٨٣ .

(٣) الأزدي - تاريخ الموصل ج ٢ ص ٢٦ وما بعدها (تحقيق علي حبيبة - طبع القاهرة ١٩٧) والبلاذري - فتوح ص ٣٣٩ .

بالإضافة إلى أثره في الخصب الزراعي دروع وقاية من الهجمات عليها. ومن هذه القنوات: قناة دجيل، وقناة تأخذ مياهها من نهر كرخايا أحد فروع الفرات. وقد أجراها المنصور في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالأجر من أعلاها تنفذ في أكثر شوارع بغداد صيفا وشتاء وقد صممت على أن تكون جارية على مدار السنة. كما شقت قناة تجري إلى الكرخ وما اتصل به، بأمر المنصور وسميت نهر الدجاج. وأقيمت قناة ثانية باسم نهر طابق وثالثة سميت بنهر عيسى الأعظم تأخذ المياه من الفرات وتتفرع منها أنهار تحترق بغداد. ومن بينها الصراة الذي يصب في دجلة. أما المهذية على الجانب الشرقي من بغداد (وهي التي صار اسمها الرصافة) فقد شق المنصور نهر المهدي الذي يستمد مياهه من النهروان^(١). واستعمل أهل بغداد إلى ذلك الدولاب لسقي مزرعاتهم والنواعير والدوالي.

وقد بنيت سامراء على الشاطيء الشرقي لنهر دجلة ولكنها كانت تعتمد في ترويتها بالمياه على نهر القاطول فقط قبل أن يهتم المعتصم والمتوكل بفتح القنوات إلى داخل المدينة لسقيا الحدائق والبساتين.

«فشرهم جميعا من دجلة مما يحمل في الروايا على البغال وعلى الإبل لأن آبارهم بعيدة الرشاء ثم هي مالحة غير سائغة فليس فيها اتساع في الماء لكن دجلة قريبة والروايا كثيرة.»^(٢).

وقد شق المعتصم هناك نهر الأسحافي (على اسم الخليفة) وعمل على استقدام المهرة في هندسة المياه ووزنها واستنباطها والمعلم بمواصفها في الأرض. ولكن تكاتف الناس في سامراء أجبر المتوكل سنة ٢٤٥ على التحرك لبناء مدينة جديدة في شأها سميت بالمتوكل ارتفع فيها البنيان بسرعة. وأن

(١) اليعقوبي ص ٢٥٠.

(٢) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٣.

المتوكل شجع ذلك من جهة ولأن الناس كانوا ينتظرون وصول الماء من نهر قالوا أنه كان في القديم عند الماجوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء (١٥ كم). فاعتزم المتوكل ذلك وجه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة وقدرت النفقة على المدينة النهر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار فطاب نفسا بذلك ورضي به وابتدأ الحفر وأنفقت الأموال الجلييلة على ذلك النهر وقامت القصور على حافته قبل وصوله. . ولكن النهر الذي سمي بالجعفري كان مأساة هندسية فبعد أن جهزت المدينة الجديدة كلها ونقلت إليها الدواوين والناس والقادة والجنود لم يتم أمر النهر ولم يجري الماء فيه إلا جريا ضعيفا لم يكن له اتصال ولا استقامة على أنه قد أنفق عليه شبيها بألف ألف دينار ولكن كان حفره صعبا جدا إنما كانوا يحفرون حصي وأنهارا لا يعمل فيها المعول^(١) وانتهى أمر المتوكلية بقتل المتوكل بعد تسعة أشهر من سكنائها ولولا ذلك لقتضى عليها شح المياه. أما الجانب الآخر من سامراء غربي دجلة فكان . . . كثير المياه لسهولة دخول الفروع من دجلة إليه فكان مصدر التموين الزراعي لسامراء على الدوام^(٢). واستخدم أهل سامراء إلى ذلك الدولاب لرفع المياه من الأنهار والأقنية وإيصالها إلى البساتين بالسواقي الصغيرة.

ولم تشكل المياه بالنسبة إلى مدن الفسطاط أو العسكر (العباسية) أو القطائع (الطولونية) أي مشكلة حادة لأنها بنيت جميعا في موقع متقارب جدا بحيث تستقي من مياه النيل. بخلجان (سواق) تخرج منه أيام الفيضان فتملا بركا حفرت لهذا الغرض. وثمة برك كثيرة بنيت في العهد الإسلامي وبعض هذه البرك قديم يعود إلى العهد الأموي كبركة الحبش، قبلي مدينة الفسطاط فيما بين الجبل والنيل، وكانت من الموات فاستنبطها قررة بن شريك

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٦٧.

(٢) انظر ابن خرداذبة - المسالك والممالك ص ٢٣٧.

العيسى أمير مصر، وأحيائها وغرسها قصبيا^(١). وبركة الفييل التي شقت في شمالي الفسطاط لتكون رفدا لمدينة العسكر ثم القطائع. ثم بنيت القاهرة فأراد لها بانيها جوهر أن تستقل بمائها وأن يجري هذا الماء بين يديها فأختار للمدينة موضعا - فيما بين الخليج المعروف في أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين (عمر) وبين الخليج المعروف بالبحاميم وهو الجبل الأحمر وكان الخليج المذكور فاصلا بين الرملة المذكورة (التي بنيت عليها القاهرة) وبين القرية التي يقال لها أم دنين ثم عرفت بالمقس^(٢) وكان النيل حينئذ بشاطيء المقس يمر من موضع الساحل القديم بمصر . . . وفيما بين الخليج وساحل النيل بساتين الفسطاط . . . ولم يكن الممر من الفسطاط إلى عين شمس وإلى الجوف الشرقي والبلاد الشامية إلا بحافة الخليج . . .»^(٣) وحفرت كذلك بركة قارون للعسكر والقطائع وبقيت البرك النيلية بعد ذلك هي مستقى مصر والقاهرة بالإضافة إلى السقائين بالجسمال الذين بلغوا في التعداد أيام الظاهر بالله (٤١١ - ٤٢٧ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥) حوالي خمسين ألف جمل - فيما يقال - وبجانب السقائين بالقرب الجلدية^(٤) الذين يحملون الماء إلى الأزقة الضيقة . . . وحكى أحدهم أن بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قربة تكرمها على السائقين كل قربة بدرهم في الشهر^(٥)، وفيما بعد ذلك أقيمت عدد من البرك في العهد المملوكي خاصة لتواجه التكاثف السكاني في المدينة. فأقام الناصر محمد قلاوون الخليج الناصري والبركة الناصرية وأقام بكنتمر الحاجب بركة الحاجب، وبنى الأمير قراجا بركة قراجا^(٦).

(١) المقرئزي - خطط ٢ ص ١٥٢ .

(٢) المقرئزي - خطط (ط . بولاق) ج ١ ص ٣٥٩ .

(٣) المقرئزي - خطط ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤) ناصري خسرو - سفرنامه ص ٩٦ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٦) المقرئزي خطط ج ٢ ص ١٥٢ - ١٦٥ .

أما القيروان فكانت تشرب مما تخزنه من مياه الأمطار وأن كان اختير موقعها لأن العرب الذين بنوها وجدوا بالقرب منها مكانا عرف بقصر الماء يأتيه الماء بقناة تزيد في الطول على ٣٣ كم من موضع خمس جنوبي القيروان وقد توقف عنده عقبة لأنه على الطريق إلى المشرق. وكان على القيروان أن تنتظر أكثر من أربعين سنة ليقوم فيها مشروعها المائي الأول. ففي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ / ٧٢٤ - ٧٣٤) نظمت فيها خزانات أخرى للمياه لكنها مع الأيام شاخت ولم تعد كافية مع ازدياد عدد السكان في عهد الأغالة فبنيت خزانات جديدة. الخزان الضخم الذي بناه على باب تونس أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب (٢٤٢ - ٢٤٩ / ٨٥٦ - ٨٦٣) ما تزال آثاره ماثلة وهو واحد من أربعة عشر خزانا مماثلا له وإن كان أعظمها^(١).

«وهو مستدير متناهي الكبر (كافة بحيرة) وفي وسطه صومعة مثمثة وفي أعلاها قبة مفتحة على أربعة أبواب. فإذا وقف الرامي على ضفته ورمى بأشد ما يكون من القس لا يدرك الصومعة التي في وسطه وكان على ذلك الماغل قصر عظيم فيه من البناء العجيب. والغرف المشرفة على ذلك الماغل كل شيء غريب ويجو في هذا الماغل لطف متصل به يقع فيه ماء الوادي إذا جرى فتكسر فيه حدة جريانه ثم يدخل الماء إلى الماغل الكبير وهذا الوادي إنما هو واد شتوي فإذا امتلأ هذا الماغل وغيره من المواجل شرب منه أهل القيروان ومواشيهم. ويرفع ماء هذا الماغل الكبير إلى أيام الصيف فيكون ماؤه باردا عذبا صافيا كثير الماء. وكان أبو عبد الله الشيعي يقول: رأيت باقرية شيئين ما رأيت مثلهما في المشرق: الحفير الذي يباب تونس من القيروان يعني هذا الماغل الكبير، والقصر الذي يرقادة المعروف بقصر البحر...»^(٢).

(١) الحميري - الروض المعطار ص ٤٨٧.

(٢) الحميري - الروض المعطار ص ٤٨٧.

وقد كان اختيار موقع فاس بسبب كثرة مياهها والعيون الكثيرة التي تنبع منها وادي فاس الغزير فهي تزايد على الستين عينا ومياهها كانت تفيض فسيحة على الأرضين مما نجم عنه وجود الغياض الملتفة الأشجار في الوادي ومن حول المدينة . وما كتب أحد من الجغرافيين عن فاس إلا ذكر كثرة مياهها وأنها تتوغل سواقي في المدينة وأن عليها ثلاثة آلاف رحي تطحن - كما قال اليعقوبي مبالغا - أما البكري فيقول أن بين مدينتي فاس نهر مطرد وارجاء وقناطر، وعلى باب دار الرجل فيها رحاه وبستانه بأنواع الثمر، وجداول الماء تخرق داره وبالمدينتين أزيد من ثلاثمائة رحي وفيها نحو عشرين حماما

لكن مراكش كانت بعكس فاس شحيحة المياه فحضر لها بانيتها يوسف بن تاشفين الآبار وجلب إليها المياه من القرى البعيدة وكذلك كانت العديد من مدن المغرب .

ففي (أشير) عيون وفي تاهرت أنهار وينابيع وفي سجلماسة نهر وفي وهران مياه سائحة (كما في جرجان بالشرق نهر يشقها ومياه) . فإن كانت المياه شحيحة اجتلبوها بالقني كما في طنجة أو بنوا لها الخزانات (المواجل أو الصهاريج) كما في المونستير وتيس، أو حفروا أيضا الآبار كما في الرصافة بالشام، وبعض أعمال الجر المائي كانت عملية هندسية معقدة ففي المهديّة مثلا جرى جر الماء من قرية بجوارها ليصب في صهريج بالمدينة داخلها ثم يرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب . . . أما سائر المدينة فقد بني لها الصهاريج العظام (مواجل) وعدوا منها ٣٦٠ موجلا .

٣ - التخطيط (نواة المدينة) والمخطط :

فن التخطيط التاريخي للمدن يعني باديء ذي بدء الطريقة التي تم بها التوزيع المحلي للسكان في رقعة المدينة ضمن خطط (أو أحياء) محددة وذلك

بعد تخصيص المساحات اللازمة للمباني العامة من دينية وادارية واقتصادية وذلك تمهيدا لبناء الحياة الاجتماعية فيها وضبط اتجاهاتها، وإبراز التيارات الثقافية في المدينة تبعاً لمقومات السكان الفكرية والايديولوجية .

والمستشرقون، في جمهورتهم، يتحدثون عن فوضى المدينة الإسلامية مقابل تنظيم المدينة اليونانية - الرومانية أو الغربية. يذكرون ما تحويه مدن الإسلام ما بين الأندلس إلى الهند من ضيق في الشوارع وضيق في اتجاهاتها وانعدام في الحدائق والرحاب بسبب العفوية التي حكمت بناءها^(١). وإنما ينظرون في الواقع إلى الموضوع لا من زاوية غربية فحسب ولكن من جانب واحد دون آخر. وندع النظرة الغربية جانبا لنذكر أن عددا كبيرا من المدن التي بناها المسلمون كانت مدنا ملكية بمعنى أنها كانت تبني للحكام وعلى هواهم. وهذا النوع من المدن كان إنما يبني على أساس مخططات موضوعة وخطط محددة توزع على الحاشية قبل البناء. ومعظمها نعرف مخططاته وخططه. أما المدن التي كانت تبني من قبل الجماعات المختلفة سواء حول المدن الملكية أم في مواقع المدن الحربية أم في أماكن أخرى فإن أسس تخطيطها كانت واحدة متشابهة ولكن التماثل السكاني هو الذي كان يدخل الإضطراب على سككها وشوارعها وأبنيتها. ولم يكن هذا يتم إلا مع تقادم تلك المدن وازدياد جذبها للسكان بسبب الغنى والأرزاق.

وما يسمى بفوضى التخطيط في المدينة الإسلامية دعوى تنقضها لا المدن التي نعرف مخططاتها وخططها كالبصرة وبغداد والقيروان ولكن ينقصها أيضا الإدعاء القائل بأن المدن الهلنكية الرومانية كانت مدنا منظمة. فأبحاث الأثريين حول روما أو تمناد التي بنيت سنة ١٠٠ ق. م أو كويكول (جميلة)

(١) انظر مثلا - ميخائيل روجرز - انتشار الإسلام . بالإنكليزية (اكسفورد ١٩٧٦) ص ٥٥ -

(٩٦ - ٩٧ ق. م) في شمال أفريقيا تكشف غيابا ماثلا في التخطيط وحتى في الشكل المستطيل التقليدي للمدينة الذي انتهى في القرن الثاني للميلاد ماثلا لأي مدينة اسلامية تتهم بالفوضى!

نقطة الارتكاز في المدينة الإسلامية تقوم في مركزها، ونواتها هناك تتكون دوما من ثالوث ديني - سياسي معاشي لا يفتقد في أي مدينة هو المسجد الجامع ودار الإمارة والأسواق ويمكن أن نضيف إلى ذلك الرحبة أو الميدان الواسع الذي لا بد منه للتجارة وتلاقي الناس وربط خيولهم ومراكبهم. لكن الثالوث هو الأساس. وهو ما يميز المدينة الإسلامية. لهذا وجب أن نبحث عنه في كل مدينة فتخطيطها يضعه في الاعتبار الأول. وهذا التقليد إنما جاء من مدينة الرسول وظل سنة متبعة لارتباطه بالدين والسياسة والمعاش. وتوسطه مواضع هذه العناصر الثلاثة بالنسبة للمدينة - وهو تقليد إسلامي - أمر هام لسهولة اتصال السكان بمكانهم الديني ومرجعهم السياسي وموردهم المعاشي وقد حرصت معظم المدن الإسلامية على ذلك لدرجة أننا نستطيع القول بأن هذا التوسط كان من خصائص المدينة الإسلامية.

كانت البصرة أول مدن الإسلام بناء بعد مدينة الرسول ولذلك أخذت الكثير من الملامح الإسلامية عن يثرب: أخذت توسط الجامع ووجود دار الإمارة بجانبه كما أخذت فكرة احاطة الأسواق بهما وتوزيع خطط المدينة ما بين مجموعات القبائل. ومع أنها كانت قبلية السكان فإنها رغم ذلك سرعان ما أخذت صفة المدينة بحركتها التجارية ومريدها الثقافي. ووجود قاعدة الإمداد الحربي للفتوح فيها. وفي البصرة والكوفة معاً تكاملت صورة المدينة الإسلامية وبرزت ملامحها.

ولم يكن نزول العرب أول الأمر لتمصيرها وجعلها مدينة ولكنهم اتخذوها معسكرا مؤقتا وعلى هذا الأساس اختاروا موقعها لتكون قاعدة تجمع

وتكوين وحدة واعداد، وظهيرا للمجاهدين في العراق وفي فارس. لكنها مرت خلال أقل من ١٢ سنة بخمس مراحل جعلت منها المرحلة الخامسة مدينة اسلامية كاملة بمسجدها الجامع ودار الإمارة وخطط (أحياء) القبائل النازلة. ومدينة الرزق على شاطئ الفرات (الذي أصبح فيما بعد شط العرب).

وقبل أن نذكر هذه المراحل لابد من تسجيل ملاحظة هامة تتصل بمعظم المدن الإسلامية وبخاصة ما كان منها عسكري السكان والهدف. فإن الخطط كانت توزع وتجمع وتفترق حسب تسجيل فرق الجيش في الديوان لتسهيل توزيع العطاء من جهة وسرعة الاستنفار للحرب من جهة أخرى. ولأمور أخرى منها ضمان أمن المدينة وحركتها الاجتماعية وأدائها حين يرأس الخطة فيها زعيمها المقبول الكلمة والرأي. وهكذا فإن خطط البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان بل القاهرة وفاس ومراكش وخطط بغداد إلى حد ما كلها كانت تستهدف سرعة الإتصال بالأنصار بوصفهم جماعات محددة سواء كانت قبلية عربية أم بربرية أم اشتاتا مختلفة. يضاف إلى هذا أمر آخر لا يقل أهمية عن الأول هو ضرورة انسجام سكان المدينة بعضهم مع بعض فانزال اشتات من القبائل في تجمع سكني واحد من شأنه أن ينتهي بدويان هذه الاشتات في كيان واحد - وأن بقيت آثار من الذكريات القبلية فيه - فمنذ القرن الثاني أخذنا نسمع بوضوح عن البصري والكوفي أكثر مما نسمع عن المذجحي والإزدي والكناني، ولم يكن هذا ممكنا قبل أن تخطط القبائل خطوة التعايش السكني وتندرب بعد طول فرقة وتفرد على نمط آخر من الحياة يقوم على التعاون بين مجموعات متفرقة.

أما مراحل تطور بناء البصرة الخمس فكانت:

المرحلة الأولى: حين كتب عتبة بن غزوان للخليفة عمر أنه لابد للمسلمين من منزل يشنون به إذا شتوا ويسكنون فيه إذا انصرفوا من

الغزو^(١). فوافق واختار عتبة الموقع فكانت البداية متواضعة إذا ضربوا الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن بناء^(٢).

الثانية: حين بنى الناس مساكن بالقصب (وهو متوفر في تلك الناحية) منها المسجد وقد بنى من القصب دار الإمارة دونه في الرحبة، رحبة بنى هاشم وفيها السجن والديوان فكانوا إذا خرجوا للفتح نزعوا ذلك القصب وحزموه وصفوه حتى إذا رجعوا أعادوا بناءه^(٣).

الثالثة: ثم استعملوا بناء اللبن والطين وسقف الخشب. وكتب إليهم عمر قد كنت أكره لكم ذلك فإذا فعلتم فعرضوا الحيطان وارتفعوا السمك وقاربوا بين الخشب^(٤). وكانت أول دار بنيت في البصرة دار نافع بن الحارث ثم دار معقل بن يسار المزني جرى كل ذلك في السنتين الأوليين ما بين ١٤ هـ و ١٦ هـ. ثم سقط عقبة بن غزوان عن راحلته وهو منصرف من الحج (محرم سنة ١٧)، وتوالى على البصرة مجاشع بن مسعود السلمي ثم المغيرة بن شعبة الثقفي ثم جاء أبو موسى الأشعري ما بين سنتي ١٧ - ٢٩ هـ وفي عهده كانت:

المرحلة الرابعة: إذ شرع منذ وصوله بتغيير هيكل المنشآت الدينية والإدارية والمدنية في البصرة فبنى المسجد ودار الإمارة باللبن والطين. ويبدو أن ذلك كان نتيجة النزاع الذي أخذ يثور بين النازلين من القبائل المختلفة في مكان واحد كما يفهم من كلمة عمر لأبي موسى: «إني أبعثك إلى أرض قد باض الشيطان بها وفرخ»^(٥) فعهد أبو موسى إلى القبائل وجعل لكل قبيلة

(١) البلاذري - فتوح، ص ٤٢٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٣) البلاذري - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٦.

(٥) الطبري ج ٤ ص ٧٠.

خطة ثم أمر الناس بالبناء . وغرست النخل لأول مرة وكان أبو بكر أول من غرسها^(١) وتسابق الناس إلى زراعة الأرض المتروكة بعد أن جعلت البصرة أنحاساً في مواقع خمسة للقبائل .

١ - محلة أهل العالية، وهم في قلب المدينة بين المربد والجامع وأغلبهم من قريش وقد نزحوا إلى البصرة قبل سنة ٤٠ هـ .

٢ - محلة الأزدي وموقعها إلى الشمال الغربي من المدينة وهم القبائل اليمانية القادمة من عسير وعمان وأكثرها عدداً .

٣ - محلة بني تميم المضريين وتقع في الجنوب الشرقي من المدينة، وهي تلي الأزدي في العدد وتقسم اجتماعياً ما بين دارم (ومنهم الفرزدق) وحنظلة (مادة العناصر الثورية في جميع الأحزاب) .

٤ - محلة بني بكر بن وائل في القسم الأوسط من شمال شرقي البصرة ومنهم جماعة ربيعة وسدوس وذهل .

٥ - محلة بني عبدالقيس على الطرف الشمالي الشرقي من البصرة وهي جماعة بحرية ولديهم بنيت مدينة الرزق على النهر . ولكل محلة دسكرة إلا تميم وازد فلها دسكرتان . ولكل دسكرة مسجد فثمة سبعة مساجد منها مسجد العلافين في الفرضة (الميناء)، ومسجد هدان من الأزدي، ومسجد بني عددي من الأزدي ومسجد بني مجاشع^(٢) ومسجد عاصم .

وهذه التطورات الأخيرة إنما حدثت بعد :

المرحلة الخامسة والأخيرة للبصرة . تولاهما زياد بن أبيه والي البصرة لمعاوية بن أبي سفيان فهو الذي زاد في المسجد زيادة كبيرة استجابة لتكاثر

(١) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ص ١٨٨ .

(٢) ماسينيون خطط البصرة (ترجمة السامرائي) ص ١٦ - ٢٦ .

الناس في المدينة، وبناه بالأجر والخصي وسقفه بالساج. كما بنى دار الإمارة وجعل يطوف فيهما ثم يقول لمن معه من وجوه أهل البصرة: أترون خللا؟ قالوا: مانعلم بناء أحكم منه. فقال بلى! هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ من سائر الأساطين^(١). وحين بنى زياد المسجد جعل لصفته المقدمة خمس سوار (أساطين) أتى بها من جبل الأهواز. وبنى منارته بالحجارة وهو أول من عمل المقصورة ونقل دار الإمارة إلى قبله المسجد (ليخرج منها مباشرة إلى القبلة فيصلي بالناس). وكان بناؤه أياها بلبن وطين حتى بناها صالح بن عبدالرحمن السجستاني مولى بني تميم في ولايته خراج العراق لسليمان بن عبد الملك بالأجر والخص^(٢). (وزاد عبید الله بن زياد في جامعي البصرة والكوفة بعد أبيه) وقد أمر زياد بجمع الخصي والقائه في المسجد حين رأى الناس ينفضون أيديهم من التراب بعد كل صلاة وقال أخشى أن تصبح سنة!

وكان جانب المسجد الجامع الشمالي منزويا بسبب دار بنيت بجانبها فسويت في عهد عبید الله بن زياد. وأدخلت الدار كلها المسجد حين وسعه فيها بعد الخليفة المهدي، ثم أدخلت دار الإمارة في المسجد زمن الرشيد^(٣).

ويبدو أن هذا المسجد الجامع وهو قريب من باب البادية لم يعد متوسط تماما مع تكاثر البنیان وامتداده باتجاه الماء فبني «جامع آخر في الأسواق بهي جليل» (حسب قول المقدسي) كما بني فيها بعد جامع ثالث على طراف البلد على سيف البحر هو جامع العلافين.

وقد ذكروا أن الحجاج بن يوسف حين قدم العراق أخبر أن زياد بن

(١) البلاذري - فتوح ٢ ص ٤٢٦.

(٢) البلاذري فتوح ص ٤٢٧.

(٣) البلاذري - فتوح ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

أبيه ابتنى دار الإمارة في البصرة فأراد أن يزيل اسمه عنها فهم بينائها بجص وأجر فقيل له إنما تزيد اسمه فيها ثباتاً وتوكداً فهدمها وتركها . فبنيت عامة الدور حولها من طينها ولينها وأبوابها ، فلم تكن بالبصرة دار إمارة حتى ولي سليمان بن عبد الملك فاستعمل صالح بن عبدالرحمن على خراج العراق فحدثه صالح حديث الحجاج وما فعل (وكان سليمان يكره الحجاج) فأمر بإعادتها فأعادها بالأجر والجص على أساسها ورفع سمكها^(١) . ولما ولي عدي بن أرطاه البصرة لعمر بن عبدالعزيز أراد أن يبني فوقها غرفاً فلامه عمر على ذلك قائلاً «أيعجز عنك منزل وسع زيادا وآل زيادا؟ فأمسك . ولما ولي البصرة سليمان بن علي لأبي العباس السفاح بنى على ماكان عدي رفعه من حيطان الغرف بناء بطين ثم تركه وتحول إلى المربرد فنزله^(٢) . وكان ثمة في البصرة سجن أيام الحجاج عرف بسجن نخيس والأرجح أنه كان موجوداً قبله .

وقد وجدت في البصرة سبعة من المقرات الرسمية : قصر الإمارة وقصر البيضاء (وهو قصر زياد) ، وقصر أوس قرب المربرد ، وقصر عيسى بن جعفر ، وقصر غضبان (في بني بكر) وقصر سنبل ودار الزبير (للتجار البحرانيين)^(٣) .

أما الأسواق فيجعلها كل من المقدسي وناصرى خسرو ثلاث مجموعات أو قطع . ويذكرون منها : سوق الابل (قرب المربرد) ، وسوق البزازين ومعظمهم من اليمنيين ، وسوق العلافين والقصباء ، وسوق الشعارين (في باطنة) وسوق الدباغين وسوق غزالة وسوق القصابين ولها

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٨ .

(٢) ماسينيون - خطط البصرة ص ٢٨ .

(٣) ماسينيون - خطط البصرة ص ٢٨ - ٢٩ .

رهبنة وسوق الشبذكية (وهم باعة السماد وقد صار لهم تنظيم حرفي فيما بعد أشبه بالنقابة، وسوق الصابونيين وسوق التمارين وسوق الخلالين وهي سويقة القديم وأخيرا القبة ودار العشور)

وقد اكتملت عناصر المدينة الإسلامية واتضح شكلها في الكوفة. فمع أنها اقيمت أول ما أقيمت على أنها مركز عسكري حدودي وجزء من الجهاز الحربي لاحتلال ومراقبة المشرق الساساني لكنها خططت على أساس بقعة إقامة دائمة قابلة للتطور إلى مدينة. ومع أنها كانت مصرا للبدو أول الأمر إلا أنها قامت على مخطط منظم وعلى أساس مركز للتعايش بين قبائل متباعدة منذ زمن طويل. وكان لها دور أساسي في الحركة التجارية بالعراق متمم لدور البصرة. فهذه تستورد والكوفة توزع وقد شيدت الكوفة بدورها على مراحل ولكنها مراحل حاسمة في حياتها :

الأولى : هي خلافة عمر بن الخطاب (١٧ - ٢٣ / ٦٣٨ - ٦٣٤).

الثانية : ولاية زياد بن ابيه (٥٠ - ٥٣ / ٦٧٠ - ٦٧٢).

الثالثة : ولاية خالد القسري أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ -

١٢٠ / ٧٢٣ - ٧٣٧).

والمرحلتان الأوليان رئيستان، ثم سحب البساط من تحت الكوفة وإزدهارها بناء بغداد التي استأثرت بنشاط العراق والعالم الإسلامي المشرقي بعد ذلك.

وقد أثبتت الحفريات أن لها مستوى أوليا ثم مستوى أمويا يمتد على فترتين قبل أن يأتي العصر العباسي. وفترتها الأولى كانت بدائية من الوجهة المعمارية لكنها كانت القاعدة والأساس لبنية وجود الكوفة من كل الوجوه. ففي خلافة عمر خطط لهندسة المدينة واستنبط تنظيمها وبنيت أهم أبنيتها وقد بدأ العمل لذلك سنة ٦٣٨/١٧ ولم تكن خلال السنوات الخمس الأولى من حياتها أكثر من تجمع من خصائص القصاب يقام موقتا بين حملتين. وأثناء ولاية المغيرة بن شعبة (ما بين ٢٢ - ٢٤) ظهرت مواقع الخيام المصنفة بصورة

دائمة بشكل جدران صغيرة من لبن . وبعد سنة ٦٧٠/٥٠ شرع الناس في بناء الدور الحقيقية من الحجر ، تحت حكم زياد بن أبيه وظهرت بذلك الكوفة . ذكر البلاذري أن الذي تولى الإختطاط للقبائل بأمر سعد بن أبي وقاص هو أبو الهياج الأسدي عمرو بن مالك بن جنادة فلما انتهى إلى موضع مسجدها أمر رجلا ففلا بسهم قبل مهب القبلة^(١) فأعلم عن موقعه ثم فلا؟ بسهم آخر قبل مهب الشمال وكذلك فعل (بالنسبة للجنوب ولمهب الصبا) ثم وضع مسجدها ودار إمارتها في مقام الغالي وما حوله . وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولا فله الجانب الأيسر وهو خيرها فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات وترك مادونها فناء للمسجد ودار الإمارة^(٢) .

يبدو أن في قضية توزيع القبائل على الخطط في قسمين بعضا من التبسيط الطبغرافي . ففي رواية أخرى وردت مطولة لدى الطبري^(٣) تتحدث عن حريق حدث في القصب والخيام بعد عشرة أشهر من الإقامة في الكوفة (محرم - شوال سنة ١٧هـ) . فأذن لهم الخليفة بالبناء الثابت وتزامن التخطيط مع قرار البناء باللبن ضمن الحدود التي ذكرها كتاب الخليفة وهي ألا يزيد أحد على ثلاثة أبيات ، وألا يطاولوا في البنيان وأن تكون المناهج أربعين ذراعا وما يليها ثلاثين وما من ذلك عشرين وبالأزقة سبعة أذرع^(٤) . . . وهذا يعني أن نواة المدينة الأولى نشأت بشكل معسكر فوضي وقربة عظيمة ،

(١) يذكر بزويل الأثري أن مسافة ريعه السهم تساوي ٥٥ مترا على أن الغلوة اضححت فيما بعد قياسا يعادل ٢٥/١ من الفرسخ أي ٢٤٠ مترا .

(٢) البلاذري - فتوح ص ٣٣٩ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٤٠ - ٤٨ (٢٤٨٢/٠ - ٢٤٩٥) .

(٤) البلاذري - فتوح ص ٣٣٩ .

فلما جرى الحريق نظمت على شكل مدينة بمخطط واضح تحت ضغط الرغبة الجامعة بالاستقرار وظهر البناء الثابت بجوار المعسكر وحدد أولا موقع المسجد والقصر في مربع متوسط طول كل ضلع منه ٥٥ مترا وانطلاقا من هذا الموقع وعلى مبعدة الفلوه من جميع أطرافه وضعت الخطط. وتقول الرواية لدى الطبري أن أول شيء خطط بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد. وتدل الآثار على وجود قصر شيد تشييدا صلبا في هذه المرحلة الأولى ولاندرى هل شيده سعد أم الأشعري؟

وكانت هذه المساحة المركزية الكبرى في الكوفة فضاء سياسيا دينيا على شكل مربع سمي بالصحن يشمل المسجد والقصر وهو مكان القيادة والتجارة وتجمهر الناس ومن وراء هذا المربع الأوسع، وهو نواة المدينة، تأتي الخطط القبلية للسكن وبينها وبين الصحن خندق أقيم فوراً لئلا يفتحمه البناء... وهذا يعني أن ثمة مدينة ملكية أو قلعة محصنة للإمارة ظهرت في قلب الكوفة وهو تقليد إسلامي سوف يتبع في المدن الإسلامية. لكنه لا هذه المساحة ولا الكوفة كلها أحيطتا بسور حتى أيام الخليفة المنصور.

وكان المسجد مشيدا تشييدا خفيفا باللبن والقصب فهدمه سعد وأعاد بناءه والمقصود حجرة الصلاة ويحتمل أنها بنيت بالآجر. وكانت ظلته مائتي ذراع على أساطين رخام جلبت أيام زياد - كما في البصرة - من الأهواز ثم وقع تمثينها بسفافيد من حديد ارتبطت بها مع السقف المرتفع. وكان زياد يقول «انفقت على كل اسطوانه من أساطين مسجد الكوفة ثمانى عشر ومائة» وأما القصر فيبدو أن بقاياها الأثرية تعود إلى عهد عبد الملك الذي هدم كل شيء في الكوفة ثم أعاد بناءه بعد ثورة مصعب بن الزبير. وثمة آثار لوحدة بنائية مربعة الشكل (١١٤م × ١١٤م) تقريبا هي أساس الأسوار منسوقة من الأجر بنى عليها اللاحقون أسوارا جديدة وعليها أبراج عددها عشرون وسمك جدرانها ١٨٠ سم.

ولقد بني الجامع كني يتسع لأربعين ألف شخص ثم وسعه زياد كني يصلي فيه ستون ألفاً^(١). وكانت أفواه السكك تفضي إليه بعد أن تعبر الرحبة الواسعة التي تحولت أيام المهدي العباسي إلى مصلى. وكانت بالنسبة إلى الكوفة أشبه بالأغوارا اليونانية. وكانت السوق عنصراً أساسياً ثانياً في المساحة المركزية إلى جانب الرحبة وكانت مثلها محيطة بالبناءين المركزيين : المسجد والقصر وبجوارهما، تطبيقاً للأية الكريمة : ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ وكانت هذه الأسواق في شمال المسجد وفي شرقيه، وكانت مغطاة بالحصر^(٢) في بادئ الأمر ولم يجر الشروع في بنائها بشكل دكاكين منظمة إلا بعد حوالي القرن أيام ولاية خالد القسري^(٣).

وقد ذكر فيما يتعلق بالكوفة ما يسمى بالأري ويقع في الساحة المركزية نفسها وهو مرعى عام للخيل التي تستخدم للجهاد^(٤). ويبدو أنه لم يستخدم كذلك إلا في الأيام الأولى للكوفة لأنهم يذكرون أنه كان لديها أربعة آلاف فرس ويصعب تصور حشرها في هذا المكان الذي ذكروا أيضاً أنه أقطع من قبل عمر مناصفة بين أبي موسى الأشعري وبين جماعة من عبس. فكانه اعتبره أرضاً صالحة للبناء وأقطعه بين ما أقطع من الأرض لكبار الصحابة. في حين كانت خيول الكوفة فيما بعد تربع بجوار المدينة عند العاقول في مكان يسميه الأعاجم معلف الأمراء^(٥) على بضعة كيلو مترات من الكوفة نحو شمالها.

(١) ياقوت ج ٤ ص ٤٩١.

(٢) اليعقوبي - البلدان ص ٣١١.

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢٥٨ وج ٦ ص ١٩، ٣٠، ١٠٦.

(٤) اليعقوبي - البلدان ص ٣١٠.

(٥) الطبري ج ٤ ص ٥٢.

وحيث خطط الخطط المساكن في المدينة نهجت فيها خمسة مناهج (شوارع) في ودعة الصحن إلى الشمال وأربعة نحو القبلة وثلاثة في الغرب. فنزلت سليم وثقيف وهمدان وتيم اللات في الودعة مما يلي الصحن. وفي الشرق نزل الأنصار ومزينة وتميم ومحارب، وفي القبلة بنو أسد والنخع وكندة، وفي الغرب بجالة وبجيلة وحذيلة وأخلاق أخرى. وسائر الناس بين ذلك ومن وراء ذلك. وكانت الشوارع تنطلق من المركز المربع. ولما كانت المدينة دون سور فقد كان للحزام السكني أن يتسع ماشاء ولا نعرف شيئا عن أطرافه القصوى وبعضهم يعطيها الشكل الدائري لكنها أحيطت أيام المنصور بسور وخنديق. وكانت القطائع بين المناهج تتراوح بين ٣٢ و ٤٦ مترا كما يظهر من البقايا الأثرية.

إن هذه البداية المنظمة في الكوفة أكدت ووسعت مفهوم المدينة الإسلامية الذي ولد في يثرب ووجد نموذجه الأول في البصرة (التي عاصرت في بنائها الكوفة) كما أبرزت عناصرها الأساسية وخصائصها المميزة. ومن المؤسف أننا لا نملك من التفاصيل عن مدن الإسلام فيما عدا بغداد والقاهرة - مثلما نملك عن الكوفة. فواسط التي بناها الحجاج لأسباب إدارية بحثت بعد أن استشرت الفتن في العراق واحتاج إلى موقع متوسط بين المصريين ينزل فيه جند الشام الذين جاؤوا لمعونته، ليعزلهم عن الجوار القلق في ولايته.

وقد قدم الحجاج سنة ٧٥ فأنزل هذا الجند حول مقره الذي بناه على مسافة فرسخ من البصرة. ومنعهم من دخول البصرة ثم منعهم من دخول الكوفة بعد انتصاره في دير الجماجم، ثم رأى أن يبني لنفسه ولهم مدينة تكون مركزا موحدًا لإدارة الولاية بدلا من التنقل بين المصريين وقد وفق في اختيار موقع متوسط للإدارة لا تنقصه الحركة الاقتصادية ولا الوضع الصحي الملائم البعيد عن السباح والأهوار. فهي كما قال ابن حوقل: «خصبة كثيرة

الشجر والزرع وليس بها بطائح ولها أرض واسعة ونواح فسيحة^(١) وعلى عدة طرق برية ومائية . . .^(٢) ويبدو أن الحجاج أرسل من يستطلع المكان فبات فيه^(٣) واستحسنه . وقد بدأ البناء في المدينة بين سنة ٨١ وسنة ٨٣ بعد أن اشترى الحجاج الموقع . وخططت واسط على مثال البصرة والكوفة ولكنها لم تكن للناس وإنما كانت مدينة ملكية للحجاج ورجالها وادارته وجنده . لقد أخرج من مخطط الكوفة هذه المدينة ليفردها بين المصريين ولكنه اتبع النموذج الإسلامي فيها: بنى فيها أولا المسجد الجامع الذي عرف باسم الحجاج وبجانبه على ما يذكر ابن رسته مقر الحجاج وفيه قبة مشرفة خضراء عالية ترى من بعيد . وكان هذا القصر في غرب المسجد نحو قبلته . وجعل - على ما يؤكد بحشل - فراغا حول هذا القسم يسمى الرحبة^(٤) تشرع منه الطرق وإليه تفضي الشوارع . ثم عين مكان السوق العام منه . ثم شرع المخططون يقطعون القطائع ويقيمون فيها المرافق فبنت كل قبيلة الخطة المخصصة لها^(٥) على الضفة الغربية من دجلة ثم بنى الناس فيها بعد على الجانب الشرقي .

وقد جاء في المصادر التاريخية ذكر بعض المساجد في المخطط لمسجد سيار بن دينار المحدث^(٦)، ومسجد عبد الحميد ومسجد حسان النبطي على دجلة قرب المدينة^(٧) . ثم أحيطت واسط بسور وخنديق^(٨) . وقد ظهرت، وكان يربط ما بين شقي المدينة جسر من السفن^(٩) ماتزال بعض المعالم منه

(١) ابن حوقل - صورة الأرض ص ٢٣٨ .

(٢) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ١١٨ .

(٣) ياقوت ٤/ ٨٨٣ .

(٤) بحشل - تاريخ واسط ص ٤٤ .

(٥) بحشل - ص ١٤٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٧) خليفة بن خياط - التاريخ ج ٢ ص ٤٣٦ .

(٨) المبرد - الكامل ج ٢ ص ٦٢٥ .

(٩) ابن رسته - الإغلاق النفيسة ص ٢٨٧ .

واضحة على ضفتي النهر في قواعد ضخمة . وبالقرب منه مشرعة سميت بمشرعة الفيل . ويذكرون أن محمد بن القاسم أهدى الحجاج فيلا أنزل هناك لكن المشرعة كانت ميناء لشحن السفن وتفريغها . . . ولما كانت الرؤية العمرانية لدى الحجاج واضحة فقد بنى القصر والمسجد والخندق والسور في ثلاث سنوات وفرغ منها سنة ٧٨ هـ أنفق عليها خراج العراق كله خمس سنين ثم نقل إليها من اختار من وجوه الكوفة فجعل صلاتهم عن يمينه كما جعل يساره لوجوه البصرة . وجعل لجنده من الشام أن يصلوا خلفه .

والتفت إلى أسواق المدينة فجعل لأهل كل تجارة قطعة لا يخالطهم فيها غيرهم ، ولكل قطعة صيرفي فأنزل أصحاب الطعام والبزازين والصيارف والعطارين على يمين السوق حتى ينتهوا إلى الخرازين ، وأنزل الخرازين والروزجاريين (أي العمال اليوميين) والصناع من درب الخرازين عن يسار السوق إلى دجلة . ولنلاحظ أن هذا الفكر المدني سوف يكون النواة والنموذج الذي سوف يصل به إلى الكمال الهندسي أبو جعفر المنصور عند بناء بغداد .

وليست لدينا ، حتى مثل هذه التفاصيل عن مدينة الرملة في فلسطين التي بناها سليمان بن عبد الملك حين كان والي فلسطين ، قبل أن يلي الخلافة . «وكان أول ما بنى منها قصره والدار التي عرفت فيما بعد بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً له . ثم اختط المسجد خطة وبناء ، فولي الخلافة قبل استتمامه ثم بنى بعد في خلافته ثم أتمه عمر بن عبدالعزيز ونقص من الخطة وقال : أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتضت بهم عليه^(١) . ويبدو أن سليمان كان يريد أن يضاهي أخاه الوليد في بناء جامع كجامع دمشق كبير المساحة . فقد ذكر المقدسي بعد قرابة ثلاثمائة سنة هذا

(١) ابن رسته - الإغلاقي النفسية ص ٢٨٧ .

المسجد الجامع وذكر أنه في الأسواق (أي في وسط المدينة وأنه أبهى وأرشق من جامع دمشق ويسمى بالأبيض وليس في الإسلام أكبر من محرابه) لأنه هذا المحراب كان يتناسب مع الخطة الأولى للمسجد) ولا بعد منبر بيت المقدس أحسن من منبره وله منارة هببة بناها هشام بن عبد الملك^(١). وأمر سليمان أهل «لدبان» ينتقلوا إلى الرملة وهددهم فانتقلوا إليها وتمصرت وكان بها في القرن الرابع الهجري خمسة خانات، وحمامات مريجة ومساكن رحبة وطرق فسيحة ولها أسوار طالما صدت هجمات البدو عنها - وثمة بقية صهريج كبير يعرف باسم القديسة هيلانة لكن عليه كتابات كوفية تاريخها سنة ١٧٢ هـ من عهد الرشيد^(٢). وقد هدم زلزال سنة ٤٢٥ / ١٠٣٣ ثلث المدينة وخرب مسجدها وكانت قبل ذلك تحمل اسم فلسطين.

وأما الفسطاط فكان شأنها شأن الكوفة والبصرة إذ نظر إليها الفاتحون أولاً على أنها معسكر ولكنهم سرعان ما تحولوا إلى الاستقرار فيها واتخاذها قاعدة استقرار. وكان عمرو بن العاص حين فتح الإسكندرية، الفتح الأول، ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منه (بسبب هرب الروم) قال مساكن قد كفيناها! فلما استشار عمر رفض الخليفة وقال: لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء أو صيف فتحول عمرو بأصحابه إلى الفسطاط. «وانضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا في المواضع فولى عمرو على الخطط أربعة من رجاله سنة ٢١ وهم معاوية بن خديج التجيبي، وشريك بن سمي الفطيفي، وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المغافري وكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل»^(٣).

(١) البلاذري - فتوح ص ١٧٠.

(٢) المقدسي البشاري - أحسن التقاسيم ص ١٦٤.

(٣) المقرئ ج ١ ص ٢٩٧.

ويبدو أن عمرو بن العاص سبق تقسيم الخطط هذا بناء مسجد مازال يعرف باسم المسجد العتيق وباسم عمرو بن العاص . وكان في مكانه بساتين وزرع نزلها أحد رجاله وهو قيسية بن كلثوم التجيبي . وقد اختط عمرو داره مقابل تلك الجنان . وتشاور المسلمون أن يكون الجامع فراوا أن يكون في منزل قيسية فسأله عمرو فيه وأرضاه وبني فيه جامع الفسطاط بطول خمسين ذراعاً وعرض ثلاثين وجعل الطريق يطيف به من كل جهة وجعل له بابين يقابلان دار عمرو بن العاص وبابان في بحرية (شماله) وبابان في غربية وكان طوله من القبلة إلى البحري مثل طول دار عمرو . وكان سقفه مطاطاً جداً ولا صحن له . فإذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية . وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع . واتخذ فيه عمرو منبراً فكتب إليه عمر أما يكفيك أن تقوم قائماً والمسلمون جلوس تحت عقيلك؟ فكسره . ولم تكن تقام صلاة جمعة بمصر إلا في جامع عمرو . وأول من زاد في الجامع مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة ٥٣ وهو يومئذ أمير مصر لمعاوية بعد أن تزايد المسلمون من القادمين العرب إلى مصر وعمن أسلم فيها . وقد زاد فيه من شرقيه ومن بحرية وجعل له رحبة في البحري منه . . . ولاطه بالنورة وزخرفة وأمر بابتناء منار المسجد فبنى فيه أربع صوامع في أركانه الأربعة ، وهو أول من جعل فيه الحصر وإنما كان قبل ذلك مفروشاً بالحصباء . . . ثم أن عبدالعزیز ابن مروان هدمه في سنة وسبعين وهو يومئذ أمير مصر فزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت في بحرية . . . وزاد فيه من جوانبه كلها . وذكر أن عبدالله بن عبدالملك أثناء ولايته أمر برفع سقف المسجد الجامع سنة ٨٩ ثم جاء قره بن شريك فهدمه بأمر الوليد بن عبدالملك وأعاد بناءه حتى فرغ منه سنة ٩٣ . . .

ويبدو أن الخطط أحاطت بالجامع عبر الشارع والرحبة . وكان أولها خطة أهل الراية وهم مجموعات من قبائل مختلفة أحاطت مساكنها بالجامع

من جميع جوانبه . وقبلهم وضعت خطة مهرة بن حيدان الحميري . ثم خطة تجيب . وأعطيت لحم ثلاث خطط شمالي خطة الراية . ثم منحت خطة اللفيف الذين كانوا مجتمعين في المنازل متفرقين في الديوان وكانت الشمال أيضا . وتخلف جماعة من الفاتحين في الاسكندرية فلما عادوا لم يجدوا مكانا لهم فأقنعهم معاوية بن خديج أن يكونوا في ظاهر هذه الخطط فكان منهم خطة الظاهر . وجاورت خطة غافق خطة لحم واختار الصدف خطتهم في سفح جبل البون . وتوالى توزيع الخطط : مذحج ، غطيف ، وعلان ويحصب ، ورعين ذى الكلاع ، والمفاخر . . . وهكذا إلى خطط الحمراوات الثلاث الأولى والوسطى والقصى^(١) . حتى بلغت في مجموعها ٤٧ خطة حملت اسماء القبائل التي نزلت فيها .

ويبدو من هذا أن نواة المدينة الفسطاط إنما كانت بدورها الجامع وقصر الإمارة وأن الخطط وزعت حولها تماما كما جرى في الكوفة وغيرها وكما جرى في مدينة العسكر التي بنيت مكان خطة الحمراء القصى ، وكانت على جبل يشكر وقد هجرت وحالت صحراء ، فنزل عسكر صالح بن علي العباسي وأبي عون عبد الملك بن يزيد فيها وهم يلاحقون مروان بن محمد . وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فبنوا وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائة . وخرج صالح بن علي من مصر بعد أن خرب أكثر ما بنى (جماعته) فيها ، وتولى موسى بن عيسى الهاشمي فابتنى دارا أنزل فيها حشمه وعبيده وعمر الناس ثم ولي السرى بن الحكم فأذن للناس في البناء فابتنوا فيه واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه دار الإمارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر (ثم عرف بجامع ساحل الغلة) وعملت الشرطة أيضا في العسكر وقيل لها الشرطة العليا (والى جانبها بنى أحمد بن طولون جامع الموجود الآن) وسمي

(١) انظر المقرئزي - خطط ج ١ ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .

من حينئذ ذلك الفضاء بالعسكر وصار أمراء مصر إذا ولو ينزلون به من بعد أبي عون . . (فهي إذن مدينة ملكية للأمير وجنده) فكان الناس يقولون كنا بالعسكر وخرجنا إلى العسكر وكتب من العسكر. لكن الموقع تحول إلى مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة . وعظمت العمارة في العسكر جدا ورغم أن آل طولون تحولوا عنها إلى مدينة بنوها بجوارها سميت بالقطائع فقد عاد إليها الأخشيديون، وكان كافور الأخشيدي يسكنها حتى انقضت الأخشيديية وبنيت القاهرة ونزلها الخلفاء الفاطميون^(١).

وقد نزل آل طولون مدينة العسكر بدار الإمارة وكان لها باب إلى جامع العسكر فما زال بها حتى بنى القصر والمدينة في مدينته المجاورة القطائع فتحول عن العسكر وسكن قصره هناك . والقطائع عدة قطع وكل قطعة لطائفة فيقال : قطعة السودان، وقطعة الروم وقطعة الفرائين ونحو ذلك . فكانت كل قطعة سكن لجماعة بمنزلة الحارات التي بالقاهرة . . وسميت كل قطعة باسم من سكنها فكانت للنوبة قطعة مفردة تعرف بهم وللروم قطعة مفردة . . . وللفراشين قطعة مفردة ولكل صنف من القلجان قطعة مفردة تعرف بهم . وبنى القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران . وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين فكان في دكاكين الفاميين جميع ما في دكاكين نظرائهم في المدينة وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين، ولكل من الباعة سوق حسن عامر.

(١) المقرئزي خطط ج ١ ص ٣٠٤ .

وبنى ابن طولون قصره (دار الإمارة) ووسعه وحسنه وجعل له ميدانا يضرب فيه بالصوالة فسمى القصر كله الميدان (وعرف بذلك). وعمل للميدان أبوابا لكل باب اسم وهي باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيوش، وباب الصوالة، وباب الخاصة وباب الجبل وباب الحرم وباب دعناج (على اسم حارسه) وباب الصلاة. وكان الطريق الذي يخرج منه ابن طولون من القصر إلى الميدان ثلاث بوابات وكان هذا الميدان أمام المسجد تماما كالنقلد الإسلامي في الكوفة وغيرها.

وكان ابن طولون قد أنشأه حين أنشأ الجامع المعروف باسمه هناك وجعل الدار في الجهة القبليّة وجعل فيها جميع ما يحتاج إليه من الفرش والستور والآلات فكان ينزل بها إذ راح إلى صلاة الجمعة فإنها كانت تجاه القصر والميدان^(١). . . الذي أحيط بالأسوار وتتخلل الأسوار الأبواب الكثيرة.

بدأ بناء جامع القطائع سنة ٢٦٣ وانتهى سنة ٢٦٥ وأراد به ابن طولون أن يكون مصلى لجنده وأن يكون مكانا تذاق منه قرارات الدولة ومدجاً وحصناً منيعاً عند الخطر وجعل له منارة ملوية ظهر نموذجها قبله في جامع سامراء وماتزال إلى اليوم قائمة. وكانت امتداد القطائع كلها ميلا في ميل^(١). وكانت القطائع كأسمها قطائع اقطعها ابن طولون حاشيته وجنده سنة ٢٥٦ كي يكونوا حوله. وأنها كانت مدينة ملكية بمعنى أنها كانت خاصة بالأمير. وقد ذكر الكثير عن جامعها، جامع ابن طولون، الذي أشبه بطراز عمارته جامع سامراء ومثذنته. وكان ابن طولون يصلي في الجامع العتيق (جامع عمرو) فلما ضاق بجنده وسودانه بنى الجامع الجديد ويذكرون أنه لما

(١) المقرئبي - خطط ج ٢ ص ٢٦٥.

(٢) المقرئبي - خطط ج ١ ص ٣١٥.

(١) المقرئبي - خطط ج ١ ص ٣٤١.

أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود فقيل له ما تجدها . أو تنفذ إلى الكنائس في الأرياف والضياح الخراب فانكر ذلك ولم يجتره وتعذب قلبه بالفكر في أمره (وكان ثمة نصراني قد غضب عليه ابن طولون لما تولى بناء العين) ورماء في المطبق فكتب إليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار دون عمد إلا عمودي القبلة فأحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه فقال له : ما تقول في بناء الجامع؟ قال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد الأعمودي القبلة فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت وصوره له فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار وقال أنفق وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك . فوضع النصراني يده في البناء إلى أن فرغ من جميعه وبيضه وخلقه وعلق فيه القناديل بالسلاسل الحسان الطوال وفرش فيه الحصر وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء . . . (وافتحه أحمد بن طولون بالصلاة) وراح فنزل في الدار التي عملها فيه للإمارة بجوار الجامع وقد فرشت وعلقت وحملت إليها الآلات والأواني وصناديق الأشرطة . . . وخرج من بابها إلى المقصورة فركع شكرا لله وسجد . . بعد أن أنفق عليه ١٢٠ ألف دينار.

وننتقل إلى القبروان لنرى أن المدينة بدأت بدورها معسكرا كغيرها بنيت أيضا بعد تردد كثير، وعلى مراحل . وقد تعاقب على البناء عدة قواد وليس عقبة بن نافع وحده . فإن معركة سوفيتولا (سنة ٦٤٧/٢٧) أسلمت أفريقية لعبدالله بن أبي سرح وانكمش البيزنطيون إلى ما وراء خط دفاعهم الثاني في الداخل . وقام ابن أبي سرح بالغزوات حتى منطقة القبروان وبني فيها جامعا ثم جاء معاوية بن خديج بثلاث غزوات أخرى متوالية وصل بها إلى منطقة الكمونية حيث أقام معسكره واستطاع الاستيلاء على عدة حصون فيها سنة ٦٥٤/٦٤ على ما يروى ابن عبدالحكم - وغنم الكثير ثم أقام (قبروانا) (أي معسكر امداد) قرب موقع اسمه القرن . وقد أقام في هذا

الموقع على حد قوله ابن عذاري سنة ٦٦١/٤١ . ونجده في القرن أيضا سنة ٤٥ حيث اختط مدينة عندها عرفت بهذا الإسم - قبل تأسيس عقبة للقيروان واستقر فيها الفترة التي قضاها في أفريقية بعد أن بنى هناك بيوتا ومنازل سماها بالقيروان في وقت كان فيه موقع القيروان الحالي غير مسكون ولا مأمون^(١) . وكانت القرن في الشمال الغربي من هذا الموقع وكانت مرتفعة بعيدة عن البحر لتأمن الغزو البيزنطي وفيضانات الشتاء .

ولم تهدم قيروان ابن حديج بعد ذلك ولكنها لم تستطع أن تكون عاصمة أفريقية وظلت تحمل اسم القرن ولها تاريخها الخاص لمدة أكثر من قرنين . وكان على القيروان أن تنتظر حتى سنة ٦٧٠/٥٠ لتري مؤسسها في موقعها الثاني عقبة بن نافع الذي لم يعجبه موقع القرن فراح يفتش مع أصحابه عن موضع آخر أفضل، وبعيد في الوقت نفسه عن بحر الروم . فما أن اختاروه حتى بنى عقبة الجامع ودار الإمارة في وسطه هذه القيروان الجديدة وهما رمزا السلطتين الدينية والسياسية اللتين لا بد منهما . وكان أحدهما تجاه الآخر . . . وبقي عقبة خمس سنوات يرقب العمارة دون أن يقوم بأي غزو . . . وتلاه أبو المهاجر دينار فلم يعجبه موقع القيروان ونقلها إلى مبعده ميلين، على طريق تونس في منطقة يأهلها البربر . هذه العاصمة التي كشفت آثارها منذ عهد قريب حملت اسم تاكروان . اسم المدينة وسكانها البربر كانا يتفقان مع السياسة التي دشنها أبو المهاجر في التقرب من البربر . لكن الخليفة الذي لم يرق له ذلك أعاد عقبة إلى الولاية سنة ٦٨٢/٦٢ فكان أول أعماله إعادة العاصمة إلى الموقع السابق الذي كان اختاره . وثمة دلائل على أنه كان موقعا لمدينة رومانية أو بيزنطية سابقة اندثرت قبل وصول الفتح الإسلامي . كانت تسمى قونية أو كمونية دلت أطلالها الأثرية التي كشفت

(١) ابن فاجي : معالم الايمان ج ١ ص ٤١ .

مؤخرا في السبعينات على أنها قدمت الكثير من مواد البناء حتى للمسجد الجامع الذي بناه عقبه . ولدار الإمارة . وأقطع عقبة مساكنها ودورها للناس وبني الناس حول المسجد ودار الإمارة . أما الخطط التي منحت فمن الأرجح أنها إنما اتبعت الطريق نفسها التي اتبعت في الأمصار السابقة كالفسطاط والكوفة والبصرة على أساس المجموعات القبلية . وذلك ضمن رقعة من الأرض تبلغ حسب قول ابن عذاري ١٣٦٠٠ ذراع^(١) أو ما يعادل ٧,٥ كم^٢ . لكن ليست لدينا معلومات حول تلك المجموعات إلا في النادر ومنها نعلم أن الفهريين القرشيين وهم قبيلة عقبة مؤسس المدينة نزلوا في شمالي المسجد الجامع في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ٧٢٤/١٢٥ - ٧٤٣) وفي القرن الثالث (العاشر الميلادي) كانت أحياء القيروان ما تزال تحمل الطابع القبلي أو الديني ويذكرون حارة يحصب، ورحبة القرشيين وسوق اليهود^(٢) . وهذه الأسماء قد تكون تقليدية قديمة تدل على المواقع الأولى لهؤلاء السكان .

ونعود إلى المشرق بعد أن ينقضي القرن الهجري الأول لنجد بغداد . وقد عهد أبو جعفر - حسب رواية الخطيب البغدادي - إلى أبي أرطاة الحجاج بن يوسف وهو عربي قحطاني من أشرف الكوفة وحفاظها بوضع مخطط المدينة يعاونه من الكوفة - على ما يظهر من رواية يعقوبي - ثلاثة آخرون هم : عبدالله بن محرز وشهاب بن كثير وعمران بن الوضاح . ويبدو أن المنجمين لم يغيبوا عن التخطيط الذي يذكر يعقوبي أيضا أنه جرى بحضرة

(١) ابن عذاري - البيان المغرب ج ١ ص ٢١ .

(٢) انظر البكري - مسالك الممالك ص ٢٣ ، وانظر أيضا عياض - المدارك (١) . الطالبي تحت عنوان تراجم أغلبية (تونس ١٩٦٨ ص ٧١ و ص ٣٦٩ و ص ٣٥٩ وانظر مادة القيروان في الموسوعة الإسلامية) . (الطبعة الجديدة) .

نوبخت وما شاء الله بن سارية وابراهيم بن محمد القزاري الطبري المنجمين^(١). وقد وضع المخطط على نحو ليس بمستحدث في بناء المدن الإسلامية وليس بغريب على المنطقة فثمة مدن بيزنطية كما في ارقين وأمد، وعربية كالحضر، وساسا مرنية كهمدان وجند يسابور والمدائن بل إسلامية كواسط بنيت مثلها على شكل دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ويحيط به رحبة واسعة تقوم بعدها قصور القواد ورجال الدولة ثم تقوم من حول ذلك كله الأسوار.

وبعد أن نظر المنصور في المخطط ووافق عليه رسم على الأرض ومر الخليفة بالشوارع والأمكنة فأعجبته. ويقال أنه بات في الموضع فارتاح له ثم قد أمر باحضار البنائين والمهندسين من الشام والعراق وبلاد الديلم وبدأ ضرب اللبن وطبخ الأجر. وكان عدد العاملين مائة ألف بدأوا البناء سنة ٧٦٢/١٤٥. ولعل العمل توقف فجأه بسبب ثورة محمد النفس الزكية في المدينة (يثرّب) فلما انتصر أبو جعفر واتخذ لقب المنصور عاود البناء سنة ١٤٦ وكان يشرف على كل صغيرة وكبيرة فيه. ويحاسب بنفسه العمال على الدائق والحبة حتى لقب بالدوانيقي. واستمر العمل حتى استتمت المدينة بناء سنة ١٤٩ في أربع سنوات وشهرين وسماها المنصور دار السلام ولكن الاسم القديم غلبه.

كان مخطط المدينة متفقا مع عقلية المنصور ومركز حرته في السلطة كما كان متفقا مع التقاليد الفارسية التي تفصل الحاكم عن الرعية وتمثل ترفع صاحب السلطة ونفوذه المطلق، ولكنها كانت جديدة بالنسبة للمسلمين عامة وللإستقراتية الأموية خاصة. فالؤمنون اخوة والارستقراتية الأموية كانت تحتفظ بالكثير من الديمقراطية العربية في علاقات الحاكم بالمؤمنين. وهذا

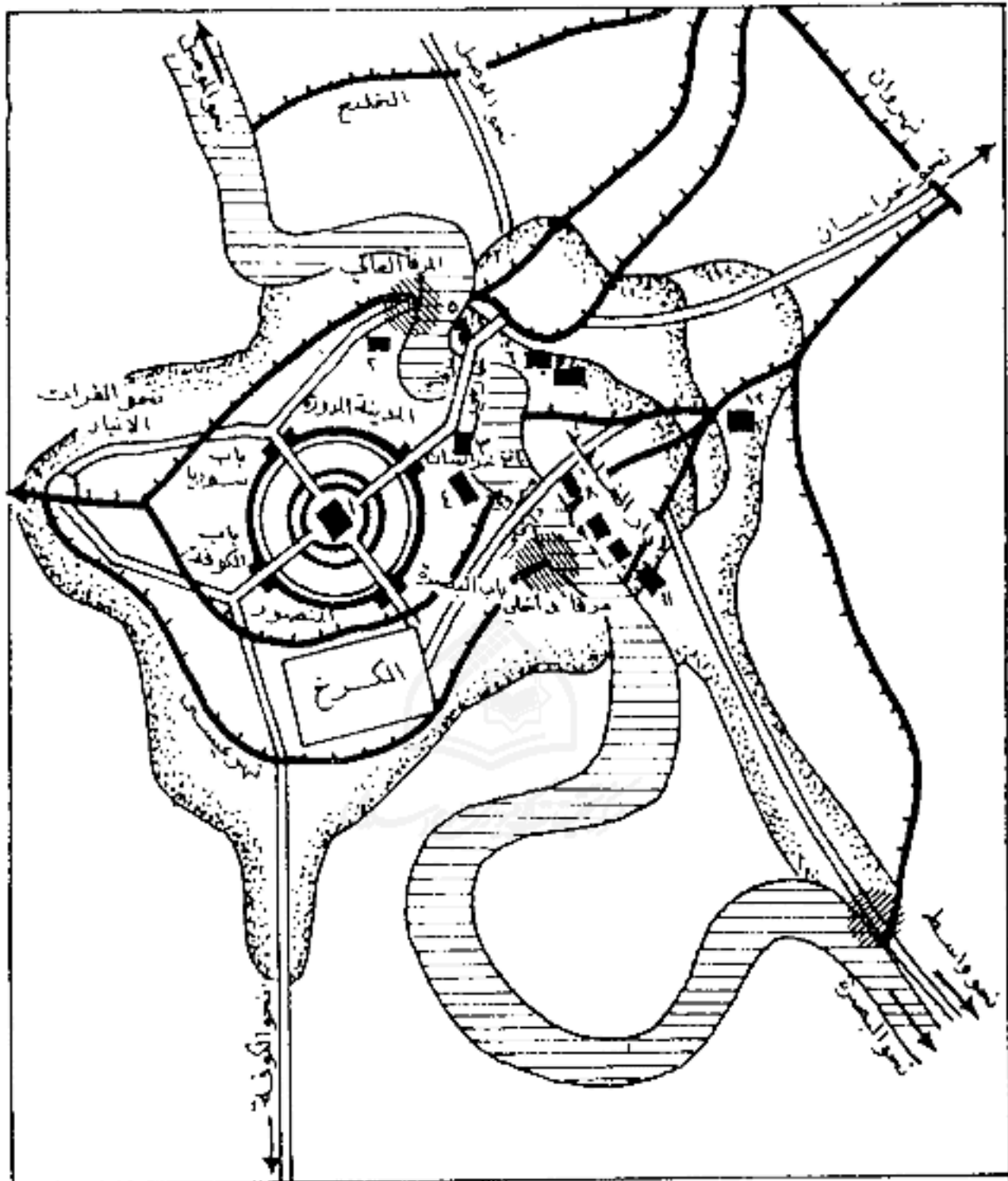
(١) انظر اليعقوبي - البلدان ص ٢٤١ وانظر ٢٤٨ وما بعدها حتى ٢٥٤.

الإتجاه كان تطورا في نظام الحكم الإسلامي عبرت عنه المدينة في تصورها وبنائها.

ولعلنا نلاحظ أن المنصور أخذ الكثير عن الحجاج سواء في مركزته الإدارية أم في بطشه بأعدائه أم في إدارته وبناء مدينة لهذه الإدارة. بل في تنظيم المدينة وأسواقها وأخذ بعض أبواب واسط نفسها فجعلها أبوابا لبغداد.

وقد اختلفت روايات المؤرخين في مساحة المدينة حسب الروايات التي تجعلها بين ٣ كم^٢ و ١٢,٥ كم^٢، واقدمهم وهما اليعقوبي والأزدي يقدران مساحتها بالترتيب بحوالي ٧,٥ كم^٢ و ٤,٥ كم^٢ أما لدى الخطيب البغدادي من بعدهم وابن الجوزي وياقوت وهو الرقم الذي يبدو أنه حسب الأدلة الأثرية أصح الأقوال في سعتها فهي تبلغ ٢١٩١٦ ذراعا مربعة (= ٣١٤,٥ كم^٢) وأن طول قطرها يبلغ ٥٢٨٣ ذراعا (أو ٢٦١٥ مترا) ومحيط دائرتها على هذا بشكل يبلغ ١٦٥٩٧ ذراعا (أو ٨١٣٢ مترا).

قسم المنصور بغداد المدورة إلى أربعة أقسام أو ارباض أناط الأشراف على البناء في كل ربض بثلاثة رجال : قائد من جيشه ومولى من مواليه ومهندس . وحدد لكل رجل مقدار قطيعته بنفسه ومبلغها من الذرع ومبلغ مالعمل الأسواق في ربض . وقسم الأرباض أربعة أرباع فقلد للقيام لكل ربع رجلا من المهندسين . فقلد الربع من باب الكوفة إلى باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاة وعمران بن الوضاح المهندس ، والربع من باب الكوفة إلى باب الشام وشارع طريق الأنبار إلى حد ربض حرب بن عبدالله : سليمان بن مجالد وواضحا مولاة وعبدالله بن محرز المهندس ، والربع من باب الشام إلى ربض حرب وما اتصل به وشارع باب الشام وما اتصل بذلك إلى الجسر على منتهى دجلة :



- | | | |
|-------------------------|--------------------|--------------------|
| ٩ - الحسيني | ٥ - الرصافة المهدي | قصور العباسيين |
| ١ - التاج | ٦ - البرامكة | ١ - المنصور |
| ١١ - الامين | ٧ - المعتصم | ٢ - الظاهريون |
| ١٢ - مجموعة قصور العتمة | ٨ - الفردوس | ٣ - الخلد (الامين) |
| | | ٤ - زبيدة |

بغداد

حرب بن عبدالله وغزوان مولاه والحجاج بن يوسف المهندس . ومن باب خراسان إلى الجسر الذي على دجلة مادا في الشارع إلى باب قطربل هشام بن عمرو والتغلي وعمارة بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس . ووقع إلى أصحاب كل ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من أصحابه وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربع . وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت ليكون في كل ربع سوق جامعة تجمع التجارات . وأن يجعلوا في كل ربع من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه ، أو الرجل النبيه الذي ينزله ، أو أهل البلد الذي يسكنونه وحد لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا بالسوداء ، والدروب ستة عشر ذراعا . وأن يبتنوا في جميع الأرباض والأسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي من فيه كل ناحية ومحله وأمرهم أن يجعلوا من قطائع القواد والجند ذرعا معلوما للتجار بينونه وينزلونه ولسوقة الناس وأهل البلدان . أما الأشراف العام على البناء فعهد به إلى الحجاج بن يوسف ابن أرطاة . والإمام أبي حنيفة النعمان من ذوي العدالة والفقه والأمانة والخبرة بالهندسة والبناء ولم يشرع المنصور بالبناء حتى تكامل لديه من الفعلة وأهل المهن آلاف عديدة وحتى جمع المال اللازم للمشروع واشترى الأرضين من أصحابها بعد المساومة وأقطعها أهل بيته وقواده وصحابته وجنده .

قام في وسط المدينة قصر باب الذهب للخليفة المنصور بأساطين من الخشب وفي أعلاه قبة خضراء عليها تمثال فارس مرمح ويلاصقه المسجد الجامع من شماله الشرقي . وهناك دار لصاحب الحرس وسقيفة كبيرة لصاحب الشرطة مبنية على عمد بالأجر والجص . وأفرد المنصور هذا المركب السكاني الملكي فليس حوله بناء ولا دار ولا مسكن لأحد ضمن رحبة واسعة تستدير من جميع جوانبه عرفت بالرحبة العظمى . ولم يكن يسمح لأحد ، حتى لأعمام الخليفة ، أن يدخلوها راكبين ومن حولها سور يتلوه الطريق ثم

تقوم القطائع من بعد الرحبة وقد بناها أهله وقواده بدورهم وتدور بها منازل أولاد المنصور الأصغر ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيوت المال وخزانة السلاح والدواوين للرسائل والخراج والخاتم والجند والحوائج والأحشام والنفقات ومطبخ العامة . وبين الطاقات إلى الطاقات السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة . فمن باب البصرة إلى باب الكوفة سكة الشرط والهيثم والمطبق (وفيها الحبس الأعظم وهو وثيق البناء محكم السور . . . وسكك عديدة أخرى) وبين باب البصرة إلى باب خراسان وكذلك بين بابي الكوفة والشام وبين باب الشام إلى خراسان سكك متصلة . وفي كل سكة منها جلة القواد والموثوق بهم في النزول مع المنصور وجلة مواليه ومن يحتاج إليه في الأمر المهم . ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لأن حوالي سور الرحبة تدور الطريق . وفي أطراف المدينة يستدير بالجميع من ورائهم أرض فراغ تدعى بالفصيل يقوم من بعدها سور ضخمة من بعده سور أقل ارتفاعاً منه ثم يأتي الخندق .

ولاشك أن البناء كان رائعاً متقناً فقد وصف الجاحظ بغداد بعد قرن من المنصور بقوله : لم أر مدينة قط أرفع سمكاً ولا أجود استدارة ولا أوسع أبواباً من الزوراء وهي مدينة أبي جعفر المنصور . كما صبت في قالب وكأنا أفرغت أفراغاً . . . كما لاشك أن جاءت كما أراد لها المنصور حصناً جباراً فيه جميع مرافق الحياة والمقاومة عند الخطر أو الحصار وأسباب العيش والمصابرة والحماية . فقد كانت خليطاً بين المدينة الملكية الخاصة في الوسط وبين المدينة العامة للناس في القطائع .

وأقطع المنصور القطائع على أطراف بغداد من الخارج لأقربائه فكانت قطعة عبد الوهاب بن إبراهيم (ابن أخيه) بأزاء باب الكوفة فبنى فيها قصراً هناك . وأقطع العباس (أخاه) الجزيرة بين الصرّاتين فجعلها العباس مزدرعاً وبساتين وهي العباسية المشهورة التي لا تنقطع غلاتها في صيف ولا شتاء .

وفيها الرحا العظمى المسماة رحا البطريق وكانت مائة حجر تغل في كل سنة مائه ألف ألف درهم . وأقطع الشروبة وهم موالي أبيه دون سويقة عبد الوهاب مما يلي باب الكوفة وكانوا بوابيه . وأقطع المهاجرين عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات، وببازائه قطيعة يسن صاحب النجائب وخان النجائب . ودون خان النجائب اصطبلى الموالي . وأقطع المسيب بن زهر صاحب الشرطة بمئة باب الكوفة للدخول إلى المدينة . فهناك داره ومسجده ذو المنارة الطويلة . وأقطع أخاه زهير بن زهر في ظهر قطيعة المسيب . . . ويتصل بها قطيعة أبي العنبر مولي المنصور مما يلي القبلة^(١) . . . وهكذا استمر المنصور في اقطاع القطائع حول بغداد ليجعل منها سورا بشريا آخر دونه ودون مدينته . . . ويذكرون أن المنصور أنفق على إقامة مدينته ١٨ ألف دينار أو ٤٨٨٣ ألف ألف درهم وبين الرقمين فارق كبير لأن الدينار كان في عهده يساوي تقريبا ١٢ درهما .

وتجاوز الناس الضفة الغربية لدجلة إلى ما يقابل بغداد على الضفة الشرقية وإنما سميت الشرقية لأنها قدرت مدينة للمهدي قبل أن يعزم على أن يكون نزول المهدي (سنة ١٤٩) فيها وبني له فيها قصرا ومعسكراً فلما نزلها بجنده من خراسان بني فيها وبنوا وسميت بالرصافة . ومُد جسر من السفن بينها وبين بغداد وأقام المهدي بها جامعا كان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر وهو المسجد يجلس فيه قاضي الشرقية ثم أخرج المنبر منه .

ويبدو أن المنصور تخير ذلك الموقع عامدا إذ «بصير ذلك بلدا وهذا بلدا فإن فسد عليك - كما قال له الناصحون - أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب» فكانه أقام لنفسه ملجأ آخر من الحذر . وقد اختط المهدي

(١) راجع بقية القطائع لدى اليعقوبي - البلدان ص ٢٤٢ - ٢٤٦ .

(كأبيه) قصره إلى جانب المسجد الجامع وحضر نهرًا يأخذ من النهر وان سماه نهر المهدي . وقسمت القطائع في هذا الجانب كما قسمت في جانب مدينة المنصور وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا (فقد كان المنصور بخيلا مقترًا) ولأنه كان أوسع الجانبين أرضا . فقد سبق الناس إلى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الأسواق والتجارات فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع على من أراد «سعة البناء» وتوزع قواد المهدي وبعض أهله ومواليه والتجار قطائع الرصافة . فما عتمت أن امتلأت سكانا وتوسعت توسع بغداد وأضحت تضاهيها وتكملها في الرونق والقصور وكثرة الخلق قبل أن تندمج نهائيا فيها .

ويبدو أن الزحف البشري الذي وافي المدينة الجديدة بغداد وازدحامها السريع بالباعة والتجار وأصحاب الحاجات والوافدين حتى ضاقت مدينة المنصور بهم قد أخافا المنصور وازعجناه فأمر سنة ١٥٧ بإخراجهم منها ليجعلها مدينة ملكية خالصة له بعد أن خطط للأسواق في الكرخ^(١) جنوب بغداد وشق الأنهر فيها ونقل الباعة إليها وجمعهم في الأسواق حسب فتيصر له بذلك توسيع شوارع مدينته والعناية بنظافتها وبالأمن فيها . وكان في الكرخ أكثر من سوق كبيرة فيها سائر التجارات مادة متصلة واحد عند باب البصرة وواحد عند الشارع الأعظم ثم أسواق عديدة . ومن حولها دور أخلاط الناس . فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض لا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم . وكل سوق

(١) انظر القطائع لدى اليعقوبي - البلدان ص ٢٥١ - ٢٥٤ .

(٢) كلمة كرخ فارسية وتعني القصر أو الدار ويقوت يقول أنها نبطية .

مفردة، وكل أهل منفردين بتجاراتهم، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم. ومن هذه الأرباض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من العرب والجنود والدهاقين والتجار وغير ذلك من أخلاط الناس ينتسب إليهم الدروب والسكك^(١). وجعل المنصور سوق القصابين في آخر الكرخ لأن بأيديهم السلاح.

وكانت الكرخ هي السوق العظمى وتمتد طولا بمقدار فرسخين وعرضا بمقدار فرسخ. ويضيف اليعقوبي قائلا بعد قرن من بناء بغداد: « وأحصيت السكك (في بغداد وما حولها) فكانت ستة آلاف درب، وأحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك. وأحصيت الحمامات فكانت عشرة آلاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك»^(٢).

ولم يكن قد مضى على بناء بغداد سبعون سنة حين ظهرت الحاجة إلى مدينة جديدة وكان الرشيد قد بحث عن مقر جديد له حوالي سنة ١٨٠، ولكن المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧) هو الذي شعر بالضرورة الملحة للخروج من بغداد لا بسبب كثافة سكانها فقط ولكن لسبب الخصومات التي كانت تقوم بين جنده التركي من الاجلاف وبين سكان بغداد. وهكذا تحرك المعتصم إلى سامراء على بعد ١١٣ كم من بغداد إلى الشمال.

اختلفت أسباب بناء سامراء عن بغداد اختلافا كبيرا انعكس في مخططاتها وخططها وطرائق بنائها بل انعكس غنى الدولة في القرن الثالث على بذخ قصورها، وهكذا فإن:

— الفكر الهندسي المنظم الذي سيطر على بغداد واقطاعها تحت تأثير

(١) اليعقوبي - البلدان ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٠.

المنصور يغيب عن سامراء تمام الغياب .

- فكرة المدينة الملكية التي سيطرت على المنصور تبدلت في سامراء إلى مدينة عامة للخليفة والسكان أي إلى مركز حضري .

- الثالث المدني المركزي تغير فالمسجد الجامع الذي كان في بغداد محدوداً صار أعظم الجوامع اتساعاً، ودار الإمارة وإن احتفظ بها الخليفة إلا أنها صارت أعداداً من القصور له ولحاشيته، والأسواق التي كانت في المركز فقط توزعت في كل اتجاه .

- الجيش الذي كان يحوط الخليفة في بغداد تم عزله في سامراء لوحده عن السكان . في مكان منعزل .

- زحف الحرفيون والصناع والزراع والباعة زحفاً إلى بغداد من أنفسهم في حين أنهم اقتلعوا اقتلاعاً من بغداد ومن غيرها لتؤهل سامراء .
- أطلقت حدود سامراء من أسوار التحصينات فامتدت على ضفاف دجلة ما شاءت، لأنها لم تكن - على الأقل في فترة بنائها تحشى أي خطر .

وقصة بناء سامراء تشبه إلى حد ما قصة بناء الرملة في فلسطين لسليمان ابن عبد الملك فكلاهما نظر إليها على أن تكون عاصمة الدنيا فكانت ولكن لفترة محدودة: ٤ سنوات للرملة و٥٠٠ سنة لسامراء .

حين عزم المعتصم على أن ينزل بموضع سامراء أحضر وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وقاضيه ابن أبي دؤاد وأحمد بن خلد المعروف بأبي الوزير وقال لهم اشترؤا من أصحاب هذا الدير هذه الأرض وادفعوا لهم ثمنها أربعة آلاف دينار ففعلوا ثم أحضر المهندسين فأختاروا أصلح المواضع للقصور على الضفة الغربية لدجلة وصير إلى كل رجل من أصحابه بناء قصر ثم وضع تخطيط ثكنات الجيش في قطائع خاصة في الجنوب وعلى الضفة الغربية ونظم الأسواق في خطوط طويلة على امتداد دجلة وفصل ما بين المسجد

الجامع ودار الامارة والدواوين أي أن النواة المركزية لكل مدينة إسلامية توزعت في سامراء فلم يبق منها إلا اختطاط الأسواق حول المسجد الجامع . كما وسعت صفوفها نتيجة ضيق الحركة في بغداد لكنها اتبعتها في تخصيص سوق لكل تجارة . وكتب (المعتصم) في أشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات في حمل الساج وسائر الخشب والجدوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد، ومن انطاكية ومن سواحل الشام وفي حمل عمرة الرخام وفرش الرخام فأقيمت في اللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام .^(١)

وبدأ العمل في المدينة سنة ٢٢١ فوضع المعتصم قصره كما وزع الاقطاعات على أهل دولته وكبار رجالها، وأما قطائع (الجند) الأتراك فأفردت عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم إلا الفراعنة، وأقطع الافشين في جنوب المدينة في موقع يدعى بالمطيرة في حين أقطع اشناس وأصحابه الموضع المعروف بالكرخ في شمال المدينة وضم إليه عدة من قواد الأتراك والرجال وأمره أن يبني المساجد والأسواق . وهكذا فعل بقواده خافان عرطوج ووصيف وبنى حائطاً سماه حائط الحيرة ممتداً، وصيرت قطائع الأتراك جميعاً والفراعنة العجم بعيدة من الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس يختلط بهم من تاجر أو غيره . ثم اشترى لهم الجوارى فأزوجهم منها . . وجعل لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والسويقات فيها عدة دور للبيع، وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان وأصحابهم من الجند والشاكرين وعن يمين الشارع ويسارها الدروب فيها منازل الناس كافة . . أما معسكرات الجيش الكبرى وثكناته واصطبلاته

(١) راجع ذلك كله مع التفاصيل الأولى لدى اليعقوبي بخاصة البلدان ص ٢٥٧ وما بعدها .

فجعلت في جنوبي المدينة على الضفة الغربية لدجلة، ولعله اختار المكان لاتساعه ولوقوعه على طريق بغداد وكان نهر الإسحاقى (على اسم المعتصم) يغمر المنطقة بالماء فيتوفر المرعى للخيول وكانت الثكنات تسع لربع مليون جندي وأما الاصطبلات فتقدر خيولها بحوالي ١٦٠ ألف حصان.

وكان في المدينة ثلاثة شوارع رئيسة تخرقها من الجنوب إلى الشمال واحد على دجلة يدعى شارع الخليج وعليه هناك الفرض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وسائر السواد، ويوازي شارع الخليج شارع السريجة أو الشارع الأعظم والثالث يوازيهما ويسمى بشارع أبي أحمد (أخي المعتصم). وفي الشارع الأعظم الذي يبلغ عرضه ٢٠٠ ذراع قطائع الخراسانية وديوان الخراج الأعظم وسوق الرقيق في أربعة طرق متشعبة فيها الحجر والغرف والخوانيت للرقيق، ومجلس الشرطة والحبس الكبير وقصر اللؤلؤة ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل وكل تجارة فيها منفردة وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم. وفي هذا الشارع الجامع القديم الذي لم يزل يجمع فيه حتى رأى المتوكل ضيقه الشديد بالناس فهدمه وبني مسجداً بأبعاد واسعة جدا على شكل مستطيل (٢٤٠ × ١٦٠) مترا مع بعض القصر في أحد الطولين وفي حرم الصلاة وعلى جانبي الجامع بواباته الكبيرة. ولكي تكون فكرة عن ضخامته نشير إلى أن صحته الداخلي يبلغ ٤٤ ألف م^٢ في حين أن ساحة القديس بطرس بروما لا تزيد على ١٥ ألفا. وفي هذا دلالة كافية لا على عظمة المسجد فقط ولكن على كثرة سكان سامراء في ذلك الوقت. ولم يبق من هذا المسجد الجامع سلبا بارزا سوى المنارة العلوية وهي مبنية في خارجه، أما الجامع نفسه فلم يبق منه إلا سوره الخارجي من أبراج التهوية وجذور الأساطين من الأجر، والسور غليظ العمارة (٢,٦٥ مترا) في السمك و١٠ أمتار في الارتفاع. فهو مع الأسواق في جانب ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل والباعة. وعلى مسافة منه في الشارع الأعظم دار

العامه وهي مقر الخليفة يجلس فيها يومي الاثنين والخميس وبالقرب منها خزائن الخاصة والعامه . وثمة لسكنى الخليفة قصر آخر يعرف بالجوسق الخاقاني . وهو عدة قصور في واحد ويبلغ طوله في محوره الابعد ١٤٠٠ م . وفيه عدد من الباحات تحيط بها الغرف وفيه اكتشف هرتزفيلد الاثري الصور الحائطية في صالات الاجتماع وبخاصة صورة الراقصين مع مناظر اخرى من الحياة العامة .

أما المسجد الجامع للمدينة (وهو المسجد القديم) فهو بعيد عن قصر الامارة نحو الجنوب وهو مشهور بمنارته الملوية التي قد تقلد الزاقورات القديمة فيما بين النهرين ولكنها نموذج لم بين مثله من قبل ولا من بعد إلا في جامع ابن طولون المعاصر له في مصر . وهو على برج عال جداً يصعد إليه في طريق حلزوني خارجي يتسع لعدد من الخيالة يصعدون إلى القمة . ويقاطع الشوارع الطولانية شوارع عرضانية تبدأ من دجلة وتمتد عبر القطائع إلى شرق المدينة . وحين فرغ المعتصم من الخطط والأبنية في سامراء شرقي دجلة عقد جسراً إلى الجانب الغربي من دجلة فأنشاء هناك العمارات والبساتين والأجنة وحفر الأنهار وصير كل قائد عمارة ناحية من النواحي وحمل النخيل من بغداد والبصرة وسائر السواد وحملت الفروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان . ومع ذلك فيبدو أن الناس لم يكونوا واثقين من مصير المدينة أول الأمر فقد ظلوا يدعونها العسكر ولم يغلب اسم سامراء إلا حين جاء الواصل بعد المعتصم فبنى قصره على دجلة وهو المعروف بالهاروني ولكن القفزة العمارنية الكبرى في سامراء إنما كانت زمن المتوكل الذي أراد أن يبني له مدينة خاصة به بدوره ، فبدأت سامراء مرحلة جديدة من العمران يمكن أن تدعى بحق مرحلة المتوكل . وقد أدرك الأقدمون ذلك كما أدركه المتوكل فسموا القصور والأمكنة التي بناها بالماحوزة ثم بالمتوكلية

وقال بعد أن بناها: الآن علمت أني في ملك إذ بنيت لنفسي مدينة
سكنتها»^(١).

وحين عزم المتوكل - كما قال - على بناء مدينة ينتقل إليها ويكون له بها
الذكر أمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين أن يختاروا
موضعا فوق اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة وقيل له أن المعتصم قد
كان على أن يبنيها هنا مدينة ويحفر نهراً كان في الدهر القديم فاعتزم على
ذلك وأبتدأ النظر فيه سنة ٢٤٥.

كانت الماحوزة على ثلاثة فراسخ من شمال سامراء «فاختط المتوكل فيها
مواقع قصوره ومنازله وأقطع ولاية عهوده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده
والناس كافة، ومد الشارع الأعظم من الكرخ إلى الشمال ثلاث فراسخ إلى
قصوره وجعل دون هذه القصور ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها
الفارس برمحه وأقطع الناس يمناً الشارع الأعظم ويسرته وجعل عرضه مائتي
ذراع وقدر أن يبني في جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير
الذي يحفره. وبنيت القصور وشيدت الدور وارتفع البناء. وكان يدور بنفسه
فمن رآه قد جد في البناء أجازة واعطاه فجد الناس، وسمى المتوكل هذه
المدينة بالجعفرية على اسمه واتصل البناء من الجعفرية إلى الكرخ وسامراء
ليس بين شيء من ذلك فضاء أو فرج ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار
ذلك سبعة فراسخ (١٩ كم)، وارتفع البناء في مقدار سنة وجعلت الأسواق
في موضع معتزل وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً وبني المسجد الجامع
وانتقل المتوكل إلى قصور هذه المدينة أول سنة ٢٤٧ ووزع الجوائز السنوية على
كل من تولى عملاً في المدينة الجديدة ونقلت الدواوين: ديوان الخراج

(١) البقوي ص ٢٦٧.

والضياع والزمام والجند والشاكرين والموالي والقلمان والبريد وجميع
الدواوين^(١) إلى المتوكلية . .

كان هذا يعني أن المتوكل عاد إلى فكرة (المدينة الملكية) الخاصة به وقد
منح هذه المدينة ما لم يمنحه خليفة قبله من العناية والإنفاق السخي ولم يبن
أحد في مدينة ما بناه المتوكل فيها من القصور ضمن ذلك : القصر المعروف
بالعروس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم، والقصر المختار (٥ ملايين)
والوحيد (مليونين)، والجعفري المحدث (١٠ ملايين) والغريب (١٠
ملايين) والشعيران (١٠) والبرج (١٠) والصبيح (٥) والمليح (٥) وقصر
بستان الايتاخية (١٠) والتل علوه وسفله (٥) والجوسق (٢/١) وبركوان
(٢٠) والقلائد (١/٢٥) وجعل فيه المتوكلية ابنة أخرى كلفته (٢,٥ مليون
درهم) هذا عدا حير الوحوش (حديقة الحيوان) وعدا البركة الكبرى بركة
البحري المشهورة .

وبنى في هذه المدينة الجامع المشهور بجامع أبي دلف قرب قصره
الجعفري (أي أنه عاد إلى فكرة تجاور المسجد ودار الإمارة) ولكنه أبى
الأسواق بعيدة عنها. والجامع الجديد أقل سعة من جامع سامراء ولكنه بني
على نموذج ومثاله سواء في منارته الملوية أو صحنه الواسع. وقد بني بين
سنتي/ ٨٦١ - ٨٦٣ وكان مستطيل الشكل (٢١٥ × ١٤٠ م) بني بالأجر.
وتعتمد المنطقة المغطاة من سقفه على أساطين مربعة. ولكن الصلاة الجامعة
لم تقم في هذا الجامع لأن المتوكل قتل وشيكا، وهجر الناس المتوكليه
وجامعها إلى سامراء بأمر الخليفة الجديد محمد المنتصر «فانتقلوا وحملوا أنقض
المنازل إلى سامراء وضربت قصور الجعفري ومنازله وأسواقه في أسرع مدة
وصار الموضع موحشا لا أنيس فيه ولا ساكن . . كأنها لم تعمر ولم تسكن . .»

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٦ - ٢٦٧

بعد سنوات من هجر المتوكلية وعودة الناس إلى سامراء كان ابراهيم الثاني سابع أمراء بني الأغلب سنة ٢٦٣/ ٨٧٦ بيني مدينة رقادة . وكان بنو الأغلب قبلها يسكنون العباسية التي هي أقرب إلى القيروان . أما رقادة فعلى ستة أميال منها إلى الجنوب . وقد استقر ابراهيم فيها في العام نفسه الذي بدأ فيه بناؤها فظلت عاصمة الأغالبة ومقرهم حتى آخر أمير منهم وهو زيادة الله الثالث . ويبدو أن ابراهيم بنى فيها أولا قصره ثم بنا الجامع والأسواق على التقليد الإسلامي ثم بنيت فيها القصور الكثيرة : قصر الفتح ، قصر البحر قصر الصحن ، قصر المختار ، قصر بغداد . وبنيت فيها الحمامات والفنادق والأسواق مع الأيام . ولكننا نجهل كيفية إقطاعها لمن بنوا فيها أو خططها الأولى وتنظيم هذه الخطط ويبدو أنها بدأت مدينة ملكية ثم تحولت مع الأيام إلى مدينة عامة .

وكل ما نعلمه بعد ذلك أن محيط المدينة على ما ذكروا يبلغ ١٤ ألف ذراع (أكثر من ستة أميال) على حين يقدره البكري بأقل من ذلك أي بحوالي أربعة أميال .

ومثل ذلك الموقف الغامض نجده في المهديّة التي بناها المهدي الفاطمي على بعد ٦٠ ميلا جنوبي القيروان بعد قرابة ستين سنة من إنهار المتوكلية وقرابة الثلاثين من هجر سامراء نفسها . فقد بنيت مدينة ملكية فقط سنة ٣٠٣ وقد وفق المهدي بين هدفها منها وبين حركة المرافق والصناعة والتجارة فبعد أن بنى قصره وجامعة بنى حول ذلك لكل طائفة من المهن سوقا خاصة بها . فنواة المدينة الإسلامية موجودة فيها لكن المهدي كره - على ما يظهر - أن يسكن الناس معه فيها فابتنى على بعد قريب منها مدينة أخرى سميت زويلة على اسم أحد قبائل البربر من أنصاره - وجعلها لسكن الناس الذين يعملون في المهديّة من أرباب الدكاكين والبيزازين واعتبر ذلك من

الحذر الشديد وقال حين انتهت المهديّة سنة ٣٠٥ «اليوم أمنت على الفاطميات» أما حين انتهى من زويلة فقد كشف أيضا عن تخوفه من الشعب وقال (إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم فأموالهم عندي وأهاليهم هناك . فإن أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي وأن أرادوني بكيد وهم في المهديّة خافوا على حرمهم هناك ولم يكن مضي على قيام الدولة الفاطمية في أفريقية سوى ست سنوات . على أننا أيضا لا ندري كيفية تخطيط المدينتين ولا توزيع الخطط فيهما . ولا شكلهما العام ويجب أن نتظر قرنا آخر لنرى الفكر المدني الفاطمي ممثلا في القاهرة .

بنيت القاهرة بخاصة لتكون مدينة ملكية وظلت كذلك حتى انقضى العهد الفاطمي كله وانقضى معه شطر حسن من العهد الأيوبي . فلم تفتح لسكنى الناس إلا أيام صلاح الدين ثم العادل الأيوبي الذي نقل سكناه إلى القلعة (قلعة صلاح الدين) المشرفة على القاهرة ومصر .

بدأ جعفر الصقلي بناء القاهرة مسرعا فيه خيفة أن يداهمه القرامطة من الشام سنة ٤٥٨ . ويقول المقرئزي أن المصريين حين جاؤا لتنهته صبيحة وصوله حيث نزل وجدوه قد حفر أساس القصر في الليل^(١) . ويبدو أن القاهرة إنما بنيت لتكون معقلا للجند الفاطمي الذي نزل مصر أول الأمر ثم بدا لجوهر بعد أشهر (أي جمادى الآخرة سنة ٣٥٩) فرأى أن يجعل هذا المعسكر حصنا ضد القرامطة ومنزلا للخلفاء بعد أن استقر رأى المعز ، الخليفة الفاطمي أن ينتقل من أفريقية إلى مصر . وهكذا أدار السور من اللبن حول الموقع الذي أناخ فيه عسكره في حين كان يبني قصر الخليفة في الوسط وهو الذي عرف بالقصر الشرقي الكبير، وأقام من خلفه إلى الشرق ميدانا واسعا في حين كان في غربه بستان واسع معروف ببستان كافور . وكان

(١) المقرئزي خطط ج ١ ص ٣٦١ .

للقصر خمسة أبواب باب الذهب، وتعلوه منظره الخليفة، وباب البحر، وباب الريح، وباب الزمرد، وباب العيد، ويجواره دار الضيافة المسماة بدار سعيد السعداء. ويجانب القصر من الجنوب أقام جامعاً متصلاً بالقصر هو المعروف بالجامع الأزهر. أو جامع القاهرة وأمام القصر رحبة واسعة لاستعراض الجند عرفت برحبة العيد تتسع لعشرة آلاف من الجند. كان هذا هو الموكب العمراني الذي أقيم في القاهرة وكانت تنقصه الأسواق لأنه لم يكن المقصود من المدينة الناحية الإقتصادية. وطلب إلى جنده أن يبنوا جنوبي القصر من الخطط التي خصصها لهم ولما كان جيشه مكوناً من مجموعات بربرية متعددة مع بعض الأجناس الأخرى فقد نزل إلى جنوبي القصر الديلم ثم الأتراك ثم الروم في حين نزلت زويله تجاههم إلى الغرب، وكتامة وراءهم والبرقية أهل بركة إلى شرقي القصر. أما المصامدة فنزلوا خارج القاهرة من الجنوب. كما نزل بعض الروم في المدينة على بابها الشمالي وسكن الأمراء جنوبي بستان كافور يليهم الجؤاذرية أصحاب جؤذر وبني الجميع منازلهم. وقد أقام جعفر السور حول ذلك كله على شكل مستطيل ضلعه الشرقي ١٢٠٠ متر وعرضه حوالي نصف ذلك بمساحة تقدر بحوالي ٣٤٠ فداناً (الفدان ٢٤٢٠٠ م^٢) يشغل القصر الخلافي وحده منها سبعين فداناً وتشغل حديقة كافور خمسة وثلاثين والرحبة خمسة وثلاثين والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى العسكر^(١).

بني السور أولاً من حجر كبير الحجم^(٢) وكان به ثلاثة أبواب باب زويلة من الجنوب وهو باب مزدوج، وباب النصر، وباب الفتوح من الشمال. وكان الشارع الأساسي في المدينة يخترقها من الشمال عند باب

(١) علي مبارك - الخطط التوفيقية ج ١ ص ٤ - ٢٢.

(٢) شاهد المقرئزي بقاياها سنة ٨٠٢ وقد جدد حين تهدم فجعل أيام صلاح الدين وعلى يد فائده قره قوش من حجر الغرانيت الكبير الحجم.

الفتوح ويعبر الرحبة الكبرى حتى باب زويلة ثم يستمر حتى الفسطاط حيث يسكن الأهليون وتقوم الحركة التجارية .

سمى جوهر هذه المدينة بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز فلما وردها المعز أواخر سنة ٣٦٢ غير اسمها إلى القاهرة (قاهرة اعدائه العباسيين)^(١) وكانت له ملاحظة على البناء إذ إن جوهر ابتعد به عن النيل والمرقأ المعروف بالمقس عليه غربي القاهرة فقال المعز : جوهر! فاتتك عمارتها هاهنا ويريد عند المقس!

وقد جاء العزيز بالله بعد ذلك فأقام القصر الغربي في غرب الرحبة الكبرى وكان أصغر من الأول . ولكي نعرف سعة هذه القصور وارتفاعها يكفي أن نذكر أن ناصري خسرو قال أنها ترى من خارج القاهرة كالجبل الكبير وقال أن بالقصر الخلافي ٣٠ ألف جارية و١٢ بهوا وكان حراسه ألف حارس منهم ٥٠٠ فارس . ووصفه المقرئزي فقال انه كان به عشرة آلاف من الأشراف و٨ آلاف من الخدم . وقد جدد أيام الخليفة الأمر (سنة ٥١٢) . وكان في هذا القصر سكن الخليفة وأهله وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة ، وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وبجواره خزانة البنود (وهي السجن) . وجعل جوهر لهذه المدينة أهراء عند مدخلها الشمالي على عادة الحصون خوف الحصار .

ولم يختلف المركب المدني في أقصى المغرب عنه في المشرق فإن فاس التي أسسها ادريس بن عبدالله سنة ١٧٢ لم تكن أكثر من بلدة صغيرة ذات

(١) ثمة أسطورة تتعلق بالإسم خلاصتها أن المنجمين اختاروا موعدا للبناء ونصبوا حبالا عليها أجراس لتحريكها حين يمين الموعد لكن بعض الغربان وقعت على الحبال فلما طارت تحركت الأجراس وبدأ البناء فأسقط في يد المنجمين وقالوا أن في طالع المدينة قاهرا فسميت القاهرة ولم تأخذ بذلك .

طابع بربري ولم تزدها فاس الأخرى المقابلة لها والتي أسسها ابنه إدريس بن إدريس سنة ١٩٢ إلا زيادة في هذا الطابع ، ومع ذلك فقد تأسس في الأولى جامع الأشياخ (أي شيوخ البربر) وتوقف الانتقال إليها بعد ذلك قرابة ثمانى عشرة سنة بسبب وفاته . وحين كبر ولده إدريس وكان في مدينة وليلى خرج يتابع عمل أبيه . وكان الماء هو الذي أبعدته عن وليلى بقلته وهو الذي حسن في عينيه موقعا يقابل بلدة أبيه على الطرف الأخر من الوادي كثير المياه بحيث كانت تجري بعد ذلك في كل شارع ومنزل وهناك أعاد تأسيس المدينة التي عرفت بالقرويين في حين أن مؤسسها سماها بالعالية وأقام فيها في الوسط جامعا عرف بجامع الشرفا وقيسارية^(١) وأسواقا للتجارة ولاشك أنه بنى لنفسه قصرا فاكمل المركب المدني للعالية . ولنا ندري بالضبط كيف كان



(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٩ - ٢٠ .

توزيع الخطط التي شملت الحاشية والخاصة التي يبدو أنها نمت سريعا وعمرت بالبناء وكان جل الوافدين إلى المدينة الجديدة من العرب من أهل القيروان والأندلس . وأمرهم إدريس بزيادة البناء والغرس فأسسوا الدور والمساجد والحوانيت واطلق على هذا الجانب اسم عدوة القرويين . أما العدو الأخرى فقد بقيت للبربر وسكنها فرسان الأمير وعسكره وقواده منهم . ونمت الأولى نموا حسنا بسبب قدوم أفواج الربضيين إليها سنة ٢٠٢ (وهم الذين قاموا بثورة الربض على الأمير الحكيم الربضي في شقندة حول قرطبة) وأنزلهم إدريس في المدينة وكانت إذ ذاك أشبه بالقرية في البيوت المتواضعة المبنية باللبن والمسقوفة بزروع الأشجار فما لبثوا أن غيروا طابعها فصارت مدينة كاملة . وكان شكل مدينتي فاس على أي حال مستديرا وأقرب إلى الشكل البيضاوي غير المنتظم تماما . فلما كانت أيام المرابطين دخل يوسف بن تاشفين المدينة سنة ٤٦٢ وأمر بهدم الأسوار بين قسميها الشرقي والغربي (عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين) «وردتهما مصرا واحدا وأمر بينيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها . وأي زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجهزهم على بناء مسجد فيه . . . » ولما وحد الأسوار أصبح جامع القرويين الجامع الرئيسي بفاس ولذلك حظي في عهد ابنه علي بن يوسف بزيادة كبيرة تتفق مع تكاثر سكان المدينة المزدوجة . في حين ترك جامع الأندلس على حاله .

وجامع القرويين أعظم آثار المرابطين على الإطلاق ومن أعظم الجوامع في المغرب وأشهرها بإعتباره أيضا جامعة إسلامية تفرن بالأزهر في القاهرة . وقد كان النموذج الذي اتبع في بناء الجوامع في المغرب وقد كتب عنه بالتفصيل ابن أبي زرع في روض القرطاس والجزنائي في زهر الأس . بديء بناء هذا الجامع من قبل ابتين لبعض المحسنين سنة ٢٤٥ في حقل واستخرجت مواد بنائه من أرضه وكان يتألف من قسمين : حرم للصلاة

بطول حوالي / ١٥٠ / شبرا (أو ٣٠ مترا) وصحن للجامع ومئذنة غير مرتفعة . وظل المسجد على ذلك طول عهد الادارة . فلما استلم الزناتيون (بنوزيري) الحكم زادوا في الجامع زيادة كبيرة بسبب ضيق جامع الشرفاء عن استيعاب السكان كما زادوا في الصحن وأقيمت له مئذنة مربعة طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار وارتفاعها أمثال ذلك (بدأ الأمير أحمد في بنائها سنة ٣٤٤ و فرغ منها سنة ٣٤٥ وهي تشبه مآذن الأندلس . وفيما بين سنتي ٥٢٨ - ٥٣٨ أعيد توسيع المسجد وتزيينه بقبة مذهبة ومحراب منقوش) .

واهتم بنو مرين بفاس اهتماما خاصا وأراد المنصور أبي يوسف يعقوب ابن عبدالحق المريني بعد أن استقر ملكه أن يخطط بلدا ينسب إليه ويتخذها مقرا للملكة وسكنا لحاشيته وأولياؤه فخرج إلى ظاهر فاس (في شوال سنة ٦٧٤) ومعه العرفاء والبنائون أهل المعرفة بالصنائع فتخبروا موقعها على وادي فاس من أعلاه إلى الجنوب الشرقي من المدينة، وشرع لوقته في حفر أساساتها واختطاط القصور والمنازل فيها وبني فيها قصره ونزلها في السنة نفسها بعد أن أجرى الماء إلى القصور وأقام القناطر . ثم أتم بناء الجامع الكبير سنة ٦٧٦ على يد المهندس أبي عبدالله بن عبدالكريم الحدودي ، وأبى علي ابن الأزرق والي مكناسة . واشتغل في البناء أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس (الجلالقة) . وفي سنة ٦٧٩ أقام بمدينته الأسواق على طول المدينة . وبني بها حماما عظيما وقصورا لوزرائه . . . وعمرت المدينة تدريجيا بالمدارس والفنادق^(١) وهكذا اكتمل في البيضاء المركب العمراني المركزي من ثلوث الجامع والقصر والأسواق خلال خمس سنوات . ولكنها كانت مدينة ملكية ونعني خاصة بالأمير الحاكم انتقل إليها بأعماله ودواوينه تاركا فاس

(١) انظر كتاب الذخيرة السنية ص ٩٩ و ص ١٨٦ - ١٨٧ وكتاب السلاوي : الاستفصاح ٣ ص ٤٤ وابن الأحمر : روضة النسرین ص ٢٠ (تحقيق عبد الوهاب منصور الرباط ١٩٦٢) .

القديمة . وقد امتدح البيضاى ابن أبى زرع والخصيب فأطنبا في أوصافها^(١) .

وكانت بدايات مراكش متواضعة فبعد أن اشترى يوسف بن تاشفين أرضها سكن الموضع بخيام من الشعر وأسس مسجدا للصلاة وبني قسبة صغيرة لخرن أمواله وسلاحه ولعلها القصر المعروف بقصر الحجر . وحين شرع في بناء المسجد كان يحنزم ويعمل في الطين والبناء بنفسه مع الفعلة تواضعا منه وتورعا . وقد بناها له ولبنى عمه ولعسكره بالطين والطوب والطوابى ثم استخرج لها المياه من آبار ينفذ بعضها إلى بعض . عمق البئر قامتان . وصار فيها قصور كثيرة لجملة من القواد والأمراء وخدام الدولة . على أننا لا نعلم كيف جرى توزيع خططها .

كانت مراكش دار إمارة لتونة وقاعدة ملكهم فلما ملكها عبد المؤمن بن علي وانقضت دولة بني تاشفين ترك جامعها معظلا مغلق الأبواب لا صلاة فيه وبني لنفسه جامعاً آخر . وكان علي بن يوسف قد جلب الماء من عين بينها وبين المدينة أميال فلم يستقم ذلك فجلب عبد المؤمن ذلك الماء إلى داخل المدينة وصنع منه سقايات بقرب دار الحجر ثم أجرى حفيده منها ساقية ظاهرة يخرج ماؤها من قصره فيشق البلد من القبلة إلى الجوف .

ودار الحجر كانت الحظيرة التي فيها القصر منفردا متحيزا بذاته . والمدينة خارج هذا القصر في الشمال منه . وهذا يعني أن الثالوث المدني في مراكش قد توزع . فإذا كانت الأسواق على الأرجح حوالي المسجد الجامع فإن دار الإمارة كانت بسبب الحذر خارج المدينة قائمة وحدها ، كأنها حصن والمدينة أمامها على شكل مربع طوله أشف من ميل وعرضه قريب من ذلك .

(١) الحلل الوشبة ص ١١ (ط . تونس ١٣٢٩) .

٤ - الحزام الغذائي :

يقول ابن زرع خلال وصفه لمدينة فاس : «أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري والمحرق الطيب والمحطب القريب والسور الحصين . والسلطان إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبايرتها . وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها^(١) . . . » ويعني ابن زرع في الأشياء الثلاثة الأولى قضية الحزام الغذائي الذي يجب أن يتوافر للمدينة . ولا نكاد نجد مدينة لم يحاول بنائها أن تكون ضمن منطقة قابلة للإستثمار الزراعي . حتى المدن التي اختيرت لموقعها الإستراتيجي لها مع الأيام أرباض كالبصرة . أو اختيرت لموقعها الطبيعي كالمهدية أو بجاية كان الامكان الغذائي قريبا منها وجلب إليها . وبالمقابل فندر أن وصف الجغرافيون بلدا وأهملوا أن يصفوا ما حوّلها من أرباض وبساتين وفواكه معتبرين ذلك نوعا من التتمة لصفات المدينة .

ففي المشرق : لم تكن البصرة أكثر من بادية على كتف السواد ولكن غناها التجاري سمح لها بالتوسع حتى صارت كلها بساتين متصلة كأنها بستان واحد وأبنية ورياحين . والكوفة كثيرة الخيرات جامعة رفقة في موضع يجلب فيه إليها كل ما تحتاج وفي ظاهرها منازل الحيرة والنجف والخورتق والسدير والغريان وما هنالك من المتنزهات والديرة الكبيرة . وبغداد كان أول ما لفت نظر المنصور في موضعها أنها في موضع تجلب إليه الميرة والأمتعة في البر والبحر من كل جانب في حين أنه رفض موضعا قبلها قريبا من بارما لأنه لا مرفق فيه للرعية «وهكذا بنيت بغداد في ما يشبه الجزيرة بين مائي دجلة والفرات وفروعها وفي منطقة خضراء كلها زرع وشجر ونبات . ووصفت

(١) ابن أبي زرع . في نص اورده ليفي بروقنال في كتاب Exraisdes Historans Arabes (ص

واسط مدينة الحجاج بأنها ذات رساتيق وقرى كثيرة وبساتين ونخل يفوق الحصر». وسامراء صارت جنة بما أنفق عليها من أجل الزرع والغراس والنبات. والرملة أبار عذبة خفيفة الماء قرية واسعة الفواكه بين رساتيق جليلة. والجيزة بليدة لها كورة كبيرة واسعة. ومثلها القسطاط (والقاهرة) كانت عند ملتقى كل خيرات وادي النيل بخيرات الدلتا المصرية. وحلوان القريبة منها زرعت بساتين وغرسا وكروما ونخلا. وجناباذ قرب يسابور تقوم حولها الضياع والرساتيق وخلم قرب بلخ وفيها القرى والبساتين والرساتيق والشعاب والزررع الكثيرة. والرافقة بنيت على نهر الفرات ولها ربض واسع. والري لها قرى كبار ورساتيق غنية. وشيراز كثيرة الخيرات تجرى وسطها القنوات. ومرعش ولو إنها ثغر إلا إن بها ربضا ومزارع. والموصل لها ولاية ورساتيق وخراج ضخم وكل ما عدم شيء من الخيرات في بلد من البلدان إلا وجد فيها رغم قلة بساتينها بهذا عدا آلاف القرى والدساكر وكلها تقوم على الزراعة.

وأما في المغرب خاصة والأندلس يبدو أن العصر الإسلامي كان قفزة كبيرة بها من عصر الشجر الملتف والشعراء والداغل إلى عصر المدن والزراعة على مثال ماجرى فيه في العصر الروماني قبل ذلك والمدن التي أنشأها المسلمون في المغرب والأندلس جعلوا الكثرة الكاثرة فيها في مناطق زراعية أو قابلة للزراعة الواسعة وللاحتطاب. ومن ذلك :

آجر سيف عند تلمسان ولها البساتين الكثيرة وتقوم على نهر ملوية فهو رفدها المائي. وأرشقول قرية فيها وأرباضها في قبيلتها لأن طرفها الآخر على البحر. وأشير الكثيرة العيون الواسعة الفضاء. والأقلام ذات المياه الكثيرة والمبنية وسط شعراء وجبال شامخة وأرض خصبة وبجانة التي تقوم حولها الأرباض الكثيرة يخترقها جدولان يشقان البساتين والأرباض من الشمال إلى الجنوب. وبجاية ذات البوادي والمزارع والحنطة والشعير وسائر الفواكة

وبطليموس التي كان لها ربض أكبر من المدينة وبيانة المبنية على ربوة تكتنفها أشجار وأنهار. وتاهرت التي كان غيضة أشبه فصارت «بلخ» المغرب قد أحدقت بها الأنهار والتفت الأشجار وغابت في البساتين. ونامدلت في بلاد السوس بلد البساتين المتصلة. وتوزر الكثيرة النخل والبساتين وبلد التمر. وتونس بلد البساتين الكثيرة. وجرادة مكناسة التي كانت تقوم من جميع جهاتها الأرباض والعيون المتفجرة والآبار العذبة. والحجر ولو أنها على جبل عظيم شامخ إلا إن لها البساتين والماء والخصب الرفه والخير. ودانية ذات الرساتيق الواسعة والتين والعنب واللوز والربض العامر. والخضراء المدينة ذات الزروع والفواكة والسفرجل المعتق والنواحي الخصبة. والكور الكثيرة. ورسافة قرطبة وكلها أرباض عامرة. ورقادة عاصمة الأغالبة وأكثرها بساتين ومن حولها الأرباض ورباط الفتح التي بنيت في فسحة من الأرض تنصب عليها المياه من الجبال وتسقي بساتينها وزرعها الكثير والفاكهة. وسجلاسة برستاقها الكثير التمور والأعناب والحبوب والفواكة. وطنجة التي كانت أكثر أموالها من الزرع والحنطة والشعير والحبوب والخصبة الكثير. وفاس التي تتفجر كلها عيوناً تسيل إلى قرارة الوادي الذي يشق المدينة وينبت فيها الخيرات الكثيرة والتين والزيتون وأنواع التمر وأرضها كثيرة الخصب والرجاء كثيرة البساتين والمزروعات ولها أنظار واسعة. وغرناطة التي لا تعلم شجرة تستعمل وتستغل إلا بها وما من فاكهة توصف وتستطرف إلا وما هناك يفوقها. وقلاع حسان وأبي طويل وأيوب وحماد ورباح ويحصب كلها مدن لها الرساتيق ذات الغلة والشجرة المثمر كالتين والعنب في جبالها وإن لم يكن بالكثير. والقيروان التي جمعت أضداد الفواكة من السهل والجبل والبحر والنعم مع الزيتون والحبوب ولاردة ذات الفحص العريض والبساتين الكثيرة والفواكة العزيرة والضياع الكثيرة والمزارع والمراعي ومراكش في بساتينها التي يبلغ الواحد منها ثلاثة فراسخ وجنائها

ذات البساتين والأعناب والفواكة والزيتون ومكناسة التي كانت أربع مدن في واحدة وقرى كثيرة متصلة بها وبقاع مملوءة بفيضات الثمار والزيتون والكرمة والغنية والتربة والأرض . والمسيلة الكثيرة النخل والبساتين في مائها الكثير المنبسط ومزارعها للقطن والقمح ونقراة الكثيرة النخل والثمار والعيون العديدة . ووهران ذات المائح السانح بالأنهار والبساتين الكثيرة والثمار والحبات والفواكة الممكنة فأهلها في الخصب والعسل والزبد الرخيص . . .

٦ - العقد التجارية

وهي ليست أقل شأنًا من العناصر الخمسة المحددة قبلها فالموقع التجاري لعب دوره العام في تواريخ المدن الإسلامية كما في البصرة ومراسي المغرب ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى هذا العامل الهام ونبحثه فيما بعد في الحياة الإقتصادية .

٢ - تحوير المدن القديمة

دخل الإسلام فاتحاً عالم شرب من الحضارات حتى ارتوى ما بين حوض البحر المتوسط إلى الهند وكانت فيه مئات من المدن القديمة ذات التاريخ الطويل والمكانة والخصائص والثقافة . ولم يخطر ببال المسلمين أبداً إزالتها فلم يكونوا كالمغول همهم التخريب ولكن متابعة ركب الحضارة . ولهذا نزلوا المدن القديمة التي وجدوها وتعاملوا مع أهلها رغم الفارق الديني واللغوي وتبنوا حضاراتها وعماراتها وثقافتها وأن امكن ذلك كله ضمن منظورهم الإسلامي الجديد . واقتضى ذلك بالضرورة إدخال بعض التحويرات العمرانية على بناء المدينة نفسها بحيث يتلاءم مع المفاهيم التي أتى بها الإسلام . وهي مفاهيم لا تمس موقع المدينة المختارة ولا أبنيتها أو

قلاعها أو مياهها . لقد أبقوا حتى على الفلاحين في أراضيهم يزرعونها فكأن القضية الأساسية إنما كانت نزول شعب جديد ضمن الشعوب التي تسكن المنطقة الحضارية الممتدة من الأندلس إلى شمال الهند وأطراف تركستان . وإذا احتاج هذا الشعب إلى بناء مدن جديدة مرّ بنا شيء عنها فقد احتاج في الوقت نفسه ، باعتباره يحمل ديناً جديداً ولغة مختلفة إلى ادخال التحويلات التي يراها على مقرات تجمع السكان في المدن والقرى الكبيرة دون أن يجبر أحدا على اعتناق عقيدته الا برضاه التام وعلى اصطناع لغته العربية إلا إذا شاء . . .

على أن عقائد الإسلام لم تكن لتخالف تجارب البشر السابقين في اختيار موقع المدينة لا في ضرورة وجود الماء ولا توافر الغذاء فيها ولا في تحصينها . ولكن في إيجاد المؤسسات التي ترمز إلى هذه العقيدة وتخدمها وتؤيد الحكم الجديد في المدينة فتعطيه حقه من الصيانة وتريح السكان فتيسر لقاءهم بعضهم ببعض . وهكذا لم يتناول التحوير الذي طرأ على المدن القديمة إلا ثلاثة أمور:

- الجامع بحيث يكون في وسط المدينة على مسافة متقاربة من أطرافها ليسمع الأذان الجميع ولكي تتساوى مشقة الوصول إليه على الجميع .
- دار الامارة الذي لا بد أن يكون بجانبه رمزاً إلى أن العقيدة الجديدة هو دين ودنيا وأن على أمير المدينة أن يؤم صلاتها تماماً كما يقود أحكامها فهو الأمير للحكم والإمام للصلاة معا .
- الأسواق التي يجب أن يكون بجانب الجامع ودار الامارة لتكون متوسطة بين الناس وليسهل اجتماعهم بعضهم مع بعض والفصل في خصوماتهم وكانت معظم المدن القديمة تراعي هذا الشرط مما سهل على المسلمين تحوير هذه المدن ضمن إطار مفاهيمها في الأمرين الآخرين .

ومن المؤسف حقاً أن هذا التحوير الذي أصاب معظم المدن القديمة نتيجة لوجود الحكم الإسلامي في الدرجة الأولى ثم نتيجة لدخول الناس التدريجي في الإسلام لم يسجل وإن كنا واثقين من أنه وقع حتماً ومن أنه بدأ مع بدء الفتح وأخذ كامل قوته في العهد الأموي ثم صدر العصر العباسي . ذلك أن هذا التحوير لم يأت بشكل ثورة ولكن جاء ببطء وعلى مهل بقدر تشرب الناس المتمهل للعقيدة الجديدة لاسيما وأن أحداً من غير أهلها لم يجبر إجباراً عليها .

ومن جهة أخرى فإن المدن القديمة لم تحور بعد الفتح الإسلامي فحسب ولكن بعضها منح مع الأيام الكثير من الأبنية الإسلامية (من جوامع ومساجد ودور إمارة وبيمارستامات وحمامات ومدن ملكية وخانات وفنادق وقيساريات وأقنية ورحاب وأرحاء وخزائن وغيرها) ومن الأبنية الحربية (كالأسوار والقلاع والأبواب والأبراج والحصون) ومن الأبنية العامة والخاصة كالقصور والأسواق والمنازل والأحياء السكنية والرساتيق . صحيح أن بعضها كالمدائن ، رمز الحضارة الساسانية ، ظل متهدماً لم يحاول المسلمون إحياءه أو لم يأبهوا به كالحيرة التي خلت من أهلها بعد بناء الكوفة . وصحيح أن بعضها الآخر ظل يعيش على سمعته السابقة فلم يتطور أو يتسع كالرها وكانطاكية والاسكندرية وطرابلس الغرب وجند يسابور ودار بجردي في فارس ، ولكن المدن الأخرى وبخاصة في المشرق كهمذان ونيسابور وهراة وبخارى وغيرها تطورت التطور الواسع وصارت مدناً كبرى تساندت مع المدن الإسلامية الخالصة في حمل الحضارة الإسلامية والتعبير عنها واعطائها مداها .

ولم يتم هذا التحوير في المدن القديمة غب الفتح مباشرة ولا بعده بقليل ولكنه كان تدريجياً ولا يجري إلا حين تظهر الحاجة ويزداد ضغطها في المدن التي ينزلها المسلمون ويسكنون فيها . ولم يحدث أن مس المسلمون

عمران مدينة قديمة فتحوها ولم ينزلوها كانطاكية أو الرها مثلاً . ولما كان دخول غير المسلمين في الإسلام يجري على مهل وببطء فقد كانت الحاجة تظهر مع تكاثر المسلمين في هذه المدن إذ كان الناس يتحولون قبل تحول المباني . وكان أول هموم هذه الجماعة الجديدة المسلمة من السكان ، من عرب وغير عرب ، أن يجدوا المكان الملائم لإقامة بيت عبادتهم . وكان طبيعياً ألا ينزل الفاتحون من العرب أول الأمر إلا في الأمصار والمدن الكبيرة التي يديرون منها البلاد ولهذا كان البحث عن متسع للجامع في وسط المدينة خاصة يتماشى مع البحث عن دار إمارة للأمير الحاكم . وكانوا يجدون هذه الأماكن وفي أماكن متوسطة من المدن مع تناقص أعداد النصارى والزرادشتيين الذين ينقلبون إلى الإسلام . كانت معابدهم التي تفرغ تدريجياً تدفع إلى تحويلها إلى جوامع إسلامية في حين كان دار الإمارة سهل الإيجاد على الحاكمين منذ فتح المدينة .

ظهر هذا كله بصورة خاصة حيث تكاثف الناس بعد الفتح . وإذا كانت البصرة والكوفة والفسطاط ثم واسط وشيراز قد امتصت الهجرة البشرية العربية إلى العراق ومصر وفارس فإن العرب قد نزلوا في الشام على المدن التي فتحوها . أي على دمشق وحلب وحمص والقدس خاصة (وتحاشوا الإقامة في مدن الساحل مثل انطاكية ضمناً للسلامة من الهجمات البحرية البيزنطية) وظهرت الحاجة بسرعة لديهم إلى وجود الجامع ودار الإمارة في كل مدينة لاسيما بعد أن ازداد الضغط السكاني بانتقال مقر الخلافة إلى الشام فلم يكن مناص من تحويل مدن الشام بشكل واسع وسريع إلى مدن إسلامية وهكذا بدأت منذ عهد عبد الملك بن مروان عمليات التحول واستمرت بعد ذلك تتوالى حتى تعادلت الجماعة الإسلامية مع المجموعات الدينية الأخرى في عهد الرشيد والمأمون ثم تغلبت عليها في الأعداد بعد ذلك .

وكان تحويل مدينتي دمشق العاصمة ، والقدس ثالث الحرمين إلى

مدينتين إسلاميتين في الشام من أبرز أعمال الأمويين العمرانية وأخلدها وأهمها.

١ - وجه الأمويون اهتمامهم الأول إلى القدس، وكان عبد الملك بن مروان أبرز من أهتم بها بوصفها مدينة مقدسة ولأنها أولى القبلتين وثالث الحرمين اللذين كان عبدالله بن الزبير يحتلها في السنوات الأولى من عهد عبد الملك وقد أعاد بناء الكعبة التي تشعث حيطانها بالمجانيق سنة ٦٤ فهدمها وحفر أساسها ووسعها وأدخل الحجر في الكعبة وجعل لها بابين باب للدخول وآخر للخروج^(١).

ويذكرون أن عبد الملك استشار الرعية في بناء قبة الصخرة ولعله أراد أن يكتسب من قدسيته الإسلامية نوعاً من الشرعية لحكمه الذي ينازعه فيه بقوة كبيرة عبدالله بن الزبير وجاءته الكتب بتحبيذ الرأي فجمع الصناع لعمله سنة ٦٨٨ - ٦٩١ ورصد للعمارة مالا كثيراً يقولون أنه خراج مصر لسبع سنين. وكلف أبا المقدم رجاء بن حياة الكندي بالبناء بعد أن ضم إليه مولى من مواليه يدعى يزيد بن سلام، من أهل بيت المقدس. كان موضع الصخرة هضبة صغيرة مرتفعة في وسط المدينة تقريباً فكان أنسب مكان للبناء الإسلامي الضخم الذي قام فيه وهو قبة الصخرة. ويذكرون أنه وصف لمهندسيه ما اختاره من تكوين للبناء فبنيت له صورتها المصغرة أولاً (وهي قبة السلسلة اليوم) فأعجبه فأمر بالبناء على هيئتها. ويبدو أن عبد الملك رغم أنه كان يبني تذكراً لتضحية إبراهيم الخليل بابنه اسماعيل كانت في ذهنه صورة بعض الأبنية البيزنطية المشابهة والتي تقوم عليها القباب. ولكن قبة الصخرة فاقت في ضخامتها وفي ما سكب عليها من صفائح الذهب وفي مخططها الذي وضع على شكل ثماني، وفي سيفسائها

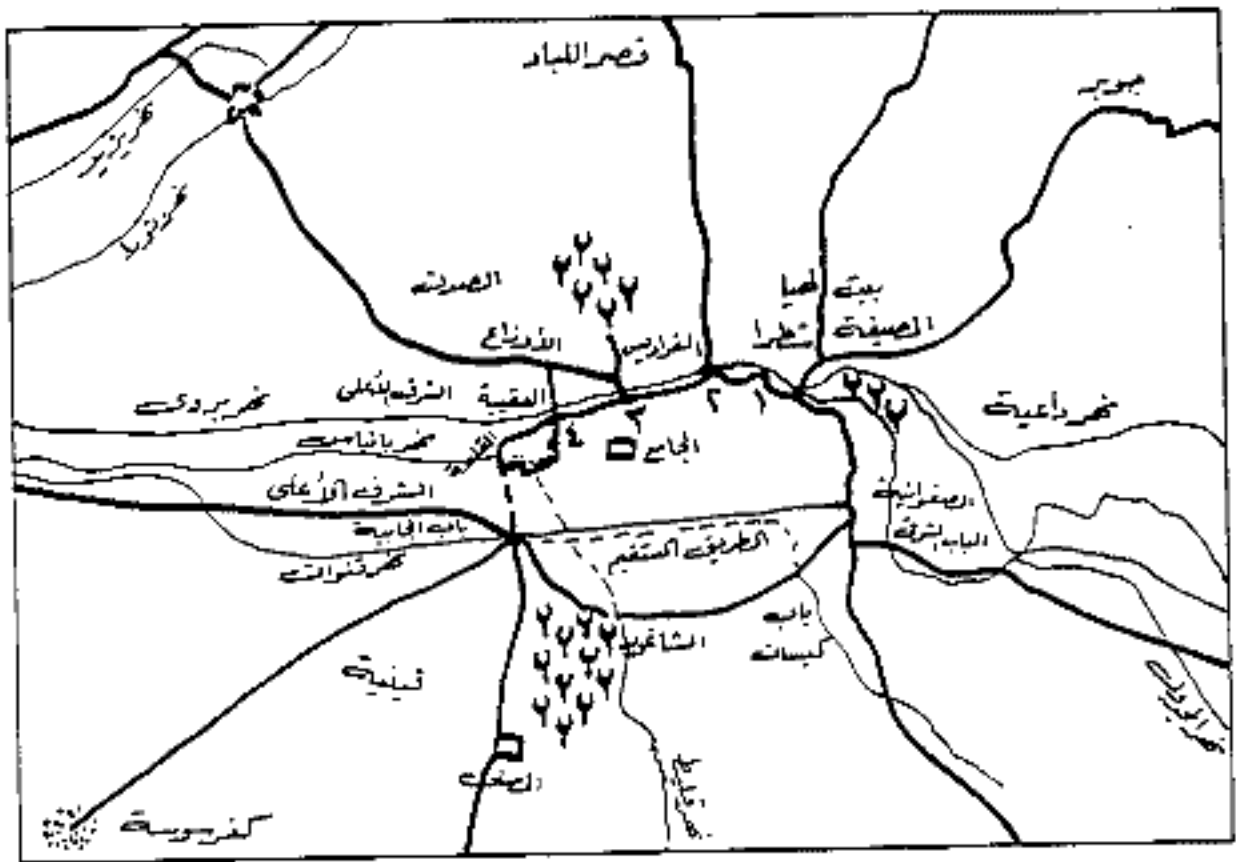
(١) مجبر الدين، الانس الجليل ط دار الجليل ١٩٧٣ ج ١ ص ٢٧٢.

وأراد عبدالملك بعد ذلك أن يتم إسلامية القدس ويستغل الفراغ الواسع أمام قبة الصخرة (لاسيما بعد تكاثر المسلمين) فشرع في بناء جامع المسجد الأقصى في أقصى قبليها تاركاً الساحة فارغة ما بين البناءين فكأنها صحن المسجد . وكان البناء الذي أقيم لا يزيد على أن يكون حرم الصلاة المسقوف بالخشب بأبواب عديدة مشرعة على الساحة في شماليه . وقد بدأ البناء زمن عبدالملك لكنه لم يتم إلا زمن ابنه الوليد دون شك فيما بين سنتي ٧٠٤ - ٧١٥ ، وبالرغم مما أصابه من التهديم في الفترة العباسية الأولى ومن الزلازل والتعديل والتوسعة فان مخططه العام لم يختلف كثيراً عن مخططه الأول الأموي . وكان عبدالملك قد خصص للبناءين جماعة من مماليكه للخدمة فظلوا متوارثينها عدة قرون .

٢ - تحوير مدينة دمشق : الذين فاوضوا خالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح حين حاصروا دمشق على تسليمها للمسلمين كانوا من سكانها الأصليين وعلى رأسهم الأسقف ، ومنصور بن سرجون المراقب العام للمالية فيها (وهو والد يوحنا الدمشقي) وفتح الباب الشرقي للفاتحين (١٤ ايلول / سبتمبر سنة ٦٣٥ م) وانسحبت الجيوش البيزنطية إلى الشمال ، ولكن جيش أبا عبيدة كان قد دخل المدينة من باب الجابية في الغرب ولذلك اعتبر المسلمون أن فتح دمشق تم نصفه سلمياً ونصفه حرباً . وحين خرج البيزنطيون خرج معهم أهلهم واتباعهم منها وأعطى المسلمون الأمان لسكان دمشق على بيوتهم وكنائسهم ، وقد عاود البيزنطيون استرداد دمشق قبل اليرموك ثم اضطروا لتركها بعدها مرة أخرى . ودخلها أبو عبيدة نهائياً في ذي القعدة سنة ١٥ هـ / ١٥ ديسمبر سنة ٦٣٦ م . وغادر الروم من سكانها منازلهم التي كانت تشغل القسم الغربي من المدينة والتحقوا بالجيش البيزنطي . ووجد العرب الفاتحون هذه المنازل فارغة فنزلوها . فلما جاء عهد معاوية لم يكن من الصعب عليه إيجاد مكان في وسط المدينة لبناء دار الإمارة

في مكان مقر الحاكم الرومي السابق فعرفت الدار بالخضراء وقد بنيت لصيقة بالحائط الجنوبي للكنيسة الكبرى بدمشق من جهة الشرق. ولم تكن الخضراء قصراً واحداً للسكن ولكن مع مجموعة من الأبنية الإدارية (كما جرى في القسطنطينية من قبل وفي بغداد من بعد) وبجانب القصر كانت دار الكبق (لتعليم الرماية) ودار الخيل وهي دار الضيافة (التي حولها العباسيون إلى سجن) . وجاء عهد يزيد (الذي كان مهندساً) فشق لسقاية أراضي الغوطة النهر المعروف باسمه ، فكان معجزة هندسية ما تزال قائمة في دمشق .

ثم جاء عبد الملك بن مروان وفي عهده أضحت دمشق المركز المدني للشام كله وعاصمة أكبر امبراطورية عرفها العالم حتى ذلك الحين . وعند ذلك ظهرت الحاجة الملحة إلى ادخال التغيير الإسلامي الأساسي على المدينة



- ١- باب توما ٢- باب السلام
٣- باب الفارابي ٤- باب الصريح

خريطة مدينة دمشق

بناء جامع كبير فيها يتناسب مع اتساع الامبراطورية من جهة ومع تدفق الخيرات والأموال على دمشق من جهة أخرى. ووجد عبدالملك نفسه مرغماً على مفاوضة أصحاب الكنيسة الكبرى فيها لشراؤها منهم ولكن المفاوضات فشلت. وجاء عهد الوليد فكان عليه أن يرغمهم على معاودة النظر في الأمر لاسيما وأن المصلى الصغير الذي كان قد أقيم لصيق الخسائط الجعفري للكنيسة من جهة الشرق لم يعد يكفي للمسلمين المتكاثرين ولا يتناسب مع عظمة الامبراطورية الواسعة.

كانت المشكلة صعبة الحل لأنه لم يكن في دمشق من رقعة ارض فارغة فإن التيمنوس (حرم الكنيسة Temenos) كان قد امتلأ بالمنازل ولم يبق الا ساحة الأغوار أمام الكنيسة والتي كان يقام فيها سوق يوم الأحد، القصة التي يذكرها ابن عساكر وابن جبير في القرن السادس عن اقتسام الكنيسة نصفين ثم أخذ المسلمين للنصف الآخر لا نجد لها اثر لدى الطبري أو اليعقوبي أو المسعودي أو البلاذري في القرنين الثالث والرابع، وهي ناجمة عن سوقهم للنص الذي يتكلم عن اقتسام الكنيسة المجاورة للمصلى الاسلامي في شرقي الجامع. والوليد انما اخذ الساحة المكشوفة الواسعة امامها وهي حرمها. وفأوضحهم على شراء الكنيسة نفسها وتعويضهم عنها عدة كنائس في غوطة دمشق، فلما أبوا قال: ان رأيتم اننا اخذنا كنيسة توما عنوة، وكنيسة الداخلة صلحاً فإننا نهدم كنيسة توما وكانت اكبر من الداخلة فرضوا بتسليم هذه وتعويضهم بعض كنائس الغوطة مع كنيسة توما التي لم تكن في الصلح وكان باب كنيسة ماريوحنا عند موضع محراب الجامع اليوم^(١) وابتدأ الخليفة الوليد الهدم وتعاقب من بعده الناس يتابعونه وقد

(١) ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق ج ٢ ص ١٩ (تحقيق المنجد - طبع المجمع العلمي العربي ١٩٥٤) وابن عساكر الذي يروي هذا هو الذي يروي قصة مقاسمة الكنيسة الشائعة وهو من وفيات سنة ٥٧٠ في حين لم يروها الطبري ولا البلاذري ولا المسعودي (من اواخر القرن ٣ ومطلع ٤).

هدم كل ما كان في داخل المعبد القديم وكانت الكنيسة الصغيرة (ماريوحنا) تحوي تابوت (النبي يحيى بن زكريا) فحفظه ولم يترك سوى الجدران الخارجية والبرجين الضخمين في الزوايا المربعة كان ذلك اول خلافته سنة ٨٦ / ٧٠٥م وضمن هذا الاطار البالغ ١٢٠ متر × ٨٠ مترا. واقام المهندسون في شمال هذه الساحة باحة مكشوفة محاطة بالعمد والاقواس وفي جنوبها باتجاه القبلة حرما للصلاة وفر للمؤمنين مكانا للاجتماع. واقام الوليد في وسط الجامع قبة ضخمة وفي شرقها المحراب (على مثال مسجد النبي) وفي غربها باب جديد (باب الزيادة) بدلا من البوابة القديمة المركزية التي سدت^(١). في حين جعلت للساحة المكشوفة ثلاثة مداخل في كل اتجاه مدخل وكان المدخلان الشرقي والغربي يتصلان مباشرة ببقايا ابنية الأغوار وأعمدتها. وقد شاء الوليد تغشية القبة بالذهب فهاله ما تحتاج منه فغشاها بالرصاص وفرضه على اهل الكور وغشى المحراب بالذهب فقط. وجيء بالفسيفاء من بلاد الروم فغشيت جدران الساحة والمداخل اليها وتكلف في ذلك كله مالا جسيما هال الناس حتى احتجوا عليه فجاءهم بأحمال المال الزائد عنده فاطمأنوا. وهكذا حظيت العاصمة الأموية بجامعها الذي توسط المدينة رمزا لكل مدينة اخرى وبجانبه دار الامارة (الخضراء) وكانت الأسواق تحف بالجامع مع القصر من حولها.

واستخدمت الابراج التي تركت في الزوايا مآذن للمسجد وبني برج ثالث مربع في وسط الحائط الشمالي مثذنة ثالثة كما اقيم في ساحة الجامع قبة صغيرة على أعمدة ستة لتكون بيت المال واختفت كل معالم البناء وراء المرمر والفسيفاء.

(١) شهد بذلك الاثريون الذين درسوا مخطط الجامع الأموي ومنهم كريسويل واستركوفسكي ، وتيرتش وسوفاجيه .

استمر البناء تسع سنوات ونيفا وقد وضع مخطط الجامع على أساس اسلامي بحت يقلد جامع الرسول الأعظم في يثرب ولا علاقة له بالكنائس (بازيليك) البيزنطية^(١)، وقد أصبح بذلك النموذج الذي بنيت على مثاله الجوامع الاسلامية كلها من بعده كما أصبح رمز التفوق السياسي الاسلامي وعظمة الاسلام.

وقد كرر الوليد عملية البناء ذاتها في مسجد الرسول بيثرب في الوقت نفسه تقريبا وكان قد جرت توسعته زمن عمر بن الخطاب ثم زمن عثمان بن عفان؛ مدخلا فيه بعض دور بني هاشم وغيرها فلما كانت أيام الوليد تكررت الحاجة ذاتها الى مسجد واسع في المدينة فهدمت الدور حوله وفيها حجرات النبي نفسها وزوجاته ثم اعيد بناء المسجد على المثال الذي بنى عليه جامع دمشق بالفسيفساء والمرمر وعمل سقفه بالساج وماء الذهب. وكان عمر بن عبد العزيز هو الذي تولى ذلك بوصفه والي المدينة . . . واستمر جامع المدينة على ذلك حتى عهد المهدي بن المنصور فزاد فيه كثيرا نتيجة لزيادة اعداد المسلمين في الاقطار.

٣ - ويبدو ان عملية تحول الكنائس أو معابد النار الى جوامع تكررت في اكثر من مدينة بعد أن كان عمرو بن العاص قد بدأها مبكرا في جامعته بالفسطاط بوجود كنيسة ضمن الأرض التي يقوم عليها معسكره^(٢) وكان تناقص النصراني لحساب الاسلام هو الذي يدفع اليها كما صيغت لكل مدينة قصة مشابهة لقصة مقاسمة الكنيسة في دمشق في البدء ثم بناء جامع المدينة مكانها جميعا فيما بعد. ففي مدينة حمص التي دخلها المسلمون بالأمان والجزية بعد معركة اليرموك وفر منها الروم ذكروا ان الكنيسة الكبرى كنيسة

(١) راجع في ذلك كله الموسوعة الاسلامية مادة دمشق (ج٢ ص ٢٨٩ بالفرنسية - الطبعة الجديدة).

(٢) ابن حوقل ص ١١٣.

القديس يوحنا اعطيت مناصفة للنصارى، والمسلمين، وان المسلمين في سنة ١٦ / ٦٣٧ حولوا الكنيسة كلها مسجدا وكانت هذه الكنيسة تعد من اكبر كنائس بلاد الشام. ووزع الأمير شرحبيل. أمير حمص، الأحياء والبيوت والمنازل التي فرغت من اهلها الروم على المسلمين.

٤ - وأما في حلب (قصة جند قسرين) فقد دخلها أبو عبيدة بالأمان ايضا ضامناً للسكان حريتهم وسلامة كنائسهم وتحصيناتهم ومنازلهم مقابل الجزية. ولهذا أقيم المسجد الأول في المدينة على الطريق العامة ذات الأعمدة في المدينة، ولم يكن اكثر من قوس تذكاري قديم سدت منافذه لاقامة الصلاة. وبقيت حلب على نصرانيتها لم تتدخل طوال العهد الأموي في أمر سياسي حتى تزايدت فيها اعداد المسلمين تدريجيا وظهرت الحاجة الى وجود جامع واسع للصلاة. ولسنا ندري هل كان الوليد بن عبد الملك أم أخوه سليمان هو الذي استغل مساحة السوق (الأغورا) لبناء الجامع الأموي الذي ما يزال قائما الى اليوم وعلى اي حال فقد كان بناؤه حول نهاية القرن الأول للهجرة.

٥ - وذكر ما يقرب من هذا في بلرمة بصقلية اذ ذكروا «أن مسجدها الجامع الأكبر كان بيعة للروم قبل فتحها وفيه هيكل عظيم»^(١).

٦ - وذكر ذلك أيضا بشكل عابر عن مدينة سبتة التي ذكروا أن قناة الماء التي تصلها كانت تدخل كنيستها التي هي الآن جامع سبتة^(٢).

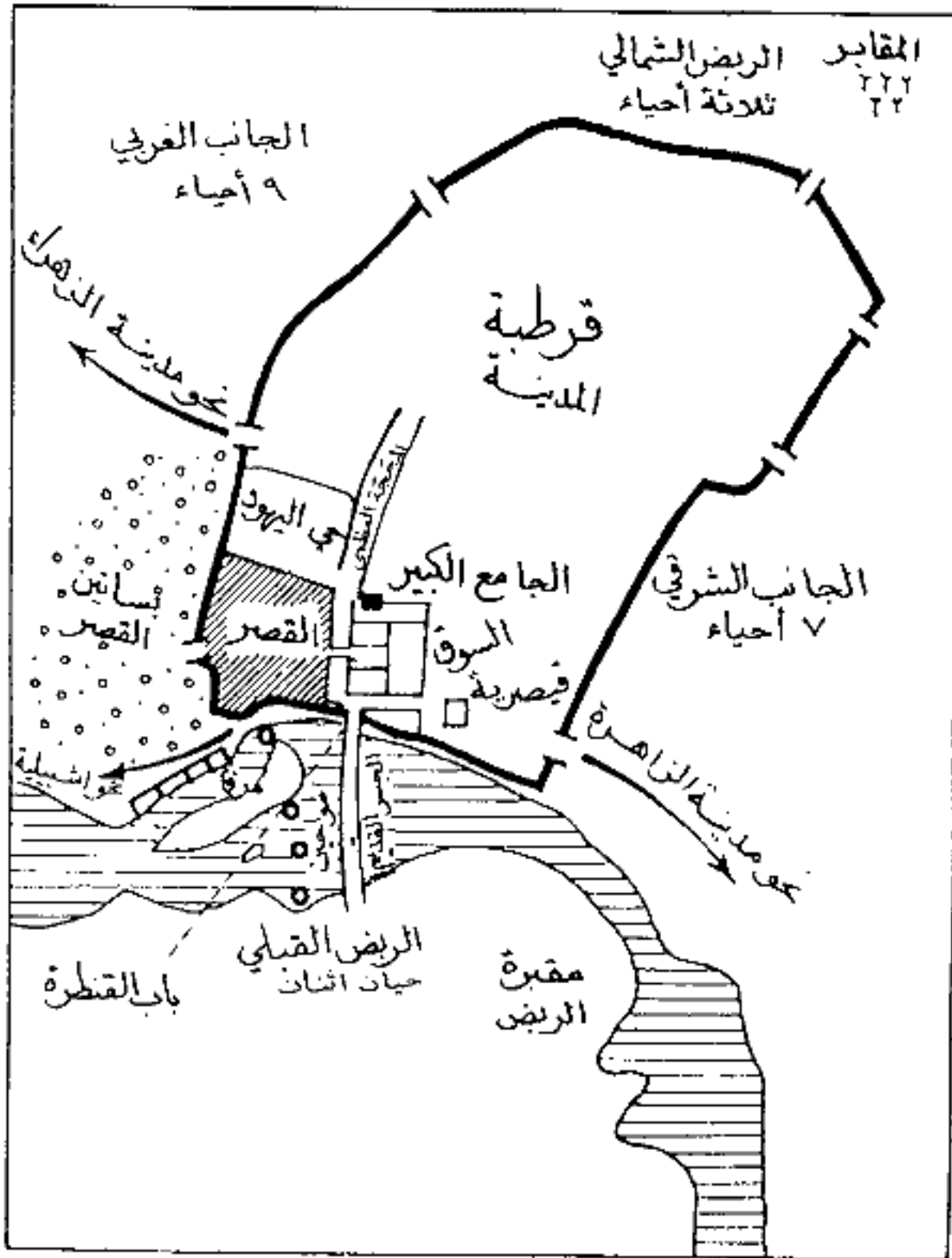
٧ - وذكر مثل ذلك عن دبيل في أرمينية فإن جامعها الى جانب البيعة كمسجد حمص في مشاركة البيعة ومصاقتها وملاصقتها^(٣).

(١) ابن حوقل ص ١١٣

(٢) الحميري نفسه ص ٣٠٣

(٣) ابن حوقل ص ٢٩٤.

وذكر شيء - شبيه بما جرى في دمشق في قرطبة وقد يكون فيه بعض الانزلاق التاريخي بنقل حادثة من مكان لآخر بغرض التشبيه والمقارنة، فقد كتب ابن عذارى حول جامع قرطبة بعض التفاصيل عن تحولها الى الجو



قرطبة

الاسلامي فقال: «لما افتتح المسلمون الأندلس استبدلوا بما فعل أبو عبيدة وخالد من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا فشاطر المسلمون اعاجم قرطبة في كنائسهم العظمى التي كانت بداخلها. وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجدا جامعاً وبقي الثاني بأيدي الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس (ويبدو ان ذلك كان من شروط الفتح) فلما كثر الناس بالأندلس وعمرت قرطبة ونزلها امراء العرب بجيوشهم ضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون فيه سقائف فنال الناس من الضيق مشقة عظيمة. فلما دخل عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) الأندلس وسكن قرطبة نظر في امر الجامع وتوسيعه واتفاق بنائه. فأحضر أعاجم قرطبة وسألهم بيع ما بقي بأيديهم من الكنيسة المذكورة وأوسع لهم البدل فيه وفاء العهد الذي صولحوا عليه، وأباح لهم بناء كنائسهم التي كانت هدمت عليهم في وقت الفتح بخارج قرطبة. وخرجوا عن الشطر واتخذوه وأدخله في بناء الجامع الأعظم. وكان شروع عبد الرحمن الداخل في هدم الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩ وتم بناؤه . . . واشتملت أسواره في سنة ١٧٠ فذلك مدة عام كامل. فقيل ان النفقة التي انفقها طول هذه السنة في بناء الجامع ثمانون ألفاً بالوازمة . . .»^(١).

ثم زاد في الجامع أخلافه: ابنه هشام من بعده ثم عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٢٤ ثم محمد بن عبد الرحمن . . . وغيرهم حتى استتم سعة ومرافق كاليمضأة والمقصورة وزيادة الأبواب والسقاية والصومعة.

وعلى أي حال فإن مثل هذه الأحداث المذكورة قليلة وقد تكون أكثر في الواقع مما ذكره المؤرخون ولكنها لم تكن ناجمة عن التعصب الديني ابداً ولكن عن التكاثر الاسلامي المتزايد بين أصحاب الديانات الأخرى.

(١) ابن عذارى - البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

وتناقض هؤلاء في نوع من التحول الديني المتقابل .

. وكما بنى الحجاج واسط في العراق لاستيعاب التزايد الاسلامي في القرن الأول بنى سليمان بن عبد الملك بعده بقليل في الشام مدينة الرملة للغرض نفسه وكبر جامعها وزخرفه وجعلها عاصمة الدنيا بدل دمشق حوالي أربع سنوات . فان عملية الازاحة للعقائد الأولى والأسلمة في المدن القديمة لم تتوقف وان تأخرت قليلا بسبب الدخول البطيء في الاسلام الذي لم يفرضه أحد فجاء تدريجيا في فارس ومصر والمغرب ثم في الأندلس بعد ذلك . على أن «اسلمة» المدن القديمة أخذت منذ القرن الثاني تزداد وتتضح وبالرغم من أن المؤرخين لم يسجلوها الا عرضا، ومن أنهم اعتبروا بناء الجامع في أي مدينة نوعا من أعمال التقى لا الأسلمة، فإن ما كتب عن وجود الجوامع في مختلف المدن في القرن الثالث وما بعده في القرن الرابع يكشف أن حركة واسعة من «الأسلمة» شملت مدن العالم الاسلامي كلها بشكل صامت خلال هذه الفترة ومن ميزاتنا :

أ - انها كانت تتجه لايجاد متسع من الأرض في وسط المدينة للجامع . ولما كانت دار الامارة كمقر للحكم تسبق الجامع وتجد مقرا لها في قصور الحكام القدماء . فقد كانت المشكلة هي في ايجاد متسع للجامع قريب من الأسواق ليسهل الوصول اليه والتفاعل بين الجماعة الساكنة في المدينة وبينهما في العبادة والعمل والعلاقة مع السلطات . وكان ايجاد المكان يتم على حساب المعابد السابقة أحيانا .

ب - أن الجامع لم يكن يبنى إلا عند الحاجة إليه وعند تكاثر المسلمين، وقد يبدأ صغير المساحة لكنه سرعان ما يستبدل به غيره أو يتوسع كلما ازداد التكاثر .

ج - قد يتعذر في كثير من الأحيان وجود متسع من الأرض للجامع

في وسط المدينة أو قرب دار الإمارة وفي هذه الحالة يتعد الجامع وينأى قليلاً عن دار الإمارة أو عن الأسواق بشكل اضطراري .

د - قد يكثر أهل البلد كثرة كبيرة أو يختلفون فيما بينهم خلافاً دينياً (بين خوارج وسنيين وشيعة) فتبني كل جماعة لنفسها جامعاً خاصاً بها وبأصحابها .

هـ - قد لا تجد الجوامع مكاناً لها إلا داخل الحصن المجاور للمدينة أو القهندز المبني في داخلها، أو في المدينة الملكية المبنية بجوارها للحكام . وفي هذه الحالة تتحكم بمساحتها الأرض الفراغ التي تفرد لها وندر أن نجد جامعاً يبني في الرض إلا بضرورة ماسة .

و - الأساس التقليدي والأفضل أن تكون دار الإمارة والأسواق والجامع مجتمعة في مركز المدينة الإسلامية وندر أن تباعد هذا الثالوث بعضه عن بعض ولا بد أن نجد اثنين على الأقل من عناصره مجتمعين : الجامع والأسواق أو دار الإمارة والجامع . وإن كان ممكناً أن تبعد دار الإمارة عن الجامع أحياناً .

ز - يتناسب بناء الجامع وزخرفته مع مدى غنى الذين بنوه . فالمساجد التي بناها الخلفاء أو كبار الحكام في الأمصار الكبرى (قرطبة . اشيلية . مراکش . فاس . القيروان . القاهرة . القدس . دمشق . الموصل . بغداد . نيسابور . هراة . الري .) هي دوماً مجال لابرارز الغنى بجانب إبراز التقى .

ح - يصعب على الباحث في كثير من الأحيان تحديد الوقت الذي بني فيه الجامع ودار الإمارة والأسواق في المدن القديمة ، وإذا كانت الأسواق قد تجدد ويذكر الباحثون تجديدها . وكانت دار الإمارة في الغالب لا تذكر الا عند تغييرها أو تجديدها ، فإن الجوامع إنما تذكر فقط عند ذكر معالم المدينة أو

حين تكون من الجوامع العظام التي تميز المدن وتعكس عظمتها.

ط - كانت الجوامع دوماً من عمل الحكام والأمراء وعلى نفقتهم أما المساجد فقد كانت في الكثرة الكاثرة منها من عمل الأفراد والأغنياء يقيمونها تقى أو مباحة.

ي - بقيت مدن عديدة من مصر وفي الجزيرة خاصة على النصرانية إلى وقت متأخر ولم تكن الحاجة ظاهرة فيها لبناء مساجد أو جوامع ومنها في مصر: أسيوط والأشمونين والفيوم وأسوان وإسنا وأخميم وتيس وعين شمس. وفي الجزيرة نصيبين وماردين وبلد وسنجار والرها ورأى عين. كما وجدت في فارس والجبال وخراسان مدن تأخر الإسلام في إزاحة الزرادشتية منها وبقيت بيوت النار فيها أو تجاوزت مع المساجد فترة طويلة مثل: مدن الكاريان، وبركة جور وباب سابور وكازورن (وفيها بيتان للنار) وشيراز (رغم إسلاميتها). وبيوت النيران كانت في عصر ابن حوقل أي في القرن الرابع الهجري كثيرة جداً يعجز علمها من سوى الديوان - كما يقول - إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عدد كثير من بيوت النيران. ويقول الاصطخري القول نفسه، ويتحدث الاثنان عن من رأى بيت نار كتب عليه بالفهلوية أنه أنفق عليه ثلاثون ألف درهم وهو بيت نار بركة جور ويسمى بارين^(١). وحتى البوذية الهندية كانت محفوظة بالتسامح الإسلامي في السند.

وتقدم المدن القديمة في المشرق الإسلامي وفي الشام ومصر وفي المغرب مع الأندلس مختلف الأمثلة على هذا الأمور:

١ - ففي المشرق نجد أن:

جامع كثة وهي حومة يزد مدينة محصنة بحصن (يقيم فيه الأمير)

(١) الاصطخري ص ١١٨ وابن حوقل ص ٢٤٢.

وجامعها في الرض لضيق المدينة والحصن، ونجد في الرض أيضا الأبنية والأسواق التامة بالعمارة^(١).

— وفي فسا وهي مدينة قديمة لها حصن وخندق ولها ررض وأسواقها في ررضها^(٢) ومسجدها في المدينة.

— وأما في بم التي تقوم قلعتها المنيعة في المدينة ففيها ثلاثة مساجد جامعة فمنها مسجد للخوارج في السوق. ومسجد جامع في البزازين لأهل الجماعة ومسجد جامع في القلعة. وفي المسجد الجامع للخوارج بيت مالهم للصدقات.

— وأما الشيرجان أكبر مدن كريان فالغالب عليهم مذهب أهل الحديث (أي الحنبلية).

— والغالب على أهل جيرفت الرأي (أي مذهب أبي حنيفة).

— والغالب على أهل الرذباد وقوهستان والبلوس والمناجان التشيع^(٣).

— والمملتان في السند جامعها في وسطها ودار الإمارة خارجها ويدخل إلى الصلاة كل جمعة بموكب على فيل. ويخطب للخليفة وفيها صنم تعظمه الهند وتحج إليه من أقاصي بلدانها وتتقرب إليه بالمال الكثير وبيته في أعمار موضع بسوق المملتان. وعامة ما يحمل إليه من المال يأخذه الأمير وينفق على السدنة منه^(٤).

— وفي قامهل وسندان وصيمور وكنباية (في السند) مسجد جامع

(١) ابن حوقل ٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) الاصطخري ص ١٢٧

(٣) الاصطخري ص ١٦٧

(٤) الاصطخري ص ١٧٣ - ١٧٥

وفيهما أحكام المسلمين ظاهرة^(١).

– وأردبيل كبرى مدن أذربيجان بها المعسكر ودار الامارة^(٢) والجامع والأسواق.

– وبردعة لها مجسد جامع فيها وبيت ما لهم في المسجد على رسم أهل الشام وهو مرصص وعليه باب حديد ودار الامارة بجانب المسجد الجامع في المدينة والأسواق في ريفها^(٣).

– وفي الجبال (شمال شرقي ايران) مدينة دينور وبها جامع ودار حكم.

– ومدينة اصبهان وهي مدينتان احدهما تدعى اليهودية والأخرى المدينة وبينهما مقدار ميلين وفي كل واحدة منها مسجد جامع وأسواق عامرة.

– والكرج مدينة متفرقة قصورا ولها سوقان سوق على باب الجامع وسوق آخر بينهما صحن كبير^(٤).

– ونهاوند على جبل وبها جامعان احدهما عتيق والآخر محدث^(٥).

– وزراود كورة والمنبر منها في الكرج، كرج رودزاور وهي مدينة صغيرة^(٦).

– وفي مرو الروذ أيضا ثلاثة مساجد للجماعات ولها قصبة في نشر مرتفع ولها منابر مضافة اليها^(٧).

(١) الاضطخري ص ١٧٦

(٢) الاضطخري ص ١٨١

(٣) الاضطخري ص ١٨٤

(٤) الاضطخري ص ١٩٨

(٥) الاضطخري ص ١٩٩

(٦) الاضطخري ص ١٩٩

(٧) الاضطخري ص ٢١٢

– وقزوين نزلها المسلمون . ومصرها سعيد بن العاص وجعلها مغزى أهل الكوفة وأغزى الحجاج ابنه محمدا فنزل قزوين (وبنى لهم جامعاً) كتب اسمه عليه ويسمى مسجد الثور، فلم يزل قائماً الى ان اجتاز الرشيد بهمدان يريد خراسان فاعترضه أهل قزوين وشكوا مكانهم من العدو فسار اليهم وبني لهم جامع المدينة وكتب اسمه على بابه في لوح حجر وابتاع بها حوانات ومستغلات ووقفها على مصالح المدينة وعمارة قبتها وسورها . والقبة تشرف على الأسواق^(١).

– وأعظم مدن خراسان نيسابور (وتسمى أيضاً ابر شهر) ولها مدينة وقهندز وربض . وقهندزها ومدينتها عامران، ومسجد جامعها في الربض بمكان يعرف بالمعسكر ودار الامارة بمكان يعرف بالحسينيين، والحبس عن دار الامارة، وبين الحبس ودار الامارة وبين المسجد الجامع نحو فرسخ . ودار الامارة من بناء عمرو بن الليث، وللقهندرز، بابان وهو خارج عن المدينة . وللمدينة أربعة أبواب ويحيط بها وبالقهندز جميعا الربض . وله أبواب . . . وأما أسواقها فانها خارجة عن المدينة والقهندز في الربض واعظم اسواقها سوقان احدهما تعرف بالمربعة الكبيرة والأخرى بالمربعة الصغيرة واذا أخذت من المربعة الكبيرة نحو المشرق فالسوق يمتد الى ان تجاور المسجد الجامع، وإذا أخذت منها نحو الجنوب فالسوق ممتدة حتى المقابر ويمتد السوق في شالها حتى ينتهي الى رأس القنطرة . والمربعة الصغيرة . . . جنب دار الامارة^(٢).

– قزوين مدينة عليها حصن ولها مدينة داخلية والجامع في هذه المدينة^(٣) والأسواق فيها . وفي الحصن دار الامارة .

– أمل في طبرستان وهي أكبر مدنها ومستقر الولاة في القرن الرابع

(١) الاضطخري ص ٢٣٩ - ٢٤١

(٢) الاضطخري ص ٢٥٤ - ٢٥٥

(٣) الاضطخري ص ٢٠٠ و ص ٢١١ .

(كانوا قبلا في سارية)^(١) وفيها جامع وأسواق .

— وفي سجستان مدينة زرنج وهي مدينتها العظمى عليها حصن وخذق وعلى الربض سور ولها خمسة أبواب وكلها حديد وللربض ثلاثة عشر بابا والمسجد الجامع في المدينة دون الربض اذا دخلت المدينة . ودار الامارة في الربض خارج المدينة والحبس في المدينة عند المسجد الجامع . وهناك أيضا دار امارة على ظهر المسجد الجامع وعند الحبس وكلها نقلت الى الربض . ودار الامارة في دار يعقوب بن الليث . وداخل المدينة بناية عظيمة تسمى ارك كانت خزانة بناها عمرو بن الليث وأسواق المدينة الداخلة حول مسجد الجامع وهي أسواق على غاية العمارة . وأسواق الربض أسواق عامرة أيضا منها سوق عمرو الذي بناه عمرو بن الليث وقفة على المسجد الجامع والبيهارستان والمسجد الحرام . وغلبة هذا السوق في كل يوم نحو ألف درهم . . .^(٢)

— ومرو والشاهجان : كانت معسكر الإسلام في أوله وبها أقام المأمون قبل الخلافة وفيها ثلاثة مساجد لأن أول مسجد أقيم للجمعة ضاق عن الناس وهو المسجد الذي أقيم للجند الفاتحين لما كثروا فبنى عمر بن عبدالعزيز (رضي الله عنه) المسجد المعروف بالعتيق (حوالي ١٠٠هـ) على باب المدينة حيث الجامع ومصلى العيد في رأس الميدان في مربعة أبو الجهم ويطوف به من جميع نواحيه البنيان والعمارات . . . وللمدينة الداخلة أربعة أبواب^(٣) وفيها دون شك دار إمارة (كان ينزلها المأمون) وأسواق عامرة .

— وهي قديمة البناء وفيها ثلاث مساجد للجماعات . أما أول مسجد أقيمت فيه الجمعة فمسجد بني من داخل المدينة في أول الإسلام . فلما كثر

(١) الاضطخري ص ٢١٢ .

(٢) الاضطخري ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٣) الاضطخري ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

الإسلام بني المسجد المعروف بالمسجد العتيق على باب المدينة ويصلي فيه أهل الحديث وتركت الجماعات في المسجد الأول ويعرف بمسجد بني ماهان . ثم بني بعد ذلك المسجد الذي على ماجان ويذكر أن ذلك المسجد والسوق ودار الإمارة من بناء أبي مسلم (الخراساني) . ودار الإمارة على ظهر هذا المسجد وفي هذا الدار قبة بناها أبو مسلم كان يجلس فيها والى هذه الغاية يجلس في هذه القبة أمراء مرو . . . وهي قبة من الأجر سعتها خمسة وخمسون ذراعاً . ولها أربعة أبواب كل باب إلى إيوان والقهندز في الكبر مثل مدينته إلا أنه خراب وهو مرتفع . . . وأما أسواقها فإنها في القديم كانت على باب المدينة جنب المسجد العتيق فانتقلت أيام أبي مسلم إلى ماجان وأسواقها من أنظف أسواق الأمصار . ومصلى العيد في محلة رأس الميدان في مربعة أبي الجهم وبطيف بهذا المصلى من جميع جهاته البنيان والعمارات . . . وعلى الباب من جهة سرخس أبنية كثيرة كان الحسين بن طاهر بناها وأراد أن ينقل إليها السوق ودار الإمارة . . . وللمدينة سوران الكبير منها يحيط بها وبرزاتيقها وقد تهدم وما تزال آثاره واضحة وللمدينة الداخلة أربعة أبواب^(١) .

— أما هراة : فإنها مدينة عليها سور وثيق وحواليها ماء وداخلها مدينة عامرة ولها ريبض وفي مدينتها قلعة والمسجد الجامع في مدينتها ودار الإمارة خارج الصحن بمكان يعرف بخراسان آباد منقطع عن المدينة بينه وبينها أقل من ثلث فرسخ على طريق بوشنج غربي هراة . . . ولمدينتها الداخلة أربعة أبواب . . . من خشب عدا واحد من الحديد . وعلى كل باب سوق . . . وفي داخل المدينة والريبض مياه جارئة . وللحصن أربعة أبواب بحذاء كل باب من أبواب المدينة باب له . وخارج الحصن جدار يطوق الحصن كله أطول

(١) الاضطخري ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

من قامة وبينهما مقدار ثلاثين خطوة، والمسجد الجامع من المدينة في وسطها وحواليها أسواق. والسجن على ظهر قبلة مسجد الجامع. وليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد أعمر بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ثم مسجد بلخ ثم مسجد سجستان. فإن هذه المساجد خلق الفقهاء والناس يتزاحمون على رسم الشام والثغور. وسائر المساجد بهذه الأماكن إنما يتتابها الناس في الجمعات. . . . وعلى جبل قريب يقوم بيت للنار يسمى سرشك وهو معمور وبينه وبين المدينة كنيسة للنصارى^(١).

— وبوشنج : مدينة نحو النصف من هراة. . . . وبها سور وخنديق وثلاثة أبواب^(٢). وفيها مسجد جامع.

— فراوة : ثغر في وجه البرية على الغزية (الأتراك الغزر ومنهم كان السلاجقة). وهي منقطعة عن القرى ولها منبر^(٣).

— قايين : مدينة بناؤها من طين ولها قهندز وعليه خندق ومسجد الجامع ودار الإمارة في القهندز^(٤).

— والفارياب : مدينة بناؤها من طين وفيها مسجد جامع وليس له منارة، ودار إمارة وأسواق. وفيها سائر ما يكون في المدن الصنائع والتجارة. ويضيف ابن حوقل : وإن ذكرت ما مر لي في استحداث منارة بالفارياب مع أهلها وأميرها وجلة أهلها لطلال. . . . إلا قولهم : هذه سنة^(٥)!

— ومن مدن الجوزجان : أيضا اليهودية والمسجد جامعها منارتان.
— وأما بلخ : فإنها مدينة في مستو. . . . وعليها سور ولها ربض.
والمسجد الجامع في المدينة في وسطها وأسواقها حوالي مسجد الجامع.

(١) الاضطخري ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) الاضطخري ص ٢٦٨.

(٣) الاضطخري ص ٢٧٢.

(٤) الاضطخري ص ٢٧٤.

(٥) ابن حوقل ص ٣٧٠.

ومسجدها معمور بالناس على دوام الأيام كلها . وهي نحو نصف فرسخ في مثله ولها أبواب ويحف بأبوابها كلها البساتين والكروم وليس على سور المدينة خندق والسور من طين^(١) .

— وترمز : فيما وراء النهر لها قلعة ومدينة وربض ويحيط بالربض أيضا سور . ودار الإمارة في القلعة والحبس خارج القهندز في المدينة في السوق . ومسجد الجامع في المدينة والمصلى داخل السور في الربض وأسواقها في مدينتها و(هي) مفروشة بالآجر وهي عامرة أهلة^(٢) .

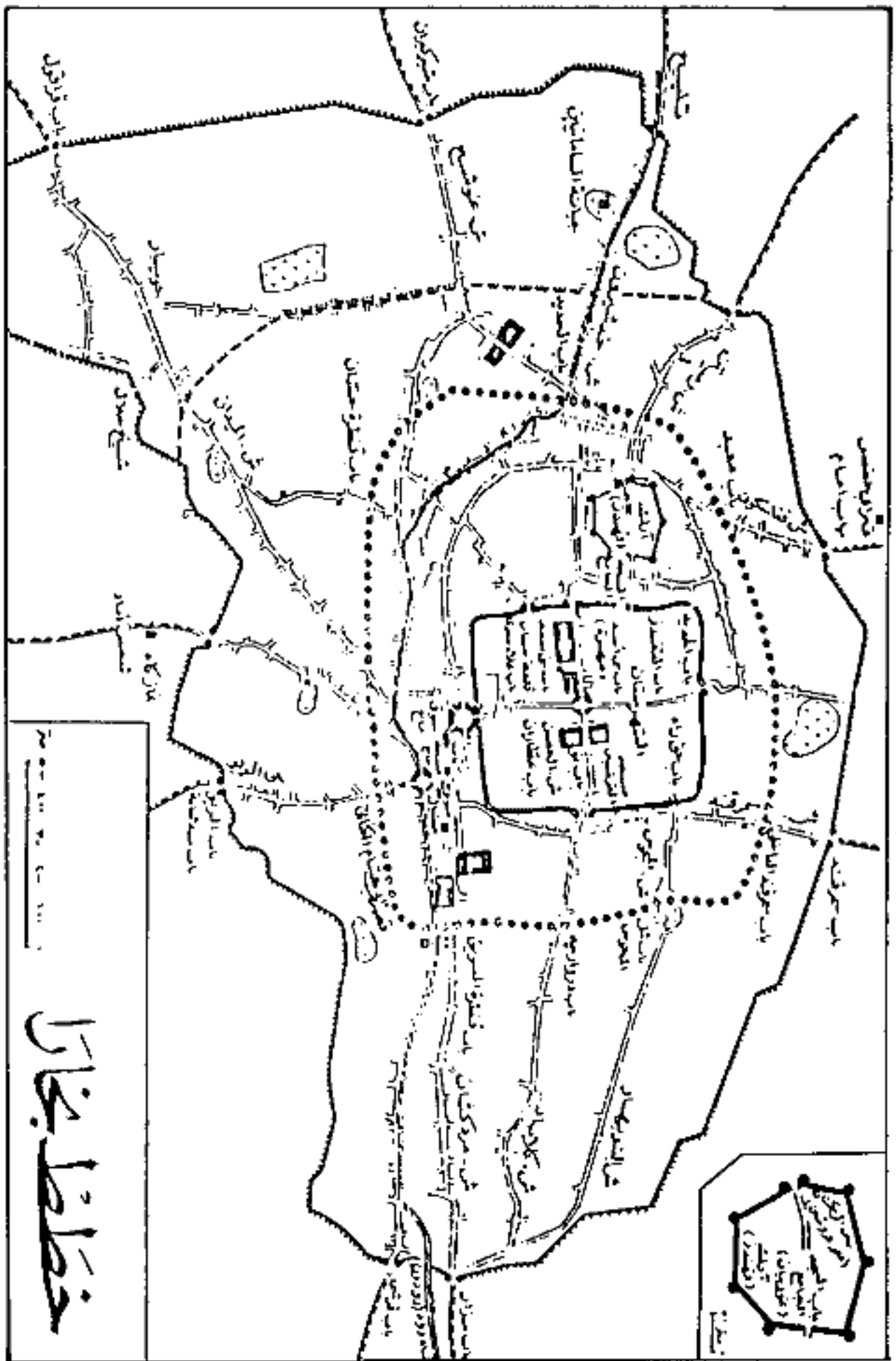
— خوارزم : (القصبة) مدينة تسمى بالخوارزمية كاث ولها قلعة ليس بعامة وكانت لها مدينة فخر بها نهر جيحون وبني الناس من وراء المدينة . وقد قارب النهر القلعة ويخاف على تدهمها . ومسجد الجامع على ظهر القلعة ودار خوارزم شاه (دار الإمارة) عند المسجد الجامع والحبس عند القلعة . وفي وسط المدينة نهر والسوق على جانبي هذا النهر وطولها نحو ثلث فرسخ . وللمدينة أبواب تهدم بعضها^(٣) .

— بخارى : واسمها في الأصل بومجكث هي مدينة في مستو (من الأرض) ويحيط بينائها قصور وبساتين وسكك وقرى تكون اثني عشر فرسخا في مثلها ويحيط بجميع ذلك سور يجمعه . ومن دون هذا السور سور آخر قطره فرسخ . ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين ولها قلعة خارج المدينة تتصل بها مقدار مدينة صغيرة . وفي داخلها قلعة أخرى . ومسكن ولاية خراسان من آل سامان في هذه القلعة ، ولها ربض . ومسجد الجامع عند باب القلعة في المدينة وحبسها في القلعة وأسواقها في ربضها وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكا من بخارى ولا أكثر أهلا

(١) الاضطخري ص ٢٧٨ .

(٢) الاضطخري ص ٢٩٨ .

(٣) الاضطخري ص ٣٠٠ - ٣٠١ .



خطاط بخارا

على قدرها . . . وللمدينة سبعة أبواب حديد . . . وفي وسط الرض على أسواقها دروب . . . (١)

— والبخاري : مدن داخل حائطها منها الطواويس وهي مدينة كثيرة البساتين ولها قلعة ومدينة ومسجد جامعها في المدينة (٢).

— وأما سمرقند : فهي مدينة جنوبي وادي السند لها قلعة ومدينة وربض . وإما القلعة ففيها الحبس . ودار الإمارة . وأما المدينة فلها سور وأربعة أبواب . وحوالي المدينة خندق عظيم استعمل طينته في سور المدينة . . . والمسجد الجامع في المدينة بينه وبين القلعة عرض الطريق وفيها دار الإمارة لبني سامان . غير دار الإمارة في القلعة . والمدينة من الرض على جانبه . وله سور يكون قطره المحيط فرسخين ومجمع أسواقه رأس الطاق ، ثم تتصل به الأسواق والسكك والمحال . وفي تضاعيف ذلك قصور وبساتين . . . وأكثر الأسواق والتجارات في الرض إلا شيئا يسيرا في المدينة وهي فرضه ما وراء النهر ومجمع التجار . . . وكانت دار الإمارة ما وراء النهر بها إلى أيام اسماعيل بن أحمد فنقلها إلى بخاري . ولسور ربضها أبواب وبها مجمع رقيق ما وراء النهر (٣).

ويقول ياقوت في سمرقند : «لهذه المدينة (يعني الداخلة) أربعة أبواب ومساحتها ألفان وخمسمائة جريب (الجريب ٢٤٠٠ م^٢) وفيها المسجد الجامع والقهندز . وفيه مسكن السلطان (دار الإمارة) . وفي هذه المدينة نهر يجري في رصاص (قناة من رصاص) وقد بنى عليه مستاة عالية من حجر يجري عليه الماء إلى أن يدخل المدينة . ووجه هذا النهر رصاص كله يجري وسط السوق .

(١) الاصل بخري ص ٣٠٥ - ٣٠٧ .

(٢) الاصل بخري ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٣) الاصل بخري ص ٣١٦ - ٣١٧ .

وكان أعمر موضع بسمرقند فأما داخل سوق المدينة الكبيرة ففيه أودية وأنهار وعيون(*) .

— وأما نسف : لها ربض وسور وأربعة أبواب . . . وقرى كثيرة ولها منبران سوى منبر المدينة^(١) .

— وأما اشروسنة : فاسم الإقليم، ومدينته التي يسكنها الولاية هي بونجكت . . . وهي مدينة داخلها مدينة أخرى على كل منها سور، وللمدينة الداخلة بابان ويجرى فيها نهر كبير عليه فيها رحى، وفيها جامع، ويشمل حائطها (السور) على دور وبساتين وكروم وقصور. وقطرها نحو فرسخ وأبوابها أربعة^(٢) .

— اخسيكث : قصبة منطقتها في ما وراء النهر على شط نهر الشاش (وبها جامع) ولها سور وخارجه ربض يحيط به سور آخر^(٣) .

— قبا : مدينة تلى اخسيكث في الكبر لها قلعة وربض وجامع وأسواق^(٤) .

— أوش : مدينة عامرة مسورة بها قلعة ودار إمارة (وجامع)^(٥) .

— خجندة : منفردة في الأعمال بجوار فرغانه ولها قرى بسيرة ومدينة وقهندز وجامعها في المدينة ودار الإمارة في الميدان بالربض والحبس في القهندز^(٦) .

— اسبيجاب : مدينة تشتمل على مدينة وقهندز وربض . فأما القهندز

(*) باقوت بلدان ج ٣ ص ٢٤٧ .

(١) الاضطخري ص ٣٢٤ .

(٢) الاضطخري ص ٣٢٦ .

(٣) الاضطخري ص ٣٣٣ .

(٤) الاضطخري ص ٣٣٣ .

(٥) الاضطخري ص ٣٣٣ .

(٦) ابن حوقل ص ٤١٩ .

- قرطسا : بلد كبير فيه حمام ومنبر وبرسمه ضياع وافرة غزيرة^(١) .
 – شبر و أبو مينا : ضيعة كبيرة بها جامع وخلق كثيرة . . وبادية
 ومزارع وغللات واسعة^(٢) .
 – قرنقيل : ضيعة بها جامع وعمارة أهله غناء^(٣) .

وهكذا يمر ابن حوقل على مدن الدلتا كلها تقريبا فيسجل وجود
 الجوامع والعمال (أي دور الإمارة) فيها كما يذكر أحيانا وجود البيع فهناك
 برسيق بها منبر . والكربون فيها جامع وحمام وفنادق ولها عامل عليها ومعه
 خيل^(٤) . . . وعلى الطريق الشرقية نجد :

- شبر و الأو : ضيعة ذات ثلاث حارات كبار . . بها حمام وجامع
 وقاض وعامل^(٥) .

– منوف : مدينة كبيرة عظيمة . . بها والي عليها وبها حاكم وحمامات
 وجامع وأسواق كثيرة حسنة^(٦) .

- طننتا (طنطا) : ضيعة جليلة عظيمة الأهل بها جامع وحمام
 . . عامل ذو عدة وعتاد وفيها أسواق وجامع لطيف ولها موعده لسوق كل
 جمعة^(٧) .

(١) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .
 (٢) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .
 (٣) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .
 (٤) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .
 (٥) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .
 (٦) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .
 (٧) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .

– وفي فيشة : بنى سليم جامع وأسواق، وفي البندارية جامع
وأسواق ولها عامل وفيها حمام طيب^(١).

وفي محلة المحروم مدينة بها سلطان وشحنة لها وقاص وخيل ورجل
وجامع وحمام وأسواق^(٢).

وفي قليب العمال وبيج وصا ودياي والصفية جوامع وحمامات وبيع
كثيرة وعمال وأسواق ومنابر. وكذلك نرى في سنديون وبلهيب وفي فرنوه
جوامع وسلطانا وحاكما وبيعا وأسواق لا بأس بها. ومثلها في محلة مسروق
ومحلة أبي خراشة وفيشه . . .^(٣).

ويعلق ابن حوقل (وهو من أواخر القرن الرابع) في حديثه عن مصر
قائلا : وأهلها (يعني مصر نصارى قبط ولهم البيع الكثيرة الواسعة وقد
خرب منها الكثير العظيم . . .) بالدخول في الإسلام دون شك^(٤).

٣ – في المغرب والأندلس : وتتابع ابن حوقل في هذه البقاع لنمر
بالمدين القديمة فيها ونجد :

– برقة أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان ولها أسواق
حاددة^(٥).

– أجدابية وهي مدينة مبنية بالطين والأجر وبعضها بالحجارة ولها
جامع نظيف . وواليها القائم بما عليها من وجوه الأموال هو أميرها (وله اذن

(١) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٢) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣) ابن حوقل ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٤) ابن حوقل ص ١٥٠ .

(٥) ابن حوقل ص ٧٠ .



دار إمارة) وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقبضه من السلطان لوازم على القوافل^(١).

— وسرت ذات سور صالح كالمنيع . . . والمتلى (أي متولى) صدقاتهم وجباياتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم هو صاحب صلاتهم . وإليه جميع مجاري أمر البلد والنظر فيه . . . واعتبار السجلات والمناشير^(٢).

(١) ابن حوقل ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) ابن حوقل ص ٧٠ .

– وأطرابلس مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر
خصبة حصينة ذات ربض صالحة الأسواق وكان لها في ربضها أسواق كثيرة
فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور وبها الفواكه . . . والجهاز الكثير
والمراكب تحط في (مينائها) ليلا ونهارا . ولبدة مدينة مثلها^(١) .

– وقابس بها صدقات وزكوات وضرائب وجوال على اليهود . . .^(٢) .

– ومدينة سفاقس ناحية على نحر البحر ولها مرسى ميت الماء ، وعليها
سور من حجارة وأبواب حديد منيعة وفيها محارس مبنية للرباط بها وأسواقها
عامرة . ولها عامل عليها للسلطان بذاته (وهذا يعني وجود الجامع ودار
الإمارة)^(٣) .

– وسوسة مدينة رفهة خصبة على البحر ولها سور حصين . . .
وأسواق حسنة وفنادق وحمامات ورباطات واسعة .

– وبنزرت مدينة على البحر خصبة وعامل المعونة ينزل فيها (وهذا
يعني أن لها جامعا ودار إمارة)^(٤) .

– سرقوسة : مدينة في صقلية وهي كبيرة عليها ثلاثة أسوار . وهي
من مشاهير المدن . والبحر محقق بها من جميع جهاتها . . . وبها ما يكثر المدن
من الأسواق ذوات السهات والخانات والديار والحمامات والمباني الرائعة
وقد فتحها المسلمون سنة ٢٤٦ بعد تسعة أشهر من الحصار^(٥) . . . وقد
نحلت مدينة إسلامية بجامع ودار إمارة .

(١) ابن حوقل ص ٧١ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٣) ابن حوقل ص ٧٣ .

(٤) ابن حوقل ص ٧٤ .

(٥) ابن حوقل ص ١١٤ .

– بلرم (بالرم) وعليها سور عظيم من الحجارة شامخ منيع يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الكبير وكان بيعة للروم قبل فتحها . . . ويدل على قدره أنه يتسع إذا غص بأهله سبع آلاف رجل ويذكر المقدسي من جهة أن بالرمو قصبة الجزيرة (بمعنى أن بها دار الإمارة) ولها مدينة داخلية بها الجامع . والأسواق في الربض ومدينة أخرى خارجة مسورة تسمى الخالصة بأربعة أبواب . وبها أيضاً جامع ولها أسواق .

– والخالصة تجاه بالرم ذات سور من الحجارة وفيها حمامات ولا أسواق فيها ولا فنادق . وفيها مسجد جامع صغير وبها جيش للسلطان ودار صناعة البحر والديوان ولها أربعة أبواب وسور لا باب له . . . وأكثر الأسواق ضماً بين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة (وفيها أكثر من ثلاثين سوقاً مختلفة) .

ويضيف ابن حوقل هنا أن بصقلية من المساجد في بلرم والخالصة وما حولها نيف وثلاثمائة مسجد . وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر^(١) .

– ومرسى الخرز . ولسلطان المغرب بها أمناء وناظر يلي صلاتها ومعاونها (باعتبارها معدن المرجان) .

– تاهرت مدينتان . . . والقديمة ذات سور وهي على جبل ليس بالعالي وفيها جامع وإمام وخطب وتجار^(٢) .

– ويعطف ابن حوقل بعد ذلك على مدن كثيرة في الداخل للبربر ويهتم بغلاتها أكثر مما يهتم بإسلامها ولكننا نقدر أنها صارت مسلمة لأن البربر دخلوا جميعاً، وعلى مذاهب مختلفة في الإسلام ومنها مدينتان في جبل نفوسه

(١) ابن حوقل ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢) ابن حوقل ص ٧٦ .

فيهما منبران^(١) وجامعان .

— وفي الأندلس مدن قديمة مشهورة أعظمها قرطبة : وهي مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة وفيها لم يزل ملك سلطانهم قديما ومساكنه وقصره من داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب قصره في داخل البلد ولها بابان يشرعان في نفس سور المدينة إلى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة . . . والأسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها ومسجد جامعها جليل عظيم في نفس المدينة والحبس منه قريب . . . وبها مسجد جامع حسن طيب في نفسه دون جامع البلد في المحل والكبر ولقرطبة سبعة أبواب حديد وهي فخمة واسعة الحال^(٢) .

«وقصر قرطبة بغربها متصل بسورها القبلي والغربي وجامعها بإيزاء القصر من جهة الشرق وقد وصل بينهما بساباط يسلك الناس تحته» . وقباب مقصورة الجامع مذهبة . «وكذلك جدران المحراب وشرفات المقصورة فضاء محصنة . وارتفاع صومعة الجامع - وهي من بناء عبدالرحمن بن محمد - ثلاث وسبعون ذراعا إلى أصل القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذنون . وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعا وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصي وضبط أربعمائة وواحد وتسعون مسجدا . . .^(٣) . . . وعلى نهر قرطبة يقوم الجسر الأعظم الذي لا يعرف في الدنيا مثله .

ومدينة قرطبة مدينة جوانية وربض . الجامع في المدينة وأغلب الأسواق ودار السلطان في الربض . الجامع من حجر وجيل وسواريه رخام . حواليه حياض^(٤) .

(١) ابن حوقل ص ٩٢ .

(٢) ابن حوقل ص ١٠٨ .

(٣) الحميري - الروض المعطار ص ٤٥٨ .

(٤) المقدسي ص ٢٣٣ .

— جيان مدينة في سفح جبل عال موصوفة بالحصانة فيها حمامات كثيرة وعيون كثيرة. وجامع جيان مشرف يصعد إليه على درج من جميع نواحيه على أعمدة رخام. وله صحن كبير حوله سقائف وهو من بناء عبدالرحمن بن الحكم على يد مسرة عامل جيان وبها أسواق كثيرة. . . . (١).

— طليطلة مركز جميع الأندلس. عظيمة القطر كثيرة البشر كان دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق وبها جامع وعامل (٢).

— طرطوشة: مدينة في سفح جبل عال ولها سور حصين وبها أسواق وعمارات وضياع وفعلة وإنشاء المراكب الكبار. وقصبة طرطوشة. وهي على صخرة عظيمة والمصلى والمدينة في شرقي القصبة. وعلى المدينة سور صخر من بناء بني أمية على رسم أولي قديم ولها أربعة أبواب كلها مبنية بالحديد. ولها أرباض من جهة الجوف والقبلة ودار الصناعة قد أحرق على ذلك كله سور صخر حصين بناه عبدالرحمن بن النظام وبها جامع (واسع) وله رحبة واسعة بني سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وبها أربعة حمامات وسوقها من الربيض القبلي، جامعة لكل صناعة ومنجر. وهي بساب من أبواب البحر. . . (٣).

— اشبيلية مدينة بالأندلس قديمة أزلية. . . وهي عامرة لها أسواق حصينة وسوقها عامرة وخلقها كثير وأهلها مياسير. . . وكان سور اشبيلية من بناء الإمام عبدالرحمن الحكم بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وكذلك جامعها من بنائه وهو من عجيب البنيان وجليلها وصومعتها بديعة الصناعة غريبة العمل. أركانها الأربعة عمود فوق عمود. . . ثم عصى فيها بعض

(١) الحميري ص ١٨٣.

(٢) الحميري ص ٣٩٣ والمقدسي ٢٣٣.

(٣) الحميري - الروض المعطار ص ٣٩١.

الشوار فغلبه عبدالرحمن وهدم واليه سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم سورها والحق عاليه بأسفله وبني القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور حجر رفيع وأبواب متينة . وبني سور المدينة في الفتنة بالتراب . . . وفي سنة ٦٤٦ استسلمت للعدو^(١) .

— ماردة مدينة بجوفي قرطبة منحرفة إلى المغرب قليلا كان يسكنها الملوك قبل فتح الأندلس . وكان لها سور عرضه اثنا عشر شبرا . وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا . وكان الماء يجري إليها بأقنية على الأعمدة . وقصر ماردة بناه عبدالملك بن كليب طول كل شقة من سورها ثلاثمائة ذراع وعرض البناء اثنا عشر ذراعا^(٢) وكان بها جامع وأسواق .

— وادي الحجارة مدينة كبيرة وثغر مشهور الحال . مسور بحجارة ذات أسواق وخنادق وحمامات وحاكم ومخلف وبها يسكن ولاية الثغور (وهذا يعني أن بالمدينة جامعا ودار إمارة) وعليها أكثر جهاد جليقية^(٣) .

— أرشدونة بالأندلس وهي قاعدة كورة مريه ومنزل الولاية والعمال (أي أن بها جامعا ودار إمارة) . فيها عيون . سهلها واسع . وسورها الآن (حوالي سنة ٧٠٠) مهديم وبها آثار قديمة^(٤) .

— بلنسية في شرقي الأندلس . . . قاعدة من قواعد الأندلس . . . وسورها مبنى بالحجر والطوايي ولها أربعة أبواب .

— سرقسطة في شرقي الأندلس وهي المدينة البيضاء قاعدة من قواعد الأندلس كبيرة القطر . أهلة واسعة الشوارع والمساكن متصلة الجنات

(١) الحميري ص ٥٨ - ٦٠ .

(٢) الحميري ص ٥١٨ .

(٣) ابن حوقل ص ١١١ .

(٤) الحميري ص ٢٥ .

فخراب وعلى المدينة الداخلة سور وعلى الربرض أيضا سور يحيط به مقدار فرسخ وللمدينة أربعة أبواب وأسواقها في المدينة والربرض جميعا ودار إمارة والحبس والجامع في المدينة الداخلة^(١).

٢ - في مصر تأخرت كتلة سكان مصر قليلا في الدخول بالإسلام وجاء القرن الثالث وما تزال، في الصعيد الأعلى خاصة، جماهير غير مسلمة أما في الدلتا فكان الإسلام قد انتشر بوضوح وعلى مهل وانتشرت معه الجوامع فالطريق مثلا من القسطنطينية إلى الإسكندرية عليه :

- سبك العبيد : وهو منزل فيه منبر لطيف .^(٢)

- منوف : وهي كبيرة فيها حمامات وأسواق ربما ثناء ويسار وعمل يليه عامل جسيم^(٣) . وجامع دون شك .

- محلة صرد : وهي منبر فيه حمام وفنادق وسوق صالح^(٤) .

- صخا : مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع . . . له عامل بعسكر وجند (وهذا يعني أن له دار إمارة وجامع وحبس) وله غلات . . .^(٥)

- شبرطنه : مدينة كبيرة بها جامع وأسواق وصالحة . . .^(٦)

- مسير : مدينة لها جامع وأسواق كثيرة القمح وبها عامل عليها للماء وقسمته^(٧) .

- سنهور : مدينة ذات إقليم كبير ولها حمامات وأسواق وعامل كبير في

(١) ابن حوقل ص ٤١٨ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٣) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٤) من (٤) إلى (٦) عن ابن حوقل ص ١٣١ .

نفسه وكانت بها من النعم للكتاب والدهاقين ضروب الكتان والقموح
وقصب السكر^(١).

– البجوم : إقليم مدينته باسمه عظيمة بها عامل عليها وعسكر
وجامع وحمامات وفنادق وأسواق واسعة^(٢).

– أجنا : حصن على شط البحر المالح فيه منبر وخلق كثير وأسواق
ورجال وبه حمام^(٣).

– الجريسات : ذات منبر وبها سوق صالح^(٤).

– ترنوط : وهي جانبان متحاذيان على الخليج وبها منبر في الجانب
البحري منها بعسكر ذى عدة وغللات واسعة^(٥).

– بستامة : ضيعة عظيمة ذات منبر وأسواق كثيرة تزيد على ألفي
رجل وغللاتهم واسعة^(٦).

– شابور : مدينة كثيرة العبيد والمقاتلة . . . فيها حمام وعامل تحته
خيل للحماية^(٧).

– نقيدة : ضيعة كبيرة عامرة بها منبر وعامل عليها (أي له دار إمارة)
ولها حمام وناحية كبيرة وغللات غزيرة^(٨).

– ونشال : بلد عامر فيه جامع وحمام وكروم كثيرة ويرسمه ضياع
جليلة وعمل مضاف إليها^(٩).

(١) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .

(٢) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .

(٣) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .

(٤) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .

(٥) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .

(٦) عن ابن حوقل ص ١٣٢ .

والبساتين . ولها سور حجارة حصين وهي على ضفة نهر كبير . (وتسمى بالبيضاء) لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض وكان الذي بنى المسجد الجامع بـرقطة ووضع محرابه حش بن عبدالله الصنعاني فلما زيد فيه هدم الحائط القبلي غير المحراب . وأخذها النصارى سنة ٥٠٢ بعد حصار تسعة أشهر^(١) .

— شلب قاعدة كورة اكثونية في الأندلس . وهي في بسط من الأرض عليها سور حصين ولها جنات وغللات . والمدينة بديعة البناء مرتبة الأسواق وأهلها وسكان قراها من العرب وغيرها وكلامهم بالعربية الفصيحة^(٢) . وعربها بالطبع مسلمون وهم جامع ودار إمارة باعتبار أنها قاعدة كورة .

— شتمرية : مدينة اكثونية وهي أتقن حصونها على البحر الأعظم سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد . وهي مدينة متوسطة القدر بها مسجد جامع ومنبر وجماعة . وبها المراكب وارده وصادرة وهي مدينة أزلية بها دار صناعة السفن^(٣) .

— شقر جزيرة بالأندلس قرب شاطبة وهي حسنة البقعة كثيرة الأشجار والثمار وبها جامع ومساجد وفنادق وأسواق^(٤) . وقد علق ابن حوقل على مدن الأندلس قائلاً : وجميع هذه المدن المذكورة مشهورة بالغللات والتجارات والكروم والعمارات والأسواق والبيوع والحمامات والحانات والمساجد الحسنة يقام فيها جميع الصلوات وليس بجميع الأندلس مسجد خراب وفيها مدن يزيد بعضاً على بعض في المحل والجباية والارتفاع والقضاة والمخلفين على رفع

(١) الحميري ص ٣١٧ .

(٢) الحميري ص ٣٤٢ .

(٣) الحميري ، ص ٣٤٢ .

(٤) الحميري ، ص ٣٤٧ .

الأخبار ويقال لأحدهم مخلف . وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق
فسيح فيها ضياع عداد واكرة وسعة ماشية وسائمة وعدة وكراع وعتاد^(١) .

وثمة عدا هذا الذي ذكرنا كله اضافات أخرى أضافها العرب
والمسلمون إلى المدن القديمة . وإذا كانت معظم هذه الإضافات تتصل بالحياة
الدينية كالجمامع والمساجد والأربطة والأسبلة والتكايا والزوايا وكان بعضها
متصلا بالحياة العامة كالقصور والأبنية والأسواق والحمامات والأقنية المائية ،
فإن أهمها إنما كان يتصل بالتحصين العسكري وبأمن المدن .

(١) ابن حوقل ، ص ١١١ .

الفصل السادس

تحصين المدن الإسلامية

أمن المدينة عنصر أساسي في سكونها وبقائها . ودعاء سيدنا ابراهيم لربه : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ يرجى منه اعطاء البلد الطمأنينة الدائمة ليقى ويزدهر . وتجارب الانسان الطويلة علمته أن تنازع البقاء من قوانين الحياة الانسانية والاسلام وأن يكن دين محبة وأخوة وسلام إلا أنه لا يأمن للاعداء ولا يأمن غلبة الغرائز والأهواء بعضها ضد بعض . ولذلك كان بدهياً أن يصبح تحصين المدينة الإسلامية - كغيرها - جزءاً من تكوينها وبعضاً من أخص مميزاتا . وندع جانباً أحكام الفقهاء الذين رأوا أن التحصين وتأمين وسائل الدفاع عن المدينة هي من البناء الواجب شرعاً باعتباره من مقاصد الاسلام . كما ندع آراء المنظرين من أمثال ابن خلدون وابن الأزرقي الذين يفلسفون الدفاع ويبررونه ويحللون دوافعه ومقاصده لننظر الى الواقع التاريخي نفسه ونجد أننا لا نكاد نعثر على مدينة دون دفاع بين ألف وستمائة مدينة عرفت الاسلام ، مدينة لم يوفر لها بنائها وسكانها أو حكامها اللاحقون وسيلة من وسائل الحماية والتحصين تمنع عنها العدوان . وإذا كانت وسائل إقامة الطوق الأمني حول المدينة عديدة فإن استعراض المدن الإسلامية يكشف أنها اتبعت مختلف الوسائل والطرق لضمان الأمن من بناء أسوار باللبن والأجر

والحجارة الى الطوق البشري الى الفصيل والخذق والأبواب المنيعة والحصون ، الى المواقع الطبيعية الحصينة الصعبة والى الانفاق والطرق المنطاة (الأزج) والمزاغل في الأسوار وغيرها - وقليلة جداً تلك المدن التي أعلن أصحابها أن سيوفهم هي أسوارها كالجزيرة في أول عهدنا ، وفاس بعد دخول الموحدين اليها . كما لا نستطيع أن نعد إلا حوالي عشر مدن لم يكن لها أسوار لسبب أو لآخر وأحياناً لفترات محددة .

— سوسنده (وتدعى أيضاً زامين) في ما وراء النهر « وليس على هذا البلد الحادث سور »^(١) .

— الباميان هي أكبر مدن منطقتها في سجستان وهي على جبل وليس لها سور^(٢) .

— خاش « مدينة في سجستان ليس عليها سور ولا قلعة »^(٣) .

— كاث قصبة خوارزم و « كانت تعرف بكاث درخاش وكان فيها قهندز مع المدينة فخر بها النهر وأق عليها الجامع الذي كان على ظهر القهندز فلم يبق منها رسم ولا تطل »^(٤) .

— خوست « بناؤها من طين وليس لها حصن ولا قلعة »^(٥) .

— شيراز « وهي نحو من فرسخ في السعة وليس عليها سور »^(٦) حتى

(١) ابن حوقل ، ص ٤١٤ .

(٢) الاضطخري ، ص ٢٨٠ .

(٣) ابن حوقل ، ص ٣٥٢ .

(٤) ابن حوقل ، ص ٣٩٥ .

(٥) الاضطخري ، ص ٢٧٤ .

(٦) الاضطخري ، ص ١٢٥ .

القرن الرابع ثم بني عليها سور ضخمة فيها بعد .

– الفيوم كانت في القديم عليها سور يشتمل على جميع أعمالها ويحيط بسائر مدنها وبقاعها . ويقول ابن حوقل : ورأيت أكثره من جانب البرية بنية أبراجه وقد غلب على أكثرها الرمل فطم منها ومنه وسقطت الحاجة اليه بالاسلام . . . وهذا السور يعرف بحائط العجوز ويمتد حتى النوبة^(١) .

– شنترين مدينة على جبل عال كثير العلو ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها^(٢) .

– سبته كان عليها حصن هدمته قبائل مصمودة المجاورون^(٣) .

– شلطيث شبه جزيرة في الأندلس ولها مرسى لا سور لها ولا حظيرة وإنما هي بنيان متصل بعضه ببعض^(٤) .

– اجداية مدينة في حيز برقة وكان لها سلف سور ولم يبق منه الآن (سنة ٧٠٠) إلا قصران (قلعتان) في الصحراء^(٥) .

– دمشق التي هدم سورها القديم في مطلع العهد العباسي سنة ١٣٢ فلم يعد لها ولا كانت لها قلعة إلا حين بدأ أتسز التركماني ثم تنش من بعده ببناء القلعة أواخر القرن الخامس ثم رمم السور وبني في عهد نور الدين محمود بن نكي في القرن السادس .

(١) ابن حوقل ، ص ١٤٩ .

(٢) الحميري ، ص ٣٤٦ .

(٣) الحميري ، ص ٣٠٣ .

(٤) الحميري ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٥) الحميري ، ص ١١ - ١٢ .

ونجد أن عدم وجود التحصين إما أن يكون بسبب الأمن (كالفيوم وشيراز) أو بسبب التخريب الطبيعي أو البشري (سبته وكاث) ، أو بسبب الحصانة الطبيعية نفسها (كالبايان وشترين) . لكن هذه المدن لا تشكل شيئاً بالنسبة لألف وستمئة مدينة في الاسلام كانت محصنة أو تتطلب التحصين أو الترميم الدائم لوسائل الدفاع عنها . على أن اصطناع وسائل الأمن والتحصين قد ترك أثره على المدن الاسلامية من نواح عديدة :

١ - أثر في اتساعها ومساحتها المحدودة فلم يكن بالإمكان الدفاع عن المدن الكبيرة جداً إلا بتجزئتها الى مدن صغيرة كما جرى في قرطبة التي كانت في ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضاً وبين المدينة والمدينة سور حاجز^(١) . وبإهمال أطرافها التي تتسع نتيجة للأمن المستمر كما في بغداد ، أو إهمال التحصين كلية كما في سامراء . وبحماية الجانب المهدد فقط في القاهرة التي كان نهر النيل من الغرب والجبل من الشرق يحميها ولم يكن منتظراً أي هجوم من الجنوب فاقصر على القسم الشمالي .

أما في حالات المدن الأخرى فقد كانت الأسوار تفرض سلفاً مدى حجم المدينة تبعاً للظروف التي تفرض بناءها ولقدرات البناء . وكثيراً ما كان الأمراء يخرجون من المدن الكبيرة ليتخذوا لهم مدناً أخرى ملكية بجانبها يسهل تحصينها والدفاع عنها أو ليسكنوا القلاع والحصون في داخل المدن أو خارجها ليكون دفاعهم أمتن وأصلب .

٢ - أثر في طريقة التحصين فبعض المدن اكتفى بسور من طين أو حجر وبعضها احتاج الى سورين أو ثلاثة وخندق وكلما ازداد الخطر المتوقع ازدادت الأسوار سمكاً وارتفاعاً وأسراً قتالية وازدادت الوسائل الدفاعية المساعدة

(١) الحميري - الروض المعطار ص ٤٥٦ .

كثرة في العدد متانة في التحصين كالمناظر والأربطة والقلاع والمحارس على الطرقات وفي الجبال .

٣ - أثر في اختيار مواقعها . فبعض المدن وبخاصة في الموانئ اختير لها الموقع الصعب والقريب من الصريخ للنجدة وبعضها اختير له حاجز طبيعي يمنعه من نهر أو بحر أو جبل .

٤ - أثر في شوارعها وأبنيتها الداخلية ضيقاً واتساعاً وفي أبوابها كثرة وقلة ومقاييس ، كما أثر في ضيق الساحات فيها وأحياناً في عدم وجودها أصلاً .

٥ - أثر في تفاوت عمليات التحصين بين مدينة وأخرى ، وفي العناية المبذولة في صيانتها فقد كانت الثغور (في تركستان والروم والأندلس) والموانئ على المتوسط أكثر تحصيناً ومتانة من تحصين المدن الداخلية ومتانتها . فقد كانت العمليات الحربية في الثغور أكثر عدداً وأقسى ضراوة وكانت عمليات القرصنة والمباغنة أشد وأعتى في الفرضات والمرافئ المتوسطة .

٦ - أثر في سكنى الأمراء للمدينة نفسها وما بناء المدن الملكية إلا محاولة لجعل الدفاع أنجع وأقوى عن المدينة .

ونعود الى الواقع التاريخي في المدن التي بناها المسلمون لنجد أن البصرة في أول أمرها لم تتخذ سوراً ولو أنها كانت معسكراً لأن نية الاستقرار فيها جاءت متأخرة قليلاً عن تحديد مكان جامعها بالقصب واللبن وعن تحديد مكان إقامة أميرها بعد عودته من الحرب^(١) (دار الامارة) .

ولم تكن البصرة مهددة بخطر خارجي بعد الفتوح ان لم تكن هي مركز

(١) صالح أحمد العلي - التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٣٧ .

التهديد ، ومع ذلك صارت فيها بعد مدينة محصنة ذات سور ذكره عدد من الجغرافيين ولكنه تأخر في البناء حتى مطلع العصر العباسي . فقد بني سنة ٧٧١ / ١٥٥ في عهد المنصور وأدير من حوله خندق . وكان ذلك بسبب تكاثر غارات (الميد) البحرين عليها ما بين سنتي ١٤١ - ١٥٣ وهم قوم من القراصنة من أطراف كرمان على المحيط الهندي اجترأوا على الصعود في الخليج العربي ثم أتوا دجلة البصرة فكانوا ينهبون ويخربون فيه ويقطعون طريق تجارة البصرة الى الهند والصين^(١) بل وصلت جرأتهم الى مهاجمة جدة على البحر الأحمر^(٢) مما دعا المنصور الى انشاء أسطول يعبر الخليج لضربهم في الوقت الذي أقام فيه للبصرة سوراً يحميها وخندقاً على حساب أهلها أنفسهم . ويتضح من الآثار أن البصرة كانت في ذلك الوقت شبه مستديرة وأقرب الى التناول لكن هذا السور تخرب مع الفتن التي أصابت البصرة في القرن الثالث للهجرة (ثورة الزط ثم ثورة العلويين ثم ثورة الزنج وتخريب المدينة سنة ٢٥٥ ثم حركات القرامطة) وما زالت تخرب حتى أضحت المسافة بين القسم العامر الباقي منها وبين سورها مسافة بعيدة ومعظمها خراب وجامعها وسطه كأنه سفينة في وسط بحر لحي^(٣) .

والأمر نفسه تكرر بالنسبة للكوفة التي انتظرت كالبصرة حتى سنة ١٥٥ لتزى حولها سوراً وخندقاً . ولم يكن المنصور يريد أن يسوي بين المصريين فلم يكن هناك ما يهدد الكوفة ، ولكنه كان يريد عقوبة الكوفة لتشييعها وقرب خطرها من بغداد وضرورة ضبط أمرها ومراقبة الداخل والخارج منها . ولم ينفق على العملية التحصينية فلساً واحداً ولكنه جمع التكاليف بطريقة طريفة

(١) أنظر خليفة بن خياط - التاريخ (طبعة العمري بغداد) ج ٢ ص ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٤٢ (٣٧٠ / ٣) .

(٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٢١٣ .

من أهلها اذا أمر بقسمة خمسة دراهم على أهلها يريد أن يعلم عددهم فلما استوفى الاحصاء فرض عليهم أربعين درهماً فقال شاعرهم :

بالقومي مالقينا من أمير المؤمنين
قسم خمسة فيناضوجبانا الأربعينا !^(١)

وأمر بانفاق المبلغ الذي اجتمع له على بناء سور الكوفة وحفر خندقها اللذين كانا يحددان حدود المدينة ويوقفان اتساعها العضوي السابق ويميلان بها الى الاستدارة .

وقد لعب خندق الكوفة دوراً أهم من سورها فقد كان قناة محصنة وعليه الجسور الى دروب المدينة وجعل منها بلداً لطيف به الماء بدل الصحراء . وقام للكوفة نتيجة لذلك أرباض كربض عيسى بن موسى وربض الكناسة . وأضحت المدينة بذلك كله مدينة اسلامية تقليدية .

وبلغت النظر تأخر المصريين في اقامة التحصينات الحامية للسكان فيها الى الوقت الذي لم يعودوا فيه مصدرين للمقاتلة . ولكن أصبحا مصريين تابعين في حين بدأت بغداد في اجتذاب كتلة السكان المدنية في العراق وغيرها وفي امتصاص كل وهجها الثقافي ودورها السياسي ومشىء كثير من عملها الاقتصادي . فهل كان السور في البلدين استجابة لعملية التمدين الكاملة الشاملة فيها ؟ الواقع أننا نستبعد ذلك ففي حين كان سور البصرة خوفاً عليها ولحمايتها ، كان سور الكوفة خوفاً منها وللسيطرة على قدراتها المعهودة .

أما عملية التمدين الاسلامية الكاملة والشاملة فقد سبق بها الحجاج المنصور بحوالي ستين سنة . ومدينة أواسط أول مدينة منظمة اسلامية تماماً سبقت بغداد . فقد بناها الحجاج أحسن بناء على غربي دجلة وجعل سورها

(١) الطبري ، ج ٨ ص ٤٦ .

على شكل نصف دائرة يطيف بها من الشمال والغرب والجنوب الغربي وتحميها ومن شرقيها دجلة . ثم امتدت في الجانب الشرقي منه فصار النهر في وسطها وجعل لها الحجاج مع السور خندقين ويقال أنه أنفق على قصره والسور والخندقين ٤٣ مليون درهم^(١) . وكان للسور أربعة أبواب محكمة ضخمة نقل المنصور بعضها الى مدينة بغداد .

وكانت هذه الأبواب تؤدي الى أربعة شوارع رئيسة تنتهي الى المسجد والقصر في قلب المدينة^(٢) . وقد ظهرت آثار هذا السور في واسط في الحفريات الأثرية الأخيرة في العراق .

وسبب تحصين واسط أنها إنما بنيت في الأصل مدينة ملكية بمعنى أنها بنيت بغرض الأمن والسلامة للحجاج يعتصم بها عند الخطر . وظهرت قوة المدينة وتحصيناتها في مطلع الثورة العباسية فقد حاصرها أبو جعفر قرابة السنة ولم يتمكن من ابن هبيرة المتحصن بها إلا حين أبلغه بمقتل مروان بن محمد .

والمدينة الاسلامية النموذجية بعد واسط - والتي كمل فيها التصور الديني الاسلامي - هي بغداد . وحين بناها أبو جعفر كان يضع في ذهنه مجموعة من المخاطر على دولته الفتية فبالغ في تحصينها كل المبالغة لا ضد أعداء خارجيين ولكن ضد الثورات المحلية التي قد تنشب حوله بعد أن حاول الرواندية وهم أنصاره قتله في هاشمية الكوفة .

وعمليات تحصين بغداد مجموعة مركبة من العقبات رتب الواحدة تلو الأخرى^(٣) .

(١) انظر المبرد - الكامل . ج ٢ ص ٦٢٥ وياقوت - معجم البلدان ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) بحشل - تاريخ واسط ص ٣٨ .

(٣) اخذنا أوصاف هذه التحصينات عن اليعقوبي - البلدان ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .

أ - فقد اختار للمدينة الشكل المستدير = وهو عدا تخفيفه للنفقات بمقدار ١١٪ في الأسوار يسمح بكمال المراقبة للأفق من كل اتجاه .
ب - أقام نواة المدينة رحبة واسعة جداً لا يسمح لأحد بدخولها وهو راكب .

ج - وأقام لهذه الرحبة سوراً يفصلها عن البيوت والمنازل .

د - جعل الشوارع التي تدخل الى الرحبة مسقوفة (أزجات) .

هـ - طوق نفسه بطوق بشري موال له من قواده وأهله وحرسه ومنحهم الاقطاعات ليسكنوا ضمن المدينة حوله وجعل فيهم مقر الدواوين والسلاح والمال والمطابخ والخراج والخاتم . . . وغيرها .

و - مجموعة أبنية بسور وهي مكونة من خمس منشآت متتالية :

- فصل البناء في المدينة عن السور بشارع يطوقها .

- بنى السور الأول والأعظم وجعله باللبن العظام (ذراع في ذراع) ووزنها مائة رطل لانعدام الحجر قرب بغداد ، وجعل عرض أساس السور تسعين ذراعاً بالسوداء ثم ينحط حتى يصير في أعلاه على خمس وعشرين ذراعاً فيمشي عليه الجند وهو طريقة في العمارة معروفة منذ عهد الاهرامات لثبات البناء على الأرض . وارتفاعه ستون ذراعاً مع الشرافات .

- كان لهذا السور مائة وثلاثة عشر برجاً تسند كيانه ويشرف من عل على خارج المدينة من الآفاق .

- ترك حول السور من الخارج مسافة مائة ذراع .

- بنى بعد ذلك الفصيل وهو أبرجة عظام وعليه الشرافات المدورة .

– خارج الفصيل كما يدور مسناة (أي سد) بالأجر والصاروج متقنة محكمة عالية .

– ثم يأتي الخندق بعد المسناة قد أجرى فيه الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا . وخلف الخندق الشوارع العظماء .

– من ثم تأتي مجموعة أبواب المدينة وهي أربعة في اتجاهات المناطق والأمصار الكبرى التي تهمة : خراسان الشام . الكوفة البصرة وبين كل باب منها والآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق . وجعل لهذه الأبواب في الدخول إليها أربعة دهاليز عظاماً أزاجاً كلها طول كل دهليز ثمانون ذراعاً معقوداً بالأجر والجص . فإذا دخل الداخل من الدهليز الذي على الفصيل وافي رحبة مفروشة بالصخر ثم دهليزاً على السور الأعظم عليه باباً حديد جليلان عظيمان (أخذ بعضها من واسط) لا يغلّق كل باب ولا يفتحه إلا جماعة رجال يدخل - الفارم بالعلم والرامح بالرمح الطويل - منها من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح . والأبواب الأربعة كلها على ذلك . فإذا دخل المرء من دهليز السور الأعظم سار في رحبة الى طاقات معقودة بالأجر والجص فيها كداء رومية يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان . ولكل باب من الأبواب الأربعة طاقات وعلى كل باب من الأبواب التي على السور الأعظم قبة مفقودة عظيمة مذهبة وحولها مجالس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما يعمل به . ويصعد الى هذه القباب على عقود مبنية بالجص والأجر وبعضها باللبن العظام قد عملت أزاجاً بعضها أعلى من بعض . فداخل الأزاج المرابطة والحرس وظهورها عليها المصعد الى القباب التي على الأبواب على الدواب . وعلى المصعد أبواب تغلق فإذا خرج من الطاقات خرج الى رحبة ثم الى دهليز عظيم أزج معقود بالأجر والجص عليه باباً حديد يخرج من الباب الى الرحبة العظمى . وكذلك الطاقات الأربع على مثال واحد . وفي وسط الرحبة القصر والى جانبه الجامع .

ومجموع الغرف التي تقوم فوق كل باب مائة غرفة للجند تتسع كل منها لعشر جنود عدا ثماني غرف للقادة . فمجموعة الحرس الدائم للمدينة يبلغ على الأقل ألفاً وسبعمائة جندي عدا القادة .

وقد جعلت الأبواب الأربعة الخارجية المصفحة بالحديد مزودة عن الأبواب الداخلية فلا يدخل الداخل مباشرة الى المدينة ولكن عليه أن ينعطف يسرة في ممر يمكن حمايته بسهولة قبل أن يصل الى الباب الداخلي .

وأقيم حول المدينة أخيراً خندق عريض بعرض ١٢ ذراعاً ويمثلها في العمق (٦ م) كان يملأ بالماء من نهر كرخايا عند الخطر فلا يعبر الى المدينة إلا على قنطرة تقابل أبوابها .

ولم يكتف المنصور بهذا كله ولكنه :

— أقام نفراً من أولاد عمه حول أبواب المدينة وأقطعهم الأرضين والبساتين ليكونوا حاجزاً بشرياً دون المدينة .

— حين وجد أن الفصيل استخدم للتجارة والباعة استراب فيه فأخرجه الى الكرخ . ويزعمون أن ذلك كان بنصيحة من سفير الروم^(١) . وجعل لكل تجارة سوقاً وجعل سوق اللحامين أبعد الأسواق لأن بأيديهم السكاكين العظام .

— استراب بجند ابنه المهدي الى حد ما فأنزلهم في الرصافة الى أن تأتي الحاجة .

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٣ . والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ٨٠/١ وياقوت البلدان . ٣٥٤/٤ .

هذه المبالغة في الحذر لم نعهد لها لخليفة من قبل ولا من بعد . وهي لا تدل على مدى الخوف من المفاجآت فقط ولكن على التركيب المعقد لتحصين المدينة الاسلامية النموذجية أيضاً فان المنصور لم يدع حيطه إلا اتخذها .

ولم تحظ الفسطاط التي انشئت مع الأمصار الاولى ولا الرملة ولا الموصل قبل ذلك بمثل هذه التدابير فلم يكن ثمة خطر مداهم عليها أو على أصحابها . فالرملة مبنية ضمن المنطقة الأموية بعيدة بدورها عن البحر ، والموصل بينها وبين الحدود أبعاد من الجبال في كل اتجاه ، وسامراء التي بنيت بعد بغداد لم تعرف قيود الأسوار لأنها تعبير عن اطمئنان الدولة الكامل لقوتها وأمنها الخارجي والداخلي . فاذا انتقلنا الى مصر وجدنا الفسطاط بدورها دون أسوار أو بسور ترابي بسيط لأنها آمنة من كل غزو وبحر الروم عنها بعيد ومثلها جاءت العسكر ثم القطائع ثم جاءت القاهرة .

ولقد اتخذ للقاهرة سور لأنها كانت تمثل السيطرة الفاطمية الشيعية على بلاد كلها سنية وتدين بالولاء منذ ثلاثة قرون ونصف القرن لخلفاء دمشق وبغداد فكان من باب الحيلة والحذر إن لم يكن من باب الضرورة أن يكون للقاهرة سور . ويجب ألا ننسى أنها لم تكن مدينة سكنى للناس ولكنها حصن ومدينة ملكية لم يسكنها الناس إلا في العهد الأيوبي (منذ أيام الكامل) . ولهذا أدار جوهر الصقلي من حولها سوراً مستطيل الشكل باللبن حول المنطقة التي نزل بها شمالي الفسطاط وأنشأ من داخل السور الجامع والقصر وأعدّها معقلاً يتحصن به وتنزله عساكره . واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة الى القاهرة وما وراءها من المدينة^(١) .

وقد جدد هذا السور بين سنتي ٤٨٠ - ٤٨٥ على يد الوزير بدر الجمالي

(١) القريري - خطط ج ص ٣٦١ .

بعد أن تشعث فجعل مزدوجاً بخطين للدفاع بدل خط واحد وذلك تحسباً من هجوم السلاجقة على مصر في تلك الفترة من أواخر عهد السلطان ملكشاه وجعلت له مزاغل لرمي السهام ثم جدد السور مرة أخرى ولكن بالحجر الغرانيتي على يد القائد قره قوش نائب صلاح الدين في مصر بسبب تهديد الصليبيين للبلاد . كما بنيت فوق جبل المقطم المشرف على المدينة من شرفيها قلعة عرفت بالقلعة أو بقلعة صلاح الدين واستخدمت فيها المداخل المنكسرة والمزاغل كما جعلت الابراج مستقلة في الدفاع بعضها عن بعض ولا يصل اليها المحاربون إلا على سلام متحركة تصل أبوابها في الطابق الثاني منها . أما الوصول الى الطابقين السفلي والعلوي فيتم من سلام داخلية في جدران القلعة .

ونصل الى القيروان لنجد أنها منذ بنيت قامت بالحجارة التي كان جانب كبير منها في المنطقة نفسها من الاطلال وقد اعتبرت مدينة واسعة كما يظهر ذلك من سعتها (٧,٥ كم^٢) ويسكنها العرب الفاتحون مع عائلاتهم ولا يقدر عدد هؤلاء بأقل من خمسين ألفاً^(١) ولم يقم حولها سور شأنها في ذلك شأن البصرة والكوفة والفسطاط مدن العرب الاولى فقد اعتبرت مثلها مدناً مفتوحة وكانت قوتها في رجالها المجاهدين لا في أسوارها . وكانت مراكز تجمع قبلي لهم للجهاد لا مدناً للتجارة وإن لحقت بهم التجارة ولا للسكنى وإن اتخذوها كذلك . ثم أجبرتها الظروف على اقامة السور في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٤٤ قبل قيام بغداد وقبل قيام سوري الكوفة والبصرة . ولعل السبب في ذلك أن المنطقة كانت تغلي بالخوارج من صفرية وأباضية . وقامت لهم دول في طنجة وتلمسان وسجلماسة (صفرية) وأخرى في نفوسة أباضية . وجاء محمد بن الأشعث الخزاعي بجيش من المشرق فسحق القوات الخارجية ورتب الامور . كان يقتل

(١) الموسوعة الاسلامية (ط . جديدة) مادة القيروان (تحرير محمد الطالب) وقد اعتمدنا عليه .

حتى من كان يحمل اسماً أموياً . ووجد من الضرورة أن يطوق القيروان بسور يحميها مادام أعداؤها داخلين ففعل وبنى السور بعرض عشرة أذرع^(١)، وقد نظم أسواق المدينة بعده يزيد بن حاتم المهلبي (١٥٥ - ١٧١ / ٧٧٢ - ٧٨٨) فجعل لكل صناعة سوقها الخاص . واجتذب اليه الشعراء ورجال العلم . وتهيأت القيروان لتكون أحد عواصم الاسلام الأساسية في المغرب حين بدأ حكم الأغالبة فيها وهو شكلي الارتباط مع بغداد .

وما عثم الامراء الأغالبة أن كرهوا التكاثر السكاني في القيروان فخرجوا منها الى مدينة ملكية محصنة بنوها باسم العباسية (سنة ١٨٤ / ٨٠٠) وبعد ثمانين سنة من ذلك عادوا فبنوا رقادة (سنة ٢٦٣ / ٨٧٧) . أما القيروان فتعرضت منذ سنة ١٩٤ / ٨١٠ لحركات الجند . فشعث ابراهيم الأول الأغلبي أسوارها وحرمها من الأبواب عقوبة لها لأنها وقفت بجانب الجند الثائرين . وحين فتحت القيروان أبوابها سنة ٢٠٩ / ٨٢٤ للمنصور الطنبوذي عاقبها زيادة الله الأغلبي الأول (٢٠١ - ٢٢٣ / ٨١٧ - ٨٣٨) بأن هدم الأسوار وسواها بالأرض . . يذكر البكري : أن الشارع الأعظم (السماط) الذي يمر بالجانب الغربي من الجامع الكبير يبلغ من باب عيد الربيع في الجنوب الى باب تونس في الشمال أقل قليلا من ٤ كم . فاذا كان مقياسها من الطرف المقابل مساويا لذلك فتكون مساحتها حوالي ١٥ - ١٦ كم^٢ وسكانها يبلغون في هذه الحالة عدة مئات من الألوف . والاشارات التاريخية الأخرى تؤكد ذلك فقد كان بها حسب ما يقول البكري ٤٨ حماماً . وذبحوا بمناسبة عيد عاشوراء ٩٥٠ ثوراً (طنان من اللحم) واليعقوبي يذكر أن سكانها خليط من ربيعة ومضر وقريش وقحطان وقبائل أخرى وفيهم يهود ومسيحيون .

(١) البكري ، مسالك ، ص ٢٤ .

ونصل الى أقصى المغرب لنجد أن مدينة فاس كانت في أول عهدها بلدين وقد أقام ادريس (الثاني) الأسوار من حول البلد الغربي المسمى بالعالية من كل جانب^(١). ثم جاء الربضيون الخارجون من الأندلس الى المغرب فأنزلهم ادريس مدينة فاس الشرقية وكانت أشبه بالقرى فحولوها الى مدينة وأداروا حولها السور وجعلوا فيه ستة أبواب كما كان لسور القرويين مثلها ومن هذه الأبواب أربعة متقابلة على وادي النهر .

وقد دمر هذان السوران عند هجوم جوهر الصقلي على فاس سنة ٣٤٩^(٢) ثم أعيدا على ضعف . وتداولت فاس الأيدي حتى جاء أبو العطف دوناس (٤٤٠ - ٤٥٢) فأحتفل بعمارة المدينة وأدار حولها أسوارها بها وبأرباضها وبني المساجد والحمامات والفنادق وجاء ابنه أبو الفتوح من بعده ونزل بعد حرة الأندلسيين ونازعه أخوه عجيسة فاستولى على عدوة القرويين . وحصن كل منها مكانه وبني قصبه لسكناه واستمر في القتال حتى انتصر الفتوح . على أن يوسف بن تاشفين هو الذي أمر بهدم السورين في المدينتين وجعلها مدينة واحدة وزاد في تحصينها وأمر ببناء المساجد والحمامات والأسواق والأرجاء على الرغم من أن عاصمته بقيت في مراكش . وفي أيام علي بن يوسف شيد سور القوارجة الواقعة بين بابي الجيسة واصيلتين على يد قاضيه عبدالحق بن معيشة . كما أقام يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام البرج الكبير القائم هناك . والقوارجة سور يتفرع من السور الأصلي للمدينة وينتهي الى برج خارجي يقام في أضعف مواقعها الدفاعية .

ولم يمض على ذلك عشرون سنة حتى حاصر عبدالمؤمن بن علي الموحد فاس سنة ٥٤٠ ولما طال عليه الحصار سد الماء الجاري اليها بسد حتى احتبس

(١) ليفي بروفنسال الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٤٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٥٤ .

ثم فتحه فجأة حين صار بحيرة كبيرة ، فتدفق الماء كالسيل العرم وتهدم قسم من السور وما يزيد على ألفي بيت . ودخل الموحدون فاس بعد ذلك وأمر بفتح ثغرات واسعة بسورها وقال : لا نحتاج الى سور إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا « وظلت فاس دون أسوار حتى شرع أبو يوسف المنصور في بنائها وأكملها ابنه أبو عبدالله محمد الناصر حين زار فاس سنة ٥٩٥ فأقام فيها ثلاث سنوات أتم خلالها بناء السور مع قصبتها الواقعة على الوادي . .

أما مراکش فكانت بداياتها متواضعة منذ تأسست سنة ٤٥٤ ، ويذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف بن تاشفين حين أمر ببناء مراکش أقام قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحه في موضع يعرف بسور الخور شمالي جامع الكتبيين وقد كشفت الحفريات الأثرية الحديثة عن كشف أسس هذه القصبة وعرف انها كانت مقامة من الحجر غير المنحوت قد وضع في صفوف منتظمة . أما الحجر المصقول فاستعمل في أركان القصبة أما أبوابها فكانت ممرات مباشرة لم تصطنع لها المرافق الدفاعية المعروفة .

وجاء ابنه علي بن يوسف فبنى لنفسه في المدينة قصرأ (قلعة) تعرف بقصر الحجر (دار الامارة) قلد في تخطيطه وزخرفته الأساليب الأندلسية وكشفت الأعمال الأثرية عن جهوه وطريقة بنائه وزخرفته وشيد على مراکش سورأ على النظام الأندلسي أيضاً شيده في ثمانية أشهر سنة ٥٢٦ (أو في سنة ٥١٤ على حد قول صاحب الاستبصار) وكان لهذا السور عدة أبواب كشفت الحفريات الأثرية عن اثنين منها باب المخزن وباب العروس وكان يتم سلسلة الأبواب : باب أغمات ودكالة والديباغين وبنيتان والصالحة والشريعة . لكن مراکش ظلت معسكراً للجنود وقاعدة حربية للمرابطين حتى حاصرها الموحدون بقيادة عبدالمؤمن بن علي سنة ٥٤١ ونزلوا بجبل اكليز غربي المدينة وهناك أقام عبدالمؤمن مدينة استند اليها وبنى مسجداً وصومعة عالية يشرف

منها على مراكش . . . واستمر الحصار والقتال طويلاً حتى أكل المراكشيون دوابهم ومات منهم زهاء ١٢٠ ألفاً من الجوع وامتنع الأمير اسحق داخل قصر الحجر الحصين فافتحمه الموحدون وأرادوا تطهير المدينة فهدموا جوامعها ومنها المسجد الجامع الذي بني في أدنى المدينة بدار الحجر وأقيم في المدينة الجامع المشهور بالكتيبة وبني مئذنة مشهورة له . وكان طول الجامع مائة وعشر أذرع . وعلى بابها ساعات مرتفعة في الهواة عشرين ذراعاً .

بعد أن استعرضنا تحصينات أهم المدن الإسلامية وقبل أن نستكمل بعض ملاحظاتها من الجدير بالملاحظة عدة أمور :

١ - أن المدينة الإسلامية الأولى لم تظهر فيها الحاجة إلى السور فلا البصرة ولا الكوفة ولا الفسطاط ولا القيروان طوقت نفسها بالأسوار في القرن الأول الهجري وحتى أواسط القرن الثاني . وحدهما : واسط وبغداد بنيت لهما أسوار لأسباب محلية لا خوفاً من الغزو الخارجي .

٢ - منذ أواسط القرن الثاني لم تحصن فقط البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ولكن أضحت الحصن جزءاً أساسياً من بناء المدينة الإسلامية أين كانت . ذلك أن الأهواء السياسية والدينية الداخلية توازت في الأخطار على الدول الإسلامية في المشرق والأندلس وشمال أفريقيا مع الأخطار الخارجية وتندر أن نجد مدينة دون تحصين مثل أمده في الأندلس .

٣ - هدمت كثير من أسوار المدن الإسلامية ومرافقها الدفاعية أكثر من مرة لكن أعيد بناؤها دوماً وعلى الغالب بشكل أقوى بحيث لا تكاد نجد منذ القرن الثالث مدينة إسلامية دون سور وأبواب وانضم هذا العنصر المدني إلى ثلوث الجامع والقصر والسوق في داخل المدينة ليكون الجميع مظهر المدينة الإسلامية العمراني وبعضاً من أبرز خصائصها .

٤ - ومن الملاحظ أنه كلما ازداد الخطر على المدينة ، حسب مواقعها الجغرافية كثرت وسائل الدفاع عدداً وزادت حصانة .

ولذلك كانت تحصينات ثغور الروم تحصينات حربية كاملة من أسوار مضاعفة وحصون وقلاع لأنها الثغور بينها كان السور يضعف حتى يصبح من طين أو حجارة صغيرة في المدن الداخلية .

٥ - ويجب أن نلاحظ أيضاً أن المدينة الإسلامية بأسوارها وأبوابها وأبراجها وخنادقها لم تكن الوسيلة الوحيدة للدفاع والأمن وكانت ثمة وحدات معمارية أخرى أكثر عدداً بكثير وأن تكن أصغر حجماً من المدينة وكان يقوم عليها النظام الدفاعي في الأرض الإسلامية كلها . وهي :

- الحصن وهو بناء متين يختار له موقع استراتيجي على طريق العدو وقد يتطور الى مدينة .

وقد يكون هو نفسه في قلب المدينة أو على جانب منها يصبح عند ذلك مدينة ملكية بنيت ليلجأ اليها الأمير وأهله . وقد يكون الحصن مجرد مسلحة ومخزناً للسلاح .

- القلعة وهي على الغالب موقع هام في المدينة يبني ليعتصم به الأمير عند الشدائد . وبعض القلاع صارت مدناً كما رأينا وبعضها بنيت في مناطق زراعية ثم اتسعت لتصبح مدناً فيما بعد وان احتفظت باسمها وقد تسمى القلاع في المغرب والأندلس قصوراً .

- الأبراج وغالباً ما تكون مناظر ومحارس في الحصون والقلاع وقد تفرد أحياناً . لكنها في كل الأحوال جزء أساسي من نظام الدفاع لكشف الأخطار القادمة قبل وصولها .

— المدن المحصنة طبيعياً . وهي تعتمد أساساً على موقعها الطبيعي وغالباً ما تكون هذه المدن مرافئ على البحر لكن أصحابها يضيفون اليها من عناصر التحصين والتأمين ما استطاعوا اليه سبيلاً .

— والحصون ، والمدن الحصون غالباً ما تلاقىها في الثغور (التركية ، والرومية ، وصقلية ، وتونس وسواحل المغرب) ولكنها قد توجد أيضاً بين بعض الدول الاسلامية وجاراتها تبعاً للأخطار وللظروف السياسية .

— الأربطة : وهي أبنية حصينة تنتثر على طول الحدود من تركستان والهند الى سواحل الشام الى افريقيا الى الأندلس يقيم فيها الجنود المكلفون بالدفاع أو المتطوعون للجهاد والمنقطعون (من المتصوفة) .

٦ — تختلف الحصون والقلاع الاسلامية اختلافاً كبيراً فيما بينها في المواصفات وفي العناصر المعمارية وطرق البناء تبعاً لعوامل عديدة . ولا بد انها تختلف فيما بين الهند وتركستان وبين المغرب والأندلس في المكان ، كما تختلف في الزمان ما بين القرن الأول والقرن السادس أو السابع أو الثامن للمهجرة . وتختلف كذلك قوة وضعفاً باختلاف الموقع المختار وتقريرات الخطر المحتمل ، وباختلاف غنى من بينونها واختلاف الهندسة المحلية وأسلحة العدو . وتختلف أخيراً مع تطور وسائل الهجوم والدفاع . هذه الاختلافات ذات أسباب عديدة ومتنوعة . ولذلك فان اطلاق كلمة حصن أو قلعة اسلامية لا يعطينا إلا الفكرة العامة عن نقاط التحصين في العالم الاسلامي لا عن الجهود الضخمة المتنوعة المديدة التي بذلت لاقامة التحصين .

٧ — لم يقتصر التحصين على المدن وحدها ولكنه شمل أحياناً الأرباض التي حولها أيضاً كما في بخارى ونيسابور في المشرق وقرطبة في المغرب ذلك أن حفظ الحزام الغذائي بالنسبة للمدن كان بمنزلة التحصين العسكري في الدفاع عن هذه المدن نفسها .

ضمن هذا الاطار من الملاحظات سنجمل الحديث عن بعض الحصون والقلاع والأربطة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي : بوصفها نماذج للتحصين والأمن ونلم في النهاية بما أصابها من الضربات المدمرة منذ القرن الخامس / م ١١ .

أولا : في المشرق :

— شيراز : « بنى سورها وأحكمه الملك ابن كاليجار سلطان الدولة بن بويه في سنة ٤٣٦ و فرغ منه سنة ٤٤٠ فكان طوله اثني عشر ألف ذراع وعرض حائطه ثمانية أذرع وجعل له أحد عشر باباً^(١) .

— جنديسابور : « حصينة منيعة في نشز من الأرض »^(٢) .

— أصبهان : مدينة (قديمة) مسحها محمد بن ابراهيم الاصبهاني المهندس فوجد احاطتها ألف قصبة تكون ستة آلاف ذراع وهو نصف فرسخ . ومساحة المدينة ألفاً جريب بالدهقان . وذلك أن قطرها ٣٢٠ قصبة وفي سورها مائة برج ولها أربعة أبواب وبعد أن يذكر ابن رسته مسافة ما بين الأبواب والأبراج الموجودة في تلك المسافة يقول : ومدينتها بناء يقال له الساروق على مثال الحصون مشهور الاسم في الآفاق لا يعرف بانيه^(٣) . واسم القصبة (جي) ولها مدينتها وأسواقها ومجمع أهلها . والحصن الداخلي كان في بيت نار .

— مراغة : حين تولى خازم بن خزيمه ولاية أرمينية وأذربيجان في خلافة

(١) باقوت - البلدان ج ٣ ص ٣٨١ .

(٢) الحميري ص ١٧٣ .

(٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، ص ١٦٢ و ص ١٥٢ - ١٥٣ .

الرشيد بنى سورها وحصنها ومصرها وأنزل بها جنداً كثيراً . . . ورم سورها في أيام المأمون عدة من عماله ثم هدم هذا السور يوسف بن أبي الساج انتقاماً^(١).

— قزوين . . . بنى الرشيد سورها والقبة فيها^(٢) وعليها حصن وداخلها مدينة عليها حصن .

— سمرقند مدينة قديمة . . . واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخاً ولها اثنا عشر باباً من حديد وعلى أعلى السور أزاج وأبرجة للحرب . . . وقد عمل في خندق المدينة مسناة وأجرى عليه نهر . . . وعلى القهندز باب حديد من داخله باب آخر حديد^(٣) وقد بنى الرشيد هذا السور .

— دارا بجرد . . . لها سور عامر جديد (بنى في عصر ابن حوقل أي في القرن الرابع) .

— كسور جور (مدينة مجاورة) وعليها خندق تتولد المياه فيه من نز ونجل عليه وعيون تتصل به وفي هذا الماء حشائش اذا دخلته دابة أو انسان التفت عليه فلا يتهياً له عبوره . ولا يكاد يسلم منه إلا بشدة وجهد ولها أربعة أبواب^(٤) .

— جور . . . مدينة عليها سور عامر من طين وخندق ولها أربعة أبواب^(٥) .

— أردبيل . . . وهذه مدينة تكون أعمالها ثلاثين فرسخاً . . . وكان

(١) ياقوت البلدان ج ٥ ص ٩٣ وانظر ابن حوقل ص ٢٨٩ .

(٢) ياقوت - البلدان ٣٤٣/٤ وانظر ابن حوقل ص ٣١٤ و ٣٢٣ .

(٣) ياقوت ٢٤٦/٣ - ٢٥٠ وانظر اليعقوبي ص ٢٩٢ .

(٤) ابن حوقل ص ٢٤٥ .

(٥) ابن حوقل ص ٢٤٥ .

عليها سور منيع فهدمه المرزبان بن محمد بن مسافر السلار عندما نقم على أهلها سنة ٣٣١ وذلك بأيدي تجارها وأربابها^(١).

— خوى مدينة وسطية غير أنها عامرة أهلة بالخيرات وعليها سور منيع من الأجر^(٢).

— وسلماس مثلها وعليها سور منيع من الحجارة^(٣).

— دوين مدينة كبيرة كان عليها سور من طين . . . ونهبها الكرج في زماننا هذا (حوالي سنة ٥٥٠) وأحرقوها وشنوا عليها الغارات . والآن فقد عمروا في وسط المدينة المسجد الجامع وسوروه بسور آخر وحوله خندق وفيه عين ماء وسط الجامع يلتجؤون اليه^(٤).

— باب الأبواب مدينة على بحر الخزر في وسطها مرسى للسفن وفي هذا المرسى الخارج من البحر اليها ، بناء قد بني كالسد بين جبلين مطلين على ماء المرسى . وفي هذا السد باب مغلاق على الماء قد استحکم من وصيده بعقد قد عقد على نفس الماء ، والماء من تحته وعلى قم المدخل (للمرسى) سلسلة مهدودة كالتى بصور وعليها قفل فلا يخرج مركب أو يدخل إلا بأمر صاحب القفل والسد من صخر ورصاص . . . وعلى المدينة سور منيع من حجارة وأجر وطين^(٥).

— همدان مدينة كبيرة ولها سور وربض وللمدينة أربعة أبواب حديد^(٦).

(١) ابن حوقل ص ٢٨٨ .

(٢) ابن حوقل ص ٢٨٩ .

(٣) ابن حوقل ص ٢٨٩ .

(٤) ابن حوقل ص ٢٩٠ (تعليق كاتب المخطوط) .

(٥) ابن حوقل ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٦) ابن حوقل ص ٣٠٨ .

– زرنج مدينة عليها حصن ولها ربض واسع الأبنية كثير السكان وفيه دور الامارة لآل الصفار . . . وعليه سور وحصن دائر بالربض وخنديق على الربض حصين ينبع ماؤه من مكانه . . . ولها خمسة أبواب^(١) .

– نيسابور : لها مدينة وقهندز وربض . ولقهندزها بابان وهو خارج عن المدينة^(٢) .

– هراة : كان عليها حصار وثيق ومن داخلها القهندز ولمدینتها الداخلة أربعة أبواب واحد منها حديد . وللحصن أربعة أبواب . وعليها سور . ثم ظفر بها الأشعث بن محمد صاحب خراسان فأمر أن يلحق سورها بالحضيض وأقام عليه من طمس آثاره فكأنه لم يرقط سور^(٣) .

– بوشنج لها حصار وعليه خندق وله ثلاثة أبواب^(٤) .

– بلخ مدينة عليها سوران للمدينة خلف سور المربض وكان لها في متقدم الأيام ثلاثة ، وسورها الأعظم يحيط بقري بلخ وضباعها . ولها اثنا عشر بابا^(٥) .

– سوران مدينة كبيرة عليها حصون سبعة بعضها خلف بعض والجامع في المدينة الداخلة^(٦) .

– ترمذ . . . مدينة عليها حصن ولها قهندز والجامع في الحصن

(١) ابن حوقل ص ٣٥٠ .

(٢) ابن حوقل ص ٣٦٢ والقهندز قلاع في وسط المدينة (انظر ياقوت - البلدان ج ٤ ص ٤١٩) .

(٣) ابن حوقل ص ٣٦٦ .

(٤) ابن حوقل ص ٣٦٨ .

(٥) اليعقوبي ص ٢٨٧ .

(٦) المقدسي البشاري ص ٢٧٤ .

والقهندز خارج منه له باب وللمدينة ثلاثة أبواب^(١).

- بخارى . . . يحيط بقصورها ومحلاتها وسككها والقرى المتصلة بها حتى اثني عشر فرسخاً سور يجمع ذلك كله ومن دون هذا السور على خاص القصبه سور . . . ومن دون هذا السور سور آخر نحو فرسخ في مثله ولها مدينة داخل هذا السور يحيط بها سور حصين ولها قهندز خارج المدينة متصل بها وهو في مقدار مدينة صغيرة وفيه قلعة . ومساكن ولاية خراسان في هذا القهندز . . . ولبخارى سبعة أبواب حديد ولقهندزها بابان . . . ولبخارى مدن في داخل حائطها وخارجها^(٢) . . . وليست هذه سوى نماذج من تحصين المدن وثمة غيرها كثير . وكلها عليها صور أو حصن أو خندق على أن هذا النوع من التحصين لا يكفي مع ذلك لحفظ البلاد ولا بد معه من سلسلة من القلاع والحصون والرباطات ولا سيما في الثغور فالنظام الدفاعي لا يكمل إلا بهذه السلسلة التي تشكل مجموعة من العقبات والأرصاد ضد الهجمات المحتملة . وقد حظيت ايران بمجموعة ضخمة من هذه الوحدات الدفاعية تحدث عنها الكتاب .

ففي اسبيجاب قرب بخارى كان لكل جماعة رباط فثمة رباط النخشبيين ورباط البخاريين ورباط السمرقنديين ورباط قراتلين . وثم قبره وسوق قد أوقفه غلته في كل شهر سبعة آلاف درهم يجري على الضعفاء الخبز والادام ويقال أن بها ألفاً وسبعمائة رباط وهي ثغر جليل ودار جهاد^(٣) . . . ويقول ابن حوقل عن كرمينية في بخارى : « وبها من الرباطات ما ليس ببلدان ما وراء النهر كهو أو ما يقاربه ويقال أن بها نحو ألف رباط ولها سور حصين »^(٤) . . .

(١) المقدسي البشاري ص ٢٩١ .

(٢) ابن حوقل ص ٣٩٨ - ٤٠٣ .

(٣) المقدسي ٢٧٣ .

(٤) ابن حوقل ٤٠٣ .

« وحول مزداخكان غربي جيحون اثنا عشر ألف حصن . . . »^(١) ثم ان « الغالب على أعمال جرجان الجبال والقلاع المنيعة وبها من القلاع وفي وقتنا هذا (أواخر القرن الرابع) على قول أهل البلد أكثر من ألف قلعة »^(٢) . وبصرف النظر عما يكون في هذه الأرقام من المبالغة فانها تدل على اهتمام المسلمين الكبير جداً بسد الثغور مع قبائل الترك من الغزر الخرخية وغيرها وهم الذين سينقلبون منذ مطلع القرن الخامس الى الاسلام لكنهم يدخلونه فاتحين ومخربين للمنطقة المشرقية ثم حكاماً عليها .

ويقول الاصطخري « وأما حصون فارس فان منها مدناً محصنة بحصن ومنها حصون داخل المدينة وحواليها أرباض ومنها قهندزات في مدن ومنها حصون في جبال منيعة مفردة عن البنيان قائمة بنفسها . وأما المدن المحصنة فانها : اصطخر بها حصن حوالبه ربض ، ومدينة كثة : بها حصن وربض ، والبيضاء بها حصن وربض . والسرمق بها حصن وربض وقهندز . وأقليد لها قهندز ، والأس لها قهندز . وشيراز لها قهندز يسمى قلعة شهوند . وجور عليها حصن . . . وكازرين لها قهندز وربض كبير . وكير لها قهندز . وبرز لها قهندز وسميران لها قهندز وربض^(٣) . ويضيف ياقوت « وكانت من أمهات قلاع فارس ثم خربها صاحب الموت زعيم الاسماعيلية رأيتها ورأيت بنيتها مالم أراه ولم أشاهده في غيرها من مواطن الملاك وذلك أن فيها ألفين وثمانمائة ونيفا وخمسين داراً كبيراً وصغاراً .

وكان بناها محمد بن مسافر فكان اذا نظر الى سلعة حسناء أو عمل محكم أنفذ الى صاحبه وضمن له أضعاف أجره فاذا دخل القلعة منعه أن يخرج

(١) المقدسي ٢٨٨ .

(٢) ابن حوقل ٣٢٥ .

(٣) الاصطخري ص ١١٦ .

منها»^(١) . ويتابع الاصطخري قائلاً بعد ذكر حصون فسا ودار برجرد ورونج وسابور والجنجان وجففة : « وأما القلاع فإنه يقال فيها بلغني أن لفارس زيادة على خمسة آلاف قلعة مفردة في الجبال وبقرّب المدن وفي المدن . ولا يتهيأ تقصيصها إلا من الدواوين وكذلك ما ذكره من المدن المحصنة فاني لا أقدر على تقصيصها وإنما أذكر جوامع ما أعرفه من ذلك . إلا أن في هذه القلاع ما لم يذكر لأحد من الجبابرة أنه قدر على فتحها عنوة منها : قلعة ابن عمارة وتسمى قلعة الديكان وتنسب الى الجلندي ولا يقدر أحد أن يرتقي اليها بنفسه إلا أن يرتقي به في شيء من البحر وهي مرصد لآل عمارة في البحر يعشرون منها المراكب . وقلعة الكاريان على جبل طين . . . وقلعة سعيد أباد براجرود من كورة اصطخر ، وهي على جبل شاهق يرتقي اليها فرسخا وكانت في الشرك تدعى بقلعة اسفندباد (ثم صار اسمها قلعة منصور ثم صار الحنظلي فلما أخذها الليث بن الصفار وخرّبها اضطر لاعادة بنائها وجعلها محبساً ونسبت اليه) وقلعة اشكنوان المرتقى اليها صعب وهي منيعة جداً ، وقلعة جوذر صاحب كيخسرو . . . وهي منيعة جداً ، وقلعة الحصن بناحية أرجان فيها مجوس وتدرس فيها أيامهم وهي منيعة جداً ، وقلعة أبرج وهي منيعة جداً . وأما القلاع المنيعة التي يقدر على الاحتيال لفتحها فهي أكثر من أن يبلغها حفطي»^(٢) « وأكثر من أن يبلغها تحصيل من غير الديوان » .

وأما عبادان فحصن صغير عامر على شط البحر . وهو رباط كان فيه المحاربون للصغرية والقطرية (الخوارج) وغيرهم من متلصصة البحر وبها على دوام الأيام مرابطون « ويضيف المعلق على ابن حوقل « اجتزت بعبادان سنة ٥٣٨ وهي جزيرة وسط دجلة والفرات وفيها رباط يسكنه جماعة الصوفية

(١) باقوت ج ٣ ص ٢٥٦ .

(٢) الاصطخري ١١٦ ، ١١٧ وانظر ابن حوقل ص ٢٤١ .

والزهراء وليس بينهم المرأة البتة»^(١).

ثانيا : في الجزيرة والشام

لم يأبه العهد الأموي كثيراً لتحصين شمالي الشام من الروم أو سواحله وسواحل مصر من بحرهم إلا على قدر وقلة . ولم يبدأ تحصين الحدود مع الروم تحصيناً جيداً مع تنظيم ادارتها إلا منذ مطلع العصر العباسي ذلك أن الأمويين الذين اتخذوا الشام مقراً ومنطلقاً كانت بحرهم بعد معركة ذات الصواري هي المسيطرة على شرقي المتوسط كما أنهم كانوا يعتبرون أي حدود وصلوها بالفتح منطلقات وبدايات لفتوح أخرى قصدها الدفاع فلما جاء العهد العباسي كان قد سبقه هزيمة العرب البحرية في شرقي المتوسط وأهل العباسيون البحر كله ليكونوا قوة برية بصورة أساسية من جهة كما كانوا يعتبرون أي حد وصلت جيوشهم إليه - بعكس الأمويين - نهايات لا بدايات من جهة أخرى . فكانوا يقيمون عليها الحصون ويحشدونها بالمقاتلة قصد الدفاع لا الهجوم .

وهكذا كانت جبهة الترك خاصة هي مغزى العباسيين البطيء وكانوا يحصونها باستمرار كما كانوا يضعون بأيديهم الحدود مع الروم في الجزيرة والشام بما يقيمونه فيها من الحصون الحاجزة . وإذا نظموا على جهة القفقاس وأرمينيا الشمالية ، منذ أوائل عهد المنصور هذا « الثغر الأعظم » المتصل بالخرز واتبعوا فيه سياسة التوطين العربية ووجدوها لا تكفي فقد بنى المنصور الحصون والمدن : « فأخرج سبعة آلاف من أهل السجون وبعث فجمع من كل بلد خلقاً عظيماً ووجه بهم ويفعلة وبنائين فبنى مدينة كمخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن أخرى مثل أرجيل الكبرى وأرجيل الصغرى اللتين

(١) ابن حوقل ص ٥٣ .

بناهما يزيد بن أسيد السلمي وأنزلها أهل فلسطين وجعل ذلك كله ردة دفاع وقلاعاً للتصدي . وأقام المنصور نظام الأجناد في تلك الحصون ورتب فيها المقاتلة المستقرين من أهل النجدة من العراق والجزيرة والشام وأجرى عليهم الأرزاق التي كان بنو أمية يجرونها من قبل . وأقام بالقلع سكاناً تقوى بهم المدن وتحمي . وتابع الى هذا وذاك ارسال مجموعات قبلية جديدة أسكنها في أرمينية واصطنع من الأرمن جماعات تعين العرب المسلمين وتكون عيوناً لهم وأعوانا . . .

وكان الوضع على جبهة الروم في الجزيرة وشمال الشام وسواحله أشد خطورة ولذلك توجه العباسيون اليهم منذ الأيام الأولى بكل اهتمامهم ما من خليفة من خلفائهم الأولين منذ أبي العباس الى الواثق إلا وأسهم في هذه الجبهة بشكل أو بآخر . وكل أمجاد العباسيين الحربية انما كانت في هذه الفترة وعلى يد هؤلاء .

وقد قسم العباسيون الجبهة مع الروم قسمين : قسم الثغور الجزيرية وقسم الثغور الشامية . وجعلوا المدن التي من ورائها ضمن الأراضي العباسية عواصم تردفها بالسلاح والرجال مما جعل الجبهة مع الروم منيعة مرتصة خوف تهديدها للعراق خاصة وللشام .

فمن ثغور الجزيرة^(١) :

— شمشاط : وهي مدينة حصن وقد تحربت مع الحروب في القرن

(١) نأخذ هذه المعلومات كلها من ياقوت والبلاذري وابن خردادبة والاصطخري وكتاب لي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة فرنسيس عواد) بالاضافة الى قدامة بن جعفر في كتاب الخراج وأبي الفداء في تقويم البلدان وابن شداد : الاعلاق الخطيرة (قسم الجزيرة) . ط . بغداد .

الثالث (وهي غير سميساط من ثغور الشام) .

— ملاطية : حصن ومسلحة ومدينة كبيرة تحف بها الجبال بناها المنصور وتولى بناءها عبدالوهاب بن ابراهيم الامام وأسكنها الناس سنة ١٤٠ . وقد هدمها الدمستق سنة ٣٢٢ وهدم سورها وقصورها .

— زبطرة : وكانت حصناً رومياً قديماً وقد خربها الروم غير مرة وأعاد المنصور ثم المأمون بناءها . ثم خربت أيام المعتصم فبناها وبنى حولها حصوناً لتدعيمها مثل طبارجي والحسينية وبنى المؤمن وابن رجوان . وقد احتلها باسيل الأول في القرن الرابع / العاشر الميلادي ثم ذهبت قيمتها الاستراتيجية فقال ابن شداد (أواخر القرن ٧) انها قرية ، وقال أبو الفداء (القرن ٨) انها خراب .

— الحدث : وصفها ياقوت بأنها قلعة حصينة من الثغور ويقال لها الحمراء بناها الحسن بن قحطبه سنة ١٦٢ بأمر المهدي ثم أعاد الرشيد بناءها وأسكنها الجند ثم خربها الروم في حربهم مع سيف الدولة سنة ٣٤٣ بعد أن « بناها فأعلى » خلال الحرب « والقنا تفرع القنا » !

— عربسوس : من ثغور الجزيرة تلقاء الحدث . خربها العرب عند الفتح ثم عمرت من جديد وبرزت أهميتها أيام الحروب الصليبية .

— حصن منصور : مدينة حصينة على حد قول ابن حوقل ولكن أصابها ما أصاب الثغور من جراء الحروب مع الروم . وكان عليها سور وخنديق ولها ثلاثة أبواب وفي وسطها حصن وقلعة عليها سوران . وتنسب الى منصور بن جعونة الذي تولى عمارتها ومرمتها وأقام بها أيام مروان بن محمد . ولقد خربت ثم أعاد الرشيد بناءها وأحكمه وشحنه بالرجال أيام أبيه المهدي . . . ولكنها كانت في القرن الثامن أيام أبي الفداء خراباً . . .

— مرعش : في الثغور لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد سنة ١٣٠ على يد الوليد بن هشام بعد أن خربها الروم . ثم أحدث الرشيد بعده سائر المدينة وهي موقع استراتيجي هام .

— سميساط : كانت قلعة حصينة تعرف بقلعة الطين ذكر ياقوت أنها مدينة ولها قلعة في شق منها .

ومن الثغور الشامية :

— عين زربي : ذكر ياقوت أن تجديد هذه المدينة الثغرية وعمارتها إنما كان على يد أبي سليمان التركي في حدود سنة ١٩٠ أيام الرشيد حين ولى له الثغور . والواقدي يذكر أن الرشيد أمر بعمارته سنة ١٨٠ وتحصينها وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل . ثم نقل إليها المعتصم ثوار الزط ثم خربها الروم فأنفق سيف الدولة عليها ثلاثة آلاف درهم حتى أعاد عمارتها لكن الروم عادوا فاستولوا عليها أيام سيف الدولة نفسه . وأبو الفداء يقول انها كانت تدعى (في القرن الثامن) باسم زاوza .

— سيس (أو سيسيه) حصن بين أنطاكية وطرسوس . جلا عنها أهلها سنة ٩٤ أو سنة ٩٥ أيام الوليد بن عبد الملك وخربت فعمرها يحيى بن علي المتوكل أيام المتوكل ثم أخرجها الروم فأعاد عمارتها أحمد بن المعتمد سنة ٢٦٠ على يد ابن بغا الصغير . .

— الهارونية : مدينة استحدثها هارون الرشيد وقلعتها حصينه خربتها الروم . وكان عليها سوران وأبواب حديد فأرسل سيف الدولة فأعاد عمارتها .

— الكتيبة السوداء حصن منيع قديم بناه الروم بحجارة سود وبها

حصن منيع قديم أخرج فيها أخرج منها ، ثم أمر الرشيد ببنائها واعادتها الى ما كانت عليه وتحصينها وندب اليها المقاتلة وزادهم في العطاء . . . ثم أغارت الروم عليها فأحرقتها وسميت بالمحترقة .

ـ المثقب : حصن على ساحل بناه هشام بن عبد الملك على يد حسان بن ماهويه الانطاكي ثم بناه الرشيد .

ـ المصيصة : مدينة من الثغور كانت ذات سور وخمسة أبواب فتحها عبدالله بن عبد الملك بن مروان وبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكاناً من الجند الأشداء وبنى مسجداً فوق تل الحصن . وكان في الحصن كنيسة جعلت هرباً ثم هدمتها الزلازل سنة ١٣٩ فبناها المنصور ثم جدد بناءها الرشيد وحصنها بخندق ثم أمر المأمون فجعل لها سوراً أتمه من بعده المعتصم .

ـ أذنة : بلد في الثغور بنيت في عهد المنصور سنة ١٤١ - ١٤٢ وعسكر بها الجند الخراساني ، ثم بنى الرشيد القصر الذي عند جسرهما في حياة أبيه سنة ١٦٥ . ثم أحكم أبو سليم فرج الخادم بناءها وحصنها فندب اليها الرجال من خراسان وذلك بأمر الأمين بن الرشيد سنة ١٩٠ ولها سور بثمانية أبواب وخندق وهي الباب الى قيليقية .

ـ طرسوس : هي ثغر الثغور كان عليها سوران من الحجر وخندق وفيها من الجند والمطوعة مائة ألف . وكان الرشيد قد أمر بعمارة ما تهدم منها سنة ١٩٠ على يد سليمان خادمه ، وعني بتحسينها وأبراجها وتنظيم دفاعها لكن الروم احتلوها سنة ٣٥٤ أيام سيف الدولة . ووراء هذه المجموعة من المدن المحصنة كان ثمة خط آخر من العواصم التي تعصم والثغور المحصنة نذكر منها خاصة :

ـ أنطاكية : مدينة مبنية على شكل نصف دائرة على سفح جبل يطيف

بها سور ضخيم عليه ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ولها فصيل وراء السور . وفي رأس الجبل قلعة . وللسور المحيط بها خمسة أبواب . ملكها الروم سنة ٣٥٣ ثم استردها السلاجقة سنة ٤٧٧ فترة قصيرة حتى احتلها الصليبيون سنة ٤٩١ الى أن استردها الملك الظاهر بيبرس .

– منبج : مدينة في شمال شرقي حلب كان عليها سور محكم مبني بالحجارة . والرشيد أول من أفرد العواصم وجعل مدينتها منبج وأسكنها عبدالملك بن صالح العباسي .

– ميفارقين : مدينة مشهورة ذات سور فيه أبراج وأبواب ذكر أنها كملت في ١٨ سنة فان صح فهو احدى العجائب لأن تلك العمارة لا يمكن استتمام مثلها إلا في أضعاف هذه السنين .

– آمد : هو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نثر دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال .

ويمكن أن نضيف الى هذه المدن رأس عين والرافقة وحصن كيفا ونصيبين وماردين . وكلها كانت حصينة وتشكل جزءاً من النظام الدفاعي الذي أقامه العباسيون الأوائل بينهم وبين الروم لئلا يتسربوا الى الشام والعراق .

وكان للشام نفسها أخطار تهددها من الساحل المواجه للقوات البحرية البيزنطية ولذلك عمل المسلمون على حمايتها أيضاً ومعظم مدن الساحل : من اللاذقية الى بانياس الى طرطوس الى طرابلس حتى صور وعكا وعسقلان كانت محصنة بأسوار ومن ورائها في الجبال ، وبخاصة في الشمال ، بعض القلاع . غير أن من الهام أن نبرز منها أمرين :

● أولاً : وجود الرباطات على ساحل فلسطين فقد كان لكفر سلام ، من قرية قيسارية رباطات على البحر يقع بها النفير وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار . وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم في الرسائل ويحمل اليهم أصناف الأطعمة . وقد ضجج بالنفير لما ترايت مراكبهم فان كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط وان كان نهراً دخنوا من كل رباط الى القصبه عدة مناير شاهقة ورأيت فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبه وضرب الطبل على المنارة ونودي الى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء . فرجل يشتري رجلاً آخر ، وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم . ورباطات هذه الكورة غزة وميماس وعسقلان ماحوز وأزدود (سدود) ماحوز وبيننا ويافا وأرسوف^(١)

ثانياً : تحصين مدن الساحل ومن نماذج ذلك صور وعكا .

فقد كان مروان بن محمد قد أمر باصلاح هذين المينائين الحربيين ، فأصلحا على يد كاتبة للنفقات : زياد بن أبي الورد الأشجعي وكان اسمه مكتوباً عليها^(٢) ، ثم كانت صور في العصر العباسي الأول مدينة السواحل على حد قول اليعقوبي وبها دار الصناعة ومنها مخرج مراكب السلطان لغزو الروم وهي حصينة جليلة . ويضيف ابن حوقل أنها من أحصن الحصون على شط البحر عامرة خصبة . ويذكر ياقوت أنها حصينة جدا لا سبيل اليها إلا بالخذلان ، وهي داخله في البحر مثل الكف على الساعد ويحيط بها البحر من

(١) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ١٧٧ .

(٢) الجيهشاري - الوزراء والكتتاب ص ٨٠ (تحقيق السقاء، الايباري، شلبي - الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣٨).

جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها . غير أن المقدسي يعطينا فكرة أوضح عن تخصيصها فيذكر استدارة الحائط على مينائها ووجود سلسلة عليه تفتح وتغلق للمراكب ولا يدخل إلا من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض .

وبضيف : أن ابن طيلون (طولون) حين زارها ورأى منعها أحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك فقيل : لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء وقيل أن كان عند أحد علم هذا فعنده . فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس فأنفذه « وبناء الرجل على ما يذكر المقدسي بشجر الجميز المربوط بعضه إلى بعض بالقاع ، ثم بنى عليه بالحجارة والأعمدة الغلاظ وتركها حولا كاملاً حتى إذا أخذت قرارها في الماء عاد فبنى عليها مرة بعد مرة حتى أتم الميناء » وجعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور « فتغلق وكان العدو قبل ذلك يغير على المراكب فيها واسمه مكتوب على الميناء^(١) .

ثالثاً : في افريقية والمغرب :

كما أن غزوات البربر بعضهم لبعض وتفرقهم الطائفي وما أتاهم من سيل بني هلال فيما بعد كل ذلك جعل مدنها تتحفظ لسلامتها وتحاول التحصن الأقوى ضد أي هجمة وهكذا نجد :

— برقة التي بنى سورها الرشيد^(٢) وساق المياه إليها .

(١) . اليعقوبي ص ٣٢٧ وابن حوقل ص ١٦٠ وياقوت ج ٣ ص ٤٢٣ .

(٢) المقدسي أحسن التقاسيم ص ١٦٣ .

- سرت مدينة ذات سور صالح كالمنيع من طين وطابلية^(١).
- أطرابلس مدينة حصينة لها أسوار: نقل بعض امرائها الأسواق إلى داخلها^(٢) ولها أربعة أبواب.
- قابس عليها سور يحيط به خندق كبير^(٣) وهو بناء قديم من الصخر الجليل وفيه حصن حصين ولها ثلاثة أبواب.
- سفاقس مدينة ناحية على نحر البحر ولها مرسى حيث الماء وعليه سور من حجارة وأبواب حديد منيعة ومناثرها لمراقبة البحر منها شارة بطرية ويرقى إليها في ١٦٠ درجة (٣٢ متراً) وفيها محارس مبنية للرباط بها^(٤).
- المهديّة مدينة في نحر البحر داخلية فيه ككف على زند. . . ولها سور من حجارة عال محكم وله بابان ليس لهما فيما رأيت من الأرض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرفقة وعلى مثالهما عملاً^(٥).
- سوسة لها سور حصين بناه زيادة الله الأغلب وهي إحدى فرض البحر^(٦) ودخلها محرس عظيم كالمدينة سور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط. وقد بناه زيادة الله الأغلب أيضاً يأوي إليه الصالحون والعباد من المرابطين وقيل داخلها محرس عظيم آخر يسمى محرس القصب وهو متصل بدار الصناعة. وسوسة في سند عال ترى دورها من البحر وراء سورها هيكل عظيم سماه البحريون الفنتاس وهو أول ما يرى من البحر ولهذا الهيكل درج يصعد إلى اعلاه^(٦).

(١) ابن حوقل ص ٧٠.

(٢) ابن حوقل ص ٧١ والمقدمي ص ٢٢٤.

(٣) ابن حوقل ص ٧٣ وياقوت ٢٢٣/٣.

(٤) ابن حوقل ٧٣ وياقوت ٢٣٠/٥.

(٥) ابن حوقل ٧٤.

(٦) مكرر ياقوت ٢٨٣/٣.

– مرسى الدجاج وهي مدينة عليها سور منيع على نحر البحر وفي شفيره وليس لها مرسى مأمون^(١).

– بجاية: قاعدة المغرب الأوسط مدينة عظيمة على ضفة البحر يضرب سورها وهي على حرف حجر ما بين جبال شاذغة قد احاطت بها. والبحر منها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجوف، وهي عين بلاد بني حماد وفيها دار صناعة لانشاء الأساطيل لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير. وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب ويسمى المضيق^(٢).

– الحجر: مدينة عظيمة على جبل شامخ لال ادريس وهي حصن منيع فيه أملاكهم. . وليس عليها طريق ولا إليها سبيل إلا من جهة واحدة ليسلكها الراجل بعد الراجل^(٣).

– مليله أزية وذات سور منيع^(٤) من الحجارة وداخلها قصبة مانعة فهي حصن دون حصن.

– مقره مدينة لها حصون كثيرة ومن بعدها حصون أخرى.

– القيروان وكانت بسور من اللبن والطين هدمه زيادة الله بن الأغلب ثم أقيم عليها سور من تراب^(*).

– الأقالم لها سور منع أهلها في فتنة موسى بن أبي العافية^(٥).

– كرت: مدينة في سطح جبل منيعة بغير سور^(٦).

– باغاية وهي مدينة كبيرة عليها سور أزلي من حجارة^(٧) والحميري

(١) ابن حوقل ٧٧.

(٢) الحميري ص ٨١.

(٣) ابن حوقل ص ٨١-٨٢.

(*) ابن حوقل ص ٧٩ والحميري ص ٥٤٥ واليعقوبي ص ٣٨١.

(٤) انظر اليعقوبي ص ٣٤٧.

(٥) ابن حوقل ص ٨١.

(٦) ابن حوقل نفسه.

(٧) ابن حوقل ص ٨٤ والحميري ص ٧٦.

يذكر أن عليها سورين ولها ريبض وعليه سور .
 - سطيف مدينة أو حصن وكان عليها سور صخر عظيم قديم خربته
 القوي القاطمية من كتامة^(١) .
 - المسيلة عليها سور حصين من طوب^(٢) .
 - تيفاش مدينة أزلية عليها سور قديم بالحجر والجير^(٣) .
 - تلمسان : مدينة أزلية ولها سور من أجر حصين منيع^(٤) متين ولها
 ثلاثة أبواب خمس منها في القبلة . وفي الجنوب من تلمسان قلعة بن الجاهل
 وهي منيعة .
 - افكان مدينة ذات سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض^(٥) .
 - سلجاسة من أعظم مدن المغرب ولها سور باثني عشر باباً^(٦) بني
 من طين وفي وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة .
 - صنبرة : وهي مدورة مثل الكأس لا ترى مثلها . ودار السلطان
 وسطها وعرض سورها اثنا عشر ذراعاً منفصلة عن العمارة ولها ثلاثة أبواب
 كلها محددة^(٧) .
 وذكر ابن عذارى : ان سلجاسة عمرت أولاً دون سور ثم جاء أميرها
 اليسع بن المدرار فأمر ببناء السور . أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب فقيل أن
 بناءه كان من ماله لم يشاركه فيه أحد^(٨) وذكر ابن الخطيب انه هدم سور

(١) الحميري ص ٣١٨ .

(٢) ابن حوقل ص ٨٥ .

(٣) ابن حوقل ص ٨٧ .

(٤) ابن حوقل ص ٨٨ والحميري ص ١٣٥ .

(٥) ابن حوقل ص ٨٨ .

(٦) الحميري ص ٣٠٥ - ٣٠٦ والمقدسي ص ٢٣١ .

(٧) ابن حوقل ص ٩١ .

(٨) ابن عذارى ج ١ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

المدينة الأولى وبناه بناء أعظم من الأول وفتح فيه ١٢ باباً محددة وقسم داخل المدينة على القبائل^(١).

— مكناسة الزيتون مدينة في المغرب تتألف من أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون بالمدن منها تاجرارات (ومعناه المحلة) . . وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة (**).

— القسطنطينية : مدينة على تل مرتفع من حوله وديان لا يوصل إليها إلا على جسر.

— نقاوس : مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة أزلية^(٢).

— جيجيل : مدينة قديمة على ضفة البحر والبحر يحيط بها ويضرب سورها . . ولها مرسيان مرسى في جنوبها وعر الدخول صعب لا يدخل الا بدليل حاذق . مرسى من جهة الشمال ساكن الحركة كالحوض . لكنه صغير لا يحتمل الكثير من المراكب^(٣).

ومثلها مدن بشرى، قسطيلية، قفصة، وطبرقة وغيرها.

وتميزت جزائر بني مزغناي (الجزائر) بأنها مدينة عليها سور على سن البحر أيضا «لكن لها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فاذا نزل بهم عدو لجأوا إليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحاذرونه ويخافونه»^(٤).

ونرى في صقلية :

— مدينة بلرمة : وكانت القصبه ولها مدينة في داخلها وأخرى تسمى

(١) ابن الخطيب . علل الإعلام القسم ٣ ص ١٤٣ .

(**) ابن حوقل ص ٧٨ .

(٢) ابن حوقل ص ٩١ .

(٣) الحميري ص ١٨٥ .

(٤) ابن حوقل ص ٣٠٨ .

المخالصة بأربعة أبواب^(١).

— سرقوسة: مدينة كبيرة من مشاهير المدن عليها ثلاثة أسوار والبحر محدد بها من جميع جهاتها والدخول إليها^(٢) والخروج منها من باب واحد شمالها. ولها مرسيان وليس مثلها في جميع البلدان احدهما أكبر من الاخر^(٣).

ويذكر المقدسي أن سرقوسة مدينتان ملتزمتان ولها ميناء عجيب ولها خندق يدور فيه ماء البحر، وثمة من المدن المحصنة بسور وقلعة عدة مدن بحرية منها ليطي، وقطانية والباج وطبرين وغيرها.
وتتبدى تحصينات المدن في المغرب في المدن الكبرى بخاصة:

يقول ابن خلدون أن أبا إبراهيم أحمد الأغلب بنى بافريقيا نحو من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد^(٤). ويصرف النظر عما في هذا الكلام من مبالغة فانه يعني - على الأقل - أن اهتمام هذا الأمير بتحصين البلاد كان كبيرا، ولعل ابن خلدون اعتبر ترميم سلسلة الحصون التي أقامها البيزنطيون على تخوم الصحراء من طرابلس حتى أقصى المغرب (كما أقاموها على حدود الشام والعراق) بناء جديداً. وهي سلسلة تكاد تكون متصلة ومنها قلاع جلولاء (على ٣٠ كم شمالي غربي القيروان) وقلعة القصرين على الحدود الغربية للدولة الأغلبية، وقلعتي بلزمة وباغاية اللتين ضربهما أبو عبدالله الشيعي. وقلعة طينة، وقلعة مدينة مقرة. وبلاد قسطنطية. وقد ذكر اليعقوبي أن ثمة «في جميع المراحل على طول الساحل الافريقي حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون. وكانت النار توقد في

(١) المقدسي ص ٢٣١.

(٢) ، (٣) الحميري ص ٣١٧ - ٣١٨ ، والمقدسي ص ٢٣٢.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩.

سواحل سننه نذيراً بالعدو فيتصل خبرها بالأسكندرية ، بالمنارات والمحارس في الليلة الواحدة^(١) ،

وقد أنشأ أبو إبراهيم بن أحمد بن الأغلب أسوار سوسة سنة ٢٤٥ وهذه الأسوار مبنية من الحجر المصقول ويعلوها جدار مشرف الذروة لحماية ممشى السور في اعلاه . ويدعم الأسوار من الخارج أبراج ضخمة تتجاوز في ارتفاعها مستوى ممشى السور بنحو أربعة أمتار وفي الزاوية الجنوبية الغربية - وهي أعلى أركان سوسة ينتصف برج مرتفع مربع يسميه البكري منار خلف الفتي يعلوه برج أقل حجماً فيه أربع غرف للمراقبة .

وبنى زيادة الله بن الأغلب بعد ذلك رباط سوسة المعروف بقصر الرباط وهو من أهم الأربطة الباقية من عهد الأغالبة . وكان بناؤه على يد مولاه مسرور الخادم على خليج قابس داخل أسوار سوسة وذلك قبل ٣٩ سنة من بناء المدينة نفسها وهو مربع الشكل له سور وأبراج بأعلاها شرافات وفيه مسجد .

وبنى هوثمة بن أعين سنة ١٨٠ رباطاً (قصرأ) يرباط فيه المدافعون عن سواحل تونس الشرقية ضد الروم وكان والي افريقية من قبل الرشيد عرف برباط المنستير وبني الناس حول الرباط مدينة عامرة بالطواحين والمواجل وكان حصن المنستير عالي البناء متقناً لا يخلو من المطوعة والصلحاء والصالحات . في داخله ريبض يقوم فيه حصن ثان كبير كثير المساجد والمساكن طبقات بعضها فوق بعض^(٢) .

وأما فاس فقد ظهرت كمدينتين بسورين متجاورين إلى أن وحدهما أبو

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٥ .

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١١٠ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٤١٧ .

العطاف دوناسي المريني حوالي سنة ٤٥٠ لكن خصام ولديه قسم البلدة مرة أخرى فنزل الفتوح بن دوناس بعدوة الأندلس وحصنها وبني قصبة لسكنائه فيها، وحصن أخوه عجيسة عدوة القرويين وبني قصبة لسكنائه فيها وبعد حرب أوصلت فاس إلى حد المجاعة انتصر الفتوح لكن يوسف بن تاشفين مالبث ان دخل فاس بهدم الأسوار وجعلها مدينة واحدة بسور واحد فصارت العدوتان جانبيين للمدينة وأقام زيتون بن عطية البرج الكبير هناك وقصر الحجر. وأقام علي بن يوسف سور القوراجة وباب اصليتين على يد قاضيه عبدالحق بن معيشة وسور المدينة سنة ٥٢٠هـ^(١).

لكن هذا السور انهدم في الحرب بين المرابطين والموحدين على المدينة وأمر عبدالمؤمن الموحدي حين انتصر بفتح ثغرات في السور واسعة وظلت فاس بلا أسوار حتى اعاد بناءها أبو يوسف يعقوب المنصور واتمها ابنه أبو عبدالله محمد الناصر. وقد كان في ذهن ابن زرع حين وصف أحسن مواضع المدن، مدينة فاس إذ ذكر أن الحكماء قالوا: أحسن مواضع المدن النهر الجاري والمحراث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان اذبه صلاح حالها وأمر سلبها وكف جبارتها وقد جمعت فاس هذه الخصال.

وأما مراكش فقد كشفت الحفريات الأثرية فيها عن أسس قصبتها وأبوابها المزودة بالمرافق الدفاعية. وفي عصر علي بن تاشفين بني لمراكش سور من الطابية على النظام الأندلسي وكشف الحفريات عن بابين من أبوابه.

وقد كشف في تلمسان عن سور قديم بناه يوسف بن تاشفين كما كشفت عن سور آخر في مدينة أغادير القديمة وقد أقام المرابطون حصونهم

(١) ابن الخطيب - الاعلام ص ١٦٢ - ١٦٣ السلاوي - الاستقصا ج ٢ ص ٢٢٢، و ٢٢٥ الجزنائي ص ٣٠ - ٣١.

دارت بها الجبال من جميع الجهات ليقاوموا الموحدين ومن أشهر هذه القلاع : قلعة امرجو وقلعة بني نادوا وقلعة تاسفيموت . وفي القلعة الأولى تتضح آثار التقاليد المحلية المختلط بالتأثيرات الأندلسية وبالتأثيرات الاسبانية الرباط . وعلى مدينة تتمثل سور أنشأه المهدي ابن تومرت ثم اعيد انشاءه وجدهه ووسع المدينة سنة ٥٤٨ هـ عبدالمؤمن . ولم تكن المدينة بحاجة إلى نظام دفاعي معقد إذ أن أطرافها كانت في تحصينات طبيعية مكيئة فهي على ضفة وادي نفيس في موضع يضيق فيه السهل كل الضيق وتستند من الشمال على الجبل ومن الجنوب إلى الوادي الذي تمتلئ ضفته المقابلة بأجراف وعرة شديدة الانحدار فلا أسوار فيها من هذه الناحية . الأسوار التي بنيت للمدينة وكشفت عنها الحفريات كانت أسواراً مستقيمة ترتكز على أبراج متباعدة ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين متراً من الحجارة تعلوها أقسام من الطابية . وفي سور تتمثل باب واحد مرتفع عقده من الأجر ويكتنفه من الجانبين بتان بارزتان من الحجارة .

وفي المغرب وافريقية وصقلية رباطات كثيرة «فمن حول مدينة سلا القديمة رباطات يرباط فيها المسلمون تحف بها وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف انسان (٢) يزيدون في وقت وينقصون لوقت ورباطهم على دولة برغواطة التي انحرفت عن الإسلام^(١) وكان رباط تتازي (أو الرباط أو رباط مكناسة) مدينة كبيرة - على حد قول الاستبصار - في سطح جبل مشرفة على بسائطه وعليها سور عظيم بني بالجير والجص (٥٦٨) يبقى مع الدهر^(٢) . . « وعرض السور في أسفله ١,٩ متراً وعرض ممشاه الأعلى ١,٣ م ويرتكز على أبراج .

(١) الجزنائي ص ٣٢ والسلاوي الاستفصاح ٢ ص ١٠٧ .

(٢) الاستبصار، تحقيق سعد زغلول ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

– تنس مدينة عليها سور ولها أبواب عدة وبعضها على جبل قد أحاط به السور^(١) وفي داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى يتفرد بسكناها العمال لحصانتها.

– وهران ولها مرسى في غاية السلامة والصون من كل ربح وما أظهر له مثلاً في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسج فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن وعليها سور. . وهي فرضة الأندلس^(٢) وقد هدمت وأحرقت أكثر من مرة.

– واسلن مدينة. . لها سور عظيم حصين^(٣) . .

رابعاً : في الأندلس

كانت الأندلس على الدوام ثغراً وكانت الحرب لا تكاد تنطفئ فيها ما بين حدود غالية (فرنسا) وجليقية إلى أدنى الأندلس بما في ذلك الهجمات البحرية وبخاصة من جماعات النورماند في القرنين الثالث والرابع (٩ - ١٠ م). ولما ضعفت القوى الأندلسية التي مزقتها دول الطوائف منذ أواخر القرن الرابع وفي القرن الخامس ثارت عليها هجمات الجليقيين واستمرت أكثر من قرنين وكانت نتيجتها سقوط معظم الأندلس في أيديها (ما بين أوائل وأواسط القرن السابع) فلم يبق سوى إمارة صغيرة حول غرناطة قاومت طويلاً قبل أن تسقط (أواخر القرن العاشر وأواخر القرن الخامس عشر) ولهذا كانت معظم مدن الأندلس حصوناً حربية وأبنية عسكرية ومنها :

شلب : وهي في بسيط من الأرض بغرب الأندلس عليها سور
حصين^(١)

باجة : من أقدم مدن الأندلس وأولها اختطاطا ولها معاقل موصوفة
بالمنعة والحصانة^(٢).

الجزيرة الخضراء : (جزيرة أم حكيم) : على ربوة مشرفة على البحر
سورها متصل به وشرقيها خندق وغربيها أشجار تين . وقصبة المدينة موفية
على الخندق وهي منيعة حصينة سورها حجارة هي في شرق المدينة ومتصلة
بها . . . وبها كان دار صناعة عبدالرحمن بن محمد أمير المؤمنين فاتقن بناءها
وعلى أسوارها . ومرساها مأمون . وأقرب المراسي إلى المغرب . ولها ثلاثة
أبواب . وبالجزيرة إنشاء وقلاع وخط . . .^(٣) وقد غزيت سنة ٢٤٥ هـ .

شريش : بين المغرب والقبلة من مدينة شريش حصن روضة على
ساحل البحر وهو موضع رباط ومقر للصالحين يقصد من الأقطار^(٤)؛

اشيلية : مدينة قديمة أزلية . أم قواعد الأندلس وهي كبيرة عامرة لها
أسوار حصينة من بناء عبدالرحمن بن الحكم بناها بعد غلبة المجوس وأحكم
بناها . فلما ثار فيها أحمد بن مسلمة سنة ٣٠١ هـ هزمه عبدالرحمن وهدم
سورها وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة وحصنه سور حجر رفيع
وابواب منيعة وبنى سور المدينة بالتراب . وفي سنة ٦٤٦ تغلب العدو عليها .
بعد أن ساءت أحوالها بالحصار واستسلمت^(٥) .

لبلة : مدينة قديمة في غرب الأندلس وسورها قد عقد على أربعة
تمائيل : صنم تسميه العامة دروب ، وعليه صنم آخر . وصنم تسميه مكبح

(١) الحميري ص ٣٤٢ .

(٢) الحميري ص ٧٥ .

(٣) الحميري ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٤) الحميري ص ٣٤٠ .

(٥) الحميري ص ٦٠ .

وعليه صنم آخر فيخيل إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على أعناقهم وانفردت بهذه البنية بين المدن^(١) وسورها منيع .

بظليوس : مدينة محدثة بناها عبدالرحمن بن مروان وأقام في داخل المدينة حصنا به الجامع وجعل لها سورا مبنا من التراب قد جدد بناؤها بالكلس والجندل في سنة احدى وعشرين وأربعمائة^(٢) .

ماردة : مدينة قديمة بها آثار ولها في قصبتها قصور (قلاع) . خربة . لها سور وكلها من الرخام وقصر ماردا (قلعتها) بناه عبدالملك بن كليب بن ثعلبة وهو بديع طول كل شقة من سورها ثلاثمائة ذراع وعرض البناء اثنا عشر ذراعا . . .^(٣)

مالقة : مدينة على شاطئ البحر عليها سور صخر والبحر في قلبها . . . وأكثر المدينة على جسر قديمين والجسر الداخلى في البحيرتين هناك قد بني بصخر كانوف الجبال وقصبتها في شرقي مدينتها . عليها سور وهي في غاية الحصانة والمنعة^(٤) .

بيشتر : حصن منيع قرب قرطبة . وهو حصن تزل عنه الأبصار فكيف الأقدام على صخرة منقطعة لها بابان ويتوصل إلى أعلاها من شعب يسلكه الداخلى الخفيف وطريقه عند الطلوع أو الهبوط على النهر، وكان الحصن قاعدة الأوائى . وله قرى كثيرة وحصون كثيرة وفتنة ابن حفصون أتت على الكثير من خيراته^(٥) .

قرطبة : قاعدة الأندلس وأم مدائنها . . . وهي في ذاتها مدن خمس وبين المدينة والمدينة سور حاجز وهي في سفح جبل مطل يسمى جبل

(١) الحميري ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٢) الحميري ص ٩٣ .

(٣) الحميري ص ٥١٨ - ٥١٩ .

(٤) الحميري ص ٥١٧ .

(٥) الحميري ص ٧٩ .

العروس . . . وقصر مدينة قرطبة بغربها متصل بسورها القبلي والغربي وكان لها خمسة عشر إقليماً، كل إقليم منها يحتوي على حصون وقرى وبروج كثيرة من حولها. وتبلغ الحصون في العدد ١٤٨ حصناً منها ستة وعشرون في إقليم السهلة وعشرون في إقليم الشعر و١٧ في إقليم الوادي كما كان من حولها ٢٩٤ برجاً للمراقبة منها ٢٦ في إقليم كرتش و٣٠ في إقليم القصب و٤٠ في إقليم الشعر و٣٥ في إقليم السهلة و١٦ في إقليم الهرهار ومثلها في إقليم لورمر^(١) وتعتبر قرطبة في هذا نموذجاً لعدد من المدن الأخرى الحصينة في الأندلس. وقد عثر جدها بالفتن من القرن الخامس واحتلها العدو سنة ٦٣٣.

قلعة رباح : مدينة كبيرة ذات سور من حجارة وهي على واد لها كبير^(٢).

طلبيرة : أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين وهي قديمة أزلية على نهر تاجه. وهي مدينة كبيرة وقلعتها أرفع القلاع حصناً ومدينتها أشرف البلاد حسناً^(٣).

طلبيطة : مركز جميع بلاد الأندلس عظيمة القطر كثيرة البشر وهي قديمة حصينة لها أسوار حسنة منيعة على ضفة النهر الكبير. (تاجو) وقلما يرى مثلها اتقاناً وشهاحة ببيان ولها قنطرة من عجائب البنيان طولها خمسون باعاً وكان أخذ النصارى لطلبيطة سنة ٤٧٨ / ١٠٨٤ م^(٤).

مجريط : وحصنها من الحصون الجليلة والقلاع المنيفة وهو من بناء

(١) ابن حوقل ص ١١١

(٢) حسن تونس - وصف جديد لقرطبة صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (المجلد ١٣ لسنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦) ص ١٧٩ - ١٨١.

(٣) الحميري ٣٩٥.

(٤) الحميري ص ٣٩٣ وابن حوقل ص ١١١.

الأمير محمد بن عبد الرحمن . وعليه خندق خارج السور^(١) .
 وادي الحجارة : مدينة كبيرة وثغر مشهور الحال مسور بحجارة، وبها
 يسكن ولاية الثغور وعليها أكثر جهاد جليقية . وأسوارها حصينة^(٢) .
 مدينة سالم : تليها إلى الشمال ولها سور عظيم ورستاق^(٣) .
 سرقسطة : شرقي الأندلس ومن قواعدها وهي المدينة البيضاء .
 كبيرة القطر أهلة ولها أسوار رفيعة منيعة حصينة من حجارة . وبها جسر
 عظيم وعرفت بالبيضاء لأن أسوارها القديمة كانت من حجر الرخام . أخذها
 النصارى سنة ٥٠٢ بعد حصار تسعة أشهر^(٤) .
 تطيلة : مدينة أولية في أقصى الشمال لها مدن وحصون كثيرة أخصبها
 أرنيط^(٥) وهي مدينة أولية وكانت درع المسلمين ضد النصارى حين كانت في
 أيدي المسلمين .
 بغيرة : (viguera) ولها حصون في غاية المتعة على ضفة نهر يفصل بينها
 وبين الجبل المطل عليها .
 نرجاله : مدينة بالأندلس كالخصن المنيع وخيل ورجل يقطعون
 أعمارهم في الغارات على بلاد الروم والأغلب عليهم التلصص وفي سنة
 ٦٣٠ حاصرها الروم فرحل عنها محمد بن يوسف بن هود وأخذوها^(٦) .
 مربلة : مدينة صغيرة قديمة بالأندلس بقرب مرسى سهيل ومرسى
 مالقة وهي مسورة من بناء الأول محكمة العمل ممتعة المرام وحوها جبل
 منيف عال^(٧) .

(١) الحميري ص ٥٢٣ .

(٢) ابن حوقل ١١١ والحميري ص ٦٠٦ .

(٣) ابن حوقل ص ١١٢ .

(٤) الحميري ص ٣١٧ .

(٥) الحميري ص ٢٧ .

(٦) الحميري ص ١٣٣ .

(٧) الحميري ص ٥٣٤ .

المرية : مدينة محدثة بنيت سنة ٣٤٤ ولما قدم المجوس (النورماند) وتطوفوا بساحل الأندلس اتخذها العرب مرابط وابتنوا بها محارس وكان الناس ينتجعونها ويرابطون بها وهي اليوم (سنة ٧٠٠) أشهر مراسي الأندلس وأعمرها . . . وعليها سور حصين منيع بناه أمير المؤمنين عبد الرحمن . وعلى ربضها المعروف بالمصلى سور تراب بناه خيران العامري . . . وقصبتها بجوفها وهي حصن منيع لا يرام ، مديد من الشرق إلى الغرب ولها باب قبلي يفضي إلى المدينة . مسافة ما بين أول المصعد في الجبل وبينه مائتا ذراع وثمانون ذراعا ولها باب شرقي خارج عن أسوار المدينة وعرض ممثى السور الدائر بالقصبة خمسة أشبار . ومرسى المرية صيفي . . . وتقصده مراكب التجار من الإسكندرية والشام . والمرية في ذاتها جبلان بينهما خندق معمور وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة وفي الجبل الثاني ربضها . والسور يحيط بالمدينة والربض . ولها أبواب عدة . . . وكان فيها ألف فندق الاثلاثين فندقا . . . ثم أخذها الروم وخرّبوا ديارها^(١) .

غرناطة : مدينة أحدثها ومدنها وحصن أسوارها وبنى قصبتها حبوس الصنهاجي ثم أكملها ابنه باديس وهي اليوم (سنة ٧٠٠) مدينة كبيرة . . . وقصبتها بجوفها وهي من القصاب الحصينة^(٢) .

جيان : مدينة لها زائد على ثلاثة آلاف قرية ، وهي في سفح جبل عال جدا وقصبتها من القصاب الموصوفة بالحصانة^(٣) .

مرسية : قادة كورة تدمير بناها عبد الرحمن بن الحكم واتخذت دار العمال والقواد . . . وعليها وعلى ربضها أسوار وحظائر متقنة . . . ولها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال^(٤) .

(١) الحميري ص ٥٣٧ - ٥٣٨ .

(٢) الحميري ص ٤٥ .

(٣) الحميري ص ١٨٣ .

(٤) الحميري ص ٥٣٩ - ٥٤٠ .

أوريوله : حصن بالأندلس كان قاعدة تدمير وهو قديم أزلي وله قصة في غاية الإمتاع على قمة جبل^(١).

دانية : مدينة بشرق الأندلس على البحر . عامرة . . . وعليها سور حصين وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر قد بني بهندسة وحكمة ولها قصة منيعة جدا . والسفن واردة عليها وصادرة عنها . ومنها كان يخرج الاسطول للغزو وبها ينشأ أكثره لأنها دار صناعة^(٢).

شاطبة : مدينة لها حصن قديم أولى مطل على بطاح وأنهار^(٣).
مريبطر : مدينة لها قصر يطل على بطائحها وعلى البحر يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية^(٤).

بلنسية : وهي كورة ومدينة في شرق الأندلس وفي الكورة مدن عظيمة وحصون قديمة (كحصن أدغيره ودانية وحصن شاطبه ومريبطر) ومرساها من أعجب المراسي بينه وبينها ثلاثة أميال، وسورها مبني بالحجر والطوايي ولها أربعة أبواب وهي من أمصار الأندلس الموصوفة وقد تغلب عليها الروم وأحرقوها قبل خروجهم منها سنة ٤٩٥/١١٠١ ثم استولى عليها ملك أراغون سنة ٦٣٦^(٥).

طرطوشة : مدينة على سفح جبل ولها سور حصين وبجبالها خشب الصنوبر تتخذ منه الصواري، وقصبتها على صخرة عظيمة سهلة الأعلى، وفي الشرق من القصبة جبل الكمين . وعلى المدينة سور صخر من بناء بني أمية على رسم أولي قديم ولها أربعة أبواب . . . كلها ملبسه بالحديد ولها

(١) الحميري ص ٦٧ .

(٢) الحميري ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) ، (٤) من كتاب الرازي نقلا عن حسين تونس - تاريخ الجغرافيا والجغرافيين (ط . مدريد) ، (١٩٦) ص ٦٦ - ٦٧ .

(٥) عن المصدر السابق وعن الحميري ص ٩٧ .

أرباض ودار صناعة . قد أحدق على ذلك كله سور صخر حصين بناه عبد الرحمن بن النظام . . . وهي باب من أبواب البحر يجلها التجار من كل ناحية^(١).

طركونة : مدينة أزلية مبنية على ساحل البحر الشامي (الأبيض المتوسط) ومعالمها باقية لم تتغير وأكثر سورها باق لم يتهدم وهو من رخام أسود وأبيض وقليل ما يوجد مثله . . . وفي هذه المدينة يكمن المسلمون عند طلب الفرصة في الغزو وفيها يكمن العدو أيضا للمسلمين^(٢).

لاردة : مدينة قديمة خربت فجدها إسماعيل بن موسى سنة ٢٧٠ . وحصنها منيع فلا ترام بقتال ولا يطمع فيها بطول حصار^(٣). هذا والعمارة الحربية في الأندلس كعمارتها ذات خصائص تتفق مع حاجات الدفاع ومع الإمكان المجلى.

خامساً : في جزيرة العرب :

ويبدو أن جبهتها على المحيط الهندي كانت هادئة فالحصون عليها قليلة جدا إلا في عدن أما على البحر الأحمر فقد كان ثمة عمليات تحصين عديدة ومن أبرزها^(٤) :

— الجحفة : وكان عليها حصن بيايين .

— وامج : وكان بها خمسة حصون اثنان من حجر والباقي من الطين .

— وجبله : وكان بها حصن منيع يقال له المهدي .

(١) الحميري ص ٣٩١ .

(٢) الحميري ص ٣٩٢ .

(٣) الحميري ص ٥٠٧ .

(٤) راجع ابن حوقل وياقوت .

- وينبع : وكان عليها حصن .
- والمروة : وهي بلد حصين عليه خندق وأبواب حديد .
- ووادي القرى : وعليه حصن منيع على قرينته قلعة وله ثلاثة أبواب محددة .
- وزبيد : عليها حصن من الطين بأربعة أبواب .

سادسا : الهجمات المدمرة :

نكب العالم الإسلامي الممتد من المشرق الإيراني حتى الأندلس ومنذ القرن الخامس بسلسلة لم تنقطع من الضربات المدمرة أحالت الكثير من مدنه خرابا .

١ - الهجمة الأولى كانت في الربعين الثاني والثالث من القرن الرابع فقد كانت الأسرة المقدونية في بيزنطة فد امتلأت قوة ووجهت همها نحو الثغور الشامية والجزيرية واستردادها . ومع أن سيف الدولة الحمداني وقف لهذه الهجمة بالقوى البدوية التي رقدته وكانت وقود حروبه إلا أنه إنهار في النهاية أمام ضغط الإمبراطورية البيزنطية التي احتلت مناطق الثغور الشامية والعواصم وبعض الثغور الجزرية وامتدت حتى أرمينيا في غياب شبه كامل لقوى الخلافة العباسية ولقوى الدولة الأخشيديية ثم الخلافة الفاطمية في مصر . وكان أئمن مذهب في هذه الهجمة مدن طرسوس وأنطاكية حتى شيزر وثغور الجزيرة في صفيها الأول والثاني .

٢ - الهجمة الثانية كانت أقسى وأوسع كثيرا واكتسحت مشرق العالم الإسلامي كله . وقد بدأت منذ أواخر القرن الرابع واستمرت حتى ما بعد أواسط القرن الخامس وهي هجمة الغز السلاجقة . ومع أنهم كانوا مسلمين إلا أنهم لم يعفوا عن القتل والتدمير وبخاصة في المناطق الشامية والرومية فقد اكتسحوا في حروب متتالية كالعصابات الناهبة أرض إيران واعتبروا الأرض

البيزنطية جبهة جهاد وأراضي الشام أرض كفار بإعتبارها تتبع الخلافة الفاطمية . ولذلك كان تخريبهم واضحا فيها جميعا . كانت الهجمة السلجوقية هجرة بشرية تدفقت من السهوب في شمال ماوراء النهر . ولما كانت بدوية رعوية فلم يكن لها في حصار المدن طاقة ولكنها اعتمدت على كثرتها فأكلت الطوق الغذائي للمدن . أوسعته نهبها وحرثا وحرقا فانهارت المدن أمامها . وبعد أن استسلمت مدن المشرق الخراساني : نيسابور (سنة ١٠٣٨/٤٢٨) ثم الري (سنة ١٠٤٣/٤٤٣ - ١٠٤٣) ثم اصبهان (سنة ١٠٥٠/٤٤٢م) انقسموا خلال ذلك على الطريقة البدوية خمسة بيوت أخذ كل بيت (أو قبيلة) اتجاها في حركته :

- بيت أخذ خراسان والجبال والعراق العربي والأهواز وفارس وهم بيت طغرل بك والسلاجقة العظام واستمر حكمهم إلى سنة ١١٢٧/٥٢٢ .
- وانقسم عنه بيت أخذ الشام (ولم يستمر حكمه فيها إلا إلى سنة ١١١٦/٥١١) بسبب الضغط الصليبي .
- وبيت اتجه إلى كرمان وهم عشيرة قاروت (بك بن داود) وبقوا في حكمها حتى سنة ١١٨٧/٥٨٣ .
- وبيت أخذ العراق العجمي وكردستان واستمرت دولتهم إلى سنة ١١٩٤/٥٩٠ حين أسقطها الخوارزمية .
- وبيت سمي بسلاجقة الروم لأنهم انحازوا إلى الأملاك البيزنطية في آسيا فدمروها وحكموها وكانوا أطول السلاجقة عمرا لأنهم سلموا مناطقهم إلى الدولة العثمانية سنة ١٣٠٠/٧٠٠م .

التدمير الأساسي الذي جاء به السلاجقة عدا الخزام الغذائي هو تدمير البنية الاجتماعية للمدن التي استباحوها . فقد أوغلوا في فارس حتى شيراز وما بعدها إلى كرمان كما اكتسحوا كالسيول البشرية بلاد أرمينية حتى الأناضول فبلغوا طرابزون على ساحل البحر الأسود وأزمير على ساحل بحر

ايجه ودمروا قرى ومزارع بحيرة وان وجورجيا وارزن وفارس وأن، وكباد وكيا. ودخل بيت طغرل بك بجموعه إلى بغداد والموصل وحلب ثم دمشق ثم القدس. فنهبوا الريف كله ونزلوا المدن فسكنوها محدثين انقلابا سكانيا في المنطقة كلها. وبعد أن كان الترك لا يصلون هذه البلاد إلا عبيدا وماليك شراء وصلوا الآن ملوكا وأمراء واختلطت جموعهم بالسكان اختلاط استقرار ليغيروا التركيبة السكانية الاجتماعية في الشرق كله. وبخاصة بعد انتصارهم المدوي في معركة ملازكرد سنة ٤٦٥/١٠٧١ وأسرههم الإمبراطور البيزنطي وسحقهم لجيشه واتخاذهم نيفيه أول عاصمة لسلاجقة الروم في الأناضول، واصبهان عاصمة للسلاجقة الكبار. وإذا تماسكت الكتلة السكانية في المشرق الإيراني أمام الهجوم السلجوقية باعتبارها مسلمة وتتبع الخليفة العباسي واندماج المهاجرين الغز بسرعة معها، فقد أصاب بلاد الروم مشكلة «كشط» الطبقة الغذائية النباتية عنها بفعل النهب التركي المتوالي كما أصابها بالتالي كشط الطبقة السكانية إذ فرغت الكثير من المدن من سكانها الذين هجروها تحت الضغط البشري المهاجم. وتجلّى ذلك نفسه في الشام، التابعة «للهرطقة» الفاطميين. وقد نفت الأتراك الغز إليها من الشرق والجزيرة ومن الشمال عن طريق الثغور الشامية التي احتلوها إلى الشام فدمروا أرياف المدن وأجأوا فلاحها إلى الحرب، ففي سنة ٤٥٦/١٠٦٣ طلعت طائفة كبيرة من الترك على دلوك فنهبوا بلاد انطاكية عن آخرها بما فيها من بقر وغنم وجواميس وحمير وجواد فلم يقع على ذلك احصاء^(١). وكررت ذلك مرات حتى أن أسواق الرقيق في حلب باعت سنة ٤٦٠ سبعين ألف مملوكة ومملوك عدا ما بيع في غيرها. وذكروا أن أحد قادة الغز ويدعى أفشين رجع من الشام سنة ٤٧٢ ولم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة إلى

(١) ابن العديم - زبدة الجلد ج ٢ ص ١١ - ١٢ (تحقيق سامي الدهان - طبع المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٤).

حلب وتوجه إلى بلد انطاكية فأخرب ما قدر عليه ونهب، وسبى ما وجدته . . .
وجرى من هذا الحادث بالشام أمر لم نسمع مثله وتلف أهله بعد ذلك
بالجوع ووجد قوم قد قتلوا قوما وأكلوا لحومهم وبيعت الخنطة ستة أرطال
بدينار . . . وجلا من سلم من الشام إلى بلد أبي المكارم مسلم بن قريش (في
الجزيرة) فأحسن إليهم وتصدق عليهم^(١) .

وأما القسم الجنوبي من الشام فتسلط عليه قائد آخر يدعى أتسز بن
أوق الخوارزمي فنكب عيون مدنه كلها تقريبا انتقاما لعدم وقوفها معه . فقد
ضايق دمشق منذ سنة ٤٦٣ وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها وقطع الميرة
عنها ورعى زرعها عدة سنين في كل ربيع لمضايقتها . والطمع في ملكتها ولم
يزل مترددا إلى أن اضطرب أمرها وخربت المنازل بها وزاد غلاء الأسعار فيها
وعدم تواصل الأقوات إليها وجلا أكثر أهلها منها^(٢) . . .

وفي سنة ٤٦٧ خربت المجاعة دمشق فلم يبق من أهلها سوى ثلاثة
آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفنأهم الفقر والغلاء والجلأ وكان بها مائتان
وأربعون خبازا فصار بها خبازان والأسواق خالية والدار التي كانت تساوي
ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد والدكان الذي
كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدينار وأكلت الكلاب والسنائير . . . بل
بعضهم بعضا^(٣) .

خلال ذلك كان أتسز الخوارزمي يدخل القدس فيقتل بها ثلاثة آلاف
وينهب من الأموال مالا يقع تحت حصر حتى بيعت الفضة بدمشق كل
خمسين درهما بدينار وكانت تباع كل ١٢ درهما بدينار . وسار أتسز إلى الرملة

(١) ابن العديم - المصدر نفسه ص ٦٧ .

(٢) ابن الفلانسني - ذيل تاريخ دمشق ص ٩٩ وابن الأثير ٦٨/٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي - في هامش ص ١١١ من ابن الفلانسني .

فلم ير فيها أحدا من أهلها . (هربوا جميعا) . فجاء إلى غزة وقتل كل من فيها فلم يدع فيها عينا تطرف . وجاء إلى العريش فنهبه ثم مضى إلى يافا فحصرها فهرب من فيها إلى صور فهدم أتسز سورها . . . وشكا إليه أهل دمشق حالهم السيئة إذ «لم يبق في البلدة عشر العشر من الجوع والفاقة والضعف والفقير . . . ولم يبق لنا قوة ولا طاقة لنا بالقتال . . .»^(١) هذا إذا لم نذكر الزلازل المتكررة والأوبئة التي كانت تجرف الناس بين الفينة والأخرى . وقد مهد ذلك كله لا إلى فتح الغز الشام ولكن إلى نزولهم فيه واختلاطهم بالسكان أيضا .

٣ - ولم يهنا السلاجقة بعد فتح البلاد وحكمهم فيها بكثير من السلم فما لبثوا بعد ربع قرن أن اضطروا لمواجهة هجمة بشرية ليست أقل منهم شراسة وقوة هي الهجمة الصليبية التي شملت العالم الإسلامي كله . أقواسهم البعيدة المرمى لم تفعل شيئا أمام السيوف الصليبية الثقيلة وأمام التصميم الصليبي لاحتلال البلاد والذي كان ينبع من منبعين : منبع الطمع التجاري ومنبع الدين . وكانت هذه الهجمة ذات ثلاث شعب واحدة في اسبانيا تحارب المسلمين بإسم حرب الإسترداد التي استمرت قرنين . وأخرى نورماندية دخلت صقلية وراحت تستخلصها من المسلمين قطعة قطعة . وثالثة هي الأكثف والأعنف أخذت خلال قرنين أيضا تتدفق على الشام وتحاول الاستقرار فيه . وحولت إلى فترة ما مدنه الأساسية إلى مدن مسيحية أوروبية : الرها، انطاكية، طرابلس، صور، عكا، نابلس، طبرية، القدس، عسقلان . وحاولت لفترة طويلة أخذ مصر بمؤامرات دولية .

وإذا انتهت هذه الحملات بعد أن بنت الكثير من الحصون في الشام إلى الفشل فإنها انتهت إلى الظفر في صقلية التي أخرج المسلمون من مدنها

(١) المصدر السابق نفسه .

والريف، واسبانيا التي سقطت مدنها بيد العدو الجليقي مدينة بعد أخرى بعد طول جلاذ وحروب متصلة مع القوى الأندلسية والقوى التي أتت بها المرابطون والموجودون. فسقطت ماردة (سنة ١٢٢٨/٦٢٥) وجزر الباليار (١٢٢٩/٦٢٦) وبطليوس (١٢٣٦/٦٣٣) ثم بلنسية (١٢٣٨/٦٣٦) ومرسية (١٢٣٤/٦٣١) واشبيلية (١٢٤٨/٦٤٦) وشلب (١٢٥٠/٦٤٨) وقادس (١٢٦٢/٦٦٠) فلم يبق غير غرناطة التي صمدت حتى سنة ٦٩٠ (أول ١٤٩٢) وتغير بذلك كله وجه اسبانيا كما تغير قبله بكثير وجه صقلية. أما الاحتلال الصليبي للشام فلم يترك وراءه من أثر سوى بعض القلاع ومنها الكرك التي صارت مدينة عبر نهر الأردن، وقلاع الشوبك وكوكب والجيبس وحبيس جلدك وقد ذهبت. وحصون بانياس وتبين والشقيف وهونين في جنوبي جبل الشيخ ولبنان وقد اندثر الأخير. وحصن صفوريه قرب عكا. وحصن الأكراد الذي دعمه الصليبيون ووسعوه في جنوب جبل السماق (العلوين). وبعض الحصون الأخرى والقلاع مثل بكاس على نهر العاصي والشجر المتصلة بها، وسرمانية وقلعتي اللاذقية أوقلعاتها الثلاث المتصلات، وقلعة صهيون التي ماتزال موجودة وقلعة جبل، وقلعة مرقب وحصن برزية الذي يضرب به المثل في الحصانة وتحيط به الأودية من كل جوانبه ويرتفع خمسمائة وسبعين ذراعا. ويقابل حصن أفامية (شمال حماة) وحصن بفراس على أطراف انطاكية وحصن درب ساك القريب منه وقلعة اسن. وهكذا فقد كان الصليبيون قد أقاموا سلسلة من الحصون تحمي الشقة الضيقة التي احتلوها من ساحل الشام. وتعاون في الدفاع عنها مع قوى الإمارات الفرنجية قوى المجموعات العسكرية المتطوعة: كالداوية والاسبتارية وفرسان التوتون.

٤ - أما الهجمة الأخيرة التي دمرت مدن المشرق كلها تقريبا حتى الشام وغزة فكانت هجمة المغول التي استمرت في عنفها نصف قرن تقريبا،

وفي ذيوها بعد ذلك أكثر من قرنين . فقد اكتسح المغول البدو القادمون من صحراء منغوليا بلاد ماوراء النهر وخوارزم فأثروا على ريفها ومدنها على السواء .

وتوجهوا بعدها إلى العراق فدمروا عاصمة الخلافة ومنها إلى بلاد الشام ولم يتوقف زحفهم المدمر هذا إلا بعد تصدي المهاليك لهم وهزيمتهم في معركة عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠م .

على أن مدن المشرق استعادت إزدهارها وبخاصة بعد أن استطاع الإسلام صهر الوجود البدوي للمغول وتمكن من إدخالهم ضمن حظيرته وحضارته وثقافته أما في الأندلس فكان الاحتلال نهائيا ولأنه انتصر؛ فقد حاول أن يدمر أو أن يستقر عبثا على الشاطئء المغربي والإفريقي ودمرت مرة بعد مرة طرابلس وتونس ووهران والجزائر وسبته وغيرها ولكن دون طائل .





فهرس الجزء الأول

الصفحة	بين يدي الكتاب
٩	مقدمة
٢٣	الفصل الأول: جذور الفكر العمراني في الإسلام:
٢٥	١ - في اللغة
٢٧	٢ - في القرآن الكريم
٣١	٣ - في الحديث الشريف
٣٣	٤ - في الفقه
٣٥	٥ - في الحسبة
٣٨	٦ - في كتب التاريخ البلدانية
٤٧	٧ - في المؤلفات الجغرافية
٥٤	٨ - في المعاجم الجغرافية
٥٦	٩ - في الموسوعات
٥٧	١٠ - في كتب الجغرافيا الإدارية
٥٧	١١ - في كتب السياسة
٦٠	١٢ - في الخطط
٦١	١٣ - في الرحلات
٦٤	١٤ - كتب الازياج
٦٤	١٥ - في الخرائط

٦٨	الفصل الثاني : مفهوم المدينة الإسلامية وخصائصها
١١٩	١ - توابع المدينة
١٢١	٢ - أنواع المدن حسب وظائفها
١٢٩	٣ - حداثة المدن وقدمها
١٣٢	٤ - المدن التوائم
١٣٤	٥ - المدن المجهزة
١٣٧	٦ - تطورات المدن

الفصل الثالث :

١٤٦	فلسفة العمران الإسلامي
-----	------------------------

الفصل الرابع :

١٤٦	المدن التي انشأها العرب المسلمون
-----	----------------------------------

٣٠٠	الفصل الخامس : ميلاد المدينة الإسلامية وخططها
٣١٩	تخطيط المدن الإسلامية
٣٤٥	التخطيط والخطط
٣٩٠	الحزام الغذائي
٣٩٣	تحويل المدن القديمة

الفصل السادس : تحصين المدن الإسلامية

٤٣٣	في المشرق
٤٥٢	في الجزيرة والشام
٤٥٩	في إفريقيا والمغرب
٤٦٦	في الأندلس
٤٧٥	الهجمات المدمرة
٤٨٣	